











# كُلِّمُوا الْأَدَبِيَّ



المجلد الخامس والعشرون - الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٣

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٧



# مَجَلَّة كُلِّيَّةُ الْاَدَابِ



المجلد الخامس والعشرون - الجزء الأول

مايو سنة ١٩٦٣

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٧

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من  
مكتبة جامعة القاهرة بالهجرة بالهجرة ، وتوجه المكاتب الخاصة بالناحية  
العلمية الى المشرف على تحريرها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم  
الاستاذ المساعد بقسم الوثائق والمكتبات بكلية الاداب بجامعة القاهرة ،  
وتمن الجزء الواحد من اى مجلد ثلاثون قرشا مصرية

## فهرس القسم العربى

---

صفحة

- فى تاريخ الأديان ، ملخص محاضرة الدكتور اسماعيل راجى القازقى  
للدكتور توفيق الطويل . . . . . ١
- البرفاليون فى غربى أفريقيا للدكتور ابراهيم على طرخان . . . ١١
- الموارد البشرية : مقوماتها ووسائل تنميتها للدكتور الفاروق زكى يونس ٤٧
- مطبعة بولاق فى عهدنا الثالث للدكتور خليل صابات . . . ٧١
- من وثائق سانت كاترين - ٣ وثائق فقهية للدكتور عبد اللطيف ابراهيم ٩٥



## في تاريخ الأديان ( رؤوس أقلام )

ملخص محاضرات القاها الأستاذ الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي

الأستاذ بجامعة ماجل بمنتريال

في كلية الآداب بجامعة القاهرة

### المحاضرة السابعة :

مراجع دراستنا للعصر الموسوي ، هي نفس مراجع دراستنا للعصر الأبرهيمي .

خرج بنو إسرائيل من مصر عام ١٢٨٠ ودخلوا سيناء ومدين فأنصهروا في قبائلها وألفوا معهم « الحلف القبلي » . وكان الحلف القبلي هذا إيديولوجيا وقانون . أما القانون فكان القانون الجمهوراني المشهور . ومعنى هذا أن الطابع العربي العراقي القديم كان محتفظا به . وأما الإيديولوجيا فكانت الحنيفية متغلبة عليها . ودليل ذلك أن قوى الحلف لم تستطع دخول فلسطين من الجنوب حيث واجهت الفلسطينيين الكنعانيين ، بل تحولت إلى الشرق ( أي شرق الأردن ) حيث التهمت وأنصهرت مع مملكات النخوم بدون حرب أو عنف وتسللت مع رجال هذه المملكات إلى فلسطين شيئا فشيئا . ولو لم تكن النزعة الحنيفية غالبة لما نجحت في الانصهار ولا في التسلل إلى فلسطين . إلا أن الزعامة كانت للمهاجرين المصريين لا سيما أنهم كانوا « طرودين » يبحثون عن مستقر لهم ، وغير راضين بمعيشة الصحراء بعد أن تعودوا الحياة في مصر . فطبعي أن كانوا استحووا القبائل على الحركة والمغامرة في سبيل مصير آخر أصلح .

ومضت ٢٨٠ سنة استطاع خلالها الحلف القبلي أن ييسط لواءه على ضفتي الأردن ما عدا شرق وجنوب البحر الميت والساحل البحري . ففي الأول بقت مملكة أدوم متمنعة وفي الساحل تحصن الكنعانيون في الشمال والفلسطينيون في

الجنوب . ولم تدر إلا معارك قليلة في الوسط الغربي والوسط الجنوبي . لقد كان التسلسل مسالما وكل ما ذكرته التوراة من تخريب وقتل استئصال السكان كذب ، فهو انعكاس لروح العنصرية المتغالية في العصور اللاحقة . وفي هذا الوقت اقتبس الحلف كثيرا . اقتبس لغة كنعان وفلسطين وهي العبرية ( لهجة آرامية ) واقتبس طقوس الدين من قربان وكهنوتية واقتبس الرزنامة والأعياد ولكنه أضفى عليها جميعا معنى خلاص المهاجرين من مصر على يد موسى وذلك لما كان لبني اسرائيل من زعامة في الحلف . أما الاله ، فبقي يهوه ، إله الجبل ، الذي كان يعبده المدينيون من قبل .

وجاء داود واستولى بمناوراته وبطولته ودهائه على عرش يهوذا وكانت مملكة صغيرة عاصمتها حبرون . وكان يحلم بامبراطورية كبيرة . عمل على توسيع الحلف القبلي تحت قيادته ، ونقل العاصمة إلى اورشليم ، التي احتلها سنة ٩٩٢ ، إرضاء لقبائل الشمال التي لم تستطع تولى يهوذا على النظام الجديد . ولكي يرسى قواعد ملكه في اورشليم ، أتى داود بالتابوت التوراني إلى اورشليم وأتى أيضا بكهنة التابوت وسدنته وعينهم أعضاء في مجلس الدولة . فزوج بذلك الدين من الدولة . وراح كهنة داود ورجاله يختلفون النظريات لتثبيت الدولة . فقالوا أن الدولة النابودية وريثة الحلف القبلي وورثة عهد يهوه لابراهيم . وقالوا أن يهوه اختار داود وعينه ملكا ليكون يده اليمنى في الأرض . وأنه اختار اورشليم من دون بقاع الأرض ، سكنا خاصا له . وأنه ، أي يهوه ، قطع عهدا على نفسه بأن يجعل هذه المملكة أزلية ، تحكمها ذرية داود إلى الأبد . وأخذ بهم الهوس للدرجة الاعلان بأن يهوه لا يمكن أن يعبد إلا في اورشليم .

لم تدم هذه المملكة سوى ٧٨ سنة ، انقسمت بعدها إلى شطرين متنازعين تحطم الأول سنة ٧٢٢ على يد الآشوريين وتحطم الثاني سنة ٥٨٦ على يد البابليين . ومنذ أن ابتدأت الأمور تتدهور ، أخذ الناس يتطلعون إلى من سيعيد البناء المتصدع ، ويخلص اليهود من الشقاء الذي نزل بهم . وهذا هو أصل المسيحية بمعنى messianism وفي معنى اليهود في بابل ، بين ٥٨٦ و ٥٣٨ ، تفجرت العنصرية عن الحقد والكراهية للعالم وانتهقت منها الصهيونية بمعنى التطلع السياسي الديني إلى العودة.



إلى أرض الميعاد وتأسيس دولة داود فيها جغرافيا وسياسيا وماديا . أما عند ذوى  
الزرعة الخنيفية ، فكان التطلع إلى مملكة روحانية ينعم العضو فيها بنعم أزلى لكن  
روحي أخلاقي . ولتزعيتين أنبياء . إلا أن العنصرين كانوا هم المتحكمين فطمسوا  
معظم آثار الخنيفيين إلى أن جاء عيسى بن مريم فأعاد الحق وبعث الحركة  
من جديد .



### المحاضرة الثامنة :

كان التطلع إلى مملكة روحانية طاهرة ، والسعى إليها عن طريق تطهير الذات  
والعمل الخلقى ، عقيدة الأسينيين فى القرنين السابقين للميلاد the Essenes ،  
وكانت عقيدة الأيبونيين the Ebionites وهم « الفقراء إليه تعالى » فى  
القرن الأول للميلاد . فالمسيحية لها سابقة ومراجعتها ليست الأناجيل المعروفة  
فحسب ، وإن كانت معروفة منذ سنة ٢٠٠ بعددها الكامل كما يقول ترتوليان .  
وأناجيل العهد الجديد هى فقط التى أقرتها الكنيسة لأنها متماشية مع عقيدتها . وشتان  
ما بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة .

لم يخلف لنا المسيح نصا مكتوبا ولا نصا محفوظا . وطبيعى أن ينشأ بعده تفهيمات  
مختلفة للتعليم الجديد . بيد أن الجو كان حرا للجميع ، طالما أن الدولة لم تكن تسمح  
لأحد بالظهور العلنى بهذه التعاليم . فكانت كنائس عديدة لكل منها كيانها وتعاليمها .  
ولما جاءت سنة ٣٢٥ ، عقد مجلس كنسى فى نيقية لبحث العقيدة وكان منار البحث  
دعوة أروس بانسانية المسيح التى انتشرت انتشارا كبيرا . فأمر قسطنطين بعقد  
المجلس لحل الخلاف ، فتقرر دحض الأريوسية وطرده أريوس وتأكيد ألوهية  
المسيح وصلبه وقيامه . وعندها أثير المسيحيون الموالون لهذه العقيدة فى كل مكان  
وغضب الآخرون . فالقرار قضى بأنهم غير مسيحيين .

وبعد ٥٦ سنة نزاع حول هذا الأمر ، دعا الامبراطور ثيودوسيوس إلى عقد  
مجلس كنسى آخر فى القسطنطينية للنظر فى أمر الكنائس التى لم تقبل قرارات

نيقة . وهنا أول ما قرره هذا المجلس هو اعتبار المسيحية لا كأنها تعاليم المسيح فحسب بل كأنها الدين الذي تفهمه الكنيسة المرضى عنها . وكأنها تقول : ليست المسيحية تعاليم المسيح أو دينه ، بل دينه كما أفهم أنا ويفهم رجالى . وطبعاً اعتبر الآخرون أن القرار الثانى يمحوا أكثر من الأول واستمرت الاختلافات العقائدية . كلما حاولت الأرثوذكسية ( أى العقيدة أو الكنيسة الحاكمة مدعية أن عقيدتها هى الصادقة ) أن تقضى على نزعة ما ، ظهرت نزعة أخرى تتصدى لها .

فما هى المسيحية ؟ هل هى إيمان المنتصرين فى هذه الجلسات الكنسية . والمنتصرين سياسياً فى التاريخ ؟ أم هل هى إيمان الآخرين الذين لم يوافقهم الخط ونسبهم التاريخ ؟ هنالك رأى بأن نرجع إلى النصوص الدينية ونتمسك الحقيقة فيها كنصوص دينية - تاريخية . ولكن إن كانت الأناجيل مرجعنا ، حتى وإن أضفنا إليها الأناجيل المكتشفة وغير المقدسة ، فهى لن تعطينا فكرة واحدة بل مجموعة من الأفكار المتناقضة . فأى منها هى المسيحية ؟ فلو أخذنا مثلاً الوعظ على جبل الزيتون بداية وقاعدة (إصحاح ٥ من إنجيل متى - أو الطويلات) وتمسكنا بكل ما يتفق مع هذا المذهب ورفضنا ما لا يتفق لخروجنا إلى مسيحية مقابلة للأرثوذكسية . لكن هذه لن تكون إلا رأياً من الآراء . فلو ابتدأنا من إصحاح أو وعظ آخر ، لتوصلنا إلى مسيحية أخرى . فلم نبدأ من هنا ولا نبدأ من هناك ؟ لا بد إذا من الرجوع إلى التاريخ ، لا إلى النصوص الدينية المقدسة وتبيين نشأة الدين المسيحى فى مجرى التاريخ .

وفى رجوعنا إلى التاريخ نؤمن أن المسيحية دين الله ونؤمن أن المسيحية لم تأت فى فراغ ، بل ضمن أحوال وظروف تاريخية معينة . لأن الله ، أراد أن يبعث للبشر برسالة ، يبعث بها فى وعاء ، وهنا الوعاء هو التاريخ والواقع . ثم علينا أن نتقيد بمبدأ أن ما ندرسه يجب أن يتفق مع تاريخ الوحي . والأرثوذكسية تنقبل التاريخ لأنها تدعى أنه المهد والمقدم للمسيح كما عرفته . وهذا هو المبدأ الذى تسميه تاريخ الخلاص Heilsgeschichte وطبيعى أن تاريخ الوحي يشير دائماً إلى تدرج وارتقاء وزيادة لا إلى رجوع إلى الوراء أو تغيير فى إرادة الله . فإنا يقول تاريخ الأديان فى تاريخ المسيحية ؟

يتبين تاريخ الأديان خطين عريضين . منذ أن انتقل إلى عند الله : تشأ بين أتباع المسيح حزبان : حزب تفهم رسالته تفهما عقليا ، تاريخيا وآخر تفهماها بشكل لا عقل ، لا تاريخي . واستمر التياران يقويان ، يلتقيان أحيانا ويتصارعان غالبا . توسع الأول في الشرق وتوسع الثاني في الغرب ، مع أنها في الأول لم تكن لها حدود جغرافية . وبعد أن أصبحت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية توسع الثاني بسرعة هائلة وأخذ يطارد الحزب الآخر ويستأصله بالقوة . ولم ينته الحزب الأول إلا بعد أن جاء الاسلام ودخل معظم أعضائه في الدين الجديد وبقي الشمسطائيون the Panlicians يتحصنون في جبال أرمينيا والقوقاس حتى القرن التاسع إلى أن قضى عليهم في مذبحه فظيعة . ولكن ، ما هي فعوى هذين الحزبين ؟ والحزبان هما : المسيحية العربية والمسيحية الغربية .

\*\*\*

### الحاضرة التاسعة :

انقسم الحزبان تبعاً للأجوبة التي أجابوها على الأسئلة التالية . أولا : منهاجية التفهم . بينما قالت المسيحية العربية بالعقل ، قالت المسيحية الغربية بفارق العقل بالمعجزة . فقالت الغربية مع بولس ، ( راجع رسالة بولس الأولى إلى كورنثس ١ : ٧ - ٢٠ ) ، ومع ترتوليان : « أرسطو الملعون الذي علمهم الفلسفة فن العمار والدمار . . . أين الشبهة بين أثينا وأورشليم ؟ . . . لنقذف بكل تفسير للمسيحية . . . ونكتفي بالمسيح المصلوب فلا نبحث بالإنجيل شيئا . وقالت العربية ، مع جوستين مارتير وماكيون وغيرهما بأن المسيح هو العقل والعقل هو المسيح ولا بد لكل من آمن بالواحد أن يؤمن بالآخر . ثانيا : ماهية المسيح . فبينما قالت العربية ، على لسان الأبيونيين ، وهم الأسينيين الذين هدامهم عيسى ابن مريم إلى دينه الجديد ( وقد عرفوا بهذا الاسم في حياة المسيح - والاسم يعني باللاتينية ٢٤ ) بأن المسيح بشر ورسول ، قالت الغربية ، على لسان ترتوليان وأناتاسيوس وأوغسطين بأن المسيح هو الله فست بالثوعيد ، وقالت بأنه بشر فست بالعلية لمعجزة نحو المعجزة . وقد حاولت العربية أن تتفاهم مع أخذها فأخرجت

على لسان الغنوصيين مبدأ لإشراق المسيح عن الله ، وحلول الله فى المسيح عن طريق التقوى والحكمة إلا أن الغربية رفضت هذه النظريات أيضا . ثالثا : مركز ملكوت الواقع . فبينما قالت العربية بخيرته وواجب تكميله على الانسان ومثلت المسيح كزعيم هذا المبدأ ، راحت الغربية تقول بأن المسيح غادى الجسم وتنكر للحياة ، أن الخطيئة أو « الكبيرة » لازمة على البشر أجمع حتى الأطفال لأنها من طبيعة البشر وأن التخليص قد حصل بالفعل فلا واجب يقع على الانسان بتكميل العالم . وقع هذا الواجب لا على الانسان بل على الله وقام به بارسال ابنه المسيح ، على أكل وجه . ( راجع رسالة بولس الأولى إلى كورنتس ، ١ : ١٠ - ١١ : ١٠ . ورسالته إلى أفسس ، ٢ و ٣ ) . رابعا : عالمية الرسالة . فبينما قالت العربية بأن رسالة المسيح إلى البشر أجمع ، قالت الغربية بأنها فقط لأصحاب الكبار من الاسرائيليين فى حياة المسيح ، وأن خلاص المسيح لمن يؤمن به فقط بعد ذلك . فتحول الايمان إلى ميزة وانفرادية جديدة : ولما نهبت الدولة الرومانية الدين ، شيدت انفراديتها على أساس الايمان بما تقوله كنيستها المرضى عنها .

ويقول تاريخ الأديان : أن الآباء الرسولين فى القرن الأول ، تفهموا المسيحية كما تفهمها النزعة العربية . وكانوا قد أولو التوراة تأويلا عجائزا بلحاها مسامرة للدين الجديد . وبما أن الثقافة الغالبة كانت الفاسفة الأغريقية ، استخرجوا من التوراة ما سبقهم اليه الأسينيون والأيبونيون وقالوا بمملكة روحية تنفق على المبادئ الأربعة الرئيسية المؤلفة للنزعة العربية . فتفهمهم للمسيح ، كان تفهما تاريخيا . فاليهود ، فى عهد المسيح ، كانوا فريسيين وصدوقيين وكتبة . ووصفهم المسيح فى إنجيل متى ، أصحاح ٢٣ . فهناك أزمة روحية جاء المسيح ليعمل ضمنها على حلها . فتفهموا المسيح كرسول مبدأ الأخوة البشرية ضد العنصرية السقيمة وصاحب القول بأن لا أب فى الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات . « اذهبوا وتعلموا جميع الأمم . . . وعلموهم ما أوصيتكم به » .

ويقول التاريخ بأن المسيح حل قضية ممسك اليهود بحرفية القانون بقلب ميزان الأخلاق . فليس الأمر أن يأتى الانسان بظواهر الأشياء بل أن يصلح إرادته ويوجهها إلى الله تعالى . المطلوب هو ثورة داخلية . فالمسيح علم « تدخيل » الميزان

الأخلاقى أى جعله مطا بالارادة والضمير الشخصى ، لا بالظواهر التى شرعها القانون . إذا ، يتبين تاريخ الأديان التوحيد الصحيح ، والعقلية وخيرية الواقع والعالمية فى تفهم القرن الأول - لاسيما تفهم الآباء الرسولين . ويتتبع تاريخ الأديان دفاع المسيحية الغربية فيرى أنها أولا : تنقضت معنى الوحي السائد بتغييره من « هكذا تكلم الرب » كما هو فى العهد القديم ، إلى « هكذا فعل الرب » . فالرسالة فى نظرها ليست رسالة بل عملا قام به الآله . ثانيا : وتفسر هذا العمل الإلهى بأنه أصبح ضروريا عندما حاول الله جميع الطرق بما فيها الطوفان لتخليص البشر فلم يفلح ، وبهذا تنقض تاريخ الوحي . ثالثا : وتنسب إلى هذا العمل إمام كل ما يقوم على البشر أجمع من التزامات وواجبات . فالتخليص fait accompli وكل ما على الانسان أن ينشر نبأ هذا العمل الإلهى . بذلك تنقض معنى التاريخ كله .

ويرى تاريخ الأديان أن انتشار المسيحية الغربية فى الغرب فى وعاء مفاهيم الدين الأخرى ، وانتشار المسيحية العربية فى الشرق فى وعاء مفاهيم الدين العربى القديم ، ليس صدقة .



### المبصرة العاشرة :

جاء الاسلام (العصر المهدى) فى الوقت الذى كانت فيه الحنيفية (فى قالب المسيحية - العربية) على وشك الضياع . وانتشر بسرعة فائقة . ويرى تاريخ الأديان أن سرعة الانتشار هذه لها أسباب تاريخية ، أهمها حنيفية العقلية وفلسفة الحياة فى الشرق العربى ، وإن كانت أغلبية سكانه مسيحيين . فالاسلام جاء تأكيدا لهذه الحنيفية المتأصلة فى النفوس ، فكان أن نزعته عن نفسها قشور المسيحية الغربية وعادت إلى أصولها . وانتشر الاسلام بنفس السرعة الخاطفة فى الأندلس لأنها ، إلى عهد قريب جدا منه ، كانت مسيحية أريوسية (سنة ٥٨٩) . وبقيت هذه النزعة قوية حتى فى بيزنطة (لندكر أعمال ليو the isaurian فقد كان فيسليخا غربيا . ولم ينتشر الاسلام فى قلب أوروبا - اليونان وروما وغيرها - لأن

عقليتهم لم تكن تتجاوب معه . وكذلك لم ينتشر في جنوب آسيا وشرقها إلا بعد أن تهتد عن طريق التصوف .

وفي هذه الظروف التاريخية ، جاء الإسلام ، أولا ، مذكرا ومؤكدًا لما جاء من عند الله من قبل ، ودافعًا لآراءات أهل الكتاب . « يا أهل الكتاب : جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب . » قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله . . . الخ ، ثانيا : قاضيا بوضع حد لا للاقتراء فحسب ، بل لسوء التفهم المخلص : لذلك ، جاء بكتاب مثلي لإزالة ، يكون نصه بمثابة الصخر الذي لا يتغير بتغير المفاهيم والثقافة . وهذا هو السبب التاريخي لقداسة لغة القرآن وعروفه . فبحصر القرآن باللغة العربية ، حصرت مبادئ التفهم فلا خوف من تغريق أو ترويم وتفريس أو تهنيذ أو تأنكلز أو تالمن أو تفرنس الدين ، وثالثا : معلنا أولية ماهية الدين وجوهره فقط . أما كيفية التحقيق فيجب على الانسان أن يتيبها ويخططها لنفسه لأن الانسان بلغ مبلغ الرشد والعقل . صحيح أن الاسلام وضع شيئا من الكيفيات — ما نسميه بمقادير القرآن — إلا أنها وإن كانت قرآنية ، فهي ليست من جوهر الدين . ولا بد لنا من التمييز بين عدد من الطبقات في القرآن : فليمن كل ما في القرآن على مستوى واحد ، وفيه ، لاهيرارشية من القيم فحسب ، بل ما هو قيموى وما هو وصفى ، ما هو إخبارى وما هو ناموسى .

ويتبين تاريخ الأديان فتوحات جديدة في الدين والأخلاق جاء بها الاسلام ارتقاء وتقدما على ما سبقه من رسالات إلهية وأن اتفق معها في جوهر الرسالة : قام المسيح « بتلخيص » الميزان الأخلاقي . وجاء الاسلام يؤكد هذا التلخيص : إلا أنه قال إن على المرء ، بعد أن يحقق المبدأ المسيحي ، يجب عليه أن يدخل الزمكان فيحرك القوى الكامنة فيه ويوجهها إلى ما يكمل خيرية الملكوت الواقع . فهذا هو « تخرج » المبدأ الأخلاقي — لكنه ليس العودة إلى « خارجية » القانون اليهودي — الذى نقضه المسيح . هو بناء فوق بناء المسيح .

وقام المسيح بارساء العالمية على « طائفة » و« طائفة المضيق والاراحة » . وهذه العالمية لا شك في قيمتها وإنكائيتها . وجاء الاسلام يطالب بمقالة مبقة على إجماع

ضميرى - وإرادى وفعل . فقال الاسلام بالأممية ، أى إجماع العالم الثلاثى هنا ، لأن تحقيق تكميل ملكوت الواقع لن يأتى إلا إذا كان جماعيا ( الأمة مخبر الاكتشاف وحقل تحقيق الخير أو الإرادة الالهية ) وفعليا .

وجاء الاسلام يقول بالأخوة العالمية تحت القانون الأخلاقى العام ، أى أن على المسلم أن يحقق ، ضمن الإجماع الثلاثى والعمل الأمتى ، لا أخوة عالمية مبنية على نسبية الثقافات والهويات ، بل على قانون أخلاقى واحد . لا على تفهم نسبى لإرادة الله ، بل على القانون الواحد . فالاسلام ذروة الروح التى حركت سومر وأكاد وسرجون وحمورابى وإبراهيم وموسى .

ويقول تاريخ الأديان ، آخرا ، أن الاسلام جاء بمنهجية جديدة لم تكن مألوفة وإن كانت أصولها راسخة فى الروح العربية ، هى الدعوة اليه عن طريق تربية الأخ الأكبر لأخيه الأصغر ، وللتربية طريقان ، الكلمة والفعل المثلئ .





## البرتغاليون في غرب إفريقيا

للدكتور ابراهيم على طرخان

استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

بجامعة القاهرة بالخرطوم

الاتصال القديم بين غرب أفريقية والعالم الخارجى - رحلات الكشف القديمة  
شهرة امبراطورية مالى الاسلامية وأثرها فى محاولة التعرف على قلب أفريقية -  
مدرسة ميورقة وما صدر عنها من خرائط - أوربا والاتجاه البحرى - عودة آسليم  
١٤١٣ وأثرها - هنرى الملاح (ت ١٤٦١) وجهوده - معهد ساجر Sagres  
البحرى (١٤١٩) - مشروع هنرى للكشف الجغرافى وأهله التجارة  
والاستعمارية والدينية - رحلات الكشف البرتغالية بعد الاستيلاء على سبته (١٤١٥م)  
وصول أول شحنة من الذهب والعبيد إلى أوربا ١٤١٢ م - استمرار الكشوف  
البرتغالية على ساحل غربى أفريقية - الكشوف بعد وفاة هنرى - بناء القلاع  
والحصون - حصن المينا - (١٤٨١ - ١٤٨٦) - محاولات البرتغاليين للاتصال  
بالداخل وعوائقها - رحلات الأوربيين فى الداخل - مالفانت الجنوى فى  
توات - جيوفانى فى جنى - بند تودى الفلورنسى فى ممبكتو - أول محاولة  
للبرتغاليين (١٤٤٥) - ديجو جوميز (١٤٥١) وكادا موسنو (١٤٤٥ - ١٤٥٧)  
والمعلومات عن الداخل - البرتغاليون يقبضون على أمير من الجلف (١٤٨١) -  
الدول الاسلامية المعاصرة فى غربى أفريقية - استغاثته مالى بالبرتغاليين - البعثات  
البرتغالية إلى بلاط مالى - البعثات البرتغالية إلى بلاط سنى على ملك صننى  
الاسلامية (١٤٨٧) - عدم جدوى الاتصال بالموش Moosi - بناء المحطات التجارية  
البرتغالية فى الداخل وعلى الساحل بين غمبيا وبينى - الأسماء البرتغالية على معالم  
ساحل أفريقية العربى - فتح أفريقية للاستعمار الأوروبى الحديث .

الاتصال بين أفريقية ، جنوبي الصحراء ، وغربها بصفة خاصة (١) وبين العالم الخارجى ، ظاهرة قديمة ومستمرة منذ الأزمنة السحيقة ، وقد دلت الآثار المكتشفة حديثا ، على أن غربى أفريقيا ، كان مركز نشاط ومدنية ، منذ أقدم العصور . بل هناك اعتقاد ، بأن أقدم الصناعات الأوربية التى ترد إلى العصر الحجري القديم ، وفدت من تلك البقعة ، عن طريق البر ، مذ كانت الصحراء خصبة مسكونة من نحو ٤٠ ألف سنة ، ودلت كذلك على أن صناعة الحديد قديمة فى تلك البلاد (٢) .

وتدلنا الكشوف الأثرية الحديثة أيضا على أن الآثار الشرقى عامة ، والمصرى ، على وجه الخصوص ، كان بارزا فى مدينة تلك البلاد منذ القدم ، فهناك حيوانات مستأنسة ونباتات وصناعات وفنون ، وصلت من مصر إلى غربى أفريقية (٣) . نشطت حركة المواصلات والتبادل التجارى بواسطة طرق القوافل التى يملأ الصحراء الكبرى ، على مر القرون ، وسأهم الفينيقيون بقسط كبير فى نقل منتجات وسط أفريقية وغيرها ، إلى بلاد البحر المتوسط وأوروبا بعد أن تصل إلى موانئ شمالي أفريقية (٤) .

ازدادت النقلة من وإلى بلاد السودان الغربى والأوسط ، على أثر دخول الجمل أفريقية ، إذ قلت أخطار الرحلات ، كما قلت المخاوف التى تكشف السفر داخل الصحراء ، وهنا عامل نفسى هام ، ولتلاحظ هنا الازدياد وهذا النشاط منذ القرن الرابع الميلادى تقريبا (٥) .

وبزيادة الاتصالات وسهولتها ، كثرت هجرات غربية من الشرق وشمالي أفريقية إلى بلاد السودان جنوبى الصحراء ، ولا سيما بعد ظهور الإسلام ؛ فبعد الفتح العربى الإسلامى لمصر عام ٦٤٠ هـ - ٦٤٩ م وما تلاه من فتح شمالي أفريقية ، وضلت رحلات اسلامية إلى منطقة كاتوار Kattar قرب بحيرة تشاد حوالى عام ١٦ هـ - ٦٦٦ م وإلى السنغال حوالى عام ١٠٢ هـ - ٧١٠ م ، وأدت هذه التحركات إلى دفع المسلمين شمالا حتى الأندلس وفرنسا ، وجنوبا إلى قلب الصحراء (٦) ، وأدت من ناحية أخرى إلى استقرار أعداد كبيرة منهم فى بلاد السودان ، على حافة الصحراء الجنوبية ، وإلى احتلال هؤلاء بالسكان الأصليين ،

بما كان له أكبر الأثر في تغير ألوان الزنوج ، عبر القرون ، في تلك المناطق ، حتى كان استخدام كلمة « أسود » للدلالة على سكان مناطق السافانا جنوبي الصحراء أدق من استخدام كلمة « زنجي » <sup>(٨)</sup> . ولكثرة الآثار الشرقية والاسلامية وتنوعها في العصر الإسلامي ، ظل العالم الأوربي لبضعة قرون ، يعتقد أن بلاد السودان والصحراء في شاليها ، ليست سوى جزء من البلاد النابجلة في نطاق العالم الإسلامي <sup>(٨)</sup> .

ومع هذه الاتصالات والآثار التي لم تنقطع في أى فترة من فترات التاريخ ، قامت محاولات قديمة ، قدم هذه الاتصالات ، للكشف الجغرافي والتعرف على أحوال تلك البلاد وغيرها .

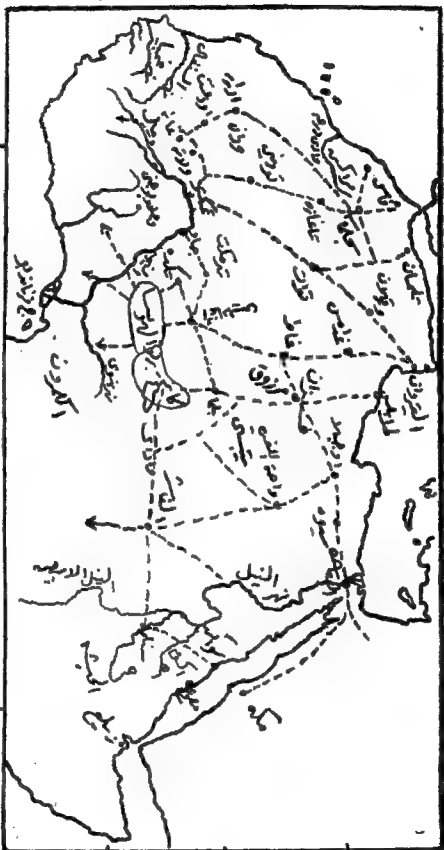
وقد أشار فريق الكتاب القدماء ، إلى بعض هذه المحاولات ، ومن هؤلاء الكتاب هيرودوت (ت حوالى ٤٥٠ ق . م) ، واسترابو (من حوالى ٦٤ ق . م . إلى ١٩ م) ، وبليني الكبير (٢٣ - ٧٩ م) ، وبطليموس (القرن الثانى الميلادى) . وأقدم رحلة قامت للطواف حول أفريقية تمت حوالى عام ٦٠٠ ق . م . ، بأمر من نحاو الثانى فرعون مصر ، إذ قال : أعتقد أنه من الممكن الابحار حول أفريقية ، أنظروا إذا أمكن ذلك . قامت الرحلة بقيادة قبطان فينيقي هو إيثوبال الصورى Ithobal of Tyre من سواحل شرقى أفريقية إلى جنوب القارة إلى غربها إلى البحر المتوسط إلى مصر . واستغرقت ثلاث سنوات ، ويقال إن أعضاء هذه الرحلة ، زرعوا وحصدوا على سواحل أفريقية خلال رحلتهم <sup>(٩)</sup> .

وقام الملك هانون Hannon القرطاجي برحلة على ساحل غربى أفريقية حوالى عام ٤٨٠ ق . م . ، خرج فيها على رأس ستين سفينة ، ووصل إلى منطقة السنغال ، وما هو غينية الحالية <sup>(١٠)</sup> . وهناك رحلة تنسب إلى نبيل فارس لاسمه أسباميترس Aspamithres ، فيقال إنه بعد أن أعدم الملك الفارسى المشهور لاجرسيس Xerxes عام ٤٦٥ ق . م . ، كفر عن فعلته بالطواف حول أفريقية <sup>(١١)</sup> . وفى زمن هانيبال Hannibal (ت حوالى ٤٠٦ ق . م) ، وجدت كميات كبيرة من العاج وعدد من الزنوج من الأفريقيين فى إيطاليا وصقلية واليونان ، مما يدل على استمرار الإتصال والرحلات <sup>(١٢)</sup> .

ومن الرحلات التي تمت برا ، عبر الصحراء ، رحلة تنسب إلى خمسة شبان من النسامونيين Nasamones البربر ، خرجوا من قرب برقة ووصلوا إلى النيجر إلى قرب ممبكتو . وفي العهد الروماني ، في شالي أفريقية ، قام بعض قادة الرومان برحلات في قلب الصحراء تجاه بلاد السودان ، ومن هؤلاء القادة : سويتونيوس بولينوس Suetonius Paulinus الذي توغل حوالي عام ٥٠ ق . م . حتى نهر جر Gir جنوبي سلسلة جبال أطلس ، وفي عام ١٩ ق . م . أرسل الرومان حملة وصلت إلى حدود السودان ، ويقال إن القائد الروماني سبتيموس فلاكوس Septimus Flaccus قائد الحملة ، قام من جرمة Garma في فزان ووصل إلى تلك البلاد في رحلة استغرقت ثلاثة شهور ، ويقال كذلك إن الحمل استخدم في تلك الحملة لأول مرة (١٣) .

أى أن محاولة التعرف والاتصال بغرب أفريقيا ، أمر قديم ومستمر ، وكلما ازداد الاتصال ، وازدادت المعرفة بثروات تلك البلاد ، كلما اشتدت الرغبة في الاتصال المباشر . ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي تقريبا ، كانت أوروبا جادة في التعرف على قلب أفريقيا ، والحصول على المزيد من منتجاتها ، بدليل أن ملوك النورمان في صقلية وجنوبي إيطاليا ، كانوا يشجعون تجارهم على تنمية علاقاتهم الخارجية مع شالي أفريقية ، فتاجر النورمان مع مسلمي الشمال الأفريقي ، وتبعهم أهل بيزا وجنوه والبندقية ، وكذلك البروفنسيون من جنوبي فرنسا ، وعقد هؤلاء جميعا معاهدات تجارية مع مسلمي شمال أفريقيا ، ونشطت حركة التبادل التجاري بين شاطئ البحر المتوسط ، غير أنه لم يكن من الميسور على تجار أوروبا المسيحيين وممثلهم ، أن يتصلوا بقلب أفريقية اتصالا مباشرا ، فلأسباب دينية وتجارية ، أصر المسلمون في شالي أفريقية على احتكارهم المطلق للتجارة بدور الوسيط مع الأقاليم الداخلية في أفريقية عبر الصحراء (١٤) . ولذلك اقتصر نشاط التجار المسيحيين على المنطقة الساحلية . وفي مطلع القرن الثالث عشر الميلادي سمح لبعض جالياتهم وبعثاتهم الدينية التبشيرية بالاستقرار في مراکش (١٥) .

من أجل هذا ، ظلت المعلومات عن قلب أفريقية وفقا على المسلمين وبعض اليهود الذين كانوا منذ القدم ، يكونون عنصرا هاما من سكان المغرب ، ومن



طرق القوافل الرئيسية بين بلاد السودان وشمال أفريقيا

المغرب تسرب عدد كبير من اليهود إلى الواحات الصحراوية حتى بلاد السودان ،  
ويقال إن اليهود أسبق من البربر في سكن واحات الصحراء الداخلية ولا سيما واحة  
توات (١٦) .

ثم إن شهرة امبراطورية مالى الاسلامية وعظمتها في القرن الرابع عشر الميلادي  
ومن قبلها شهرة امبراطورية غانة بذهبها وتراثها ، قد بهرت أوروبا (١٧) . بل إن  
عظمة مالى وحدها زمن السلطان كنكن موسى (٦١٢ - ٧٣٨ هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧ م)  
كانت من العوامل الهامة التي حفزت أوروبا على ضرورة الاسراع في محاولة  
الوصول إلى قلب إفريقيا عن طريق غير الطريق الذي يتحكم فيه المسلمون ،  
ولا شك أن التجار الأوربيين المقيمين قرب ساحل أفريقيا الشمالي قد شهدوا موكب  
حج السلطان موسى ، وهو في طريقه إلى الأرض المقدسة ، ورأوا فخامته وعظمته  
وما يحمل من ذهب ويصحب من أتباع (١٨) . والدليل على أهمية أخبار مالى وعظمتها  
وحادث موكب حج السلطان موسى ، في محاولة الأوربيين للوصول إلى بلاد  
الذهب ، أن صورة هذا السلطان وموضع امبراطوريته والطرق المؤدية إليها ، قد  
ظهرت في معظم خرائط العالم Mappae Mundi التي صدرت عن علماء  
مدرسة ميورقة ، وغيرهم من علماء أوروبا في القرن الرابع عشر والقرن الخامس  
عشر ، بل وفي بعض خرائط القرن السادس عشر (١٩) .

جاءت الخطوة العملية الهامة في سبيل التعرف على قلب أفريقيا والوصول  
إليه ، فيما ساهمت به مدرسة ميورقة ، وما قدمه علماءها من خرائط جغرافية ،  
ومع أن هذه الخرائط لا تشمل سوى مرحلة متواضعة من التقدم في  
المعلومات الجغرافية ، وأن أهدافها الكبرى كانت تجارية ، ولا تخلو من ركاسة  
وغموض فضلا عن قلة أهميتها من الناحية الطبوغرافية ، إلا أنها أزالته ، على  
كل حال ، بعض الغموض المحيط بطرق الوصول إلى قلب أفريقيا ، كما أنها  
كشفت عن حقائق تتعلق ببعض المدن الأفريقية التي ازدهرت وذاقت شهرتها  
في أوروبا الوسيطة وفي العالم الاسلامي ، مثل تمبكتو ومالى وجاو ، ثم هي من ناحية  
أخرى أفادت في تقدم علم رسم الخرائط Cartography في أوروبا ولا سيما في  
إيطاليا ، ومن ثم ظهرت خرائط أخرى أكثر دقة بددت الظلام المحيط ببلاد  
السودان فما وراء الصحراء (٢٠) .

كانت جزيرة ميورقة ، وهى أكبر جزر البليار ، خاضعة لسيادة المرابطين ، وقد زالت هذه السيادة على يد جالك الأول ملك أرغونة عام ١٢٢٩ م ، ومن بقى من المسلمين فيها تحت حكم المسيحية الجديد ، طرد نهائيا منها فى عام ١٢٨٧ م على يد القونسوا الأول ملك أرغونة (٢١) .

أما اليهود الذين كانوا فى طاعة المسلمين بالجزيرة ، فقد قبلوا الدخول فى طاعة المسيحيين ، وظلوا بالجزيرة إلى أن طردوا منها آخر الأمر أواخر القرن الخامس عشر الميلادى زمن فرديناند (ت ١٥١٦ م) وإليزابلا ، (تزوجا منذ عام ١٤٦٩ م ) ، فهاجر هؤلاء اليهود وعبروا إلى أفريقية ، وتوغل الكثير منهم فى قلب الصحراء ، ومنهم من وصل إلى بلاد السودان (٢٢) .

اشتهر يهود ميورقة بأجادتهم لفن رسم الخرائط ، بل كادوا يحتكرون هذا العمل ، واستفادوا من المعلومات التى أمدتهم بها أشقاؤهم عبر الزقاق ، وفى ذلك الوقت كانت تجارة ميورقة مع أفريقية مزدهرة بسبب علاقات الود التى دعمتها المعاهدات التجارية القائمة بين أرغونة وبلاد شمال أفريقيا (٢٣) ، اعتمدوا كذلك على المعلومات الجغرافية التى أوردها الجغرافيون والرحالة المسلمون عن الصحراء والنيجر وطرق القوافل أمثال المهلبى (القرن العاشر الميلادى) ه والبكرى (القرن الحادى عشر الميلادى) ، والبيرونى (القرن الحادى عشر الميلادى) والادريسى (القرن الثالث عشر) ، وابن سعيد وابن فاطمة (القرن الثالث عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر) وغيرهم (٢٤) ، كذلك برع اليهود فى صنع الساعات وبعض الآلات البحرية والمزاويل (٢٥) .

وخلال القرن الرابع عشر الميلادى ، أقام اليهود فى ميورقة ه مدرسة لفن رسم الخرائط ، ومن أشهر رسامى الخرائط من يهود ميورقة آل كرسك Cresques ، وأول من برز فيهم أبراهام كرسك Abraham Cresques (ت ١٣٨٧ م) الذى كان يشغل وظيفة منجم فى قصر ولى عهد مملكة أرغونة ، وهو حنا الطفل Jean ، وذلك فى برشلونة ، وقد نجا إبراهيم من المنبجحة التى حلت باليهود المشتغلين بالدراسات الوثنية فى برشلونة (٢٦) .

أقام آل كرسك مدرسة لرسم الخرائط فى جزيرة ميورقة ، وأقدم خريطة ظهرت فى ذلك الوقت لعلماء ميورقة ، خريطة العالم أنجلينو دلكرت Angelino Dulcert عام ١٣٣٩ م ، وأشارت هذه الخريطة إلى قلب أفريقية ، وأظهرت ملك مالى Rex Melly جالسا على عرشه ، والمهم أن هذه الخريطة أشارت إلى الطرق الموصلة إلى بلاد مالى ، بلاد الذهب ، أو بلاد مانسا موسى ، كما أوضحت جبال أطلس يقطعها وادى السوس المؤدى إلى بلاد الزنج (٢٧) .

ثم ظهرت خريطة العالم البندقى بيزيانى Pizzigani فى عام ١٣٦٧ م ، وظهرت فيها كذلك جبال أطلس ووادى السوس الذى يقطعها ، وأوضحت كيف تتدفق السلع من مالى عن طريق هذا الوادى (٢٨) .

ومن أهم الخرائط التى ظهرت عن يهود ميورقة ، خريطة أبراهام كرسك التى ظهرت حوالى عام ١٣٧٥ م ، وهى المشهورة باسم « الخريطة القطلونية » أو « الأطلس القطلونى » catalan Map or Catalan Atlas أوضحت هذه الخريطة قلب الصحراء ، وفيها ملك مالى أو موسى مالى Musa Mali « سيد زنج غينية » Lord of the Negroes of Guinea ، وعليها عبارات تدل على وفرة الذهب فى بلاده . كذلك ظهر فى هذه الخريطة جبال أطلس والوادى الذى يخترقها ويسلكه التجار الناهبون إلى بلاد السودان ، وليس هذا الوادى سوى طريق القوافل الغربى العظيم المار من سجلماسة إلى الجنوب عبر الصحراء ، وهو أكثر الطرق استخداما من قبل سكان شمالى أفريقية منذ أقدم العصور (٢٩) .

وما أثار دهشة الأوربيين ، ظهور بعض المدن التاريخية الأفريقية المشهورة على هذه الخريطة مثل : تغازة Tagaza وتنبكت Tenbuch ومالى Clutat de Mali وجاو Gageu ، مما أدى إلى زيادة المعروف عن العالم ، وكشف حقائق جديدة وتأييد معلومات كانت لا تزال محل شك ، وقد امتد أثر هذه الخريطة إلى نحو قرن بعد ذلك (٣٠) :

ومن الخرائط التى صدرت فى القرن الخامس عشر عن مدرسة ميورقة خريطة العالم م . فيلادست Mercia de Villadestes ، صدرت عام ١٤١٣ م ، وأشارت إلى قلب أفريقية ومملكة مالى ، كما أشارت إلى تلك البلاد خريطة أخرى لعالم بندقى



صدرت عام ١٤٣٣ م . ومن آن فيلادست . علم ميرقي آخر ، هو جبرائيل فيلادست Gabriel de Villadestes ، أصدر خريطة مشابهة عام ١٩٣٩ ، وأشارت فيها أشبارت اليه من البلاد الأفريقية إلى ملك كاتم ومملكة كاتم Rex Organa ومملكة صنتي ، فضلا عن مملكة مالي (٣١) .

أفادت كل هذه المعلومات التي تجمعت ، في إلام أهل أوروبا عامة وأوروبا الجنوبية بصفة خاصة ، ببعض أخبار ومعال أفريقية وثرواتها ولا سيما الذهب .

وكانت الحاجة إلى مزيد من التجارة الخارجية في أوروبا ، قد صارت ملحة منذ مطلع القرن الخامس عشر ، لحل مشاكل القارة الاقتصادية ، إذ استنفدت الحروب الطويلة ما لديها من الاحتياطي من المعادن الثمينة ، ولذلك احتاجت إلى الذهب للدفع أثمان السلع المستوردة من الهند والصين وجزر البهار .

تركز اتجاه أوروبا في قلب أفريقية ، لما سمعه الأوروبيون ورواه الرحالة المسلمون والمغامرون ، وما أظهرته الخرائط الجغرافية من الإشارة إلى الذهب وفقرته في تلب القارة .

وتقرر بعد ذلك أن يكون طريق البحر هو الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه بسبب تحكم المسلمين في طرق القوافل . ورغم أن بحر الظلمات ( المحيط الأطلسي ) لم يكشف بعد ، فقد كان هناك احتمال كبير في نجاح الطريق البحري للوصول إلى قلب أفريقية ، ويقول الفرنسيون « إن فريقا من النورمان الفرنسيين ، خرج خلال الفترة بين ١٣٦٤ ، ١٤١٠ م ، وقام برحلة بحرية من مدينتي ديب Dieppe وروان Rouen ، وكشف هذا الفريق ساحل غينية ، ويزبون اليه أنه هو الذي أطلق كلمة « الرأس الأخضر » على المكان المعروف بهذا الاسم ، وأن أفراد هذا الفريق استقروا في جزيرة جورى gorée ، وأنشؤا الشركات وأقاموا الحصون على ساحل غينية ، كما تبادلوا السلع مع الأفريقيين ، ويضيف الفرنسيون ، أن حرب المائة عام هي التي أوقفت النشاط الفرنسي في الكشف والاستعمار (٣٢) .

وبما زاد في التصميم الجاد واتخاذ الطريق البحري ، عودة الرحالة الفرنسي أنسلم الزالجي Anselm D'Isalguiet عام ١٤١٣ م إلى مرسيليا فجأة بعد غيبة إحدى عشرة سنة ، والمعروف عنه ، أنه كان قد جمع نفرا من المغامرين من ضواحي مدينة تولوز ، مسقط رأسه ، ونزل بهم إلى ساحل أفريقية ، ويحتمل أنه قام بمغامرته هذه لينضم إلى البعثة النورمانية التي خرجت بقيادة حنا بتينكور J. de Béthencourt النورمانى لفتح جزر كنارى (٣٣) .

وأيا كانت الطريقة التي أوصلت أنسلم إلى مدينة جاو عاصمة امبراطورية صنى الاسلامية النامية فى ذلك الوقت ، والتي كانت حديثة عهد بالاستقلال عن مالى (٣٤) ، فانه أمضى فى جاو بضع سنوات (٣٥) ، تزوج خلالها بأميرة صنيغة ، وعاد بصحبة زوجته الأفريقية ، ومعه ثنية كبيرة من الذهب والجواهر ، فضلا عن ثلاثة خصيان وثلاث جوارى ، وكان أحد الخصيان يعمل طبيبا له ، ونجح هذا الطبيب الأفريقى فى علاج ولى عهد فرنسا ، واشتهر أمره حتى غطت شهرته على شهرة أطباء فرنسا مما أثار حقد الأطباء الفرنسيين فرموا مواطنهم بالجهل والسلاجة لالتفافهم حول ساحر دجال (٣٦) .

أثارت عودة أنسلم الرغبة إلى ضرورة العمل على الوصول إلى بلاد الذهب ، إذ أن مشكلة الحاجة إلى الذهب ظلت قائمة فى أوروبا دون حل ، لما ازدادت الحاجة إلى معرفة منابعه ، وذلك فى الوقت الذى تجمعت فيه معلومات لا بأس بها عن داخل القارة .

جاءت المحاولات الناجحة المنظمة ذات الآثار بعيدة المدى ، بفضل شخصية تاريخية معروفة ، تلك هى شخصية هنرى الملقب بالملاح Henry the Navigator (ت ١٤٦١ م) ، وهو أصغر أبناء حنا الأول Don Joso I ملك البرتغال (١٣٨٥ - ١٤٣٣ م) (٣٧)

تمتع الأمير هنرى بسعة المعرفة والاطلاع على معارف عصره الجغرافية . كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريقة دراسة الكتب التى غنمها من المكتبات العربية فى البرتغال وقشتالة (٣٨) ، وجمع حوله طائفة من البحارة المهرة المدربين ،



منرى الملاح عام ١٤٥٣

كذلك عاونه أخوه دون بطرس Don Pedro الذى اشتهر بكثرة رحلاته ، وقد حصل بطرس وهو فى البندقية عام ١٤٢٨ م ، على نسخة من رحلات ماركوبولو البندقي ، وقدمها إلى أخيه هنرى ، وكانت رحلات ماركوبولو فى آسيا قد نشرت منذ عام ١٢٢٩ م ، أى فى سنة استيلاء أرغونة على جزيرة ميورقة من المسلمين ، ولها أثرها الكبير فى تنبيه أوروبا إلى ميدان الكشف عامة (٣٩) . كذلك استفاد هنرى من جميع الجهود والمعاولات السابقة ، ولا سيما جهود الجنويين والقطلايين وأهل ميورقة ، بجانب المعلومات الهامة التى أوردها الرحالة العرب أمثال المسعودى (القرن العاشر) والادريسى (القرن الثانى عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر) (٤٠) .

أنشأ هنرى الملاح معهدا بحريا فى مدينة ساجر Sagres بالبرتغال عام ١٤١٩ كما أنشأ بها دار صناعة (٤١) ، ووضع مشروعا عاما لحركة الكشف الجغرافى ، أوقف حياته وجهوده على تحقيقه ، ويرى من وراء هذا المشروع الوصول إلى هدفين أساسيين :

أولهما : تعقب المسلمين فى شمال أفريقيا ، ونقل الحروب الصليبية إلى بلادهم ، والمعروف عن تاريخ البرتغال ومبدأ تكوينها ، أن أصول هذا التكوين لم يكن سوى فصل من فصول الحروب الصليبية الدائرة رحاها فى الشرق الأوسط ، وفى أسبانيا الاسلامية فى وقت معا ، خلال القرن الثانى عشر ، فيذكر عن البرتغاليين أنهم انتهزوا فرصة مرور حملة صليبية متوجهة إلى الشرق ، لتنضم إلى جموع الحملة الصليبية الثانية التى أعدتها أوروبا على أثر سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ م ، أغرى البرتغاليون هذا الفرع الصليبي النار ببلادهم ، بأن البرتغال ميدان خصب للحروب الصليبية ولا داعى للرحلة الطويلة الشاقة إلى الشرق ، وكان هذا الفرع مكونا من جموع الفلمنكيين Flemings والفرزيين Frisii والفلاندرز Flanders والسكندنافيين والألمان والانجليز ، وافق البعض وتردد البعض ، وأخيرا تقدموا لمساعدة البرتغال فى حروبها ضد المسلمين فى بلادهم ، واستطاعوا انتزاع مدينة لشبونة (لشبونة) الاسلامية ، بعد حصار دام أربعة شهور عام ١١٤٧ م ، وذبخوا حاميتها

الاسلامية بعد أن أمنوها ، وبعد الانتصار سافر بعض الصليبيين إلى الشرق ، ولكن أغلبهم بقي في البرتغال . وإلى هذا الحدث يرجع التحالف الطويل الأمد بين البرتغال والانجيز<sup>(٤٣)</sup> .

إذن فالفكرة الصليبية ، في مشروع هنري الملاح للكشف والاستعمار واضحة ، وإن لم تكن الفكرة الأساسية أو الهامة .

والهدف الثاني : الوصول إلى ذهب السودان عن طريق البحر وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلى الطريق البحري وإلى موانئ المحيط الأطلسي بدلا من موانئ البحر المتوسط . حل أن هنري أعلن بعد ذلك ، أنه يريد فتح طريق بحري إلى الهند وإمالة اللثام عن لغز مملكة القديس يوحنا Prester Johannes<sup>(٤٤)</sup> وتحويل الوثنيين إلى المسيحية<sup>(٤٥)</sup> .

تحقق الهدف الأول باستيلاء البرتغاليين على سبته Ceuta عام ١٤١٥ م ، ثم طنجة ولطوان ، غير أن محاولة التوسع في شمال أفريقية الاسلاي قد فشلت بسبب وعورة الطرق وعناد المراكشيين ووقوفهم في وجه البرتغاليين<sup>(٤٦)</sup> .

أما الأهداف الأخرى ، فقد بدأها هنري بجهد من بعد عام ١٤١٥ م ، ولا سيما وأنه خلال ذلك العام ، سمع الكثير عن كميات الذهب الخيالية التي تحملها القوافل عبر الصحراء ، من بلاد السودان<sup>(٤٧)</sup> .

وحركة الكشف البرتغالي في غربي أفريقية وغيرها ، هي التي خلدت اسم هنري في التاريخ ، وفتحت أفريقيا للاستعمار الأوروبي الحديث .

بدأت الكشف ببطء في أول الأمر ، ويؤرخ لأول رحلة زمن هنري عام ١٤١٨ م<sup>(٤٨)</sup> ، ثم كانت رحلة عام ١٤٣٤ م بقيادة جيل إينز Gil Eannes التي وصلت إلى جنوب رأس بوجادور Bojador ، وهذا الرأس معروف للايطاليين والنورمان من قبل ، نجحت رحلة إينز في جمع معلومات هامة عن الداخل ، ولذلك اعتبرت نقطة تحول في تاريخ الكشف الجغرافي ، إذ أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، أن جميع مخاوف أوروبا من بحر الظلمات لا أساس لها ،

كوجود شياطين في هذا البحر أو ضباب أو ظلام حامس ، أو مياه تغلى جنوبي ذلك الرأس (٤٨) .

ثم بعد ذلك كشف الرأس الأبيض Cape Blanco في الفترة ما بين ١٤٤١ ، ١٤٤٢ م ، بقيادة نونو ترستاو Nuno Tristao وأنطونيو كونسالفير Antonio Consalvez ، وفي عودة هذه الرحلة ، قبض رجلاها على بعض الطوارق من صنهاجة واستولوا على ما معهم من تبر الذهب ، كما أسروا عددا من الزنوج الأفريقيين ، قرب شاطئ ما أسموه نهر الذهب Rio do Ouro ، ويرى المؤرخ البرتغالي باروس Barros أن نهر الذهب عرف كذلك ، لأن أول كمية من تراب الذهب من غربي أفريقية ، جاءت من هذا المكان ، ويحتمل أنه يعني بذلك نهر السنغال ، بالرغم من أن الخرائط المعاصرة ، ولا سيما خرائط ميورقة ، أوضحت مكان نهر الذهب ، في موضع يبعد كثيرا شمال نهر السنغال ، ومن باب التحديد وضعت جنوبي رأس بوجادور وشمال الرأس الأبيض ، وربما كان إطلاق اسم نهر الذهب على هذه المنطقة تسمية مجازية . اعتقد الأوروبيون أن التجارة الصامتة كانت تتم في هذا المكان ، وبمقتضاها يستبدل الذهب الأفريقي بالسلع الشمالية (٤٩) ، وربما شهدوا البرتغاليون وقبضوا على من استطاعوا القبض عليه من الطوارق الذين يستبدلون سلعهم بذهب السودان ، ومن الزنوج الذين جاءوا بذهبهم للتبادل (٥٠) .

والمهم أن أول شحنة من الذهب والعييد ، على قلنها ، وصلت أوروبا من ريودو أرو عام ١٤٤٢ (٥١) . وقد أرسل هنري الملاح عددا من الرقيق هدية منه إلى البابا (٥٢) ، وباع الباقي في أسواق لشبونة ، حصل البرتغاليون بعد ذلك في عام ١٤٥٤ م على موافقة البابوية على منح البرتغال حق امتلاك جميع ما يفتحونه بين الرأس الأبيض وبين الهند (٥٣) ، مما أدى إلى نتائج بعيدة الأثر في مستقبل أفريقية ، إذ نشب الصراع والتنافس حول تقسيم أفريقية واستعمارها بين الدول الأوروبية في القرون التالية (٥٤) .

ومنذ ذلك الوقت كثرت رحلات الكشف وتوالت في أزمنة متقاربة ، كما كثرت المغامرات من جانب طلاب الثراء العاجل ، وتدفق المتطوعون

للاشتراك في هذه الرحلات ، حتى أن هنرى كان يختار من بينهم العدد اللازم فقط ، ومن ناحية أخرى ازداد عدد القرصان الذين يعملون لحسابهم دون نظر إلى معلومات جغرافية أو أى هدف بعيد ، فقد انفتح أمامهم باب الثراء على مصراعيه ، عن طريق اقتناص الأفريقيين وبيعهم فى أسواق أوروبا دون واسطة ، حتى يظفروا بجميع الأرباح ، وهذا ما دعا هنرى إلى أن يبحث رجاله على مراعاة مصلحة بلادهم وإلى أن يحلّوهم من العمل لحسابهم . وفى نفس الوقت ، أعلن هنرى أنه يعمل على استرقاق الكفرة ، مما يسر له موافقة البابوية على مطامع البرتغال (٥٥) .

استمرت رحلات الكشف البرتغالية ، ووصلت فى عام ١٤٤٣ م إلى جزيرة أرجوين Arguin المقابلة للرأس الأبيض ، وبنا فيها أول حصن لهم ، والمعروف أن القرطاجانيين كانوا قد وصلوا إلى هذه الجزيرة من قبل .

وفى عام ١٤٤٥ م ، نجح القائد البحرى البرتغالى نونو ترستاو « فى الوصول إلى الأرض الخصبة جنوبى الصحراء ، فيما وراء رأس مريك C. Mirik من الداخل ، ومعنى هذا أن للصحراء نهاية يمكن الوصول إليها (٥٦) ، وقد نجح البرتغاليون فى هذه الرحلة ، فى الوصول إلى نهر السنغال وكشفوا نهر لاكازميس La Casmanco ، كما كشفوا غمبيا وبامبوك Bambuk فى الداخل ، حيث وجدوا مناجم الذهب ، وبامبوك إحدى منابع الذهب فى أرض وتقاره Wangara (٥٧) ، وأصبحت جزيرة جورى Gorée مخزنا تجاريا كبيرا (٥٨) . وفى نفس العام سافر القائد البرتغالى حنا فرنانديز J. Fernandez فى الداخل نحو سبعة أشهر (٥٩) .

وصل نونو ترستاو فى عام ١٤٤٦ م إلى مصب السنغال ، وقد ظنه نهر النيجر الذى أشار اليه هيرودوت وغيره ، واعتبره فرعا غريبا للنيل ، وسجل المكتشفون على جلود بعض الأشجار الفضة عبارات ممجدة لهنرى الملاح ، مؤداه أنها لم يحدث فى التاريخ من عهد الإسكندر المقدونى وقبصر أن وصلت فتوح أمير إلى ما وصلت اليه فتوح أمير هنرى ، كذلك حفروا على الشجر صورا

لأسلحتهم ولشعار هنرى (٦٠) ، وأطلق البرتغاليون اسم « غينيا » Guinea على المنطقة جنوبي نهر السنغال (٦١) .

وبكشف السنغال ؛ يكون البرتغاليون قد وصلوا بلاد السودان ؛ وقد أثار هذا المدخل الذى وصلوه ، فى نفوس البرتغاليين الرغبة الجاهدة فى التغلغل نحو الداخل للسيطرة على تجارة القوافل البرية (٦٢) .

وفى نفس العام (١٤٤٦ م) ، وصل دينيز دياز Diniz Diaz إلى السنغال والرأس الأخضر ، وحال دون توغل البرتغاليين فى الداخل ، وجود مملكتى مالى والولوف الإسلاميتين ، واشتهرت الأخيرة ، بصفة خاصة بفرسانها المهرة ؛ ولم يأت عام ١٤٤٨ م ، حتى كان ساحل غربى أفريقيا حتى غمبيا قد كشف ، وبذلك يكون البرتغاليون قد كشفوا أرض المسلمين السود Black Moors ، مميّزا لهم عن مسلمى الصحراء السمر Brown Skinned Tawny Moors (٦٣) .

وفى الفترة ما بين ١٤٥٥ ، ١٤٥٧ م ، وصل الرحالة ا. كاذا موستو Alvise Cadamosto ، وهو رحالة بندقى يعمل فى خدمة البرتغال ، وصل إلى الرأس الأخضر ، ومعه الرحالة الجنوى أوزى مارل Usi di Marl ، وزارا معا جزر الرأس الأخضر والسنغال وشبه جزيرة غمبيا وجزر بيساجوس Biasagos ، وعادا بمعلومات كثيرة عن الداخل وعن ممبكتو وعن تجارة الذهب والعاج على الساحل . وكاذا موستو أول رحالة أوروبى وصل إلى نهر غمبيا ، كذلك وصل البرتغاليون إلى سيراليون عام ١٤٦٠ م (٦٤) .

جاءت وفاة هنرى الملاح عام ١٤٦١ م ، لكن مشروعات الكشف لم تقف من بعده ، فبعد وفاته بنحو سنة ، أى عام ١٤٦٢ م ، وصل القائد البرتغالى بطرس سنترى Pedro de Cintra إلى رأس الماس Palmas فى ليبيريا الحالية (٦٥) ، وفى عام ١٤٧٠م أطلق القائد البرتغالى ديجو جوميز Diego Gomez على سيراليون Sera Leos هذه التسمية . أطلقها على شبه الجزيرة التى تقع عليها مدينة فريتون الحالية ، اشتقاقا من منظر جبالها المرعب ، نتيجة لأن جبالها تبدو للقادم من جهة البحر كأنها صورة أسد Lion Mountains ، وذلك نتيجة لكثرة عمليات التعديت



والتعرية ، والأرجح أن هذه التسمية جاءت نتيجة لأن العواصف الرملية الشديدة التي تهب على هذه المنطقة ، تحدث أصواتا تشبه زئير الأسد (٦٦) .

وفي عام ١٤٧١ م ، كان ساحل غانة كله قد كشف ، وعبر البرتغاليون مصب النيجر إلى الجنوب حتى نهر أجو Agowe : حصلوا على كميات كبيرة من الذهب ، واستمرت الكشوف البرتغالية ، فدار بارثولميو دياز Partholomio Diaz de Novaes حول أفريقية ، وهو الذي أطلق اسم « رأس العواصف » Cabo Tormentoso أو Cabo Tormento في عام ١٤٨٨ م على منطقة الرأس ، غير أن حنا الثاني Joao II ملك البرتغال أطلق عليه اسم « رأس الرجاء الصالح » تفاؤلا بقرب الوصول إلى الهند (٦٧) .

وهكذا سارت الكشوف البرتغالية ، ومعها الاستعمار البرتغالي في غربي أفريقية ، وفي شرقها ، وقد استعان فاسكوناجاما ١٤٩٧ م بالعرب في الوصول إلى الهند ، وانتزع البرتغاليون المشيخات الإسلامية القائمة على ساحل أفريقية الشرقي ، مثل سوفالا التي استولى عليها بطرس أنبايا Pedro de Anhaya عام ١٥٠٥ م ثم كلوه وغيرها ، من سوفالا جنوبا حتى مقديشيو شمالا (٦٨) .

وما أن اشتهر أمر البرتغال والمستعمرات البرتغالية في أفريقية ، حتى دخلت الدول الأوروبية الأخرى ميدان الكشف والاستعمار ، وأولها الأسبان (٦٩) .

وخلال حركة الكشف البرتغالي ، بنى البرتغاليون القلاع والحصون على السواحل التي كشفوها واستعمروها ، كما أطلقوا أسماء برتغالية على بعض معالم ساحل غربي أفريقية .

وأول حصن بناه البرتغاليون ، كان في عام ١٤٤٨ م ، على خليج أرجوين جنوبي الرأس الأبيض ، وذلك بإرشاد هنري الملاح ، ثم تأسست شركة تجارية برتغالية بعد ذلك بوضع سنوات ، ومهمتها التجارة مع ساحل غانة في الذهب والرقيق ، وقد ضمت أول شحنة أرسلتها هذه الشركة إلى البرتغال : ٢٠٠ عبد زنجي ، تمت بعد ذلك تجارة الرقيق بسرعة ، ويعلق بعض كتاب الاستعمار على [ تجارة الرقيق ] بأن البرتغاليين قد غلبوا الزنوج من قلوبهم طعاما للقبائل المتوحشة فقد انتقلوا إلى حياة مريحة في البرتغال الجميلة ، حيث عملوا خدما في المنازل (٧٠)

ومن أهم الحصون التى أنشأها البرتغاليون على ساحل أفريقية الغربى ٢  
حصن المينا Elmina ، على ساحل «جمهورية غانة الحالية» أقاموا هذا الحصن  
عام ١٤٨١ م ، وزادوا فيه خلال السنوات ١٤٨٢ ، ١٤٨٦ م ، وكان يعرف  
باسم حصن القديس جورج Sao Jorge de Mina أسسه دون ديجو Don  
Diego ، ويقال إن الأخشاب التى استخدمت فى هذا الحصن صنعت فى البرتغال  
ثم نقلت إلى أفريقية . وكان مع هذا القائد نحو سبعمائة عامل ، وبنوا كنيسة فى  
الحصن (٧١) ، وهو أشبه بالمبنى المجمع . ويقول الفرنسيون ، أن النورمان الذين  
خرجوا من ديبب فى القرن الرابع عشر ، هم الذين أسسوا هذا الحصن وأطلقوا  
عليه اسم «منجم الذهب» La Mine d'or. ، ثم تحرف إلى المينا (٧٢) .

امتدت حصون البرتغاليين ومراكز التجارة على ساحل غربى أفريقية ،  
بين غينيا وخطيح بنين Benin مثل حصن أكسيم Axim وأكرا Accra وغيرهما (٧٣) .

وكان الحاكم البرتغالى العام يقيم فى قلعة المينا ، ويعمل على جمع الثروة له .  
ولذا لم يكن يعين فى هذا المنصب سوى المقربين للملك ، وبتطور الأحوال  
وازدیاد جشع الاستعمار البرتغالى ، وتهاافت الطامعين ، صار الحاكم العام يعين  
من بين طوائف اللعارين الفاسدين ، حتى أن الزنوج لم يحتملوا وطأنهم ، فقاموا  
بثورة ضد وحشية البرتغاليين عام ١٥٨٧ م ، وهاجوا حصن أكرا ، وفى تلك  
الأيام ، انتهز الفرنسيون الفرصة للتدخل وللتمكن لأنفسهم (٧٤) .

أما محاولات البرتغاليين للتوغل فى الداخل ، فقد بدأت منذ وطئت أقدامهم  
شاطئ أفريقية الغربى ، خلال حركة الكشف ، وهدفهم الأقصى هو السيطرة  
على الطرق الصحراوية ٢ بعد أن تحققت سيطرتهم على الطريق البحرى ، وكانت  
معلومات البرتغاليين عن الداخل لم تزل قليلة ، بسبب وحشيتهم مع السكان  
الأصليين الذين أصابهم الذعر والفرع من اقتناص البرتغاليين لهم ، فحال هذا  
العمل دون إقامة علاقات ودية مع الوطنيين . كتب ريتشارد جوبسون R. Jobson  
بأن قبائل الماندينجو كانت تخشى من اقتراب أية سفينة من الساحل لأن الكثير من  
أفرادها قد وقع فى قبضة القناصة وحمل فى تلك السفن (٧٥) . يضاف إلى ذلك

العوائق الطبيعية ، مثل الأحوال الصحية غير الملائمة ، وانتشار الملاريا ، فضلا عن وعورة المسالك داخل الغابات الكثيفة المطيرة وكثرة المستنقعات .

ومحاولات الوصول إلى الداخل ، أمر شغل البرتغاليين وغير البرتغاليين من الأوروبيين <sup>(٧٦)</sup> ، ومن هذه المحاولات تلك الرحلات التي قام بها الأوروبيون إلى قلب الصحراء ، وأشهرها رحلة التاجر الجنوي أنطونيو مالفانت Antonio Malfante عام ١٤٤٧ م . نجح أنطونيو في التوغل برا في قلب الصحراء حتى توات Tuat ، بحثا عن الذهب ومناجمه ، وكانت المعلومات التي جمعها ذات قيمة ، فقد جاء في التقرير الذي بعث به وهو في توات ، كثير من المعلومات الجغرافية المفيدة عن داخل أفريقية ، وذكر أنه سأل عجوزا من المواطنين في توات ، من الذين يعرفون بلاد السودان ، عن مناجم الذهب ، فكانت إجابة ذلك الشيخ أنه قضى ما يقرب من ربع قرن في بلاد السودان ، لم يستطع خلاله أن يحصل على أدنى المعلومات من أى زنجي عن هذه المناجم <sup>(٧٧)</sup> .

وتوجد رسالة بعث بها مالفانت إلى رحالة إيطالي آخر هو جيوفاني ماريونو Giovanni Mariono مؤرخة بنفس العام ؛ وكان جيوفاني قد وصل إلى جنى ، كتبها له مالفانت من توات ، ووضح في هذه الرسالة معلومات عن بلاد السودان الغربي ، وفيها كذلك أن أغلب سكان السودان الغربي في ذلك الوقت من المسلمين <sup>(٧٨)</sup> .

وهناك رحلة أخرى قام بها التاجر الفلورنسي بندتودي Benodetto Del الذى وصل إلى ممبكتو عام ١٤٧٠ م ، وعاد إلى بلاده بعد ذلك . وكانت فلورنسه قد مدت نشاطها التجارى إلى ساحل أفريقية الشمالى وظفرت بامتيازات تجارية لرعاياها ، حتى أنه سمح لها في تونس بالتجارة مع الداخل ، مما يقسر إقامة بندتودي في مدينة ممبكتو ، حيث كان يقوم باستبدال السلع الأوروبية من إنتاج لبارديا بصفة خاصة من ملابس وغيرها من المصنوعات ، بالسلع الأفريقية ، وربما كان وصول بندتو إلى ممبكتو أول وصول ملون لأحد الأوروبيين ، ومن المحتمل أن الرحلة إلى بلاد السودان في ذلك الوقت صارت أمرا مألوما ، وكذلك يحتمل أن أوروبيين آخرين سبقوا بندتو في الوصول إلى تلك البلاد <sup>(٧٩)</sup> .

أما أول من أرسله البرتغاليون لكشف الداخل من الساحل ، فهو حنا فرنانديز J. Fernandez عام ١٤٤٥ م ، وقد نجح هذا المكتشف فى ارتداد بعض مناطق الصحراء الداخلية ، حتى منطقة ريودو أورو ، ثم تلاه آخرون (٨٠) ، وحوالى عام ١٤٥٠ م ، علم المكتشف البرتغالى ديجوميز ، عن طريق الجلف (الولوف) المقيمين قرب ساحل غمبيا ، أن جميع البلاد الداخلية ، خاضعة لنفوذ «بورمالى» ، وكلمة بور Bour معناها : منسا أو ملك بلغة الولوف ، وقالوا له ، إن عاصمة مالى هى مدينة كيوكيا Kiokia أو كيوكوم Kiokoum وربما كانت هذه العاصمة تحريفا لكلمة كوكيا Kaukiya . أفهمه الجلف كذلك أن الطريق إلى مالى وعبر ليس من السهل اجتيازه ، لأن المرور فيه يستدعى الاحتكاك بقبائل لا يؤمن شرها مثل قبائل سوماندو Somandu وكونبرتا Kounberta والسراكول Sarakoli (٨١) .

غير أن المعلومات الأكثر وضوحا ودقة عن الداخل ، هى التى حصل عليها المكتشف كادا موستو ، فقد قام برحلة فى الفترة ما بين ١٤٥٥ ، ١٤٥٧ م ، وكان مرسلا من قبل الأمير هنرى الملاح لكشف نهر غمبيا ، إذ كان البرتغاليون يظنون أن منطقة نهر غمبيا غنية بالذهب ، حقيقة كشف كادا موستو النهر ، لكنه لم يكتشف الذهب (٨٢) .

كان كادا موستو على عكس قادة البرتغاليين السابقين ، فقد أحرك بثاقب نظره أهمية الود والصداقة مع الوطنيين الأفريقيين ، وهذا ما ساعده على جمع المعلومات التى فشل سابقيه فى الحصول عليها ، عرف كادا موستو أن التجارة الصامتة فى الذهب لا تزال قائمة بمكان ما فى الداخل ، وأن الذهب فى التجارة يستبدل بالملح وغيره من السلع ، وعرف كذلك أن الملح يأتى من ممبكتو الخاضعة يومئذ للطوارق (٨٣) ، أما أين توجد حقول الذهب ؟ فلم يستطع أن يظفر بشئ عنها (٨٤) ، لكن كادا موستو وصف مالى فى ذلك الوقت بأنها دولة عظيمة ومزدهرة تجاريا (٨٥) .

وبعد أن بنى البرتغاليون حصن المينا عام ١٤٨١ م ، أدخلوا معهم أميرا من الجلف (الولوف) Oulof المقيمين جنوبى السنغال (٨٦) ، واسم هذا الأمير

بيموى Bemoi or Bemay ، وكان مطرودا عن العرش على يد أخيه .  
 حمله البرتغاليون معهم إلى لشبونة حيث احتفل به حنا الثاني ملك البرتغال ، وعنده  
 على المسيحية ، وظفر منه بكثير من المعلومات الدقيقة عن بلاده وجيرانها ، ثم  
 أمده البرتغاليون بحملة حربية لتساعده على استرجاع عرشه السليب ، وليكون  
 عوناً لهم وعميلاً - غير أن الأميرال البرتغالي فاز ذاكونها Vas d'Aconha  
 قائد الحملة ، أمر بقتل الأمير الأفريقي ؟ ، بتهمة الخيانة وخداع البرتغاليين ،  
 وصار البرتغاليون مادة في السنفال (٨٧) .

وعلى قلة المعلومات التي حصل عليها البرتغاليون عن الداخل ، فإنها  
 أفادتهم كثيراً عما يجري وراء الساحل ، وتتابعت حملاتهم في الداخل ، فكشف  
 ديجو جام Diego Gam في عام ١٤٨٢ م مصب الكنغو وأبحر فيه حتى مدينة  
 بوما Boma ، وقام بعد ذلك بثلاث سنوات وسار في نهر الكنغو حتى مصب  
 نهر مپوزو Mpozo ومساقط يلالا Yellala (٨٨) .

في ذلك الوقت ، وهو النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي ،  
 كانت امبراطورية مالي الاسلامية ، في طور الذبول والتدهور بسبب الأخطار  
 التي تواصت بها من كل جانب : من جانب الطوارق (٨٩) ، وقبائل موثي  
 Mossi (٩٠) ، والفولانيين والتكارزة (٩١) ، على أن الخطر الأكبر كان من  
 ناحية امبراطورية صني الاسلامية النامية زمن سني على (٨٩٦-٨٩٨ / ١٤٦٤-  
 ١٤٩٢ م) ، الذي استطاع أن يحطم الطوارق والموثن ، وأن ينتزع معظم  
 أملاك مالي ، بل صارت مالي خاضعة له ، وأضحى السيد المطلق في جميع  
 ولايات النيجر الأوسط ، وأشتهر اسمه خنرج السودان الغربي حتى أشار  
 الأوروبيون اليه باسم «سن على سيد ممبكتو» ، كما نعتة مسلموا الشمال الأفريقي  
 بأنه «أقوى ملك في غربي أفريقية» ، وإن حمل عليه السعدى وصاحب الفتاش  
 حملة عنيفة بسبب قبضته وفجوره وجبروته (٩٢) .

شعر ماتسا مالي (٩٣) بالخطر المحدق به ، فاستعان بالبرتغاليين ، بعد أن  
 فشلت مساعيهم في طلب المساعدة من العثمانيين بشمال أفريقية ، ويقول المؤرخ  
 البرتغالي حنا بازوس Joao de Barros (٩٤) أن ملك البرتغال رحب باستغاثة

مالى ، لأنه كان يخشى ازدياد نفوذ العثمانيين المسلمين فى شمالى أفريقية وامتداده إلى قلب أفريقية ، فضلا عن رغبة البرتغاليين فى التعرف على الداخل للسيطرة عليه ، ولذلك أسرع بالاستجابة (٩٥) .

بعث ملك البرتغال بسفارتين إلى بلاد مالى : إحداهما عن طريق نهر غمبيا وتتكون من ثلاثة أعضاء هم : رود ريجيز رابلو Rodriguez Rabello وبترس رينل Pero Reynel ، وحناكولاسو Joao Collaçao ، ولكن لم يعرف شىء عن خبر هذه السفارة ؛ ويؤرخ للسفارة الثانية بحوالى عام ١٤٨٣ م ، وتتكون من ثمانية أعضاء ، وهذه توجهت عن طريق قلعة المينا ، ووصلت إلى مدينة سونجو Songo عاصمة مالى يومئذ ، أو هكنا سماها البرتغاليون . فليست كلمة سونجوسوى تسمية أخرى لمدينة مالى أو يافى عاصمة مالى ، ولم يعد من هذه السفارة سوى شخص واحد هو بترس رينل الذى كان عضوا فى السفارة السابقة ، وله خبرة بالسفر فى الداخل ، وقد وصف بترس رينل عاصمة مالى فى ذلك الوقت ، بأنها مزدهرة ومزدحمة بالسكان ، وحل بترس فى عودته رسالة من بورمالى (٩٦) ، السلطان محمود الأول فى ذلك الوقت ، وتتضمن هذه الرسالة مدى دهشة ملك مالى لما سمعه عن قوة ملك البرتغال وشهرته ، ولم يفت ملك مالى الحدث عن مملكته وعظمتها وقوتها ، وما جاء فيها : أن بلاده لم يسبق لها أن استقبلت سفارة أو رسالة من قبل ملك مسيحي طوال عهود الأربعة آلاف وأربعمائة سلطان الذين سبقوه فى حكم البلاد (٩٧) .

لم تكن لهذه البعثة نتيجة فيا يتعلق بمساندة البرتغال للمالى ، وإن أدت إلى ازدياد معرفة البرتغاليين بالداخل وأحواله وبعض طرقه ، إذا كانت أهداف البرتغاليين أبعد من مجرد الاستجابة إلى استغاثات مالى ، بل يرجح أنهم رفضوا مساعدة مالى (٩٨) .

وهناك سفارة ثالثة أرسلها البرتغال إلى بلاط مالى حوالى عام ١٥٣٤ م ، وكان من بين أهدافها بحث مسائل تجارية مع «مانسا المائدى» (٩٩) .

ولما كانت انتصارات منى على ، ملك صنقى ، متلاحقة ضد مالى وغيرها ، حاول البرتغاليون الاتصال به ، وبعثوا بسفارة من أرجوين إلى تمبكتو عام ١٤٨٧م

وعلى رأسها القائدان: بطرس ليفورا Pero d' Evora وجونسا لفيز إينيز Goncalvez Bannes ، والهدف منها كسب صداقة سني على ، واستئذانه في بناء محطة تجارية في منطقة ودان Wadan الواقعة قرب حدود مالي ، وعلى مقربة من الرأس الأبيض ، لم يعد إلى أرجوين من هذه البعثة سوى شخص واحد ، وهناك شك حول وصولها إلى ممبكتو ، ويحتمل أنها وصلت إلى جني فقط (١٠٠).

وبالمثل حاول البرتغاليون الاتصال بسلطان موش Mosi ليأذن لهم بالتجارة على الساحل الجنوبي ، غير أن موش في ذلك الوقت كانوا قد تدهوروا وانحطت قوتهم منذ انتصار سني عليهم عام ١٤٨٠ م وطردهم نحو الجنوب (١٠١).

على أن البرتغاليين بنوا المحطة التجارية التي كانوا يسعون إليها ، ووصلوا في توغلهم إلى الداخل حتى أدرار Adrar ، إلا أن هذه المحطة هجرت فيما بعد ، وإن أدت إلى ازدياد المعلومات عما يجري وراء الساحل (١٠٢).

بنى البرتغاليون عددا من المحطات التجارية على طول ساحل أفريقية الغربي بين نحميا وخليج بنين Benin ، ولكنهم عموما ، لم يبلغوا في توغلهم في الداخل إلى ما كانوا يتوقون إليه بسبب تلك العوائق فضلا عن سوء معاملتهم للوطنيين .

\*\*\*

وهناك كثير من الأسماء البرتغالية التي أطلقها البرتغاليون على بعض معالم ساحل غربي أفريقية ، لا تزال باقية إلى اليوم ، منها :

— ريو دو أورو Rio do Oro أي نهر الذهب ، ويطلق هذا الاسم على المنطقة الواقعة شمالي الرأس الأبيض .

سيراليون Serra Leoa أو Serra Lyoa بمعنى زئير الأسد ، وقد أطلق هذه التسمية المكتشف البرتغالي ديجو جوميز عام ١٤٧٠ م .

رأس بالماس C. Palmas أي رأس شجر النخيل ، لكثرة وجود أشجار النخيل قرب هذه المنطقة ، ويقع هذا الرأس عند حدود ليبيريا الجنوبية .

لاجوس Lagos في نيجيريا الشرقية بمعنى البحيرات ، ومنها نهر البحيرات

Rio do Lagos

كالابارا Calabarra في نيجيريا الشرقية ، بمعنى السد الصامت أو العائق الساكن ، وهو فجوة ساحلية أمينة لرسو السفن ، وتقع عليها مدينة كالابار Calabar الحالية .

الكرون Camaroos بمعنى الجمبرى ، وكذلك نهر الكرون Rio dos Camaroos كورسكو Cortico بمعنى البرق ، وهي جزيرة صغيرة قرب ساحل جابون ، رؤيت لأول مرة خلال عاصفة رعدية .

ساو توى Sao Thomé أى جزيرة القديس توماس ، وهي جزيرة صغيرة قرب خط الاستواء في خليج غانة .

جابون Gabon بمعنى العبادة الساترة ، اشتقاقا من شكل مصب النهر .

رأس العواصف Cobo Tormento ، أطلق هذه التسمية المكتشف بارثولوميو دياز عام ١٤٨٨ م ، ولكن ملك البرتغال حنا الثانى Joao II استبدل هذه التسمية بكلمة : رأس الرجاء الصالح .

كلمة ريو Rio بمعنى نهر ، أطلقت على كثير من الأنهار والمناطق (١٠٣) .

\*\*\*

وبقدر ما كانت معلومات البرتغاليين ، ومعلومات أوربا غامضة وقليلة عن سواحل غربى أفريقية والمناطق المجاورة لها من الداخل ، قبل القرن الخامس عشر الميلادى ، بقدر ما وضحت تلك المعلومات وكثرت فى نهاية ذلك القرن ، وجاء كشف طريق الرأس والوصول إلى الهند ، ثم كشف أمريكا ، مؤديا إلى قيام المشروعات الامبراطورية الاستعمارية فيها وراء البحار ، مما صرف الجهود بعض الوقت ، وبصفة مؤقتة عن أفريقية وداخل أفريقية (١٠٤) ، إلى أن اصطدمت المصالح الاستعمارية الأوروبية فى هذه القارة بعد ذلك . وتاريخ الاستعمار الأوروبى لأفريقية منذ حركة الكشوف البرتغالية فيها ، ملء بالمأسى ، كما أنه ملء بالبطولات القومية الفئدة ، وهي التي خلدها التاريخ ، خلال مراحل الكفاح الوطنى .





## المراجع والحواشي

(١) المقصود بغرب أفريقية ، جغرافيا ، بلاد السودان الأوسط والغربي ، وتمتد هذه البلاد من بحيرة تشاد في الشرق إلى ساحل المحيط الأطلسي في الغرب ، وتقع بين خطي عرض ٩ و ١٧ شمالا . كذلك تعرف هذه المنطقة ، فما أسماه كتاب أوربا في العصور الوسطى ، باسم « نجرشيا » Nigritia نسبة إلى نهر النيجر .

(٢) Johnston, H. H., A History of the Colonization of Africa, by Alien Races, (٢) Cambr., 1913, P. 15.

(٣) من المحقق أن أول تيارات الحضارة من زراعة وحيوانات مستأنسة، استقبلتها أفريقيا النيجية جنوبي الصحراء ، جاء من مصر ، مثل الثور ، وأصله أسبوي . والغنم والماعز والحمير النوبي المستأنس والدجاج المستأنس ، كذلك وصلت نباتات وجيوب مثل النخلة والقرع والفول والبسلا والبطاطس والفلقاس والنخلة العويجة أو الدخن . ومن الصناعات المصرية : بناء القوارب ، وبناء الأكواخ ، واستعمال الطوب النوى ، وهي مرحلة متقدمة في فن النجارة ، انتشرت في تلك البلاد ، ومن الأدوات المنزلية : الكراسي والوسائد ، وكذلك بعض الآلات الموسيقية مثل الطبول وأنواع من القيثارة ، بل وألعاب رياضية مثل الأرجوحة ، والأسلحة مثل الدروع والأقواس والرمح والبلط . (Johnston, op. cit. P. 19—20).

(٤) اشتهر الفينيقيون منذ القدم بالنشاط التجاري ، والاسم الوطني لهذا الشعب هو كينا Xna أو كينا Khna أو كينا Kinah أو كينا Kinahni أي كينان Kanaan . والأغريق هم الذين أطلقوا عليهم كلمة الفينيقيين Phoinike أو Phoinikes بمعنى « أحر » Red . وفي اللاتينية يعرف الفينيقيون باسم بونيكا أو بوني أو بوني Puni — Poeni من الكلمة فوينيكس Phoinix بمعنى أحر . ويرجع هذا إلى أن الفينيقيين بدوا للأغريق والرومان البيض ، وهم يتميزون بلون يحيل إلى الحمرة .

ونظرا لعلاقة الفينيقيين القديمة بالرومان ، استخدم الرومان كلمة « فينيقي » Poenus ( في صيغة المفرد والجمع Poeni ) ، للدلالة على الغدر ونقض المهود ، كما استخدمت أوربا في العصور الوسطى كلمة « وندلة » Vandalism للدلالة على التخريب والتدمير ، نسبة إلى ما اشتهر من مثل هذه الأعمال من الوندال الجرمان ولا سيما ما ارتكبه من فظائع في اضطهادهم للمخالفين لمذهبهم الديني ، ويبدو أن الفينيقيين هم الذين أطلقوا كلمة « أفريقية » Africa التي صارت علما على هذه القارة . وهذه الكلمة مشتقة أصلا من اسم قبيلة بربرية تسمى « أفارق » Afarik أو « أوريفة » Awarigha أو أوراهن Awuraghen ، وكانت هذه القبيلة تنتشر في المنطقة الساحلية بشمال أفريقيا من ناحية تونس ، وذلك قبل احتلال الرومان لتلك البلاد ، ثم تهيغرت هذه القبيلة مع غيرها من قبائل البربر إلى الداخل ، وهي التي اشتهرت بعد ذلك باسم « الطوارق » ولا يزال إلى اليوم هذا الاسم يطلق على القبيلة التي تقيم غرب غايط .

( أنظر : السعدي : تاريخ السودان — باريس ١٨٩٨ ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ — شمال أفريقية الوندال المؤلف — المجلة التاريخية م ١١ سنة ١٩٦٣ ص ١٢٤ .

وأشار جونستون إلى مرجع تعرض لشرح هذه النقطة ، هو :

Piquet, V., Les Civilisations de l'Afrique du Nord, Paris, 1909

Blyden, W., Christianity, Islam and the Negro Race, Lond., 1881, P. 6.

أنظر خريطة طرق القوافل .

( ٥ ) يقال إن الحمل دخل مصر لأول مرة على يد الفرس في القرن السادس قبل الميلاد ، وأن الاسكندر المقدوني استخدم الحمل في حملته على سيوه ، بعد فتحه مصر في القرن الرابع قبل الميلاد ، وأن يوليوس قيصر استولى على ٤٦ جلا من منطقة غربي سيوه ، ومن بعد قيصر أكثر الرومان من استخدام الحمل ، ويقال كذلك أن الحملة التي قادها سبتيموس فلاكوس Septimus Flaccus من شالي أفريقية ووصلت إلى حدود بلاد السودان جنوبي الصحراء الكبرى حوالي عام ١٩ ق . م . استخدمت الحمل واحتشدت عليه في تحركاتها ، وفي القرن الأول الميلادي ، كانت الفرقة الرومانية المعروفة في الجيش الروماني باسم « فرقة أوجستا الثالثة Legio III Augusta تتحدث على الجمال ، وحدث في عام ٣٦٣ م أن مواطني منطقة ليد Lepcis Magna قد استقاثوا بحاكم أفريقية الروماني لمساعدتهم ضد غزوات قبائل الأستريان Austuriani وهم فرع من الطوارق المقيمين في سينسوس Synesius ، فأجابه الحاكم الروماني بأنه لا يستطيع أن يصل إلى بلاد الطوارق لقسمهم ما لم يقدموا له ٤٠٠ رجل ليتمكن من نقل رجاله .

Bovill, F. W., The Golden Trade of the Moors, Lond., 1962, PP. 41—43, 48—49, 51 ; Johnston, P.P. 46—48 ; Page, J., -An Atlas of African History, Camb., 1958, P.P. 17—18 ; Wiedner, D. L., A History of Africa, South of the Sahara, N. York, 1962, P.P. 27—28 ; Okafor, A., History of West Africa (In «The New West Africa, P. 26).

( ٦ ) ابن عبد الحكم : فتوح مصر - مصر ١٩٦١ ص ٢٦٥ - ٢٧٤ .

Blyden, op. cit. P. 6 ; Le Chatelier, A., L'Islam Dans l'Afrique Occidentale, Paris, 1899, P. 127 ; Gouilly, A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentale Française, Paris, 1952, P. 40 ; Hogben, S. J., The Muhammadan Emirates of Nigeria, Lond., 1930, P. 15 ; L. Lugard, F. L. Shaw, A Tropical Dependency, Lond., 1905, P.P. 83—84.

( ٧ ) راجع الأسطخري ( أبو اسحاق إبراهيم - القرن الرابع الهجري ) : المسالك والممالك ( تحقيق الحقوقي ومراجعة غربال - مصر ١٩٦١ ) ص ٣٤ - ٣٥ ، ياقوت ( أبو عبد الله ١٢٢٩ م ) معجم البلدان - مصر ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٣٨

Johnston, op. cit., P.P. 15—20, Davidson, B., Old Africa Rediscovered, ( ٨ ) Lond., 1959, P.P. 70—73.

Johnston, P. 296, Reeve, H. F., The Gambia, Its History, Ancient, Medieval ( ٩ ) and Modern, Lond., 1912, P. 5 ; Reindora, Rev. C.C., History of the Gold Coast and Asanté-Basi, 1892, P. 1.

Reeve, op. cit. P. 8 ; Johnston, op. cit. P.P. 35—38 ; Kup, P. A History of Siera ( ١٠ ) Leone (1400—1787), Camb., 1961, P.P. 28—29 ; Reindora, loc. cit. P. 2 ; Gsell, S., Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, 1921, T.I., P.P. 468—469 ; Ward, W.H.F., A History of the Gold Coast, Lond. 1948, P. 30 ; Maspero, G., Histoire Ancienne Des Peuples De L'Orient, Paris, 1917, P.P. 471, 493.

Reeve, loc. cit., P. 7, Bury, J., History of Greece, Lond., 1931, P. 269 s. qq., 335 ; ( ١١ ) Maspero, loc. cit., P.P. 720—722.

Hogben, loc. cit., P.P. 13—15. (١٢)

Johnston, loc. cit., P.P. 46—48, 296—300 ; Hogben, P. 15 ; Reeve, P.P. 3—4 ; (١٣)  
Reindore, P.P. 1—2 ; Ward, P. 30 ; Kup, P.P. 28—29 ; Spitz, G., L'Ouest Africain Français  
Paris, 1947, P. 68 ; Pedlar, F. J., West Africa, Straid., Eng., 1959, P. 61 ; Vandeleur, S.,  
Campaigning in the Upper Nile and Niger, Lond., 1899, P. 149 ; Sharaf, T., A short Hist.  
of Geographical Discovery, Alex., 1963, P.P. 89—148.

Davidson, P. 76. (١٤)

(١٥) سمع في عام ١٢١٩ م خمسة من الرحبان الفرنسيين ، بالاستقرار في مراکش ، وبعد ذلك  
بسنوات قليلة ، جعل البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) مدينة مراکش أممية ، وظلت  
على ذلك حتى عام ١٦٣٩ م .

(Bovill, P. 111. راجع)

Johnston P.P. 39—40. (١٦)

عن اليهود راجع :

Nahum Slouch, Etudes Sur l'Histoire des Juifs au Maroc, Paris, 1905 ;

أنظر كذلك :

De La Roncière, Ch., Les Découvertes de l'Afrique au Moyen ge,  
Le Caire, 1925, T. I., P.P. 102—108.

(١٧) امبراطورية غالة الاسلامية في المصور الوسطى المؤلف (وزارة الثقافة - في المطبعة ) .

(١٨) عن حج السلطان كنكن موسى وأخبار موكب وذهبه راجع ؛ السعدى ص ٧ ، كمت محمود  
كمت : تاريخ الفتاش - ياريس ١٩١٣ ، ص ٣٣ ، العبرى (شهاب الدين أحمد ت ١٣٤٨ م) :  
مسالك الأبرار - مصور ج ٢ ق ٢ ورقة ٥٠٤ - ٥٠٧ ، ابن خلدون (عبد الرحمن ت ١٤٠٥ م) :  
تاريخه ج ٥ ص ٤٣٤ ، ج ٦ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، المقرئى (تق الدين أحمد بن على ت ١٤٤١ م) :  
الذهب المسبوك - نشر الشهاب - مصر ١٩٥٥ ص ١١٢ ،

Davidson, P. 94 ; Viedner, P. 75 ; Hogben, P. 31 ; L. Lugard, P.P. 124—125 ;  
Bovill, P.P. 87—89.

(١٩) أنظر ما على وراجع Davidson, P. 76, Bovill, P. 91. دولة مالي الاسلامية المؤلف  
(وزارة الثقافة - في المطبعة ) .

Davidson, P. 77 ; Bovill, P.P. 114—115 ; De La Roncière, loc. cit., T. I., P. 157, (٢٠)  
Johnston, P.P. 78—91 ; Okafor, P. 26 ; Brown, L.A., The Story of Maps, Lond., 1951, P.P. 73,  
108, 111, 205, 243, 301, 305—306 ; Tooley, R.V., Maps and Map Makers, Lond., 1949,  
P.P. 96—102, Gov. of Nigeria, The Nigeria Handbook, Lond., 1956, P. 23 ; Ward, P.P. 29—30.

De La Roncière, T. I, P. 121.

(٢١)

De La Roncière, T. I, P. 157.

(٢٢)

Bovill, P.P. 112—114.

(٢٣)

(٢٤) زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في المصور الوسطى - مصر ١٩٤٥ ص ٤٤ - ٤٥ -  
٥٤ - ٦٧ - ١٢١ - ١٢٥ ، ١٣٦ - ١٧١ ؛

De La Roncière, T. I, PP. 12 a. q. q., 45—48, 129.

Bovill, P. 114. (٢٥)

De La Roncière, T. I, P.P. 123, 125. (٢٦)

Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P. 79. (٢٧)

Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P.P. 64—65, 69, 115, 122, 131. (٢٨)

Davidson, P. 70 ; De La Roncière, T. I, P.P. 122—129. (٢٩)

(٢٠) من رسامى الخرائط فى ميورقة من اليهود من تحول إلى المسيحية أمثال : (١٣٩١)

Antonius Sober, Johnston Oliva (Bovill, P. 91 ; De La Roncière, T. I, P.P. 128—129, 131).

(٣١) امتدت شهرة مال وعظمتها إلى القرون التالية ، وظلت تظهر فى خرائط أوروبا ، فى مطلع القرن السادس عشر مثلاً ، صدرت خريطة ستراسبورج (١٥١٣) وعليها نقش يتعلق بمملكة مال وسيدها موسى : «Regnum Musa Mali de Ginovia».

وكذلك أصدر العالم الألمانى فالسيمولر Waldseemuller خريطة فى عام ١٥١٨ ، وعليها اسم مالسا موسى ، ويبدو أن هذه الخريطة قد ذبلت أهميتها وقيمتها تحت غشوه المعلومات الجديدة المحققة حينئذ ، وهى التى أوضحتها الاكتشاف الجغرافية التى تمت ، فضلاً عن الضوء الذى أنقاه حسن بن محمد الوزان (ليو الأفرى) المتوفى حوالى ١٥٤٠ م ، بمؤلفه الشهير عن وصف أفريقية .

(De La Roncière, T. I, P.P. 17—25, a127—128 ; Bovill, P.P. 91—92, 115—133, Tooley, op. cit., P.P. 96—102, Brown, op. cit., P.P. 301—305—306 ; Oliver nad Fage, P. 90 ; L. lug. op. cit., P. 152).

Ward, P. 58 ; De La Roncière, T. II, P.P. 10, 25, 33 ; Spitz, P. 6 & ; L. lug. (٢٢) P. 333 ; Reeve, P.P. 27—30 ; Church, R.G.H. West Africa, A Study of the Environment and Mans' Use of It, Lond., 1961, P. XXIV ; Reindore, P. 13 ; Rrown, P.110 ; Boville, P. 117, N. 2

De La Roncière, T. II, P.P. 17—25 ; Bovuill, P. 115. (٢٣)

(٢٤) خضعت صنى لمملكة مالى عام ١٣٢٥ م زمن السلطان المالى كنكن موسى ، ثم خرجت زمن مفان الأول بن مانسا موسى (١٣٢٧ — ١٣٤١ م) ، عندما فر الرهائن من أمراء صنى وهما : على كولن وأخوه سليمان نار ولدا زاباسى ، وأعلن على كولن استقلاله بصنى وانفصاله عن مالى . (السعى ص٦٧—٧٦)

Hogben, P.P. 31—33 ; Davidson, P. 91 ; Bovill, P. 89 ; Okafor, P. 29 ; Murdock, G.P., Africa, Its Peoples a Cultural History, N. York, 1959, P. 138 ; Fage, J. An Introduction to the History of West Africa, Cambr., 1959, P. 27 ; L. Lug., P.P. 120, 146, 162—164 ; Rouch, J., Les Songhay, Paris, 1954, P.P. 9, 193 ; Le Chatellier, A., L'Islam Dans L'Afrique Occidentale, Paris, 1899, P.P. 81, 87 ;

امبراطورية صنى المؤلف .

Spitz, P.P. 70—71. (٢٥)

(٢٦) الملك الفرنسى المجاصر فى عام ١٤١٣ م هو شارل السادس من أسرة فالوا Valois (١٣٨٠—١٤٢٢ م) . وآل فالوا فرع من آل كابى Capets ، وولى بعده هو شارل الذى تولى العرش باسم شارل السابع (١٤٢٢ — ١٤٦١ م)

(راجع : Lodge, R., The Close of the Middle Ages, Lond., 1924.)

(٢٧) نواة مملكة البرتغال ، مقاطعة غاليسيا Galicia الواردة في الكتب العربية باسم جليقية ، وهي تابعة لقشتالة ، إحدى الممالك المسيحية الصغيرة في أسبانيا الإسلامية ، وأول أمير في البرتغال ، مفار فرنسي اسمه هنري البرجندي Huneric of Burgundy من أمراء آل كابي الحاكمين في فرنسا المعاصرة ، خرج هذا الأمير مفاراً من فرنسا واتجه إلى أسبانيا ، حيث ساهم في الحرب الصليبية الدائرة ضد مسلمي أسبانيا ، وزوج من ابنة غير شرعية لـ ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وكافأه ملك قشتالة على خدماته بمنحه كونتية البرتغال إقطاعاً له ، على النحر الإقطاعي المعروف في أوروبا يومئذ ، والمعروف أن ألفونسو السادس هذا هو الذي لقي الهزيمة النكراء على يد يوسف بن تاشفين المرابط في وقعة الزلاقة المشهورة عام ١٠٨٦ م .

ومن هنري وسلالته تكونت أول أسرة مالكة في البرتغال في العصور الوسطى ، ويطلق المسلمون على هنري هذا اسم « أريك » وعلى ابنه ألفونسو الأول اسم : « ابن أريك » .

كره هنري وأبنائه من بعده سيادة قشتالة ، وبمساعدة أتباعهم الإقطاعيين من نبلاء فرنسا ، حاول الاستقلال بالبرتغال ، بعد أن وسع حدودها على حساب أملاك المسلمين المجاورة ، ونجح ابن أريك ، وهو ألفونسو هنريك Alfonso Henry كونت البرتغال في الاستقلال بكونتيته ، وتفاوض مع البابوية في منحه لقب « ملك » نظير ما أداء من خدمات في الحرب ضد المسلمين .

والمحتل أن ابن إريك ، أخذ لقب ملك عام ١١٤٣ م ، قبل وصول الفرع الصليبي إلى البرتغال وهو الفرع الثاني وصل عام ١١٤٧ م ، وكان متوجهاً إلى الشرق على أثر سقوط إمارة الرها الصليبية ١١٤٤ ، على يد عماد الدين زنكي ، ليشارك في الحملة الصليبية الثانية ، وقد ساعد هذا الفرع البرتغاليين على النزاع لشبونة من المسلمين عام ١١٤٧ م وسلمها لبرتغاليين لتصبح عاصمة لهم .

ومن المقول كذلك ، أن أحد أحفاد ابن أريك ، في القرن الثالث عشر ، هو أول من أخذ لقب « ملك البرتغال » وهذا الخليفة هو ألفونسو الثالث . وسواء قامت مملكة البرتغال المستقلة في القرن الثاني عشر أم في القرن الثالث عشر ، فإن الخطوة الهامة في سياستها ، بعد ذلك ، هي تعقب المسلمين الفارين أو الجاقين إلى شمال أفريقيا ، ونقل الحرب الصليبية إلى بلادهم .

والمعروف أن عنصر القوط الجرمان ، يكثر في شمال البرتغال ، كما يوجد عدد كبير من السويث Sueni (الجلالة) ، وتمتاز سلالة السويث بطول القامة والشعر الأحمر والعيون الزرق حتى العصر الحاضر ، وصنفهم صاحب الروض المطار بأنهم « أهل غدر ودفاعة » وثياهم أصحاب الثياب ، وهي مفرجة ، تبدو من تقاربها أكثر أبدانهم ، وفيهم بأس شديد ، لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه .

والبرتغال لغة خاصة ، هي اللغة البرتغالية ، وهي طيبة لاتينية محلية . واشتهرت البرتغال باقتراح أسماء ملوكها وأمرائها عادة بكلمة « دون » Don أو « دوم » Dom . وهذا المصطلح اختصار من الكلمة اللاتينية Dominus بمعنى « سيد » Lord or Master ، وكانت المادة قد جرت في المصور الوسطى أن تلتصق كلمة « دوم » Dom بأسماء كبار رجال الدين من باب التثريف والتعظيم ، ولا سيما كبار الرهبان من فرقي : البندكتية ، والكارثودية . وتنبس الفرقة البندكتية إلى مؤسسها القديس بندكت الإيطالي /Benedict (٤٨٠ - ٥٤٠ م) ، وأما الكارثودية فنسب إلى مدينة

كارتوزيا Cartusia الفرنسية - شارترو الخالية Chartreux - قرب جرنوبل حيث نشأت  
هذه الفرقة على يد القديس برونو Bruno الكارولفي عام ١٠٨٤

(الحميري (أبو عبد الله محمد) : صفة جزيرة الأندلس ، وهو مستخب من كتاب الروض المطار  
في خبر الأمصار - نشر ليبي بروفسال ، مصر ١٩٣٧ ص ١٦ ؛ Kup, P. 32

Wiedner, P. 37 ; Johnston, P.P. 76—77 ; Runciman, S., Hist. of the Crusades, Cambr.,  
1954, Vol. II, P.P. 258—259 ; Brooke, Z. N., A Hist. of Europe (911—1198), Lond., 1947  
P.P. 108, 341—345 ; Chew, H. M., and Latham, L. C. Europe in the Middle Ages, Lond.,  
1936, P.P. 108—112, 118—119).

Wiedner, P. 38. (٣٨)

Bovill, P. 117. (٣٩)

Johnston, P.P. 28, 196—197 ; Tooley, P.P. 3—8 ; Wiedner, P. 38 ; L. lug., P. 323. (٤٠)

De La Roncière, T. II, P.P. 25, 33 Sq. (٤١)

Runciman, loc. cit., P.P. 158—159. (٤٢)

(٤٣) كلمة برستر Prestor بمعنى القديس Priest ، والقديس يوحنا شخصية جغرافية ، كان  
أهل أوروبا يعتقدون بوجودها ، وأنه يحكم إمبراطورية واسعة في آسيا ، غير أن أهل أوروبا في القرن  
الخامس عشر الميلادي ، رأوا أن المقصود بهذه الشخصية هي ملك الحبشة المسيحي وفيما قاله أهل أوروبا  
إن شهرة مانسا موسى ملك مالي لا تقل عن شهرة القديس يوحنا الأسطورية .

(Bovill, P.P. 92, 117 ; De La Roncière, T. II, P.P. 57—60).

Wiedner, P. 38 ; Brown, P. 159 ; Johnston, P.P. 77—78 , 83 ; Bovill, P. 117 ; (٤٤)

De La Roncière, T. I, P. 57, T. II, P. 85 ; Niven, C.R., The Land and people of west Africa,  
Lond., 1958, P. 24.

(٤٥) لم تقف محاولات البرتغاليين الملحة طوال القرن الخامس عشر ، حتى لقوا الهزيمة الكبرى  
المذلة أمام المغاربة المسلمين في وقعة القصر الكبير Alcazar المشهورة عام ١٥٧٨ م ، شمال غربي مدينة  
فاس ، عند شاطئ نهر لوكوس Luikus قرب ميناء العرايش ، وكان المراكشيون بقيادة مولاى  
عبد الملك الذي قتل في هذه الوقعة ، وهو الذي خلفه النقيب فاتح إمبراطورية صنها . وكان البرتغاليون  
بقيادة ملكهم الشاب دون ساسيان Don Sebastian ولهذا الكارثة التي زلت بالبرتغاليين ، أثرها  
البالغ في سوء معاملة البرتغاليين للأفريقيين خلال حركات اكتشافهم ، ويقال إن المغاربة أسروا في هذه  
الوقعة نحو ٢٦ ألف برتغالي غير القتل والفرار .

Bovill, P. 135 ; Johnston, P.P. 65—68, 77—78 ; Wiedner, P. 38.

Bovill, P. 117. (٤٦)

Wiedner, P. 38. (٤٧)

Kup, P. 29 ; Johnston, P. 78 ; Bovill, P. 118. (٤٨)

(٤٩) عن التجارة الصامتة Silent Trade or Dumb-Barter or Commerce Must.

راجع : المسعودي (أبو الحسن على ت ٩٥٦ م) : أخبار الزمان ومن أباده البلدان وصغائب

البلدان (مخطوط في مجلد رقم ٨٧٩ بدار الكتب المصرية) ورقة ٣٨ ب ، ٣٩ أ ، الغرناطي (أبو حامد محمد بن عبد الرحيم ت ١١٧٠ م) : كتاب تحفة الألياب - باريس ١٩٢٥ ، ص ٤١-٤٢ ،  
Gautier, E. F., *Le Passé de l'Afrique du Nord*, Paris, 1937, P.P. 48-58, De La Roncière, T. I, P.P. 94-99, Bovill, P.P. 82-83, Fage, op. cit., P.P. 20-21 ; Gsell, loc. cit. I, PP. 468-469 ; Shinnie, M., *Ancient African Kingdoms*, Lond. 1965, P.P. 44-46.

A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea بحث Ivor Wilks عن  
من بحوث مؤتمر الدراسات الأفريقية الذي عقد بلندن عام ١٩٦١ .

Brown, P.P. 110-111 ; Johnston, P. 78 ; Bovill, P. 117, N. I, De La Roncière, (٥٠)  
T. I, P.P. 49, 134, T. II, P.P. 45, 47-48.

(٥١) Ward, P. 59 ; *The Nigeria Handbook*, P. 23 بحث A.F.C. Ryder عن :  
البرتغاليين في غرب أفريقيا - من بحوث مؤتمر الدراسات الأفريقية الذي عقد في لندن عام ١٩٦١  
(٥٢) البابا المعاصر في عام ١٤٤٢ م هو أوجين الرابع Eugenius IV البندقي (١٤٣١-١٤٤٧ م)  
(٥٣) Johnston, P.P. 78-79.

(٥٤) عقدت معاهدة تورديلاس Tordesillas في ٧ يولية عام ١٤٩٤ م ، وبمقتضاها ظفر  
البرتغاليون بامتلاك كل ما يكشف شرق خط وهمي يسير عبر المحيط الأطلسي من الشمال إلى الجنوب ،  
ويبعد عن الرأس الأخضر بنحو ٣٧٠ ميلا . (Church, P. 215 , Bovill, P. 118).  
Bovill, P. 118 ; L. lug, P. 323. (٥٥)

Ward, P. 59 ; De La Roncière, T. II, P.P. 45, 57-48. (٥٦)

(٥٧) يقول الأدريسي عن منطقة ونقاره ، بأنها « بلاد التبر المذكورة الموصوفة كثرة وطيبا » وفي  
موضع آخر يقول « وشرق غانة أرض ونقاره أرض التبر » . وتشمل منطقة ونقاره الواقعة في أعالي  
نهر النيجر ونهر السنغال ، أربعة أمال من بينها إقليم بامبوك . ويقول المكتشف دهنام M. D. Denham  
« تطلق كلمة ونقاره على جميع مناطق الذهب وعلى الناس القادمين منها » .  
(أنظر : الأدريسي : ترجمة المشتاق ص ١٣-١٤ )

(Bovill, P.P. 191-193, 202 ; Davidson, P. 84).

Spitz, P.P. 68-69 ; Ward, P. 59 ; Bovill, P. 118. (٥٨)

Johnston, P. 79 ; De La Roncière, T. II, P. 47. (٥٩)

Church, P. 272 ; Bovill, P. 119. (٦٠)

(٦١) عرفت كلمة غينية في المغرب قبل عهد هنري ، كما ظهرت على الخريطة التي رسمها  
العالم الجنوي جيوفاني كارنيانو Giovanni Carignano عام ١٣٢٠ م ، وكان قد حصل على  
بعض المعلومات عن أفريقية من أحد سكان سيجلماسة ، كذلك ظهر هذا الاسم على الخريطة القطبانية.  
١٣٧٥ م ، Ginyia . وتدل المعلومات التي أوردها ليو الأفريقي ، على أن اسم غينية ،  
تحريف لكلمة جني Jenne لاشتهار هذه المدينة في المغرب ، باعتبارها مركزا ثقافيا اسلاميا مزدهرا  
وسوقا تجارية رائجة في النيجر ، وليس محصيا ما قيل إن غينية تحريف لكلمة « غانة » القديمة ، والراجح  
أنها تحريف لكلمة « أجويناو » ( Aguinou ) وهي التسمية البربرية للزنوج ، فقد كان  
في مدينة مراكني ، التي بناها المرابطون عام ٤٥٤ هـ - ١٩٦٢ م على يد يوسف بن تاشفين ، باب يعرف



باسم «باب أجويانو أو بوابة الزنوج» «Gate of the Negro» والتسمية الحديثة لساحل غينية ترجع إلى عام ١٤٨١ ، وهو العام الذي بنى فيه البرتغاليون حصن المينا ، وقد أخذ ملك البرتغال حينئذ الثاني ، باذن من البابا ، لقب «سيد غينية» «Lord of Guinea» وبقي هذا اللقب حتى زوال الملكية البرتغالية في المصور الحديثة ، وعرف الجنيه الإنجليزي بهذا الاسم Guinea ، لأنه ضرب لأول مرة عام ١٦٦٢ م من ذهب سبي به من هذه المنطقة أو من غرب أفريقية بواسطة الشركة الأفريقية لتجار لندن .

(راجع Bovill, P.P. 119, N. I, 272 ; Church, P. 215 ; Johnston, P. 79 ; Ce La Roncière, T. I, P.P. 49, 97, 146, 160 ; T. II, P.P. 26—27—29, 37, 42, 50—52, 66 ; Hobbey, L. F. Early Explorers, Lond., 1961, P.P. 59—61 ;

ولفس المؤلف السابق :

Opening Africa, Lond., 1962, P.P. 10—12. Bourret, F. M., Ghana, The Road to Independence, Lond., 1960, P. 12. Montell, Ch., Les Empires du Mali, Paris, 1930, P. 145.

Bovill, P. 119. (٦٢)

Ibid. (٦٣)

Church, P. 215 ; Montell, P. 145 ; Johnston, P. 79 ; Early Explorers, P.P. 59—61 ; (٦٤)  
Opening Africa, P.P. 10—12 ; De La Roncière, T. I, P.P. 49, 97, 116, 160, T. II, P.P. 26—27, 29, 37—42, 50, 60 ; Bovill, P.P. 83—84 ; 120, 195—196.

Church, P. 300 ; Fyfe, T. I, Robertson, G.A., Notes on Africa, Lond., 1819, P. 47. (٦٥)

De La Roncière, T. I, P. 93, T. II, P.P. 11—12—16—54—55—60, 67 Johnston, (٦٦)

P. 79 ; L. jug., P. 176, Rup, P. 30.

Fage, An Atlas ..., P.P. 26—27 ; De La Roncière, T. II, P.P. 75—76, T. III (٦٧)

بحث : Ivor Wilks. التي سبقت الاشارة اليه في حافية رقم P. 24 ; Johnston' P.P. 80—81, 99  
٤٨ ، بحث T. Fage عن : Some Remarks on Beads and Trade in Lower Guinea in the 16th and 17th Centuries.

من بحث مؤتمر الدراسات الأفريقية التي عقد بلندن عام ١٩٦١ .

(٦٨) تشمل هذه المشيخات : سفالة وموزمبيق وكلوه وزنبار ومبا ومبسا ومالتى ولامو وبرافا ومقديشو (راجع : مشيخات الساحل الاسلامي للمؤلف في : الاسلام والممالك الاسلامية بالغربية في المصور الوسطى - مجلة الجمعية التاريخية (١٩٥٩) ص ٤١ - ٤٤ ،

أنظر : Johnston, P.P. 82—115, 300—301.

(٦٩) بدأ الأسبان رحلاتهم للكشف والاستعمار ، من القرن الخامس عشر ، وتلامم الانجليز في القرن السادس عشر ، حين سافر هوكنز T. Hawkins وكان رحلة مفامرة ، ونزل عام ١٥٦٢ م في سيراليون واقتنص نحو ٣٠٠ زنجي أفريقي وعاد بهم ، وكان قد اتفق مع أصحاب رؤوس الأموال في إنجلترا فأمنوه بالسفن ، إذ اكتشف أن تجارة الرقيق سلمة رابحة في أوروبا وأسيانيا بصفة خاصة ، وقد أفادت الملكية الانجليزية من الأرباح ، وتجه رحلة آخرون منهم : ذريك Drake الذي كان أكثر شغفة من سلفه ؛ وأول قانون منع لفرقة انجليزية المتعابرة في ساحل غينية ، منحه الملك جيمس الثاني عام ١٦١٩ م . وأما الفرنسيون ، فأول رحلات كشوفهم كانت في القرن الرابع عشر ، كما يقولون ،

ثم دخل الهولنديون ميدان الكثف والاستعمار في أفريقية أواخر القرن السادس عشر ، واستمروا بالتجربات الروحية ، واشتد التنافس النهي والتجاري .

( أنظر L. lug., P.P. 326—332 ; Vandeleur, P.P. 245—267 ; Hallet, R., The European Exporation' (1780—1830) ; Johnston, P.P. 116 Sqq., 196 Sqq., 301—302...).

( Johnston, P. 80, Pedlar, P.P. 65—78. (٧٠)

Hogben, P. 64, Ward, P.P. 62—63 ; Reindore, P. 14, Church, P. XXIV ; L. lug., (٧١)  
P. 176, Bovill, P. 119, Kup, P. 62 ; The Nigeria Handbook, P. 24.

Wiedner, P.P.38—39 ; Reindore, P. 11, Kup, P. 62 ; Johnston, P. 80. (٧٢)

(٧٣) أنظر خريطة البرتغاليين في غرب أفريقية . L. lug., P. 323 ; Bovill, P. 120.

(٧٤) كان الفرنسيون في ذلك الوقت ، يمتلكون شريطا ضيقا على ساحل غنية ، فعملوا على التمدد وتوسيع نفوذهم ، وأسوا شركة السنغال ، وهي التي عرفت في القرن السابع عشر باسم « الشركة الفرنسية المركزية في غرب أفريقية » وأخذوا بعد ذلك يتوغلون في الداخل تدريجيا ( راجع L. lug., P. 325.)

Bovill, P. 119. (٧٥)

Hogben, P. 64. (٧٦)

Johnston, P.P. 302—303. (٧٧)

(٧٨) هذه الرسالة مكتوبة باللغة اللاتينية ومصورة بالانكرغراف ، ولا تزال باقية إلى اليوم بقسم المحفوظات الملكية الأهلية بباريس ، ولها ترجمة فرنسية . ( راجع De La Roncière, T. I, حيث توجد الرسالة و ترجمتها . P.P. 145—158.)

De La Roncière, T. I, P.P. 161—166 ; Bovill, P.P. 116—117 (٧٩)

Johnston, P.P. 302—303. (٨٠)

(٨١) السراكون هم السونك Soninké/أحد فروع الماند ، وكانوا المنصر الأساسى الذى كون امبراطورية غالة ، ومعنى السراكون بلغة الولوف : الناس الجمر Red Men ، ولعل ذلك لاختلاط دماهم بدماء البيض من العرب والبربر .

( راجع : Le chatelier, P. P. 55, 76-79, 88-95, 101-110 ; spitz, P. 61 ; De la Ranciere, T. I, P. 48 ; Baumann, H., and westermann, D, les Peuples et les civilisations de l'Afrique, Paris, 1948, P. 453 ; Urvoy, Y. Petit Atlas, Ethno- Demographique du Soudan Paris, 1942, P. P. 22 29 ; Mc. Cullock, Ethnography survey of Africa, Part II, (London), P. P. 1-4 ; Trimmingham, J. S., Islam in west Africa, Oxf., 1959, P. 13 N. 2.)

(٨٢) راجع ما سبق .

(٨٣) استولى الطوارق على تمبوكتو عام ٨٢٧ هـ - ١٤٢٣ م ، وغربوا ونهبوا ، وقد عجزت مالي عن استرجاعها ، فظل الطوارق يهاجمون طردهم حتى على ملك صنتي عام ٨٧٢ هـ - ١٤٦٨ م .

( راجع : السعدي : تاريخ السودان ص. ٢٢ ، ٢٥ - ٢٦ ، ٦٥ ، كمت : تاريخ الفتناء ص. ٨٨ ؛

Le Chatelier, P. 82 ; Davidson, P. 89 ; Bouill, P. P. 103-104 ; Gouilly, P. P. 16-17 ;

Montef, P. 41 ; Charch, P. 203 L. Lug. P. P. 140-147 O kafor- P. P. 30-31).

(٨٤) Bovill, P. 120 ; Le chatelier, P. 82.

(٨٦) التسمية العربية لقبائل الولوف هي « جلف » يقول السعدي عن بلاد فوت Futu : إنها « أرض قرب البحر المالح لسلطان جلف » ( تاريخه ص ٧٧ ) . وكان قولوف إمبراطورية كبرى ، امتدت من السنغال إلى غينيا وتتكون من خمس ممالك أو خمسة أقاليم . ودخلت الإسلام بلاد الولوف في القرن الخامس عشر . (Pedler, P. 32 ; Trimmingham, op. cit. P. 13 ; Spitz, P. 61).

Le Chatelier, P. 65. (٨٧)

(٨٨) عثرت بعثة كشف سويدية في عام ١٩٠٦ م على كتابة برتغالية على صخرة قرب نهر مبوزو موقع عليها باسم دييجو جام Cao وأسماه آخرين (Johnston, P. 80.)

(٨٩) راجع حاشية ٨٢

(٩٠) التسمية العربية « موش » Moesi عن السعدي (ص ٧٤) ، « الفتناش (ص ٧١) ، وعن أخبار هذه القبائل وممالكها ومقاومتها للإسلام ، م اعتناقها له أخيراً راجع :

Trimingham, P. 15 ; Johnston P. P. 178-179, 209, 255-257 ; le chatelier, P.P. 120-122 ; Hogben, P. P. 29, 53 ; Gouilly, P. P. 51-53, Monteil, P. 143, Urvoy, P. 28 ; Delafosse, M., Traditions Historiques et legendaires du Soudan Occidental, Paris, 1913, P. P. b-18).

(٩١) عن الفولانيين Fulani أو الفلاتا Fellata والتكاررة Tucolora راجع : (معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨٠ ،

Urvoy, P. P. 29-31. L. Ing. P. 115 ; Delafosse, Takrur (Encycl. of Islam, vol. II. P. b 33 ; Gouilly, P. P. 186, 209 ; le chatelier, P. 79-107-120, Trimmingham, P. P. 11-13 ; Bovill, P. y 84-224-232 ; Fage, An Introduction P ... ; P. 146, Johnston P. P. 12 13 ; Burns, A.S., HistorP of Nigeria, Land ; 1955 , P. P. 23-50 ; Mélanges ethnologiques, P. P. 23-29 ; Suddan government, Memorandum, P. b-7, 18.

الفولانيون للمؤلف ( تحت الطبع ) .

(٩٢) السعدي ص ٢ - ٩ ، الفتناش ص ٤٢ - ٤٥ ،

Gouille, P. 58 ; Spitz, P. 64, Rouch, op. cit. P. 9 ; L. Ing., P. 175.

إمبراطورية صنفي الإسلامية للمؤلف ( تحت الطبع ) .

(٩٣) مانسا Mansa أو مانسا Massa بمعنى ملك عند قبائل الماندينجو ( صبح الأُمى ج ٥ ص ٢٩٢ ،

Monteil, P. P. 20-22, 145, 151 ; Labouret, H., Mali, Mandingo (Encycl. of Islam) Vol. III, Mali, Mandingo (Encycl. of Islam) vol. III, P. 242).

Bovill, P. 117 N. I. أنظر (٩٤)

Labouret, P. 241 ; Fage, An Introduction P. 27 (٩٥)

(٩٦) بورمالي Bour Mali أي ملك مالي بلغة الولوف

Monteil, P. 146 ; Labouret. P. P. 203-204. Fage, op. cit. P. 27 ; (٩٧)

دولة مالي الإسلامية للمؤلف ( وزارة الثقافة في المطبعة ) .

Bovill, P. 104 (٩٨)

Fage, P. 27 ; Labouret, P. 241 ; Monteil P. 147 ; Bovill, P. 104. (٩٩)

(١٠٠) تقع مدينة جني *Jenne or Dienné* على النيجر ، وقد استولى عليها سفي على ملك صني في عام ١٤٧٧ م ، وكانت مالى زمن عظمها قد عجزت عن فتحها والاستيلاء عليها ، وجني عاصمة مملكة جني الإسلامية التي اشتهرت بكثرة علمائها وعظمها وازدهارها .

(راجع : احمدي ص ١٢ - ١٣ ، Bonill. P. 120. ، Johnston, P. P. 300-300. ؛

L. lug., P. 178-179. (١٠١)

(١٠٢) أنظر مراجع حاشية ٨٩ ، وراجع :

Bovill P. 120. L. lug., P. 177, Monteil P. 143.

Church, P. 300, Fyfe, P. I ; Fage, An Atlas, P. P. 26-27 Johnston P. P. 80-81, (١٠٣)  
99, De la Ronciere. II, P. P. 11-12. 16-145' 55' 60-65.

Bovill. P. 120 (١٠٤)

## الموارد البشرية : مقوماتها ووسائل تنميتها

للدكتور الفاروق زكى يونس

مدرس بكلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم

من الواضح أن بحوث التنمية الاقتصادية قد اتجهت فى الحقبة الأخيرة نحو الاهتمام المتزايد بما يمكن أن تقوم به العوامل غير الاقتصادية من دور فى عملية التنمية . فقد درج المفكرون على أن يأخذوا على رجال الاقتصاد تعبيرهم عن متطلبات التنمية الاقتصادية فى حدود ضيقة كل الضيق تكاد تقتصر على التغيرات فى رأس المال والعمل والتكنولوجيا لأن هذه العوامل، وإن كانت تمثل العناصر المباشرة للنمو الاقتصادى ، فإن وراءها ولا شك مجموعة من التغيرات المركبة تتناول مظاهر السلوك البشرى والعلاقات الانسانية والمنظمات التى تحكم هذا السلوك وتنظم تلك العلاقات، أو بمعنى آخر إن الفروض التى تربط بين التقدم الاقتصادى وبين طبيعة توزيع الدخل أو الحجم النسبى للمدخلات أو مدى ماعمره التضخم من ضغط أو حالة ميزان المدفوعات هذه الفروض تحتوى على علاقات سببية واضحة إلى حد كبير بحيث يمكن تتبعها والتحقق منها بطريق مباشر وبدرجة كبيرة من الدقة . غير أن هذه العوامل وحدها تقصر عن تمثيل كل المتغيرات التى تدخل فى عملية التنمية . لأن هناك من العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والانسانية والسيكولوجية ما يؤثر فى تنمية الاقتصاد القومى بطريقة أو بأخرى . غير أن الفكر الانسانى لم يصل بعد إلى الربط بين مختلف هذه العوامل فى نظرية واحدة تحقق الشمول والتماثل كما تحقق التكامل النظرى . فالعلاقة بين المتغيرات الاقتصادية وعملية التنمية قد لا يعوزها الوضوح أو التحديد ولكن أثر العوامل غير الاقتصادية على هذه العملية ما زال مبهما يكتنفه الغموض نظرا لعدم تطويعه بعد للتحديد الدقيق . وقد بذل بعض المحللين الاجتماعيين عدة محاولات فى الآونة

الأخيرة لتحديد العلاقة بين العوامل الاجتماعية والثقافية وبين التنمية الاقتصادية نذكر منها على سبيل المثال دراسة برت هوسلتر عن «الجوانب الاجتماعية للنمو الاقتصادي»<sup>(١)</sup>، ولكن هذه المحاولات في مجملها ما زالت محاولات مبدئية لم تخرج بعد إلى حيز الفروض العلمية . وبطبيعة الحال لا يستطيع رجل الاقتصاد وحده أن يتحمل هذا العبء ويتوافر على تحليل عملية التنمية من جميع جوانبها بل لابد وأن يشترك معه المشتغلون بالدراسات الاجتماعية عامة . وهنا تبرز الحاجة إلى العمل الفكري المشترك وإلى ضرورة التعاون العلمي بين رجال الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس . فن الأمور المسلم بها في علم الاجتماع أن التغيير الذي يطأ على نظام من أنظمة المجتمع يؤثر في النظم الأخرى السائدة في هذا المجتمع حسب طبيعة العلاقات التي تربط بين مختلف هذه النظم . فكيف ينطبق ذلك على عملية التنمية ؟ هل يعنى أن يكون طريق التنمية طريقا كليا متكاهلا يأخذ في الاعتبار كل النظم في المجتمع . قد يكون ذلك هو الوضع الأمثل . ولكن نظرا لما تتصف به الحياة الانسانية من تعقيد ، ولما تتطلبه عملية التنمية من تخصصات تتصل بجوانبها المتعددة فان عملية التنمية قد تستمر بناء على القطاعات المتخصصة ولتكن هذه اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية مع الأخذ في الاعتبار ما يمكن أن تخلفه التنمية في قطاع معين من أثر على القطاعات الأخرى .

وفي هذا الإطار ستكون هذه الدراسة للموارد البشرية وعلى الأخص من ناحية مقوماتها ووسائل تنميتها والدور الذي تساهم به في تنمية الاقتصاد القوي بصفة عامة . والموارد البشرية تعتبر دون شك إحدى موضوعات الساعة التي استحوذت على اهتمام كثير من المفكرين الاقتصاديين ورجال التخطيط في السنوات الأخيرة لارتباطها الوثيق بمخطط التنمية . ونظرا لما تلعبه التنمية من دور حيوي في الدول النامية أو الآخذة بأسباب النمو فسوف نحرص هذه الدراسة على الاستعانة بالأمثلة التطبيقية من مثل هذه الدول . على أنه لما كانت العناية بالموارد البشرية ليست بظاهرة حديثة بل تمتد يحدورها في الماضي فقد رأينا من الأفضل التمهيد لهذه الدراسة باستعراض مفهوم الموارد البشرية خلال التاريخ الاقتصادي مع العناية بالكشف عما تتميز به النظرة الحديثة لهذا المفهوم . وإلى جانب ذلك ستعنى

(١) Bert Hoselits : Sociological Aspects of Economic Growth (١) (Illinois, The Free Press, 1960).

هذه الدراسة عناية خاصة بجانب هام من هذا الموضوع وهو المتعلق بالاستثمارات البشرية لما لذلك من أثر على التنمية الاقتصادية وعلى الأخص بالنسبة للدول النامية.

### التعريف بمفهوم الموارد البشرية :

إن مفهوم الموارد البشرية أو الثروة البشرية كما يستخدمها البعض لا يمثل مفهوما جديدا في المجال الاقتصادي وإن كانت النظرة إليه في السنوات الأخيرة تختلف عنها فيما مضى . حقيقة إن كثيرا من رجال الاقتصاد القدام لم يولوا موضوع الموارد البشرية ما يستحقه من عناية واهتمام ، ولكن هناك من الدراسات ما يؤكد وجود هذا الاهتمام بشكل أو بآخر . ومن الأدلة على ذلك دراسات آدم سمث نفسه . فقد تضمنت هذه الدراسات إشارات عدة إلى مفهوم الثروة البشرية وإن لم يعالجها بطبيعة الحال بنفس الاتجاه السائد في الوقت الحاضر أو على نفس الأسس الحديثة . ذهب آدم سمث إلى أن صالح الأمة يقتضى مساعدة كل شخص على تنمية إمكانياته وقدراته وعلى كفالة حريته في استخدام هذه الإمكانيات وتلك المقدرات . ولا شك أن النظرة المتعمقة للدراسة سمث الشهيرة في كتابه « ثروة الأمم » تحملنا على الاعتقاد بأن سمث كان يرى أن السبيل إلى تنمية ثروة الأمة يقوم على الخبرة والمهارة وحسن التقدير في استخدام العمل بصفة عامة علاوة على ما أكدته سمث من أهمية التعليم بالنسبة لأفراد الأمة حين ذهب إلى أن المجتمع لا بد وأن يضمن لكل فرد من أفرادها فرصة الحصول على قسط من التعليم يساعده على مواجهة مطالب الحياة . جملة القول أن آدم سمث قد نظر إلى أفراد المجتمع باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من ثروة هذا المجتمع وإن لم يعالج مفهوم الثروة البشرية بنفس الطريقة التي عالج بها مفهوم رأس المال وهنا يظهر الاختلاف بينه وبين الاتجاه الحديث . هذا وقد أشار مفكرون اقتصاديون آخرون لإشارات عابرة إلى جانب أو أكثر من جوانب الموارد البشرية خلال كتاباتهم وتحليلاتهم الاقتصادية مثل أثر التعليم أو المهارات أو الأجور أو ما يتصل بها من العوامل على التقدم الاقتصادي . وهنا ينبغي الإشارة إلى ما ذهب إليه جون ستيوارت مل في دراسته للمهارات من أن الناس حيث يوجهون الاستثمارات نحو أنفسهم فانهم بذلك يزيدون من فرص العمل أمامهم مما يسهم في زيادة رفاهيتهم في الحياة وهذا بدوره يزيد من

الرفاهية الاجتماعية . وعلى نفس المنوال سار جورج مارشال وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة . رأى جورج مارشال أن توجيه الاستثمارات نحو الفرد ذاته عن طريق التدريب المهني واكتساب المهارات إنما يمثل استثمارا مجزيا بالنسبة للمجتمع ، ومن شأن ذلك أن يؤدي في المدى الطويل إلى تنمية موارد الأمة . ومن هنا جاء اهتمام مارشال بموضوع العمال غير الفنيين فنادى بضرورة تدريبهم وتوجيههم التوجيه المهني الذي يساعدهم على شق طريقهم في الحياة وفي نفس الوقت يمكنهم من المساهمة في نهضة المجتمع . ومن ثم أصبح مارشال من أكبر الدعاة إلى تطوير نظم التعليم لتكون أكثر عمقا وفاعلية ولتساهم في دعم الخلق وتنمية الطاقة البشرية .

وهكذا نرى أن مفهوم الثروة البشرية قد ظهر بصورة أو بأخرى خلال التاريخ الاقتصادي إلا أنه لم يقبل ولم يتقدم نحو الوضوح النظري إلا في الدراسات الاقتصادية الحديثة . وإذا كان الأمر كذلك فما هو وجه الاختلاف بين النظريتين القديمة والحديثة بالنسبة لمفهوم الموارد البشرية . وهنا يمكن القول بأن الفارق الأساسي بينهما يكمن في أن الموارد البشرية أصبحت جزءا لا يتجزأ من الثروة القومية مثلها في ذلك مثل الطبيعة ورأس المال . وبناء عليه فإن الاستثمارات يمكن أن توجه إلى الناس أنفسهم . كما يمكن أن توجه إلى عوامل الإنتاج المختلفة والاستثمار البشري لا يقل أهمية عن الاستثمارات الأخرى . هذا الاتجاه الحديث في فهم الموارد البشرية بدأ يجد له أنصارا كثيرين في الحقبة الأخيرة ومن أشهر هؤلاء الاقتصادي الأمريكي تيودور شولتز للدرجة أن فكرة الاستثمار البشري تكاد تكون مقرونة باسمه . وقد قدم شولتز في هذا الموضوع بحثا عكفا نذكر منها « رأى اقتصادي في توجيه الاستثمار نحو الإنسان » وقد نشر بمجلة الخدمة الاجتماعية الأمريكية في يونيو سنة ١٩٥٨ و « استثمار رأس المال البشري » ونشر بالمجلة الاقتصادية الأمريكية في مارس سنة ١٩٦١ .

يفرق شولتز بين نوعين من رأس المال ، رأس المال البشري ورأس المال الطبيعي ، وإن كان المفهوم الأول لم يصل بعد إلى درجة الوضوح والدقة التي وصل إليها الثاني . وهو يشرح ما يقصده برأس المال البشري في قوله : « من الواضح أن الناس يكتسبون خبرات ومعارف نافعة على أنه ليس بنفس الوضوح أن هذه



الخبرات وتلك المعارف تعتبر شكلا من أشكال رأس المال الذى تكون إلى حد كبير نتيجة لاستثمارات موجهة . بل إن هذا النوع من رأس المال قد نما فى المجتمعات الغربية بدرجة أسرع من نمو رأس المال المتعارف عليه ( غير الانسانى ) وقد أصبح هذا النمو من أبرز معالم النظام الاقتصادى<sup>(١)</sup>.

وهكذا يذهب الاتجاه الحديث إلى النظر لأفراد الأمة باعتبارهم جزءا هاما من ثروة هذه الأمة . أضف إلى ذلك أن الاستثمارات البشرية تزيد من الثروة القومية لدرجة أنه فى بعض الدول الغربية ساهمت الثروة البشرية فى الانتاج مساهمة فعالة لا تقل عن مساهمة عوامل الانتاج الأخرى . ولكن هذا الفهم للثروة البشرية على الرغم من أهميته لم يدخل ضمن مفهوم الثروة القومية نظراً للزعة التقليدية نحو قصر المفهوم الأخير على الطبيعة ورأس المال . ومن ثم يمكن تلخيص الأسباب التى تفسر ذلك الإعراض عن النظر إلى الثروة البشرية للأمة باعتبارها جزءا من رأس المال فيما يلى :

١ - القيم الاجتماعية والمعتقدات التى حرمت النظر إلى الناس باعتبارهم نوعا من الاستثمار إلا فى حالة الرق وهى ظاهرة انقرضت فى المجتمعات الحديثة ، ومن هنا قد يبدو أن دراسة الناس باعتبارهم شكلا من أشكال الثروة يتعارض مع القيم التى تسود المجتمع الانسانى إذ قد تفسر هذه الزعة على أنها تنزل بهؤلاء الناس إلى مرتبة الثروة المادية وهى صورة ترتبط بنظم الرق ونظام الاقطاع .

٢ - النظرة الاقتصادية التقليدية لعوامل الانتاج والتى تتألف من الطبيعة ورأس المال والعمل ، علاوة على أن الفهم التقليدى للعمل باعتباره إحدى عوامل الانتاج لم يعنى عناية كافية بمحتوياته من رأس المال بما أدى إلى النظر إلى العمل فى أغلب الأحيان على أنه كلى متجانس . وبطبيعة الحال قد لا يصدق هذا الفهم فى كل الأحيان إذ أن عدد ساعات العمل التى يقدمها الشخص لا يمكن أن تكون مقياسا دقيقا للعمل باعتباره عاملا من عوامل الانتاج . وقد أوضح شولتز ذلك حين أشار إلى أننا إذا أضفنا ساعة عمل لمهندس إلكترونى إلى ساعة عمل لأحد

---

(١) Theodore Schultz « Investment in Human Capital » American Economic Review, March 1961.

عمال الزراحين فائزاً بذلك نضيف ساعات من العمل غير متجانسة أو متكافئة على الإطلاق لأن الاستثمار في كل حالة يختلف بدرجة ملحوظة : وهو يشبه ذلك بحالة ما إذا أضفنا فداناً من أرض فقيرة جرداء إلى فدان من أرض خصبة وفيرة الانتاج نتيجة لما استثمر فيها من رأس المال كما لو كان هناك وجه للمقارنة بينهما من الناحية الانتاجية (١) .

٣ - ومن الأسباب ذات الصبغة الاقتصادية كذلك أن مفهوم رأس المال قد اقتصر على أشكال الثروة التي يمكن أن تباع وتشترى في السوق ، وبطبيعة الحال لا تسمح هذه النظرة بالاعتراف بالثروة البشرية على أنها نوع من رأس المال .

٤ - الاختلاف بين طبيعة رأس المال البشري ورأس المال المادى فى مدى خضوع كل منهما للقياس الكمي . إذ لا شك أن سهولة القياس الكمي لرأس المال المادى وإمكان التعبير عن العلاقة بين رأس المال وبين العائد من استثماراته بصورة كمية كانت من بين الأسباب التي صرفت علماء الاقتصاد عن الاهتمام بدور الموارد البشرية فى التنمية الاقتصادية .

ومهما كانت الأسباب التي حالت دون فهم الثروة البشرية على أنها رأس المال للأمة فإن هذا الفهم الجديد قد بدأ ينمو فى السنوات الأخيرة ويجد له كثيراً من المؤيدين نتيجة لعدة عوامل أهمها عاملان : العامل الأول يتعلق بالدول المتقدمة وعلى الأخص فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لوحظ أن الانتاج القومى قد زاد بنسبة أكبر من الزيادة فى الأرض ورأس المال المنتج وساعات العمل التي أنفقت فى الانتاج . وهكذا ذهب البعض إلى أن استثمارات رأس المال البشري يعتبر أفضل تفسير لهذا الاختلاف .

أما العامل الثانى فيتعلق بالدول النامية ذات الموارد المحدودة عادة وبالتالي تظهر حاجة هذه الدول إلى توزيع هذه الموارد التوزيع الأمثل الذى يعود عليها بأقصى فائدة ممكنة . ويتقضى ذلك النظر إلى رأس المال باعتباره متضمناً لكل من الثروة البشرية وغير البشرية، بل قد تكون الحاجة ماسة إلى هذا الفهم الجديد

Theodore Schultz « Investment in Man : An Economist's view » (١)

Social Service Review, June 1959, 111-112.

فى الدول النامية نظرا لتخلف مواردها البشرية إذا قورنت بالدول المتقدمة صناعيا .  
وهنا تجدر الإشارة إلى أن الرخاء فى الولايات المتحدة الأمريكية يرجع حقيقة إلى وفرة الموارد الطبيعية وإلى التقدم التكنولوجى والقدرة التنظيمية العالية ولكن ذلك لا يمنع من وجود عوامل أخرى يسلم بوجودها وعلى الأخص القوة العاملة التى تتوافر لها وسائل التعليم والصحة والرعاية . وليس الحل كذلك فى معظم الدول النامية والتى ما زالت تعاني من انتشار الأمية والمرض وسوء التغذية . ومن ثم فالتنمية فى مثل هذه الدول لا بد وأن تراعى توجيه الاستثمار إلى كلتا الناحيتين إلى الموارد البشرية وغير البشرية ، بمعنى أن يكون الاستثمار فى بناء المصانع وإنشاء الطرق والمرافق العامة وفى نفس الوقت يوجه جانب من الاستثمارات إلى التعليم والتدريب الفنى والمهنى ورفع المستوى الصحى والغذائى للجماهير التى ستتولى تعبيد الطرق وبناء المنشآت وتشغيل الآلات ، وهذه ولا شك مهمة شاقة تواجهها كثير من الدول النامية نظرا لمواردها المحدودة فى فترة زادت فيها تطلعات الشعوب نحو حياة أفضل بعد قرون من التخلف والجمود نتيجة التحكم الاستعمارى أو السطى الاقطاعى مما يؤكد أهمية الاستثمارات الموجهة نحو إثروة البشرية فى هذه الدول .

وإذا كان للاستثمار البشرى مثل هذه الأهمية ينبغى التعرف إذن على المقصود بالموارد البشرية بصفة عامة ومقومات الاستثمار البشرى بصفة خاصة . فما هو المقصود إذن بالموارد البشرية : لا شك أنه من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق لهذا المفهوم على الأقل فى الوقت الحاضر نظرا لحداثة العهد به ولعدم الاتفاق على ماهيته ومقوماته . ومن الطبيعى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لمفهوم جديد يتعلق بالجوانب البشرية لعملية التنمية كما يرتبط بنظرتنا إلى الاستثمارات البشرية بصفة عامة . إن للموارد البشرية أبعادا بعضها كمية وبعضها أبعاد نوعية . وتنصرف الأبعاد الكمية إلى عدد الأفراد فى المجتمع ونسبة من يقوم منهم بعمل منتج وعدد ساعات العمل وما إلى ذلك من الخصائص الكمية هؤلاء الأفراد . على أن الاتجاه الغالب لا يعنى كثيرا بالأبعاد الكمية للموارد البشرية أو على الأقل

لا يقتصر عليها إذ لو اعتمدنا على هذا المعيار وحده لتفوقت الدول النامية وخاصة المكتظة منها بالسكان على غيرها من الدول على أساس النسبة العددية وليس ذلك هو كل ما تنصرف إليه الموارد البشرية ، إن التفهم السليم للموارد البشرية يقوم أساسا على الأبعاد النوعية لهذه الموارد . وهكذا لا ينصرف المعيار إلى عدد أفراد المجتمع وإنما إلى خصائص هؤلاء الأفراد من الناحية الانتاجية . ومن هنا نرى أن تيودور شولتز قد أكد في تعريفه للموارد البشرية المقومات النوعية لها مثل المهارة والمعرفة والصفات المماثلة التي تؤثر على القدرات البشرية الموجهة نحو العمل المنتج <sup>(١)</sup> وبناء على هذا التعريف فالاستثمارات التي تؤدي إلى تنمية هذه القدرات تعتبر في الغالب استثمارات بشرية .

أما فردريك هاريسون الذي عفى بالجانب التعليمي في تنمية الموارد البشرية فقد وجه اهتمامه في تحديده لهذه الموارد أو لرأس المال البشري إلى النشاط المهني والمستويات التعليمية لأفراد المجتمع ، إذ يمكن في نظره قياس حصيلة الدولة من الموارد البشرية ذات المستوى العالي بحصر عدد الأفراد الذين أمموا تعليمهم الثانوي أو العالي . وقد أدرك هاريسون أن نسبة من هؤلاء الأفراد قد لا يستخدمون بالفعل في وظائف ذات أهمية اجتماعية مثل ربات البيوت والعاطلين والمتقاعدین والمرضى ولكنه يرى أن المجموع الكلي لهؤلاء الأفراد الذين وصلوا إلى ذلك المستوى التعليمي يدل بالتقريب على حجم الوعاء الذي تستمد منه الدولة ما يلزمها من الأفراد لشغل الوظائف الاستراتيجية في المجتمع <sup>(٢)</sup> . ولا شك أن هذا الاتجاه في التعريف بالموارد البشرية يعكس الاهتمامات الخاصة لصاحبه إذ أن هاريسون يعد من الاقتصاديين القلائل الذين عنوا بتحليل الاقتصادى للاستثمارات الموجهة نحو التربة والتعليم .

جلة القول أن التعريف بالموارد البشرية لدولة من الدول لا يقتصر على عدد سكان هذه الدولة ونسبة الفئات المنتجة فيها وعدد ساعات العمل وإنما ينصرف

---

Theodore Schultz « Investment in Human Capital » op. cit. (١)

Frederick Harbison and Charles Myers, Education, Manpower (٢)  
and Economic Growth, McGraw Hill, New York, 1964. Chapter II.

بصفة خاصة إلى خصائص هؤلاء السكان ذات الصلة الوثيقة بالانتاج . على أن ذلك لا ينبغي بأية حال أن ينفي أهمية الجانب الكمي للموارد البشرية على أن يرتبط ذلك بالجانب النوعي لهذه الموارد بطبيعة الحال . وإذا كان الأمر كذلك فما هي تلك الخصائص النوعية والتي يمكن اتخاذها معيارا لقياس الجانب الكمي للموارد البشرية . الاتجاه الغالب هنا هو تعداد مختلف القدرات البشرية التي يمكن أن تؤثر على الطاقة الانتاجية بطريقة أو بأخرى . وإن كان الاتفاق على تحديد هذه القدرات أو وضع قائمة شاملة لها ما يزال صعب المثل . ولكن ذلك لا يمنع من ذكر بعض هذه القدرات البشرية على سبيل المثال لا الحصر وهنا تجدر الإشارة إلى : المعرفة والمهارة ، الكفاءة الفنية ، المبادرة ، الأمان والثقة بالمستقبل ، الحيوية والاقبال على العمل والكفاح فيه ، الأمانة في العمل والثقة المتبادلة ، روح الابتكار ، تحكيم العقل ، القدرة على التنظيم ، النظرة التقدمية ، الطموح والمثابرة في تحقيق الهدف ، هذه هي نماذج من القدرات البشرية التي تمثل الجانب النوعي للموارد البشرية : وهي تلك القدرات التي تعمل الاستثمارات البشرية على تدعيمها وتنميتها . وبناء عليه فقد اتجهت بعض الجهود الفكرية نحو الاهتمام بفكرة الاستثمار البشري من ناحية ماهيته ومقوماته . ونشير في هذا الصدد إلى إحدى وثائق الأمم المتحدة التي حاولت تعريف الاستثمار البشري على أنه « ذلك الاستثمار الموجه نحو المشروعات الاجتماعية اللازمة للنمو الاقتصادي » (١) ولكن الوثيقة عادت فتوهم بأن هذا التعريف ما زال تعريفا مبدئيا يفتقر إلى كثير من الدقة والوضوح النظري : أضف إلى ذلك أننا لا يمكن أن نتوقع بطبيعة الحال أن تساهم كل الاستثمارات الاجتماعية في تنمية القدرات البشرية . ليس ذلك فحسب بل إن العلاقة بين الاستثمارات الاجتماعية والقدرات ما زالت علاقة يكتنفها الكثير من الغموض بمعنى أننا لا نستطيع أن نحدد أى شكل من أشكال الاستثمار يؤدي إلى تنمية أى نوع من القدرات ، أو ما هو أثر استثمارات بعينها على هذه أو تلك من القدرات البشرية .

United Nations, Report on the World Social Situation ; New York, 1961.

ومن ثم نجد الاستثمار من الناحية الفعلية ينحصر فى الاتفاق فى ميادين معينة كالـتعليم والصحة والاسكان والتدريب والرعاية الاجتماعية وما إلى ذلك .

ولا شك أنه مما يزيد الأمر صعوبة فى محاولة تعريف الاستثمار البشرى تعريفاً أدق علاوة على كونه مفهوماً جديداً ، هى مشكلة التفرقة بين الاستثمار والاستهلاك والتفرقة بين الاستثمار البشرى واستثمار رأس المال . أما فيما يتعلق بالمشكلة الأولى نلاحظ أن من الصعاب التى يصادفها المفكرون فى معالجة مفهوم الاستثمار البشرى هى كيفية التفرقة بين الاتفاق من أجل الاستثمار والاتفاق فى وجوه الاستهلاك المختلفة . فبينما نستطيع تقدير الاستثمار الموجه نحو إنتاج السلع المادية عن طريق حجم الاتفاق اللازم لإنتاج هذه السلع نجد أن كثيراً من أوجه الاتفاق على أفراد المجتمع سواء قام بذلك الأفراد أنفسهم أو السلطات العامة يمكن أن تكون استثماراً من ناحية واستهلاكاً من ناحية أخرى . مثال ذلك الصحة الجيدة تعتبر متعة فى ذاتها وفى نفس الوقت فالارتفاع بالمستوى الصحى يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاستثمار موجه نحو تنمية قدرات الأفراد باعتبارهم عنصراً هاماً من عناصر الإنتاج . والأمر كذلك بالنسبة للتعليم فإذا كانت بعض البرامج التعليمية تعتبر استثماراً أكثر منها استهلاكاً فالبعض الآخر يتخذ موقفاً وسطاً ، مثال ذلك أنه إذا اتجه التعليم نحو التكنولوجيا والتدريب الفنى عد فى هذه الحالة استثماراً ، أما إذا دار التعليم حول المهردرات والموضوعات الأدبية فإنه يميل أكثر إلى جانب الاستهلاك . على أن هذا الفصل لا يمكن بأية حال أن يكون فصلاً تاماً إذ أن كل استثمار على هذا النحو ستكون له جوانب إنتاجية وأخرى استهلاكية وهى جوانب متصلة بعضها ببعض بحيث أن الفصل بينهما ينطوى على الكثير من التعسف . فإذا نظرنا إلى الاستثمار البشرى فى ضوء التنمية الاقتصادية لمجتمع ما فلا شك أن بعض الاستثمارات ستعطى نتائج مباشرة والبعض نتائج غير مباشرة ، والبعض الآخر لا يؤثر تأثيراً ملموساً على التنمية الاقتصادية ، وبناء عليه فلا بد أن تخضع الاستثمارات البشرية لنظام دقيق للأولويات يأخذ فى الاعتبار متطلبات الموقف وظروف المجتمع وهذه هى إحدى الوظائف الأساسية لخطة التنمية فى الدول

التي أخذت بالخطيط القوى كنهج لتحقيق التقدم الاقتصادى والرفاهية الاجتماعية .

ننتقل بعد ذلك إلى المشكلة الثانية التي تصادفنا فى تحليلنا المبلى لمفهوم الاستثمار البشرى وهى تلك المتعلقة بالفرقة بين الاستثمار البشرى واستثمار رأس المال ، إذ كثيرا ما يدور النقاش حول منطقية تحويل جانب من الاستثمارات من الموارد الطبيعية والمادية إلى الموارد البشرية . قد يعتقد البعض أن الطريق إلى النمو الاقتصادى هو فى زيادة استثمار رؤوس الأموال فى المشروعات الاقتصادية وتخفيض الاتفاق الاجتماعي ، أى فى زيادة استثمار رأس المال المادى وتخفيض الاستثمار البشرى على أساس أن الأول يعتبر استثمارة منتجا فى حين أن الثانى يعتبر أقل إنتاجا أو غير منتج على الإطلاق ، هذا الاتجاه لا شك ينظر إلى التنمية من جانب واحد ويفعل الجوانب العديدة التي تتضمنها تلك العملية . وفى ذلك يرى تودور شولتز « إن الإنسان الذى يخترع الآلة يصونها ويديرها والمؤسسات الاجتماعية التي ترعى هذا النشاط وتشجعه ليست أقل أهمية من الآلة نفسها فى سبيل الإنتاج » (١) بمعنى أن النمو الاقتصادى لا يمكن أن يقوم على استثمار رأس المال مغفلا الاستثمار البشرى . حقيقة قد يحقق الاقتصاد تقدما مطرأ فى هذه الحالة ولكن هذا الطريق لا يقدم من الضمانات ما يحول دون نشوء الأزمات أو ما يسمى بمشاكل عتق الزجاجة فى المستقبل وعلى الأخص فى الدول النامية التي تفتقر إلى متطلبات الاقتصاد النامى من موارد بشرية ذات مستوى عال من الكفاءة والخبرة . بل إن أهمية الاستثمار البشرى لا تقتصر فى الواقع على الدول النامية بل تمتد كذلك لتشمل الدول المتقدمة . وإن اختلف اتجاه الاستثمار البشرى فى كل منها . يؤكد ذلك المفكر الاقتصادى جون جالبريث فى تحليله الدقيق لظاهرة الفقر فى الولايات المتحدة الأمريكية والتي يعتبرها سبة فى جبين هذا المجتمع الثرى . ويتبنى جالبريث من هذا التحليل إلى أن المشكلة ليست فى معرفتنا بما يجب عمله وإنما ترجع إلى الفشل الذريع فى توجيه الاستثمارات نحو الناس » (٢) ومن ثم نادى

Theodore Schultz, op. cit. p. 8.

(١)

John Galbraith, The Affluent Society, Houghton and Mifflin Co., Boston, 1958 pp. « 331—332 ».

(٢)

جالبريث بزيادة الاستثمارات البشرية وعلى الأخص بين الطبقات الفقيرة وبين الأطفال الفقراء لأن زيادة الاتفاق في وجوه التعليم والتغذية والصحة والترويح من شأنه أن يخلق من هؤلاء الأطفال الفقراء رجالا على جانب كبير من القدرة والكفاءة الانتاجية .

فلاستثمار البشرى إذن واستثمار رأس المال يكمل بعضهما البعض . على أنه ينبغي الإشارة هنا إلى أنه لا يوجد حتى الآن معيار دقيق يمكن اتخاذه أساسا لتوزيع الموارد بين الاستثمارات البشرية واستثمارات رؤوس الأموال إذ يعتمد ذلك بطبيعة الحال على ظروف الزمان والمكان وعلى ظروف كل دولة وطبيعة المرحلة التى تمر بها . بل إنه مما يزيد الأمر تعقيدا أن أى قرار فى هذا الشأن قد لا يبنى على اعتبارات اقتصادية أو علمية بحتة إذ قد تتدخل العوامل الاجتماعية والسياسية فى تشكيل هذا القرار وتوجيه مضمونه وجهة دون أخرى . على أنه مما لا شك فيه أن الاستثمار المادى والبشرى لا بد أن يكمل بعضهما البعض فى خطة التنمية والمضى ينبغي أن تتولى فى نفس الوقت إقامة نظام للأولويات على أساس متين . وفى ذلك يشير الميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة إلى « أن التخطيط الاشتراكى الكفء هو الطريقة الوحيدة التى تضمن استخدام جميع الموارد الوطنية المادية والطبيعية والبشرية بطريقة عملية وعلمية وإنسانية لكى تحقق الخير لجميع الشعب وتوفر لهم حياة الرفاهية » (الباب السادس) . وفى هذا الإطار ننتقل إلى استعراض مختلف أشكال الاستثمارات البشرية ، تلك الاستثمارات التى من شأنها تنمية الموارد البشرية من ناحية والمساهمة فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى من ناحية أخرى . ونظرا لتعدد هذه الأشكال ولأهمية بعضها بالنسبة لمجتمعنا وبالذاتة لمجتمع آخر فسنقتصر على استعراض الأشكال الرئيسية للاستثمار البشرى وبالذاتة للبلد النامية بصفة خاصة . ومن هذه الناحية نناقش ثلاثة أشكال للاستثمار البشرى هى : التعليم والصحة والرعاية الاجتماعية .

**التعليم :** إلى أى حد تودى استثمارات التعليم إلى تنمية القدرات البشرية وبالتالي إلى المساهمة فى تنمية الثروة القومية ؟ لقد كان التعليم وما زال استثمارا مجزيا بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع كذلك ، ونظرة سريعة إلى مختلف الدول



تؤكد لنا أن النمو الاقتصادي والاجتماعي كان مصحوبا دائما بارتفاع المستوى التعليمي ، فالدول المتقدمة صناعيا هي الدول التي حققت تقدما فائقا في المستوى التعليمي وبالعكس نجد الدول النامية ما زالت تعاني من انتشار الأمية بين غالبية شعبيها . وقد توصلت بعض الدراسات التي أجريت في هذا الشأن إلى الكشف عن الارتباط الوثيق بين انتشار التعليم وبين ما وصلت إليه الدولة من نمو اقتصادي ومن تصنيع . وباستخدام وسيلة التحليل الارتباطي وجدت إحدى هذه الدراسات أن التصنيع والتعليم سنة ١٩٥٠ يرتبطان ارتباطا قويا بمعامل ارتباط قدره ٨٧,٠ (١) (انظر الجدول ) . وتعليل ذلك أن التعليم لا يعتبر عنصرا ضروريا لممارسة الزراعة التقليدية وما يتصل بها من حرف يدوية إذ يمكن اكتساب الخبرات اللازمة لهذه الحرف عن طريق الملاحظة والتقليد في الحقل أو في العمل ، كما تنتقل المبادئ الأساسية لكل حرفة شفاهة من الكبار إلى الصغار دون ما حاجة إلى إجادة القراءة والكتابة على الأقل ، وبالتالي لا يكتسب التعليم قيمة كبرى في هذا النوع من المجتمعات التقليدية . على أنه مما ينشئ سلبية الأفراد تجاه التعليم في مثل هذه المجتمعات قصور الموارد الحكومية عن تهيئة فرص التعليم للأفراد أو تقاعسها عن نشره . وكلما اتجه المجتمع نحو التصنيع كلما اتسع مجال العمل أمام الأفراد وانتقلوا من الزراعة إلى الصناعة وبالتالي يزداد البافع لديهم نحو تعليم أنفسهم أو أولادهم على الأقل ، وكلما أصبح التعليم قيمة في ذاته ووسيلة للحراك الاجتماعي الرأسي .

ولا شك أن الثورة الصناعية قد ارتبطت بانتشار التعليم في الدول التي سبقت في المضمار الصناعي ويرجع ذلك فيما يرجع إلى المتطلبات التكنولوجية الحديثة والحاجة إلى فتح آفاق جديدة للتدريب الفني للطبقات العاملة وقيام هذا التدريب على أساس من العلوم مما استلزم توجيه جانب كبير من الاتفاق نحو البرامج التعليمية والتدريبية ، وقد أدى ذلك بدوره إلى زيادة متوسط سن الدراسة وإلى زيادة مطردة في عدد الأفراد الذين يقضون سنوات أطول في المعاهد التعليمية بمختلف أنواعها . أضف إلى ذلك ما لوحظ من الارتباط بين انتشار التعليم وبين

(١) Hilda Hertz Golden « Literacy and social change in underdeveloped countries ».

Underdeveloped Areas, Lyle Shannon (ed.) New York 1957 pp. 108-109.

حصول مختلف طبقات المجتمع على حقوقها السياسية . فازدياد نسبة التعليم بين أفراد الجماعة ما من شأنه أن يهيء هذه الجماعة للمطالبة بحقوقها السياسية إن لم تكن قد حصلت عليها وبالتالي يكفل لها وسيلة المشاركة في العمل السياسي في المجتمع . ومن ناحية أخرى فإن حصول جماعة ما على حقوقها السياسية يمهّد لها السبيل للعمل على رفع المستوى التعليمي لأفرادها لذا وكيفا ومن ثم يساعدها على المشاركة في العمل السياسي في سبيل التقدم القوي .

### نسبة الأمية في الدول المتقدمة والنامية

النسبة المئوية لعدد الأميين بين السكان ابتداء من سن ١٠ سنوات فأكثر			التقسيم الجغرافي
الدول النامية	الدول المتقدمة	كل الدول	
٧٠	٦	٤٧	العالم
—	٢	٢	أمريكا الشمالية
٢٠	٣	٨	أوروبا
٨٨	١	١١	الأوقيانوسية
—	١١	١١	روسيا
٥١	١٧	٤٢	أمريكا الجنوبية
٥٢	٢٠	٤٨	أمريكا الوسطى
٧٥	٢	٧٠	آسيا
٩١	٥٥	٨٨	أفريقيا

### المصدر :

H. Golden «Literacy and social change in underdeveloped countries» Underdeveloped Areas, L. Shannon (ed.) New York, 1957 p. 109.

جاء القول إن التعليم في الدول النامية يرتبط ارتباطا قويا بزيادة حركة التصنيع والتحضّر ، وبطبيعة الحال فاللتزام بين المتغيرات لا يعني وجود علاقة سببية بينها أو بمعنى آخر إن التعليم وحده قد لا يحقق مستوى عاليا من التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، أي أن التعليم يعتبر شرطا ضروريا للتنمية ولكنه لا يمكن بأية حال أن يكون شرطا

كافيا . وبناء عليه يصبح التعليم شكلا من أشكال الاستثمار البشرى لأنه يؤدي للاقتصاد خدمات إنتاجية من ناحية كما يساهم من ناحية أخرى فى زيادة الدخل القومى على أساس ما يحققه من إضافات إلى رأس المال البشرى ومن ثم تؤدي الاستثمارات الموجهة نحو التعليم إلى زيادة الانتاج . وإذا كان الأمر كذلك فإن البرامج التعليمية التى تؤدي بصلة مباشرة إلى زيادة الانتاج فى الدول النامية تستحق التوسع فيها على أساس أن ما ينفق على هذه البرامج من أموال يعتبر استثمارا لرأس المال تماما كالأموال التى تنفق على الزراعة والصناعة والرعى . وبما يؤيد أهمية التعليم فى تنمية القدرة الانتاجية للأفراد ما لوحظ من تفاوت فى الدخل بين البيض والزنوج فى المنطقة الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية نتيجة للتفاوت فى القدرة الاقتصادية بين البيض والزنوج مع اتفاقهم فى مستويات السن والتعليم ، وتعليل ذلك يبنى على اختلاف نوعية التعليم الذى يتلقاه أفراد كل من الفئتين ، ويرجع هذا الاختلاف إلى أن استثمارات التعليم أقل عند الزنوج منها عند البيض مما يؤثر على قدرتهم الاقتصادية وبالتالي يقل دخل الزنوج عن الأبيض فى هذه الولايات بالرغم من الاتفاق فى السن والتساوى فى عدد سننى الدراسة (١) . وغنى عن الذكر أن هذا الفهم للتعليم باعتباره استثمارا بشريا يؤثر بعض المشاكل من الناحية التطبيقية مما يدعو إلى تضافر الجهود من جانب رجال الاقتصاد والاجتماع لحلها . مثال ذلك وسائل تقدير رأس المال البشرى بشقيه الاجالى والصافى وكيفية قياس نسبة الزيادة فى الدخل القومى المترتبة على التعليم ونسبة العائد من استثمارات التعليم وكيفية التفرقة بين التعليم للاستهلاك والتعليم للاستثمار . ولا شك أن الدقة فى توجيه استثمارات التعليم تتطلب المباحرة بتمحيص هذه المسائل فالرجال ما زال بكرا أمام الباحثين .

وقد نلخص فرديريك هاريسون فى دراسته للعلاقة بين استثمارات التعليم والنمو الاقتصادى الأساليب المتبعة فى التحليل الاقتصادى لاستثمارات التعليم فى أربع طرق رئيسية :

Gary Becker. The Economics of Discrimination. Chicago, (1)  
University of Chicago Press, 1967, pp. 91-92.

(أ) قياس العلاقة بين الانفاق على التعليم ومقدار النمو في الدخل أو في تكوين رأس المال المادى فى مجتمع معين وفى فترة زمنية محددة .

(ب) حساب معدل العائد من الانفاق على التعليم .

(ج) طريقة الباقي لقياس مدى مساهمة التربية فى إجمالى الدخل القومى .

(د) حساب معاملات الارتباط بين البلاد من حيث نسب القيد بمعاهد التعليم المختلفة وإجمالى الدخل القومى .

غير أنه عاد فنوه بأنه من الناحية العملية فإنه من الصعب إن لم يكن من المستحيل قياس العائد الاقتصادى من أى برنامج تعليمى بنفس الطريقة أو على نفس المستوى من الدقة التى يقاس بها العائد من أحد المصانع أو السدود بسبب صعوبة التفرقة بين ما يعتبر استهلاكاً من هذا البرنامج وما يدخل منه فى نطاق الاستثمار . وبناء عليه انتهى هاريسون إلى تقديم مقياس مركب لمستويات تنمية المواد البشرية يقوم على أساس المجموع النسبتين : الأولى هى النسبة المثوية للمقيدين فى المرحلة الثانية من التعليم ( المرحلة الثانوية ) فى فئة السن ١٥-١٩ بشرط تعديل هذه النسبة لتأخذ فى الاعتبار الاختلاف فى طول هذه المرحلة من دولة لأخرى . والثانية هى النسبة المثوية للمقيدين فى المرحلة الثالثة من التعليم ( الجامعى والعالى ) فى فئات السن لهذه المرحلة مضروباً فى وزن قدره خمسة لأن التعليم العالى فى نظره ينبغى أن يأخذ وزناً أكبر من غيره من المراحل التى تسبقه .

وبناء على هذا المقياس قام هاريسون بتقسيم دول العالم التى شملها البحث (٧٤ دولة) إلى أربع مستويات من ناحية مدى ما بلغته الموارد البشرية من نمو وهى : بلاد متخلفة — بلاد نامية جزئياً — بلاد شبه متقدمة — بلاد متقدمة .

وفى مقابل مقياس الموارد البشرية استخدم هاريسون لقياس النمو الاقتصادى مقياساً مركباً من عنصرين : الأول هو نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى مقدرًا بالدولارات الأمريكية ، والثانى عبارة عن النسبة المثوية للسكان الذين يعملون بالزراعة .

وقد انتهى هاريسون من تحليلاته للمستويات الأربع السابق الإشارة إليها إلى الارتباط الوثيق بين انتشار التعليم والنمو الاقتصادى حيث كشفت الاحصائيات عن العلاقة القوية بين نسب القيد فى مراحل التعليم المختلفة وبين نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى . أضف إلى ذلك أن معامل الارتباط بين نسب القيد فى المرحلتين الثانوية والعالية (مقياس الموارد البشرية) وبين نصيب الفرد من إجمالى الدخل القومى (مقياس النمو الاقتصادى) قد وصل إلى ٠.٨٨٨ ، مما يؤكد دور الاستثمارات البشرية الموجهة نحو التعليم فى زيادة الدخل القومى وفى رفع مستوى دخول الأفراد ، وإن لم نصل إلى الدقة المطلوبة فى القياس وفى حل كل المشاكل المتعلقة بالقياس الكلى لاستثمارات التعليم (١) .

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن بأية حال أن نخفل دور التعليم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق ما يؤدى إليه التعليم من زيادة القدرة الانتاجية وتنمية الخبرات المهنية وزيادة الكفاءة فى البحث والابتكار وتهيئة الجو السياسى والاجتماعى المناسب للتنمية . وبطبيعة الحال يرتبط دور التعليم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية بأيدولوجية المجتمع والقيم التى تغرسها وتؤكددها . النظم التعليمية فهناك فارق لا شك بين نظام تعليمى يحرص على أوضاع قديمة بالية ويحافظ على قيم تقليدية لم تعد تناسب روح العصر الذى يعيش فيه المجتمع أو تنجس مع تطورات هذا المجتمع نحو حياة أفضل وبين نظام تعليمى متحرر يذكى همم الطلاب فى التحرى والبحث والاستقصاء والسعى وراء آفاق جديدة فى سبيل تحسين مركز الفرد وتوسيع مداركه والمساهمة فى التنمية القومية ، أو بعبارات أخرى إن نظام التعليم الذى يحافظ على الاستاتيكية أو يقلص الأوضاع التقليدية المتخلفة لن يؤدى خدمة اقتصادية تذكر إذا قيس بالتعليم ذا الصبغة الديناميكية الذى يتجه نحو التغير فى سبيل حل مشاكل المجتمع وتحقيق الرفاهية الاجتماعية . ويؤكد الباحثون الوطنى للجمهورية العربية المتحدة هذا الفهم الثورى لنظام التعليم فى قوله : « أن التعليم لم تعد غايته إخراج موظفين للعمل فى مكاتب الحكومة ومن هنا فال مناهج التعليم

Frederick Harbison and Charles Myers, op. cit. chapter III and (١)

فى جميع الفروع ينبغى أن تعاد دراستها ثوريا لئى يكون هدفها هو تمكين الانسان الفرد من القدرة على إعادة تشكيل الحياة » (الباب الخامس) .

**الصحة :** إن النظرة العامة للظروف الصحية فى العالم اليوم وعلى الأخص فى الدول النامية لتكشف عن التقدم الكبير فى المستوى الصحى للشعوب، ومن مظاهر هذا التقدم بصفة عامة الزيادة المطردة فى عدد السكان وانخفاض معدل الوفيات عامة ووفيات الأطفال بصفة خاصة وزيادة متوسط عمر الفرد . ويرجع الفضل فى ذلك إلى الاكتشافات العلمية الحديثة وإلى ما تبدله الهيئات الصحية الوطنية والدولية من جهود متصلة فى هذا السبيل، ولكن ذلك لا يعنى بطبيعة الحال أن المشاكل الصحية قد أمكن التغلب عليها . فالمستوى الصحى فى كثير من الدول النامية ما زال فى حاجة إلى مزيد من التقدم وما زالت الحاجة تامة إلى استثمارات كبيرة للقضاء على الأمراض وللوقاية منها ولتحسين الأحوال الصحية بصفة عامة . وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك من الوسائل ما يمكن بها قياس النتائج المترتبة على هذا النوع من الاستثمار بالنسبة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ؟ الواقع أن البحث فى هذا المجال لم يصل بعد إلى الكشف الدقيق عن العلاقات المباشرة بين ارتفاع المستوى الصحى وبين التقدم الاقتصادى والاجتماعى أو تقدير العائد من الاستثمارات فى البرامج الصحية ، وإن كان ذلك لا يمنع من تسجيل بعض الملاحظات التى قد تلقى الضوء على هذه العلاقة ومهد الطريق للكشف عنها ، فالمجال ما زال فى حاجة إلى مزيد من البحث . إن الحيوية والطاقة البدنية التى يملكها الفرد فى الانتاج ترتبط إلى حد كبير بحالته الصحية . فالأمراض المتوطنة كالبهاارسيا مثلا تسلب جزءا من طاقة الجسم يمكن أن تستغل فى العمل المنتج ، فقد قدر البعض أن البهاارسيا إلى عهد قريب كانت تسلب من الفلاحين فى الريف المصرى ما يقرب من ٣٠٪ من طاقتهم الانتاجية ، علاوة على ما يترتب على اعتلال الصحة من التغيب عن العمل والحد من الطاقة الانتاجية . وبالرغم من الصعوبة فى تقدير العائد الاقتصادى للاتفاق على البرامج الصحية فإن الاستثمارات فى هذا الحقل تساهم ولا شك فى تنمية الثروة البشرية كما وكيفا ، فتحسين الأحوال الصحية يحذ من الخسارة الاقتصادية الناتجة عن وفاة الأطفال فى سن مبكرة قبل

أن يصلوا إلى السن التى تؤهلهم للمساهمة فى الانتاج ، أضف إلى ذلك ما تؤدى اليه هذه الاستثمارات من إطالة فترة الحياة الانتاجية للفرد ، ومن ناحية أخرى فالتقدم الصحى كفيل بزيادة الطاقة الانتاجية للفرد وبالتالي زيادة الانتاج القومى ومن هذا تبدو أهمية الرعاية الصحية لأفراد المجتمع بحيث ، تمتد هذه الرعاية لتشمل جميع الفئات - وقد أكد ميثاق الجمهورية العربية المتحدة « حق كل مواطن فى الرعاية الصحية بحيث لا تصبح هذه الرعاية علاجاً ودواء مجرد سلعة تباع وتشترى وإنما تصبح حقاً مكفولاً غير مشروط بثمن مادى ولا بد أن تكون هذه الرعاية فى متناول كل مواطن فى كل ركن من الوطن فى ظروف ميسرة وقادرة على الخدمة ولا بد من التوسع فى التأمين الصحى حتى يظل بحمايته كل جموع المواطنين » .

على أن الميثاق لم يقتصر على تأكيد هذا الحق بل أكد إلى جانبه حق المواطن فى التعليم والعمل والرعاية الاجتماعية لأن استثمارات الصحة وحدها لا تجلب الرخاء والتقدم إذا لم تصبح استثمارات فى المجالات الانسانية الأخرى . بل إن التقدم الصحى وحده دون التقدم فى النواحي الأخرى قد يكون سبباً فى إثارة المشاكل التى تعترض طريق النمو الاقتصادى إذ قد يترتب عليه زيادة مطردة فى عدد السكان لا تتناسب مع الموارد الاقتصادية للدولة . وفى ذلك يشير أحد الباحثين فى هذا الصدد إلى أنه لا يمكن إغفال التوازن الحساس بين القوى التى تسود المجتمع ، فالتقدم الصحى لا بد وأن يصاحبه تقدم فى النواحي الأخرى إذ بدون التعليم مثلاً أو بدون زيادة إنتاج المواد الغذائية وتحسين نوعها فلن يؤدى ذلك التقدم إلا إلى زيادة سكانية على مستوى ضئيل من الكفاية ، ومن ناحية أخرى فإذا لم يتوافر لواء الصحة والحياة فسوف تنقصهم القدرة على مواجهة مشاكلهم ناهيك عن العمل على علاجها (١) .

**الرعاية الاجتماعية :** دون الدخول فى تحليل دقيق لمفهوم الرعاية الاجتماعية نكتفى باستخدام هذا المفهوم ، فى نطاق هذه الدراسة ، للدلالة على مختلف البرامج الحكومية والأهلية اللازمة لسد الاحتياجات الاجتماعية العامة أو الخاصة لأفراد

---

Donald Faria, To Plow With Hope. New York, Harper and (1)  
Bros. 1958, p. 30.

المجتمع . وقد تغيرت النظرة الحديثة لبرامج الرعاية الاجتماعية عن النظرة التقليدية التي صبغت تلك الرعاية بصيغة الاحسان واعتبرتها نوعا من المساعدة الوقتية للفئات المحتاجة من المجتمع والتي تزول بزوال أسبابها . أصبحت الرعاية الاجتماعية نظاما مقررًا من نظم المجتمع يكفل حق الأفراد في رعاية المجتمع وقت الشدة وفي المساعدة المستمرة على تحقيق حياة أفضل من خلال البرامج المختلفة التي يقدمها المجتمع لأفراده، بل إن من أبرز القيم التي تلتزم بها الرعاية الاجتماعية الحديثة والتي تؤكد الخدمة الاجتماعية باعتبارها من أحدث المهن الإنسانية التي تمارس نشاطها المهني في هذا المجال تلك القيم التي توجه المجتمع نحو خلق الضمانات الكفيلة بتحقيق الشروط الإنسانية الآتية :

(أ) حد أدنى من الرعاية الاجتماعية لأفراده .

(ب) تكافؤ الفرص أمام جميع الأفراد .

(ج) عدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

(د) المساواة الجنسية والعنصرية .

(هـ) تنمية روح الحوار والتعاون بين الأفراد والجماعات .

ويمكن تلخيص أهم برامج الرعاية الاجتماعية ذات الصلة الوثيقة بالموارد البشرية في المجتمعات الحديثة فيما يلي :

١ - المساعدات المادية العامة : وتشمل مختلف الخدمات الاجتماعية للفئات العاجزة عن الكسب والتي تعاني من ضائقة اقتصادية كالأحداث التي تصرف للمحتاجين من كبار السن والمعجزة عجزا كليًا وفاقدى البصر والأرامل ذوى الأطفال والأطفال الذين لا عائل لهم ومن أمثلتها برنامج الضمان الاجتماعي بالجمهورية العربية المتحدة ومن أمثلتها كذلك الخدمات المؤسسية للمحتاجين من كبار السن وفاقدى البصر والمعجزة وغيرهم من الأشخاص المعوقين الذين لا تسمح حالاتهم بالمعيشة بالمنزل .

٢ - التأمينات الاجتماعية : وتشمل الخدمات التي تقدم للفئات العاملة في المجتمع وعائلاتهم من الذين يشملهم قانون التأمين والغرض منها حماية هؤلاء العاملين



فى حالات انقطاع مصدر الدخل نتيجة لكبر السن أو البطالة أو حوادث العمل وأمراض المهنة أو الوفاة لرب الأسرة . وقد جاءت برامج التأمينات الاجتماعية فى الجمهورية العربية المتحدة معبرة عما أكدته الميثاق الوطنى من « أن التأمينات ضد الشيخوخة وضد المرض لابد من توسيع نطاقها بحيث تصبح مظلة واقية للذين أدوا دورهم فى النضال الوطنى وجاء الوقت الذى يجب أن يضمّنوا فيه حقهم فى الراحة المكفولة بالقهّان » .

٣ - رعاية الأسرة : وتشمل التوجيه والارشاد ومختلف الخدمات الاجتماعية التى تساند الأسرة وتساعد على تحقيق وظائفها الاجتماعية ، ومثلًا تلك الخدمات الموجهة نحو حل المشاكل الأسرية سواء كانت مشاكل شخصية أو مشاكل تنبعث فى مجال العلاقات الأسرية كما تشمل رعاية الأفراد الذين يعيشون بعيدا عن أسرهم . والميثاق الوطنى للجمهورية العربية المتحدة يؤكد أهمية هذا النوع من الرعاية الاجتماعية فى قوله « إن الأسرة هى الخلية الأولى للمجتمع ولا بد أن تتوافر لها كل أسباب الحماية التى يمكنها من أن تكون حافظة للتقليد الوطنى مجددة لنسيجه متحركة بالمجتمع ومعه إلى غايات النضال الوطنى » .

٤ - رعاية الشباب : وتشمل مختلف الخدمات والمؤسسات التى تهدف إلى تنمية الشباب جسمانيا وعقليا وروحيا حتى تهيء للمجتمع أجيالا متجددة من القيادة الواعية بمسئوليتها نحو المجتمع ، ومن أمثلتها مراكز رعاية الشباب والمجلات الاجتماعية والساحات الشعبية والأندية والكشافة والحوالة ومعسكرات العمل ومعسكرات إعداد القادة وغيرها .

٥ - رعاية الطفولة : وتتحقق هذه الرعاية عن طريق الخدمات الاجتماعية للأطفال بصفة عامة كالخدمات الوقائية والعلاجية فى مجال السلوك الإنسانى والتكيف الاجتماعى والخدمات الصحية للأطفال الرضع والخدمات الاجتماعية المدرسية ومراقبة تشغيل الأحداث ، كما تتحقق فى الخدمات المقدمة للأطفال الأسوياء الذين لا عائل لهم أو الذين لا تهيء لهم أسباب النمو السوى فى محيطهم العائلى ومن ثم يجهجون إلى رعاية من نوع خاص كالأسر البدئية ودور الحضانة ونظم التبني ، وتتحقق كذلك عن طريق الخدمات الاجتماعية للأطفال المنحرفين أو الخائعين مثل

مؤسسات رعاية الأحداث الجانحين والخدمات الاجتماعية في محاكم الأحداث ،  
وغنى عن البيان ما لهذا النمط من الرعاية الاجتماعية من أهمية بالغة في نشأة الأطفال  
وفى تشكيل مستقبل الموارد البشرية للمجتمع وفى تنمية هذه الموارد على الوجه الذى  
يخدم مصالح هذا المجتمع ويحقق الرفاهية الاجتماعية . ويؤكد الميثاق الوطنى هذا  
المعنى فى قوله «إن الطقولة هى صانعة المستقبل ومن واجب الأجيال العاملة أن  
توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسؤولية القيادة بنجاح» . وإلى جانب هذه البرامج  
الرئيسية توجد أنواع أخرى من الخدمات الاجتماعية تختلف أهميتها باختلاف  
المجتمعات .

ويعتقد البعض أن مثل هذه البرامج لا تكاد تساهم بشئ يذكر فى  
التنمية الاقتصادية ، بل يذهب البعض الآخر إلى أن توجيه الأموال إلى مثل هذه  
البرامج يشكل عبئا على الاقتصاد القوي نظرا لأنها تحول جزءا من الحصيلة المالية  
للدولة إلى فئات لا تضيف إلى الانتاج القوي بدلا من إنفاقه فى أغراض إنتاجية .  
وبغض النظر عما فى هذا الاتجاه من تنكر للقيم الإنسانية يبدو أن الجرح على عائد  
اقتصادى سريع يودى إلى الغفلة عن دور هذه الاستثمارات البشرية بالرغم من أن  
مساهمتها فى التنمية قد تم بشكل غير مباشر ولا تظهرا آثارها إلا فى المدى البعيد .  
مثل ذلك شعور العامل بالأمن فى عمله والأمان على مستقبله عن طريق برامج  
التأمينات الاجتماعية لا شك يحفز به إلى التفانى فى العمل وإلى مزيد من الانتاج .  
كما أن برامج التوجيه المهنى والتأهيل المهنى تلرب جماعات خاصة على العمل  
المنتج وإلا ظلوا عاطلين أو عالة على الجماعات المنتجة . كما أن حماية المجتمع من  
الانحرافات السلوكية وجناح بعض فئاته يساهم فى توفير الاستقرار اللازم لعملية  
التنمية . فالرعاية الاجتماعية لا شك تقوم بدور هام وإن كان دورا تكميليا فى التنمية  
الاقتصادية إلى جانب دورها فى معالجة المشاكل الاجتماعية التى تصاحب التصنيع  
والتقدم الاقتصادى عادة . على أنه لكى تكون هذه البرامج أكثر فاعلية فأنها لا بد  
وأن تخطط فى ضوء الظروف السائدة فى كل مجتمع ولا بد أن تنبع من طبيعة هذا  
المجتمع وترجم عن تراثه وتطلعاته . وهذا أمر من الأهمية بمكان وعلى الآخرين  
بالنسبة للدول النامية نظرا لميل بعض هذه الدول إلى استمارة البرامج الاجتماعية

من الدول المتقدمة صناعيا تلك البرامج التي لا تتفق في أغلب الأحيان مع البيئة الاجتماعية للدول النامية . ومن ثم فلا تحقق النتائج التي تحقها في الدول المتقدمة . مثال ذلك أن الرعاية الاجتماعية في الدول الغربية المتقدمة ترتبط بنظام اقتصادي وسياسي واجتماعي معين . وهي لاشك أنظمة تختلف عما يسود الدول النامية والتي ما زال يغلب عليها الطابع الزراعي التقايدى . فمشاكل كبار السن مثلا وما تركه من أثر على العلاقات الاجتماعية تعتبر من المشاكل المعقدة في الدول الصناعية الكبرى مع أنها ليست كذلك في الدول النامية حيث يختلف المركز الاجتماعي لكبار السن من مجتمع إلى آخر . وهكذا لا بد أن تبني برامج الرعاية الاجتماعية على الاحتياجات الحالية ولا بد أن ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعي والاقتصادي للدولة . وفي ذلك ينص الميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة على « أن التسليم بوجود قوانين طبيعية للعمل الاجتماعي ليس معناه القبول بالنظريات الجاهزة والاستغناء بها عن التجربة الوطنية . إن الحاح الحاجة لمشاكل أى شعب لا يمكن استيرادها من تجارب شعب آخر » .

بعد أن قدمنا هذه الأمثلة من الاستثمارات البشرية على سبيل المثال لا الحصر اتضح لنا من خلال هذا التحليل الصعوبات المنهجية التي تعترض تقدير العائد الاقتصادي للاستثمار البشري . والواقع أن جانباً من هذه الصعوبة يأتي من أن معظم هذه الاستثمارات البشرية لا تخطط أساساً لتحقيق غرض اقتصادي علاوة على خطورة البحث عن تفسير اقتصادي لكل برنامج اجتماعي . على أنه من ناحية أخرى قد تبين من هذا التحليل كذلك أن العلاقة بين البرامج الاجتماعية والتنمية الاقتصادية ليست بعلاقة بسيطة مباشرة بل أنها علاقة ما زالت في حاجة ماسة إلى مزيد من البحث والدراسة المشتركة بين رجال الاقتصاد والاجتماع . على أن ذلك لا ينكر أهمية الاستثمارات البشرية وما تقوم به من دور في التنمية القومية بالرغم من عدم تحديد العلاقة بينهما تحديداً دقيقاً أو الوصول إلى نظرية متكاملة لتفسير العلاقات المركبة بين الموارد البشرية والمادية ودور كل منهما في عملية

التنمية . لقد دار الجدل طويلا حول ما إذا كانت الثروة المادية هي التي تحقق النمو الاقتصادي والاجتماعي أو أن مقدرة الناس على خلق هذه الثروة هي التي تأخذ مكان الصدارة . لا شك أن كلا العاملين ضروري للتنمية ولا بد أن يسيرا جنبا إلى جنب . أما عن كيفية المحافظة على هذا التوازن ورسم السياسة التي تحققه فتعتمد على الظروف المحلية لكل دولة وأهداف خطة التنمية ، ولكن وجه الخطورة يكمن في ربط التنمية بالناحية المادية وحدها . فالمصنع قد يكون رمزا للنمو وعنوانا على التقدم ولكن الثروة البشرية التي تقوم على تشغيل هذا المصنع ليست بأقل أهمية . قد تستطيع الدولة استيراد المصانع ولكنها لا تستطيع استيراد قوة بشرية على مستوى عال من التعليم والمهارة .

## مطبعة بولاق في عهدها الثالث

١٨٨٢ - ١٩٢٣

للدكتور خليل صابات

تعطل دولاب العمل في المطبعة بعض الوقت أثناء القتال الذي دارت رحاه بين القوات المصرية بقيادة عرابي والجيش الإنجليزي . وكان عدد كبير من الأجانب قد عاد إلى بلاده منذ انفجار الثورة العرابية ، وكان من بين هؤلاء بعض عمال المطبعة الفنيين . ولما استولى الإنجليز على القاهرة واحتلوا البلاد ، عاد الأجانب إلى مصر ليستأنفوا نشاطهم في حى المختل . ودار دولاب العمل من جديد ، وتسلم الفنيون الأجانب أعمالهم في مطبعة بولاق بعد أن فتحت أبوابها في أواخر سبتمبر من سنة ١٨٨٢ . وعاد كذلك العمال المصريون :

كانت المطبعة في أواخر عهد اسماعيل في حالة لا تحسد عليها بسبب الأذمة المالية . وفادت الحالة سوءا في بداية عهد توفيق نظرا لزيادة التدخل الأجنبي . غير أن ليمونجالي في كتابه يرجع أسباب اضمحلال المطبعة في تلك الحقبة إلى النزاع الذي شجر بين رؤساء الأقسام من المصريين ولكنه لا يذكر أسبابه (١) . وفي ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٢ أبعد على جودت بك من نظارة المطبعة ليتولى أمرها حسين حسنى من جديد . وفي عهده تقلمت المطبعة تقدما ملحوظا ، إذ بدأت تستبدل وسائلها القديمة بوسائل حديثة لتساير الزمن . وكانت المطبعة كما رأينا تقوم بتجليد سجلات المصالح الحكومية ودفاترها بالجلد الفاخر ، فوافق حسين حسنى على الاستغناء عن الجلد في مثل هذه الأحوال والاكتفاء بالتيل ، وقد نتج عن هذا الاجراء وفر كبير (٢) .

S. Limongelli, *L'Arte italiana nella stamperia nazionale d'Egitto*, (1)  
Caïro 1911, p. 23.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤

وزاد عدد العمال الإيطاليين زيادة كبرى . وهم من فئة الطباعين وصفافى الأحرف والمجلدين . وقد أخذوا جميعا لطبع كتاب عن الإحصاء العلم ، وهو كتاب على جانب عظيم من الأهمية تم طبعه بالفرنسية والعربية . وأنجزت المطبعة فى تلك الفترة جميع الأشغال التى كلفتها بها المصالح الحكومية المختلفة كالأوامر والميزانيات والتقارير والسجلات . وقد استقدم من تورينو بإيطاليا حفار ماهر يدعى موسكا G. Mosca وهو أخصائى فى الطبع على الحجر .

غير أن هذا النشاط الذى سرى فى المطبعة لم يدم طويلا ، فقد خيم على مصر فى سنة ١٨٨٣ شبح الكوليرا الخفيف وأخذت متاجل هذا الوباء تمحصد الناس حصلا . وأظهر عال المطبعة شجاعة وصبرا وجلدا خلال تلك المحنة القاسية ، فظلوا يعملون غير هيايين بالمرض الويل الذى بلغت ضحاياه الآلاف . وكان العمال يبيتون فى المطبعة لانجاز المطبوعات الخاصة بنظارة المالية وكانت فى مسيس الحاجة اليها و « لسان العرب » وهو معجم ضخم يتكون من عشرين مجلدا ، وكانت المطبعة قد أخطرت المكتبات والأوساط العلمية عن قرب موعد الانتهاء من طبعه . ولما زال الوباء ، أبدى الخديو توفيق رغبته فى زيارة المطبعة ، وقد تمت هذه الزيارة ، وأظهر الخديو إعجابه بنظام المطبعة الدقيق (١) . وكان رؤساء أقسامها جيانوزى Gianuzzi وموسكا Mosca وليمونجلى Limongelli الذى قام بشرح أدق دقائق المطبعة ونظام العمل فيها . وقد أنعم على حسين حسنى بك بعد زيارة الخديو للمطبعة برتبة الميرمران (٢) ، وكان ذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٤ أكتوبر سنة ١٨٨٣ . وظل حسنى بك ناظرا للمطبعة بولاق إلى أول مايو سنة ١٨٨٥ عندما أنزلت درجته وأصبح ناظرا للقسم الأدبى . ولكن رتبته ظل على ما هو عليه وبقي حسين حسنى باشا فى وظيفته الجليلية إلى أن توفى فى ١٩ مارس سنة ١٨٨٦ (٣) . وكان حسين حسنى يعرف العربية والفارسية والتركية والانجليزية (٤) .

(١) S. Limongelli ; op. cit., 25.

(٢) محفوظات القلمة ، دفاتر استحقاقات المطبعة من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٨٩٦

(٣) المصدر السابق .

(٤) توفيق أسكاروس ، تاريخ الطباعة وأدى النيل ، مجلة الهلال ، السنة الثانية والمشرور ،

مارس سنة ١٩١٤

وكانت ميزانية مطبعة بولاق مستقلة عن سائر ميزانيات النظارات إلى سنة ١٨٨٤ . وكان على رأس المطبعة مدير إدارى ومدير فنى ووكيل ، كان يقوم أيضا بأعمال التصوير ، ومعاون ورئيس للكتابة ورئيس للمحاسبين وثمانية عشر مستخدما بين كاتب ومترجم ومعاون وثلاثة مستخدمين هم الصراف وأمين المخزن ومعاون . أما الخدم السائرة فكان عددهم أحد عشر .

وكان فى قسم التصحيح العربى ستة عشر مستخدما . وكان يرأس ورشة الجمع العربى مصرى وورشة الجمع الأفرنجى أوروبى يتقاضى مرتبا سنويا قدره ٢٠٤ جنيهات مصرية ، فى حين أن زميله المصرى لم يكن مرتبه يزيد على ١٣٨ جنبا مصرى . وكان على رأس ورشتى الطبع والتجليد أجنبيان أما عدد الطبعين والمجلدين فكان يبلغ الثمانية ، هنا إن تركنا جانبا العمال الذين كانوا يشتغلون بطريق الالتزام .

وقد ردت ميزانية سنة ١٨٨٣ دخلا للمطبعة قدره ٢٩٣٤٤ جنبا مصرى . أما المصروفات فقد ردت ٢٥٠٧٧ جنبا مصرى (١) .

واعتبارا من سنة ١٨٨٤ صار درج مطبعة بولاق فى ميزانية الحكومة العامة . وهكذا سرت على المطبعة ابتداء من هذا التاريخ جميع الأحكام المتعلقة بتأدية الواجب بين مصالح الحكومة وبعضها . ولا كانت كافة المصروفات التى تجربها المطبعة جاليا احتسابها من أصل الاعتمادات الواردة لها بالميزانية فصار يخصم على الجهات قيمة الأصناف التى تصرف لها من المطبعة بل تضيف الجهات تلك الأصناف بحساباتها بالوجه ، وأصبح لزاما على الجهات أن تحرر طلبات صرف الأصناف بدقة وأن تعطى أيضا بما يسلم لها (٢) .

ولما كانت المطبعة ستكلف بإنجاز كافة مطبوعات الحكومة المصرية بما فى ذلك نشر الوقائع المصرية Le Moniteur Officiel فقد رفع اعتمادها ٣٢٥٥

---

(١) Budget du Gouvernement Egyptien pour l'exercice 1883, Le Caire.  
Imprimerie Nationale de Boulag, p. 188 et 189.

(٢) المنشورات والقرارات والمعاملات الصادرة فى سنة ١٨٨٤ أفرنجية ص ١٧٧ طبع  
بالمطبعة الخيرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٣ هـ ، تحريرا فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٤

جنبا مصر يا ، فأصبحت الميزانية ثلاثين ألفا . ويلاحظ أن التنظيم الجديد المطبعة بولاق قد حقق وفرا كبيرا في باب عموم الشون والمخازن (١) .

وفي عام ١٨٨٤ استقلت الحكومة المصرية المسيو إدمون بانجييه Banget من مطبعة Chaix بباريس ليقوم بالتفتيش على المطبعة فنيا وإداريا . وقد أبدى بانجييه إعجابه بمقدرة رؤساء الأقسام جميعا ، واقترح إجراء بعض التغييرات في الإدارة وفي معدات المطبعة . كما أشار بأن تتخلص المطبعة من حروفها القديمة ومن الآلات البالية التي تخلفت عن المطابع الرسمية الملقاة (٢) . وبعد أن قام بانجييه بتقديم تقريره لنظارة المالية ، صدر قرار في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٥ بتعيينه مديرا للمطبعة بولاق « ليصالح نظامها ويلين حركتها » (٣) . أما حسين حسني باشا فقد نقل مديرا للقسم الأدبي كما رأينا بينا فصل أنطوان موريس وتفاضى عن فصله تعويضا محترما . وابتداء من تعيين بانجييه على رأس المطبعة أطلق عليها رسميا اسم المطبعة الأهلية وبالفرنسية Imprimerie Nationale (٤) وفي الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٨٥ صدر قرار من مجلس النظار بترتيب هيئة المطبعة الأهلية كما يأتي (٥) :

المسيو إدمون بانجييه مدير والمسيو نعمة الله بيطار وكيل قسم الإدارة والمسيو فيلكس بورك مصحح بدرجة اكنجي قلم والمسيو لوى كامو كاتب درجة أولى ويعقوب أفندي نخلة مترجم بدرجة كاتب أول وحسين أفندي محمد كاتب درجة أولى ومحمد أفندي عياشي صراف يقابل درجة ثالثة وقسطندي أفندي حنا كاتب درجة ثالثة ، وعلى أفندي عزت كاتب درجة رابعة والخواجة جان رولاندا كاتب درجة رابعة وجريس أفندي مسيحة كاتب درجة رابعة وعبد الفتاح أفندي حسين كاتب درجة رابعة وحسن أفندي عبد الكريم مساعد مخزنجي يقابل كاتب درجة رابعة .

---

Commission de révision des budgets de l'Etat, ministère des finances, 1884.

(١)

S. Limongelli ; op. cit., p. 27.

(٢)

(٣) مجموعة القرارات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات في سنة ١٨٨٥ ، بولاق ص ١٥

(٤) المصدر السابق .

(٥) الوقائع المصرية ، ٦٩ ، ٦٩ ، يوم السبت ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥



أما قسم التشغيل فيتكون من الخواجة لوى جرو رئيس الطباعين يقابل كاتب درجة أولى ، والخواجا جايتانو جانوس رئيس الجماعين الأفرنجي يقابل كاتب درجة أولى والخواجا ليمونجلي رئيس المجلدين يقابل كاتب درجة أولى ، والخواجة جوني أكوطينا مهندس يقابل كاتب درجة أولى . وكانت المطبعة في حاجة إلى أسطا سباكين الحروف بدرجة كاتب درجة أولى وأسطا صب الكليشييه بدرجة كاتب درجة أولى . أما حسن أفندي أبوزيد فكان رئيس الجماعين العربي بدرجة كاتب درجة ثانية .

ويعترف ليمونجلي على الرغم من تمسسه لكل ما هو إيطالي بمهارة بانجييه الفنية وبحسن إدارته ويقول إن المطبعة في عهده أصابها الكثير من التقلص والتجديد . ويضيف إلى ذلك أن بانجييه أثناء إدارته للمطبعة حاول أن يزيد في عدد العمال الفرنسيين . ولكن عددا قليلا من هؤلاء استطاع أن يندمج في الحياة المصرية . وكان لا بد ، لانتظام سير العمل وتقدمه ، من تعيين عدد آخر من العمال . وكان بانجييه يلحق كل من يتقدم إليه ولو أنه كان يفضل الإيطاليين ، فقد عين في عهده الحفار الإيطالي المعروف داميلانو G. Damilano الذي استقدمه من مدينة تورينو . وإلى العمال الإيطاليين يعود فضل إعادة طريقة الطبع بالفورم المصبوبة والمعروفة فنيا باسم *stéréotypie* والترسيب الكهربائي المعروف باسم *Galvanoplastie* والخفر على الزنك المعروف باسم *photozincotypie* وأحضر بانجييه خصيصا من إيطاليا أحد الخبراء للاشراف على آلات السبك ويستدل ليمونجلي على حاجة المطبعة إلى الإيطاليين ، بأنه في مقابل ٢٦٠ أو ٣٠٠ عامل مصري ، كان يوجد حوالي ستين عامل أوروبي منهم أربعون أو خمسة وأربعون إيطالي (١) .

وكانت مطبعة بولاق أو المطبعة الأهلية موضع اهتمام الصحافة الأجنبية في مصر ، فكتبت صحيفة البوسفور أجيسيان *Le Bosphore Egyptien* في عددها الصادر في ٢ يولييه سنة ١٨٨٥ مقالا عنوانه « إصلاح حروف الطباعة العربية والتركية والفارسية » ، ذكرت فيه أن محمد حسن أفندي قد نشر كراسة باللغتين العربية والفرنسية يقترح فيها إصلاح حروف المطبعة العربية تسهيلا لمهمة طبع

الحركات . وتضيف الصحيفة أن الحروف الثمانية والعشرين للأبجدية العربية تختلف أشكالها باختلاف أوضاعها مما يجعل عددها حاليا تسعمائة حرفا . وهنا قرر محمد حسن أفندى إلغاء حروف التعليق والاحتفاظ بشكل الحرف الأصيل . وهكذا خفض عدد حروف الطباعة من تسعمائة إلى ٢٨ فأصبح طبع الحركات من السهولة بمكان . وترى الصحيفة إن الكتابة العربية لم تتغير على الرغم من تبسيطها وأن الكتب المطبوعة وفق الطريقة الجديدة أى بالحركات والحروف سوف تتكلف نصف أو ثلث ما كانت تتكلفه الكتب التى كانت تطبع بالحروف فقط . هذا من الناحية الاقتصادية<sup>(١)</sup>، أما من الناحية الأدبية فإن تأثير إصلاح الحروف العربية سيكون عظيما لأنه سيتيح للطبقة الفقيرة من المجتمع فرصة تعلم لغة الآباء والأجداد<sup>(٢)</sup> . ولا شك فى أن مثل هذه المقالة وغيرها من المقالات التى كتبت عن إصلاح حروف الطباعة العربية هى التى دفعت الحكومة المصرية آخر الأمر إلى تشكيل لجنة تبحث مشكلة الحروف العربية وتصف لها حلا .

وإذا انتقلنا إلى سنة ١٨٨٦ وجدنا أن الميزانية اعتبرت مطبعة نظارة المالية جزءا من المطبعة الأهلية ، وقد اعتمد لها مبلغ أربعمئة وستة وخمسون جنيا مصريا خصصت للموظفين . ويلاحظ على تلك الميزانية أنها . خفضت عدد موظفي المطبعتين من ٧٥ موظفا فى عام ١٨٨٥ إلى ٤٤ فى عام ١٨٨٦ ، كذلك انخفض الاعتماد من ثلاثين ألف جنيا فى سنة ١٨٨٥ إلى اثنين وعشرين ألفا وأربعمئة وستة جنيهات فى سنة ١٨٨٦<sup>(٣)</sup> .

وفى شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ زار بعض مهندسى نظارة الأشغال العمومية مبنى المطبعة الأهلية ببولاق ومبنى مطبعة نظارة المالية لدراسة الاجراءات التى يجب أن تتخذ لضم المطبعتين فى مقر واحد . وكانت اللجنة التى شكلت لهذا الغرض قد اقترحت ضم المطبعتين الرسميتين ووقع اختيارها على المبنى الكبير الذى كان فيما مضى اسطبلا للخيل وهو يشغل الدور الأرضى من نظارة المالية . وكان أولو

(١) Le Bosphore Egyptien ; Jeudi 2 Juillet 1885 No. 1106, huitième  
année.

(٢) Budget provisoire du gouvernement égyptien l'exercice 1886,  
Le Caire, Imprimerie Nationale, section des finances, 1886.

الأمر قد قرروا لإجراء الإصلاحات اللازمة لأعداد المقر الجدي لاستقبال المطبعين في أواخر سنة ١٨٨٧ . غير أنه عدل عن هذا القرار في اللحظة الأخيرة . وفكرت نظارة المالية في الوقت نفسه في إعادة أنظر في عدد موظفي وعمال المطبعين المنضمين إلى بعضهما (١) . وكان المسيو أورنشتين رئيس مكتب المستشار المالي قد قدم إلى نظارة المالية مشروع ضم المطبعين ، كما خفضت ميزانية المطبعة لسنة ١٨٨٨ بمقدار ألفين من الجنيئات ، تخصم من أجور العمال . وحددت مواعيد العمل في المطبعة فأصبحت تبدأ في الساعة السابعة والنصف صباحا وتنتهي في الساعة الرابعة والنصف مساء . أى أصبح العامل يشتغل تسع ساعات يوميا بدلا من سبع ساعات (٢) . وبعد أخذ ورد داما أكثر من نصف سنة تم نقل مطبعة نظارة المالية في ١٣ يناير سنة ١٨٨٨ (٣) إلى المطبعة الأهلية ببولاق .

وكتبت صحيفة البوسفور أجبسيان في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٨٨ نقلا عن صحيفة تصدر بالاسكندرية ، تقول : « بلغت ميزانية المطبعة الأهلية عن سنة ١٨٨٨ مبلغا وقدره ٢٧٥٦٥ جنيها مصريا خصص ٦٠١٢ جنيها منه لمصروفات الإدارة . وبما ضمت مطبعة نظارة المالية إلى المطبعة الأهلية ، أصبحت الميزانية نتيجة لهذا الاجراء ٣٥٣٦٥ جنيها مصريا ، خصص ٤٤٥٨ جنيها منها للأعمال الادارية والمصلحية . » إن المطبعة الأهلية مؤسسة واسعة عظيمة ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن الناس يجهلون كما لو أنها تعمل على ضفاف البحر الأصفر . . . »

وتستطرد الجريدة قائلة إنه « يعمل في هذه المؤسسة ٢٨٦ عاملا باليومية . ومتوسط أجر كل منهم في العام ما يساوى ألف فرنك » (أى حوالى أربعين جنيها) .

« وإن عدد الطلبات التي تتقدم بها مصالح الدولة المختلفة يصل إلى حوالى خمسة عشر مليون نسخة ، وإلى حوالى ثمانين ألف سجل أو دفتر . »

(١) Le Bosphore Egyptien, Lundi et Mardi 15 et 16 Août 1887.

(٢) Le Bosphore Egyptien, No. 1821, Dixième année, dimanche 4 décembre 1887, p. 1, col. 2.

(٣) المصدر السابق عدد رقم ١٨٥٥ ، في السنة العاشرة ، الجمعة ١٣ يناير سنة ١٨٨٨

« وتطلب هذه الأشغال الهائلة استخدام ٢٥٠٠٠ كيلو جراما من الورق و ٢٥٠٠٠ كيلو جراما من الكرتون وحوالى ٢٠٠٠ متر من القماش . وفى المطبعة ٣٧ آلة طباعة تعمل عملا متواصلا ، يدار خمس وعشرون منها بقوة البخار. أما الباقي فيدار باليد » (١) .

وكانت لإدارة المطبعة قد قامت بفصل عدد من الموظفين اعتبارا من أول مارس سنة ١٨٨٨ ممشيا مع سياسة الوفرا التي استقتها نظارة المالية فى ذلك الوقت (٢) غير أنه تبين بعد ذلك بعام واحد أن ميزانية المطبعة ما زالت فى حاجة إلى ضغط . فقد زارها فى أكتوبر سنة ١٨٨٩ رياض باشا وطلب الاطلاع على ميزانيتها وعلى كشف مستخدميه ، وبعد أن عكف رئيس النظار على دراسة تلك الأوراق قرر الغاء قلم الحسابات فى المطبعة وفصل موظفيه اعتبارا من أول نوفمبر سنة ١٨٨٩ (٣) . ومن ضمن الوظائف التى ألغيت فى تلك الحركة وظيفة وكيل قسم الادارة (٤) .

وفى ٥ يناير سنة ١٨٨٩ زار الخديو توفيق المطبعة الأهلية واستقبله مديرها بانجيح بك ومعه رؤساء مصالح المطبعة وقد طاف الخديو بمسبك الحروف العربية والأفريقية والقاعة التى تطبع فيها الجريدة الرسمية الفرنسية . وقسم جمع الحروف الأفريقية والعربية وقسم المطابع الحجرية والبخارية واليدوية وعمل الحفر على الحجر . وقد قدم إليه فى هذا القسم أقدم عامل من عمال دار الطباعة وهو ابراهيم الشبراوى (٥) ، وكان قد مضى على خدمته فيها ٤٨ سنة . وقد حازن الخديو بعد ذلك قسم التجليد وشاهد آلات التنمير والقص ثم انتقل بعد ذلك إلى قسم التوضيب (٦) .

(١) Le Bosphore Egyptien, No. 2064, onzième année, dimanche, 16 septembre 1888, p. 1, col. 2.

(٢) مجموعة القرارات والمشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات من أول شهر مارس إلى ٣١ منه سنة ١٨٨٨

(٣) Le Bosphore Egyptien, No. 2064, onzième année, dimanche, 16 Octobre 1889.

(٤) مجموعة القرارات والمشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات اعتبارا من أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ إلى ٣١ منه .

(٥) هو العامل الذى استعان به البريجيس فى كتابة تاريخ مطبعة بولاق .

(٦) الوقائع المصرية فى ٧ يناير سنة ١٨٨٩

وكانت المطبعة فى عهد بانجييه بك مقسمة الى ورشة الجمع الأفرنجى برئاسة جيانوزى الايطالى ، وورشة الجمع العربى برئاسة حسن أفندى أبو زيد المصرى ، وورشة الطباعة بالحروف المنفرقة ويرأسها المسيو جرو Gros الفرنسى وورشة الطباعة بالحجر ويشرف عليها الايطالى سايا Saja وورشة الحفر على الحجر تحت إدارة داميلانو الايطالى وورشة التصوير والحفر على الزنك برئاسة سيبيلا الايطالى وورشة التجايد برئاسة ليمونجالى والمسبك تحت إشراف كاتيلو الفرنسى والكليشيات برئاسة مونتيويو الايطالى (١) .

وعلى الرغم من أن المطبعة الأهلية كان فى استطاعتها القيام بانجاز كل ما يطالب اليها من مطبوعات ، فان بعض الجهات الحكومية كانت تؤثر عليها مطبعة إحدى الصحف مما أثار حفيظة (البوسفور أجيسيان) التى كتبت تقول « عندما أسست الحكومة المطبعة الأهلية احتكرت صناعة كان يعيش عليها عدد من الناس (٢) . وليس لنا اليوم أن نعود إلى مناقشة أمر قد تم ، ولكن نجد من حقنا أن نبدي دهشتنا من أن الحكومة ، بعد أن تكبدت نفقات كبيرة لتأسيس مطبعتها ، فأننا نجد الشرطة لا تزال توجر مطبوعاتها المطبعة المقطم دون إجراء مثقصة وتدفع فى ذلك أسعارا جنونية . ويؤكد البعض أن صاحب نفوذ كبير له دخل فى الموضوع وهكذا اكتشفت طريقة جديدة ، على حساب مصر ، لزيادة مكافأة تلك الصحيفة العربية التى تعمل جاهدة لخدمة الانجليز (٣) .

وحدث أن اتهمت بعض الصحف المحلية المطبعة الأهلية بأنها تقوم بطبع كتب منافية للأداب ومخالفة للدين . وتهتم نظارة المالية بالأمر وتحيل وكيل المطبعة حصن بك حسمى إلى مجلس تأديب (٤) الذى يقرر أن المذكور « خال من المسئولية مطلقا » وقد برئت ساحته مما نسب إليه وصدر قرار بذلك من نظار المالية فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٢ (٥) .

(١) S. Limongelli ; L'arte italiana ... op. cit., p. 29.

(٢) لا شك فى أن الصحيفة تقصد إعادة تنظيم المطبعة لا تأسيسها .

(٣) Le Bosphore Egyptien, No. 3868, cinquante année, samedi 10 Décembre 1892, p. 2 col. 6.

(٤) المصدر السابق ، ١٤ يناير سنة ١٨٩٣

(٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٣ ، السنة الثانية والستون ، يوم السبت ٧ يناير سنة ١٨٩٣

ولأول مرة في تاريخ المطبعة الأهلية يلحق بها قسم الفوتوتيبى<sup>(١)</sup> ، ويقوم الماركيز دى ريفرسو وكيل الحكومة الفرنسية وقنصلها العام فى مصر بزيارة المطبعة فى هذه المناسبة ويبدى إعجابه الشديد بها<sup>(٢)</sup> . وعلى الرغم من لإدخال تلك الطريقة الجديدة فى فن الصور وطبعها ، فقد ظلت مطبعة بولاق محتفظة بطباعة الحجر وقد انجهدت النية أخيرا إلى لإحلال طباعة الأوفست أو الطباعة الملساء محلها أسوة بالمطابع الحديثة .

ونستطيع أن نؤكد أن عهد بانجييه بك كان عهدا ذهبيا للمطبعة . فقد جددت فيه آلاتها وأعيد تنظيمها وأدخلت وسائل جديدة فى الطباعة لم تكن تعرفها المطبعة الأهلية واستقدم خبراء أجانب علموا العمال المصريين فن الطباعة على أصوله فغدا الطابع المصرى اليوم فى مقدمة عمال الطباعة لا فى الشرق العربى فيحسب بل فى أوروبا وأمريكا .

وقد اعتلت محبة بانجييه بك فى آخر عهده ومنح عدة إجازات : ورأت نظارة المالية فى سنة ١٨٩٤ أن تنتدب شيلو بك مؤقتا لإدارة المطبعة : والمدير المنتدب مهندس مدنى كان يعمل رئيس حسابات الأشغال العمومية بنظارة المالية ولما اشتد المرض على بانجييه بك اضطرت الحكومة المصرية أن تحيله نهائيا إلى المعاش : وقد توفى بعد ذلك بقليل بمدينة باريس<sup>(٣)</sup> .

تولى شيلو بك إدارة المطبعة إذن فى سنة ١٨٩٤ . ولم يكن مديرا للمطبعة بولاق فحسب ، بل كان مديرا للجرائد الرسمية أيضا وهى الوقائع المصرية والجريدة الرسمية التى تصدر باللغة الفرنسية . والمتصفح لأعداد الوقائع فى ذلك العهد يلاحظ أن شيلو بك كان يمهرها باسمه وقد أردف به صفة مدير المطبعة وجرائد الدولة الرسمية : كان شيلو بك من خيرة من ولى أمر هذه المؤسسة إذ تشهد تقاريره بمحفوظات وزارة المالية بكفايته وامتيازه سواء فى خدمة المطبعة أو الجريدتين

(١) طريقة فى الطباعة بالحبر الدغى بالجلياتين المحتوى على اليكرومات والمرس للشمس .

(٢) Le Bosphore Egyptien, No. 3509, quinzisième année, mercredi 24  
Mai 1898, p. 2, col. 5.

(٣) S. Limongelli ; L'arte italiana ..., op. cit., p. 30.

الرسيمين<sup>(١)</sup> . وكان شيلو بك يمتاز بالحزم والنشاط وحسن الإدارة . لقد كان مهندساً ناجحاً ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن فن الطباعة . ورغماً عن ذلك ، فقد حاول إعادة تنظيم المطبعة من الناحية الإدارية والتقدم بها نحو الكمال ولم يكن شيلو بك فى حاجة إلى بذل مجهود كبير فى هذا المضمار ، فقد وجد عند تعيينه أن كل شيء قد أعد الأعداد اللازمة ، فلم يكن أمامه إلا السير على الطريق الذى مهد له . ولغيره من الأجانب الذين تولوا إدارة المطبعة من بعده .

أمر المدير الجديد بهدم قاعات المطبعة القديمة وبناء قاعات جديدة بدلاً منها ، وفق آخر مستحدثات الفن المعماري المعمول بها فى أوروبا . وركزت الجهود على القاعات التى ركبت فيها آلات الطباعة ، فقد كانت متمشية تماماً مع الغرض الذى بنيت من أجله . ولم يقتصر جهد شيلو على المباني فحسب بل نعلناها إلى استحضار مختلف الآلات اللازمة لورش المطبعة . وكان له فضل إدخال أنواع حديثة من معدات المطبعة لم تكن معروفة فى مصر خلال ذلك العهد . وكان شيلو يجمع رؤساء الأقسام ويطلب منهم أن يدلوا له برأيهم فى شئون المطبعة المختلفة<sup>(٢)</sup> .

ولما كان هذا المدير جاهلاً بأصول الطباعة فقد سافر عدة مرات إلى فرنسا وإنجلترا وألمانيا . وكان هدفه من تلك الأسفار زيارة أكبر المطابع سواء كانت مطابع حروف أو مطابع حجر . وقد تعلم خلال تلك الجولات خصائص الفن الطبعى .! وفى أثناء غيابه ، كان يقوم بإدارة المطبعة وكيلها محمد حسنى بك<sup>(٣)</sup> .

وفى عام ١٨٩٩ طلب المدير إلى رئيس ورشة التجليد أن يصحبه إلى باريس لكي يتعلم طرق التجليد الجديدة بواسطة آلة انخياطة بالسلك أو بالخيط المصنوع من الكتان وآلات طى الورق وغيرها من الآلات التى استحدثت فى ذلك العهد لتسهيل تجليد الكتب . وقد تبين لشيلو بك خلال رحلاته تلك عظم فائدة آلات الطبع التى تطبع الفرخ على الوجهين فى آن واحد ، كما لمس أيضاً نجاح آلات

(١) أرشيف وزارة المالية المصرية لسنة ١٨٩٧ ، محفوظات المطبعة الأميرية .

(٢) S. Limongelli ; op. cit., p. 81 .

(٣) مجموعة القرارات والمشورات الصادرة من مجلس النظار ومن النظارات من أول يونيو إلى ٣٠

من سنة ١٨٩٨ ص ٢٠٩ ومن أول أغسطس إلى ٣١ من سنة ١٩٠٠ ص ٤٥٢ .

تنفيذ الحروف المعروفة باسم مونوتايب Monotype . وقد أرسل في طلب هذه الآلات وركبت حال وصولها (١) .

وفي عهد شيلو بك وعلى وجه التحديد في سنة ١٨٩٧ وضعت تعريفه للمطبوعات خفضت في سنة ١٩٠٢ بمقدار ١٠ ٪ / . وابتداء من ١٤ مارس سنة ١٩٠٨ أضيف إلى التخفيض السابق ٥ ٪ (٢) .

وقد أقبل العمال يقدمون طلبات الالتحاق بالمطبعة الأهلية ، ويظهر أن عدد لطلبات في ذلك الوقت كان كبيرا مما حدا بالمهيمين على شؤنها إلى نشر إعلان بالبنط العريض في عدد الوقائع الصادر في ٢٤ فبراير سنة ١٨٩٧ يذكر فيه أن ورش المطبعة « مستوفية من جميع أنواع العمال ، وفي هذه الحالة غير ممكن قبول طلبات من أي أحد كان للاستخدام بها . ولنا لزم الاعلان ليكون معلوما » .

ولندع البير جيس يصف لنا المطبعة الأهلية في عهد إدارة شيلو بك في المؤلف الذي وضعه في أوائل القرن العشرين والذي لم يوفق إلى نشره (٣) . يقول جيس إن شيلو بك ظل يعمل على رأس المطبعة الأهلية إلى أن أحيل على المعاش لبلوغه السن القانونية في سنة ١٩١١ . وقد اعترفت الحكومتان المصرية والفرنسية بفصله فتمتحت الأولى رتبة الباشوية قبل إحالته إلى المعاش ، بينما نال من الثانية وسام جوقة الشرف برتبة فارس . وكان شيلو بك قبل تعيينه في الحكومة المصرية كبير مهندسى السودان المصرى وعضو جمعية المهندسين المدنيين في فرنسا . وقد ألف كتابا عن النيل والسودان ومصر في سنة ١٨٩١ طبع بفرنسا (٤) .

وقد أمر شيلو بك سنة ١٩٠٠ بهدم باب المطبعة القديم ، وقد حل محله مدخل واسع وضع في أعلاه اللوحة التذكارية التي كتبت بالتركية سنة وضع الحجر

S. Limongelli; op. cit., p. 32. (١) .

(٢) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ١ خطاب من مدير المطبعة إلى وزير المالية في ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨

(٣) هذا المؤلف واسمه :

L'histoire de l'imprimerie en Egypte-suite-Epoque contemporaine.

لم ينشر وهو محفوظ في المعهد الفرنسى للتأثير الشرقية بحى المتيرة بالقاهرة .

(٤) هذا الكتاب محفوظ في مكتبة المطبعة الأميرية ببولاق .



الأسامي للطبعة وعمل المدير على فصل الورش بفناء يتوسطها ، وقام بزرع حديقة صغيرة وعمل نافورة ماء . وكان يعد البناء من الجنوب حديقة المدير ومسكنه (١) .

وكان عبد الرحمن رشدي بك قد كلف أنطوان موريس في حوالى سنة ١٨٩٣ بشراء آلات طبع ماركة ألوزيه فاستبدلها شيلو بك بآلات أخرى حديثة الصنع من نفس الماركة . وقد أوضحت المطبعة الأهلية في مطلع القرن العشرين مصنعا كبيرا بكل معنى الكلمة . وكانت تستهلك ما لا يقل عن مليون فرخ ورق شهريا . وأصبح في المطبعة سنة ١٩١٠ ثمانى آلات للسبك ماركة فوشيه الفرنسية وآلاتان لتنضيد الحروف ماركة مونوتيب وآلة طبع ماركة دوبلكس وخمس آلات طبع مجوز ماركة ألوزيه ، وعشرون آلة طبع عادية ، منها اثنتان ماركة جوليان واثنتان ماركة مارينوفى وست عشرة ماركة ألوزيه . وأربع آلات طبع تدار بالقدم اثنتان ماركة فنيكس واثنتان ماركة دوليتز ، وآلتان ماركة هاريس لطبع الأظرف . وكان في قسم الطباعة الحجرية أربع آلات طبع ماركة فيشر وآلتان طبع ماركة فواران وآلة واحدة للحفر على الحجر وآلة لعمل النقطة . وكان في قسم التجليد أربع آلات لطى الورق ماركة برمر ، وآلة واحدة لجمع الورق وآلة واحدة للتلميع ماركة فورنيغال الانجليزية ومكبسان للتذهيب وثمانى آلات للضغط ، وآلتان لقصى الورق ماركة هاريلنز وآلتان لقصى الورق ماركة رافاس وآلة للتصميم .

ويقوم على إدارة تلك الآلات ثلاثة محركات ماركة أوتو قوة عشرين حصانا يشرف عليها مهندس فرنسى يدعى آدمون ايفوا . وكان يعمل في المطبعة خلال عهد شيلو بك حوالى الأربعمائة والعشرين عاملا . وابتداء من ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٦ عيقت وزارة المالية المستر وارن تريلونى وكيلًا للمطبعة الأهلية ثم رقى مديرا لها في ٢٩ يونيه سنة ١٩١١ وأمضى بضع سنوات في إدارتها ثم عين في وظيفة مساعد وكيل نظارة المالية إلى أن أحيل إلى المعاش في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٣ (٢) .

وكان يشرف على القسم الإدارى في المطبعة خلال عهد شيلو بك موظف يدعى خليل أفندى . أما القسم الفنى فكان يرأسه المسيو فرنان موريس الابن

(١) استقينا هذه المعلومات من مخطوط بحس المخطوط بمطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالبنزة .

(٢) أرشيف وزارة المالية المصرية ، دوسيه رقم ٥٧ - ٤ / ١٦

الأكبر لانتطوان موريس الذى كان يقوم إلى جانب هذا العمل ، بادارة ورشة  
الجمع الأفرنجى (١) .

وكان المسيو بوانسو الذى تدرب على فنون الطباعة فى المطبعة الأهلية ببازيس  
يقوم بالإشراف على ورشة الطباعة بالحروف وورشة الطباعة الحجرية . وقد  
منحت الحكومة الفرنسية المسيو فرنان موريس والمسيو بوانسو نيشان الأوفيسيه  
داكاديمى « مكافأة لهما على ما بذلاه من جهود فى سبيل رفع شأن الفن المطبعي  
الفرنسى فى مصر » (٢) . ويصحح أن نعتبر تلك الحقبة من تاريخ المطبعة بأنها  
حقبة الفرنسيين .

وكانت الرسائل الخاصة بالجريدة الرسمية ترسل إلى مدير المطبعة الأميرية  
ببولاق . أما الرسائل الخاصة بأداب اللغة العربية فكانت ترسل إلى وكيله (٣) . وكان  
فى المطبعة معمل لفحص وتحليل الورق للحكومة والأهالى (٤) . وكانت تعرف  
المطبعة فى ذلك العهد باسم « المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية » (٥) .

ولاحظ المهيمتون عن شؤون مطبعة بولاق أن حروفها العربية لم تعد تجارى العصر  
وأنه لابد من التفكير فى ابتكار قاعدة جديدة تحمل محل القاعدة القديمة المعقدة .  
فلما زار الخديو عباس باشا الثانى المطبعة فى ١٢ مارس سنة ١٩٠٢ ليفتح المباني  
التي أنشئت فيها أثناء إدارة شيلو بك (٦) استحسن من الإصلاحات المطلوبة صنع  
حروف جديدة واختصار الحروف وتغيير القاعدة (٧) . وفى ٢٧ صفر سنة ١٣٢٠  
الموافق ٤ يونية سنة ١٩٠٢ تكونت لجنة من الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة  
العربية بنظارة المعارف وشيلو بك مدير المطبعة الأهلية وأحمد زكى بك سكرتير

(١) مخطوط اليد جيس ص ١٨ ، ١٩

(٢) المصدر السابق ص ٢٠

(٣) تقوم سنة ١٣٢٠ هـ ، عمل بادارة صوم المساحة ، بولاق سنة ١٩٠٢ م ، ص ٣٣

(٤) المصدر السابق .

(٥) راجع مجموعة الوقائع المصرية سنة ١٩٠٢

(٦) La Bourse Egyptienne, Jeudi 13 Mars 1902.

(٧) توفيق اسكاروس ، تاريخ الطباعة فى وادى النيل ، مجلة الهلال ، السنة الثمانية والعشرون

مارس سنة ١٩١٤

ثاني مجلس المنظار وأمين منى بك ناظر مدرسة الثاصرية . ورأس هذه اللجنة إبراهيم باشا نجيب وكيل نظارة الداخلية . وكان أحد مظلوم باشا نظر المالية قد أمر بتشكيل تلك اللجنة لبحث « عيوب حروف المطبعة وأشكالها وتركيبها وللدلالة على الوسائل التي يترتب على اعتماد العمل بها تقليل عدد الحروف المستعملة مع المحافظة على جودة الخط وترقيتها ترقية تناسب احتياج العصر الحثلى . . . » (١) . وكان للجنة الحق في الاستعانة بالخبراء إن دعت الحاجة إلى ذلك (٢) . ثم رأت اللجنة أن تبث شيواو بك وأحمد زكى بك إلى الخارج للدراسة تقدم صناعة الحروف المطبعية . وقد زارا أشهر المطابع والمسالك بالآستانة وفيينا وليفزج وبرلين وليفدن واكسفورد وبأريس . وقدم كل من العضوين تقريرا وافيا عن زيارته وعرضه بعض المقترحات وافقت عليها اللجنة بإجماع الآراء .

واهتم عضو اللجنة أحمد زكى باختصار صندوق الطباعة والعمل على تسهيل جمع الحروف . وتمكن بعد جهد من تقليل عدد الحروف اللازمة للطباعة إلى ١١٢ حرفا وكانت الحروف المستعملة في مطبعة أكسفورد العربية تبلغ ٢٨٢ حرفا وقد أجرى أحمد زكى عدة تجارب في مطبعة بولاق ، وبعد ثلاثة شهور من العمل المتواصل تمكن من اكتشاف قاعدة جديدة أوضحت له جمع أية كلمة عربية أو تركية أو فارسية (٣) .

وكانت الطريقة القديمة المستعملة في مطبعة بولاق تقتضى من الجماعين معرفة ١٥٧٧ شكلا للحروف . أما الطريقة الجديدة فهي لا تطلب منهم أكثر من معرفتهم لمائة وخمسة وأربعين حرفا أو شكلا (٤) .

وكانت قاعدة مطبعة أكسفورد العربية تتكون من ٢٨٢ حرفا كما رأينا بينما تصل قاعدة مطبعة ليفزج إلى ٣٩ حرفا وبرلين إلى ٥٠١ والآستانة إلى ٦٣٨

(١) أمين سامى باشا ، التعليم في مصر ، هامش ص ١٠٧

(٢) جريدة الأهرام في ٥ يولية سنة ١٩٠٢

(٣) أحمد زكى بك ، خلاصة وجيزة على مباحث وأعمال لجنة اصلاح ونحسين الحروف العربية

مطبعة بولاق سنة ١٩٠٣ . ص ٥

(٤) المصدر السابق ، ص ٦

وفينا إلى ٦٦٠ وباريس إلى ٨٠٠ . وكانت قاعدة مطبعة بولاق تتكون من ٩٠٠ حرف وهي نفس القاعدة التي كانت مستعملة في عهد محمد علي .

أما قاعدة بولاق الجديدة فانها انخفضت بهذا العدد إلى ١٧٨ حرفا .

وقد أضاف أحمد زكي إلى حروفه علامات الرسم والاملاء المستعملة في اللغات الأوروبية . وهي علامات الوقف ، ثم الوقف القليل ثم الوقف المتوسط ، ثم التفسير والبيان ثم الاستفهام ثم التعجب أو النداء أو القسم أو التحذير أو الاستغاثة وأشكالها كالآتي : . ، ؛ ؟ ! . ولم ينس أحمد زكي الأقواس في المشروع الذي تقدم به ؛ كذلك قرر أن يبقى بعض التراكيب مجموعة جاهز مثل « الله » .

وقد خفضت الطريقة الجديدة عدد أدوات الطباعة والجهد والتكاليف وقالت مدة الطبع فضلا عن أنها حسنت شكل الطباعة العربية وجعلت الكتب في متناول الجميع بعد أن أنزلت سعرها . ويمكن استخدام الحروف الجديدة في الطبع بست لغات ، وهي العربية والتركية والفارسية والهندية والجاوية والماليزية (١) .

وقد صدقت اللجنة على المذكرة المقدمة من أحمد زكي بك في جلستها المنعقدة في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٢ واعتمدت العمل بموجبها .

وتنقد مجلة (المقتطف) (٢) المذكرة التفصيلية التي وضعها أحمد زكي بك لاختصار حروف مطبعة بولاق ؛ وهي ترى أن مقدم المذكرة ليست له خبرة كافية بالطباعة العربية التي لا تستغنى عن بعض الحروف الممدودة مثل ث ، ك ، ي . وهي حروف تستعمل لأكمال السطور الناقصة حتى لا يضطر العامل الذي يقوم بالجمع إلى تقسيم الكلمة الواحدة إلى قسمين في آخر السطر كما يفعل الأوروبيون . وترى (المقتطف) أيضا ضرورة « جمع الشذلة مع الضمية وتنوين الضم وجمع الشذلة مع الفتحة وتنوين الفتح » ؛ وفي رأى تلك المجلة

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٢) حروف الطبع العربية ، مجلة المقتطف ، الجزء الرابع ، المجلد الثامن والمثرون ، في أول أبريل سنة ١٩٠٣ ص ٢٨٥ وما بعدها .

أنه لا بد « من سبك الحروف والأرقام العديدة على درجات مختلفة من الارتفاع حتى يمكن ترتيب الصور الحسائية والكميات الجبرية إذا أريد إبقاء علم لحساب والجبر في العربية ». وتعتقد المقتطف في ضرورة تجويف كل الحروف من طرفين أو من الأطراف الأربعة حتى يمكن وضع الحركات فيها ؛ ولا بد أيضا من أنواع مختلفة من الفروق . فإذا تم هذا كله زاد عدد الأشكال مائة أو مائتين هذا بصرف النظر عن العلامات الاملائية كالفصلة والنقطة والأقواس وعلامات التعجب والاستفهام الخ . .

وترد المقتطف على قول أحمد زكي بأن مشروعه الجديد سيخفف تكاليف الطبع بمقدار ٢٥ ٪ ، بأن أجر ترتيب الحروف ونفريتها لا يزيد على ٢٠ ٪ من نفقات الطبع ، فيكون الوفّر الحقيقي ٢ ٪ لا ٢٥ ٪ ، وهو وفّر بسيط جدا . وتخلص المجلة إلى القول بأن « الإصلاح الذى أشارت به اللجنة يصلح مطبعة بولاق حتّى ولو لم تفق به بعض مطابع العاصمة ولا بلغت به مطابع بيروت . . . » (١) . ولا شك أن فى تقوله المقتطف شيئا كثيرا من التحيز سببه فى رأينا أن المشرفين على مطبعة بولاق لم يستعينوا بخبرة أصحاب هذه المجلة فى فنون الطباعة حينما فكروا فى إصلاح قاعدة حروفها على نحو ما رأينا .

ويأخذ جورجى زيدان على الحكومة المصرية عدم استعانتها بفن الشيخ براهم اليازجى وخبرته « لأنه أقدر من يستطيع ذلك بالدقة والرواق ولو فوضت إليه هذا العمل لأحسن صنعا واستثمرت قريحته ثمرا نافعا للغة العربية على الأجل » (٢) .

وقد قام جعفر بك بكتابة خط القاعدة الجديدة . ومهما يقل فى تلك القاعدة ، فإن حروفها تعد من خيرة الحروف العربية بلجمال خطها وحسن تركيبها وسهولة جمعها . وأول عدد من الوقائع صدر بالحروف الجديدة ، هو العدد رقم ١٢٤ الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٦ . ويلاحظ أن الحروف الجديدة

(١) المصدر السابق ، ص ٢٨٩

(٢) جرجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٢٢ ،

قد أدخلت بالتدريج : وابتداء من العدد الصادر فى أول يناير سنة ١٩٠٧ أصبحت الوقائع تطبع كلها بالقاعدة الجديدة . ويلاحظ أن ملحق العدد المذكور قد جمعت حروفه بالقاعدة القديمة :

وفى مستهل القرن العشرين بدأت المطبعة الأهلية تستورد بعض ورقها من مصانع كروكسلى الانجليزية <sup>(١)</sup> ، وهى من مصانع الورق الأوروبية الشهيرة .

وبلغت إيرادات المطبعة فى سنة ١٩٠٧ ٥٢,١٦٤,٠٨٥ جنيها مصريا بينما لم تعتمد مصروفاتها ال ٤٤,٨٧٨,٣٤٥ جنيها مصريا فزادت الإيرادات على المصروفات بمقدار ٧,٢٨٥,٧٤٠ جنيها مصريا . وقد اقترح شيلوبك فى خطابه إلى وكيل المالية أن يصرف الفائض على أعمال السكرتارية والحسابات العمومية وطبع ورق سمحة وشراء مطبعة حجرية بثمانية جنيها . أما الرصيد الباقي فيمكن صرفه على أعمال تحسين الحروف العربية وعلى تشييد مساكن للعمال وتوسيع مباني المطبعة وعلى بناء منازل اقتصادية لصغار مستخدمى المطبعة <sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ أحمد مظلوم باشا وزير المالية أن إيرادات المطبعة تزيد على مصروفاتها زيادة كبيرة : ويخلص من ذلك إلى أن تعريف الطبع فى المطبعة غالية ، وأنه يجب تخفيضها بحيث لا تتجاوز الإيرادات المصروفات كثيرا . لأن هذه الزيادة تتحملها المصالح الحكومية المختلفة التى تطبع مطبوعاتها فى المطبعة الأميرية . ويطلب وزير المالية من مدير المطبعة أن يتخذ ابتداء من عام ١٩٠٩ الاجراءات الكفيلة بتخفيض تعريف المطبعة <sup>(٣)</sup> .

وقد ازدادت الأعمال فى المطبعة منذ نهاية ديسمبر سنة ١٩٠٧ زيادة كبيرة نتج عنها ارتباط العمل وتأخير طلبات المصالح الحكومية المختلفة . وقد قرر مدير المطبعة فى ١٥ يناير سنة ١٩٠٨ - لتخفيف ذلك الضغط - أن تطبع مطبوعات

---

(١) محمد أمين هجيت ، تقرير من معرض الطباعة بمدينة ليزج ، بولاق سنة ١٩٣٢ ص ٤٤

(٢) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ١ ، من شيلوبك إلى وكيل المالية فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٠٨

(٣) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ١ من وزير المالية إلى مدير المطبعة الأميرية فى أول أغسطس سنة ١٩٠٨

مصلحة البريد التي تمثل ١٥ ٪/ تقريباً من مجموع أشغال المطبعة ، في المطابع الأهلية (١).

وقرر شيلو بك في ٢٠ يناير سنة ١٩٠٨ تحديد ساعات العمل اليومي بثاني ساعات ، على أن يتقاضى العامل عن الساعات الإضافية نفس الأجر الذي يتقاضاه عن ساعات العمل العادية (٢).

ويبدو أن شكاوى المصالح الحكومية من بطء المطبعة في إنجاز مطبوعاتها قد زادت عن الحد المقبول . وكانت تلك المصالح ترسل شكاواها من هذا البطء إلى وزارة المالية . وطلب شيلو بك من وكيل الوزارة الانجليزي أن يحول له تلك الشكاوى لينظر فيها بنفسه ويجب عليها ، إذ أن الخطأ في غالب الأحيان يكون خطأ المصالح التي تتأخر في إرسال طلباتها إلى المطبعة وتنباطاً في تصحيح التجارب وإعادتها إلى المطبعة .

ويرد وكيل المالية الانجليزي على طلب شيلو بك بأن يحول الشكاوى إليه ، فوزارة المالية هي المسؤولة أولاً وأخيراً عن المطبعة ، وأنه ، أي وكيل المالية ، سوف يحول إلى المطبعة الشكاوى التي يرى تحويلها (٣).

وفهم من الخطابات التي تبودلت بين وكيل وزارة المالية الانجليزي ومدير المطبعة الأميرية الفرنسي ، أن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، ففي الخطاب المؤرخ في ٨ فبراير سنة ١٩٠٨ والصادر من مدير المطبعة إلى وكيل المالية المذكور يكتب شيلو بك عن المطبعة أنها « لم تنس قط أنها خادمة لغيرها من المصالح » وأنه وإن بولغ في كمية الطلبات المرسلة إليها فإنها لا تشكو أبداً (٤) . بيد أن وكيل الوزارة الانجليزي كان يهدف من وراء ذلك إلى حد سلطة المدير الفرنسي . وقد تم له ما أراد حين قام بتعيين تريلونى الانجليزي وكيلاً للمطبعة .

---

(١) محفوظات وزارة المالية دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ٦

(٢) خطاب من شيلو بك إلى وكيل وزارة المالية ، محفوظات وزارة المالية دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ٦

(٣) محفوظات وزارة المالية ، تنظيم المطبعة الأميرية ، جزء أول دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ٦ خطاب

من وكيل وزارة المالية إلى مدير المطبعة في ٦ فبراير سنة ١٩٠٨

(٤) محفوظات وزارة المالية دوسيه ح ٧١ - ٤٥ / ٦ في ٨ فبراير سنة ١٩٠٨

وفي عشرين أكتوبر سنة ١٩٠٨ أرسلت وزارة المالية المستر. مدلتون ليفتش. على المطبعة<sup>(١)</sup>. وقد وضع ذلك المفتش تقريراً لاحظ فيه أن ثلث عدد آلات الطباعة يظل معطلا على مدار السنة. واقترح عدم تشغيل بعض المطبوعات الحكومية في المطابع الأهلية، خاصة وأنه قد تم استيراد آلتين للطباعة للقيام بأعمال مصلحة البريد. ويلفت النظر أخيراً إلى أن هناك آلات تعمل من سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٨٥ و سنة ١٨٨٨ ويرى ضرورة استبدالها بآلات جديدة وسريعة.

وكانت المطبعة الأهلية إلى ما قبل سنة ١٩٠٩، تقوم بطبع نتائج وتقارير غاية في الأمانة والفضامة وتوزعها بالهجان، إلا أن وزارة المالية قررت في ١٨ مارس سنة ١٩٠٩ أن تتوخى المطبعة الاقتصاد في طبع تلك النتائج والتقارير ولا تعطى إلا بالتمن<sup>(٢)</sup>. ويمكن أن نعتبر تلك السنة الحد الفاصل بين الاسراف والاقتصاد. فقد كانت المطبعة تقوم بتوريد بعض أصناف المطبوعات بالهجان إلى مختلف المصالح ثم ما لبثت أن قصرت تلك المجانية على مطبوعات الخديو<sup>(٣)</sup>.

أصبح تريلوني مستولاً عن المطبعة ومشرفاً على الصحف الرسمية ابتداء من سنة ١٩١١. وبقي يشغل هذا المنصب بصفة جدية حتى سنة ١٩١٧<sup>(٤)</sup> واعتباراً من سنة ١٩١١ تقرر مسك حسابات المطبعة الأميرية بمقرها وقد قطعت إدارة الخزانة العمومية بواقى حسابات التسوية الخاصة بالمطبعة لغاية ٣١ يناير سنة ١٩١١، وسددت للمطبعة ما يلزم سداداً وخصمت عليها ما يلزم خصمه من الأمانات والعهد وخلافه من باقي حسابات التسوية. وعند تقبيل حسابات شهر يناير سنة ١٩١١ أرسلت إدارة الخزانة العمومية إلى المطبعة كشفاً بإيراداتها ومضروفاتها في الشهر المذكور<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) محفوظات وزارة المالية دوسيه ج ٧١ - ٤٥ / ١ ، تنظيم المطبعة الأميرية
  - (٢) محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ج ٧١ - ٤٥ / ٦ من الورد سبيل وكيل المالية إلى مدير المطبعة شيلو بك في ١٨ مارس سنة ١٩٠٩
  - (٣) محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ج ٧١ - ٤٥ / ٦ من مدير المطبعة إلى وكيل المالية في ٢٣ مارس ١٩٠٩
  - (٤) إبراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١١٠ ، بولاق سنة ١٩٤٢
  - (٥) من نظارة المالية ، إدارة عموم الحسابات المصرية إلى إدارة الخزانة العمومية ، محفوظات وزارة المالية ، مراقبة المطبوعات ، تنظيم المطبعة الأميرية ، دوسيه ج ٧١ - ٤٥ / ٦



وكانت ترد المطبعة الأميرية طلبات غير مصحوبة بالتعليقات والتفصيلات اللازمة فيتسبب عن هذا النقص غلطات يترتب عليها خسارة في الوقت والمال . فبعثا لذلك وضعت المطبعة كتيبا صغيرا وزعته على جميع المصالح الحكومية حاويا لجميع التعليقات الواجب اتباعها <sup>(١)</sup> .

ويصف لنا جرجى زيدان <sup>(٢)</sup> المطبعة الأهلية قبيل الحرب العالمية الأولى فيقول إنها « أكبر مطبعة عربية في العالم لأنها عبارة عن إدارة كبيرة تقسم إلى عدة ورش أو معامل للطبع والسبك والحفر والتجليد وغير ذلك » . وكان يوجد فيها ٣٩ آلة للطباعة من مختلف الحجم والقوى تبلغ سرعة بعضها أربعة آلاف دورة في الساعة . وبين آلاتها توجد واحدة لطبع الظروف تدور ستة آلاف دورة . ويبلغ عدد آلات المسبك ٣٣ آلة بين مكابس وقوالب وأفران لسبك الحروف ونقش الصور أو الرسوم وصنع الأمهات . وإلى جانب هذا القسم توجد ورشة خاصة لصب الملازم (الفورم) . أما في ورشة التجليد فتوجد ثمانى وستون آلة بين مكابس وسكاكين ومعدات التخريم والتوضيب والحك والحزم والخيطة والتذهيب والتصميغ والدباج والكبس . وتنقسم ورشة الجمع إلى شعبة للحروف العربية وأخرى للحروف الأفرنجية ويحتوى هذا القسم آلات لثني يد الحروف الأفرنجية . وتتولى أربعة محركات كهربائية مجدوع قوتها ١٤٠ حصانا إدارة آلات المطبعة جميعا . وهناك ورشة للبرادة والحناطة والنجارة تتبع القسم الفني من المطبعة . ويعرج جرجى زيدان بعد ذلك على قسم الإدارة في المطبعة فيجده متألفا من عدة مكاتب للإدارة والنشر والحسابات وغيرها . وكان يعمل في بولاق في التاريخ الذى كتب فيه زيدان كتابه ، ستائة عامل منهم مائة موظف داخل الهيئة وخمسةائة عامل بالأجرة اليومية .

وفي مارس سنة ١٩١٤ اعتمد وكيل نظارة المالية د. ث . لندسى لائحة الطباعة المصححة بدلا من اللائحة الواردة في القسم التاسع عشر من الجزء الأول لللائحة المخازن . وتنص المادة الأولى من تلك اللائحة على قيام المطبعة الأميرية بطبع وتجليد

(١) قواعد حموية لطلب تشغيل المطبوعات ، المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩١١

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ اللغة العربية ، ص ٤٩ ، ٥٠ القاهرة سنة ١٩٣٧

جميع استمارات الحكومة ودفاترها وتقاريرها وغير ذلك من مطبوعاتها . وتتم المادة نفسها على مصالح الحكومة ألا تطبع أى عمل فى غير المطبعة الأميرية باستثناء مصاحبة الآثار المرخص لها بطبع «كتاوج الانتيكات المصرية» ومغاضرها السنوية فى غير المطبعة الأميرية . وتستثنى المادة الثانية المصالح المخول لها إيجاد مطابع خاصة بها وهى : مصاحبة عموم السمك الحديدية لطبع كل الأعمال المتعلقة بها ومصاحبة عموم المساحة لطبع الخرائط ونظارة الحرية لطبع الأعمال السرية وغيرها . أما المطابع الأخرى الصغيرة المرخصة من نظارة المالية فى بعض المصالح ، وهى : مطبعة نظارة الداخلية ومطبعة محافظة القاهرة ومطبعة نظارة المعارف العمومية ومطبعة مصاحبة عموم خفر السواحل بالاسكندرية ومطبعة محافظة الاسكندرية ، فإنه مخول لها أن تطبع ما يازمها من الأعمال مع ملاحظة اتباع تعليمات الحكومة فيما يخص بالطباعة والمطبعة الأميرية التفتيش عليها . وكل ما يلزم للمطابع المذكورة من الأدوات والأثاث تحصل عليه من المطبعة الأميرية (١) .

وتنص المادة ٢٢ فقرة (ب) من هذه اللائحة ، على أن المطبعة الأميرية هى المصلحة الوحيدة المخول لها نشر الصور الحقيقية الرسمية للقوانين والأوامر العالية (٢) . وتنص المادة ٢٩ فقرة (١) على أن «الأصول يلزم أن تكون على وجه واحد من الورق ، ويجب أن تكتب بالمداد أو آلة الكتابة (التاب رايتر) فالمطبعة الأميرية لا يمكنها قبول أصول مكتوبة بالقلم الرصاص» (٣) . وتنص المادة ٤١ على أنه «بعد مضي خمسة عشر يوما من تسليم المطبوع تفك حروفه إذا لم يصل للمطبعة طلب من المصاحبة ذات الشأن بحفظها مرصوفة» (٤) .

[أ : وبعد تولى المستر تريافوف لإدارة المطبعة عين أحمد صادق بك وكيلها فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٢ ثم تم اختياره ملاحظا لها فى ٣٠ أبريل سنة ١٩١٩ بمقتضى أمر وزارى صدر بهذه الترقية ، ولم يعط عهده لأدارتها إذ رقى فى أول أبريل سنة

(١) لائحة الطباعة ، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، ص ١ و ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥ .

١٩٢٠ مديرا للمكتبة السلطانية (١) . وكانت المطبعة الأميرية في عهد المستر تريلوفى وأحمد صادق بك تابعة لمراقبة مطبوعات الحكومة بوزارة المالية (٢).

ولما اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى ، قل ورود الورق وأدوات الطباعة المختلفة من أوروبا وقد عانت المطبعة الأميرية وغيرها من المطابع المصرية الشيء الكثير من جراء تلك الحرب ، ولكن المطبعة الأميرية استطاعت أن تشق طريقها على الرغم من جميع العقبات التى اعترضتها ومضت قدما بفضل سهر المعنيين بأمرها من رجال وزارة المالية .

لم يمكث أحمد صادق بك ملاحظا للمطبعة مدة طويلة فحل محله المستر نيوتن الذى كان فى أول الأمر كبيرا للمصححين الأفرنجى وقد عين فى وظيفته الجديلة بقرار من مجلس النظار صدر فى ٧ مايو سنة ١٩١١ ثم رقى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٣ رئيساً لورشة المطبعة ووقع عليه الاختيار فى سنة ١٩١٧ ليعمل فى القسم الحربى الخاص بنشر المطبوعات وظل فى تلك الوظيفة قرابة الثلاث سنين ثم عين فى أول أبريل سنة ١٩٢٠ ملاحظا للمطبعة الأميرية وكانت أكبر وظيفة فى المطبعة . وقد اعتزل المستر نيوتن خدمة الحكومة المصرية فى ١٧ يناير سنة ١٩٢٤ (٣).

وقد أنشأ المستر جورج نيوتن فى الفترة التى تولى خلالها شئون المطبعة الأميرية ، مدرسة لتعليم فن الطباعة علميا وعمليا . وكان يعلم فى تلك المدرسة المستر راندل Randal وهو انجليزى كان يعمل رئيسا لورشة الجمع الأفرنجى ، وكان أحمد صادق حفيق يعلم الحساب والهندسة واللغة الانجليزية بالإضافة إلى قيامه بأعمال السكرتيرية الخاصة بملاحظ المطبعة .

وقد أعلنت المطبعة عن افتتاح تلك المدرسة فى الصحف المصرية ، واشترطت فى تلاميذها أن يكونوا حاصلين على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، وعلى الرغم من نشر الاعلان عدة مرات فإن تلميذا واحدا لم يتقدم للامتحان بالمدرسة . فاضطر ملاحظ المطبعة إلى اختيار عاملين فى المطبعة أحدهما يحمل الشهادة الابتدائية والآخر

(١) أرشيف وزارة المالية المصرية ، ملف رقم م ٧١ - ١٥ / ١٠

(٢) إبراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١١١ ، بولاق سنة ١٩٤٢

(٣) أرشيف وزارة المالية المصرية ، ملف رقم م ٧١ - ٢٦ / ١٠

من حملة شهادة مدرسة الصنائع . وترغيا في الالتحاق بتلك المدرسة ، أعلن الملاحظ أنه عازم على إنشاء فرقة كشافة للتلاميذ ، فتقدم أربعة فقط في الأسبوع الأول وخمسة في الأسبوع الثاني . وهكذا اضطر الملاحظ إلى العدول عن إنشاء فريق الكشافة لقلة عدد التلاميذ .

وكان اليوم الدراسي موزعا على النحو الآتي : من السابعة صباحا إلى الحادية عشرة إلا الربع دراسة نظرية . ومن الحادية عشرة إلى الثانية بعد الظهر دراسة في الورش . وبعد اعتزال المستر نيوتن الخلع سنة ١٩٢٤ ، أغلقت المدرسة ووزع تلاميذها على مختلف ورش المطبعة ك رؤساء فرق . وابتداء من تلك السنة ، فكرت المطبعة في إرسال بعثات من هؤلاء التلاميذ ليدرسوا مختلف فنون الطباعة في أوروبا (١) . وقد أنعم على جورج نيوتن بفيشان النيل الرابع ومنح رتبة البكوية .

❖ خُطت مطبعة بولاق منذ سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٢٣ خطوات واسعة إلى الأمام . فقد جلدت مبانيها ووضعت لحروفها قاعدة جديدة . ونجّلت لها آلات المونتاج لتنفيذ الحروف الأفرنجية والطابعات السريعة التي تطبع ويجهى الورقة في آن واحد . وأصبحت آلاتها تدار بالكهرباء وأعيد تنظيم حساباتها وأقسامها ففتحت أكبر مطبعة في الشرق العربي . واشتهرت مطبوعاتها بالدقة والأمانة .

---

(١) حلقت مع السيد / زكي خليل مدير مطبعة جامعة القاهرة سابقا .

من وثائق دير سانت كاترين :

## ثلاث وثائق فقهية

للدكتور عبد اللطيف إبراهيم

استاذ الوثائق المساعد

إن مجموعة الوثائق التاريخية الموجودة بمكتبة دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء ، تعتبر من التراث التاريخي البالغ الأهمية لما تتضمنه من معلومات وحقائق جديدة ، لم ترد في كثير من المصادر الروائية التي كتبها المؤرخون سواء في العصر الوسيط أو العهد العثماني في مصر .

وهذه المجموعة من الوثائق التي يحتفظ بها الدير — ضمن كنوزه ومخلفاته الأثرية المختلفة — ظلت مهملة لمدة طويلة ، حتى تنبه إليها عدد من العلماء في مصر والخارج في السنوات الأخيرة ، فأصبحت موضع عناية رهبان الدير ، فضلاعن اهتمام كثير من المشتغلين بالدراسات التاريخية والأثرية والفنون<sup>(١)</sup> ، وفي مقدمتهم — بصفة خاصة — قلة من الباحثين في علم الدبلوماسية في جميع أنحاء العالم .

\*\*\*

وتحتل الوثائق الفقهية أو الحجاج الشرعية Deeds بين مجموعة الوثائق العربية التي

---

Atiya, A. S., The Arabic Treasures of the convent of Mt. Sinai (Proceedings of (1) the Egyptian Society of Historical Studies vol.II.) pp. 5 — 26.

أحمد مجيد عيسى : مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء  
المجلة التاريخية المصرية مجلد ٥ سنة ١٩٥٦ ص ١٠٥ — ١٢٤ .

د . سامي شنودة : الصور المقدسة بدير القديسة كاترين بشبه جزيرة سيناء  
( مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ) ص ١٩١ — ٢٠٠ .

يبلغ عددها ١٠٧٢ وثيقة<sup>(١)</sup> مكانا مرموقا في نظر الوثائقيين من حيث عددها ، وأهميتها بالنسبة لدراسة التاريخ وخاصة تاريخ القانون ، هذا بالإضافة إلى أن جل ما نشر — من الوثائق العربية بدير سانت كاترين — في مصر أو خارجها هي عبارة عن عهود أو مراسيم Decrees من العصور الوسطى أو فرمانات Firmans وأوامر إدارية Administrative orders من العهد العثماني<sup>(٢)</sup> .

ومن ثم فإن القيام على دراسة ونشر وتحقيق الوثائق الدبلوماسية — وأغنى بالذات الوثائق القانونية الخاصة — باعتبارها موضوعا أصيلا وأساسيا في علم الوثائق — يعتبر من الأعمال الانشائية في ميدان الدراسات الوثائقية العربية التي لم تحظ بعناية كبيرة بعد في مصر والعالم العربي .

\* \* \*

وبعد — فهذا البحث يتضمن ثلاث وثائق فقهية جديدة من مجموعة الوثائق العربية بدير سانت كاترين — وكلها ترجع إلى العصر الوسيط من عهد المماليك الجراكسة في القرن التاسع الهجري ، وهي فيما أعتقد تنشر اليوم لأول مرة .

(١) د . مراد كليل : فهرست مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين إدارة أحياء التراث العربي ( جردان القاهرة ١٩٥١ )  
Atiya, A. S., The Arabic Manuscripts of Mount Sinai, Publications of the A. F. S. M. Baltimore 1955.

Hans Ernst : Die Mamlukischen Sultansurkunden des sinai-Klosters, weisbaden (٢) 1960.

د. جوزيف نسيم : دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي ( مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد ١٨ سنة ١٩٦٤ ) ص ١٧٩ — ٢٠٨ .  
د. محمد محمود السروجي : دير سانت كاترين — دراسة في تاريخه الحديث . (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية مجلد ١٨ سنة ١٩٦٤ ) ص ١١٧ — ١٥٥ .

## الوثيقة الأولى

- رقم الوثيقة : ٢٧٧
- نوع الوثيقة : خاصة
- موضوع التصرف : بيع
- المتصرف فيه : نصف دار بيتدر الطور
- المتصرف : (أ) المتهرى : المعلم سالم بن بشارة بن عامر النصراني  
الملكى المعروف بابن عويته المتسبب  
ببيتدر الطور .
- (ب) البائع : المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف  
النصراني الملكى المعروف بابن الحصين  
المقيم ببند الطور .
- تاريخ الوثيقة : ٢ جماد آخر ٨٦٧ هـ
- أبعاد الوثيقة : ٢٧٥ × ٢٦ سم
- مادة الكتابة : ورق

- ١ — بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على جميع الانبيا والمرسلين<sup>(١)</sup>
- ٢ — اشترى<sup>(٢)</sup> المعلم سالم بن بشاره بن عامر النصراني الملكي المعروف بابي عوينه المتسبب ببندر الطور<sup>(٣)</sup> المبارك بماله لنفسه من المعلم موسى بن نصر الله
- ٣ — بن يوسف النصراني الملكي المعروف بابن الحصين المقيم ببندر الطور المبارك جميع الحصه التي مبلغها النصف اثني عشر سهماً من اصل اربعة وعشرين
- ٤ — سهماً شايها<sup>(٤)</sup> ذلك في جميع<sup>(٥)</sup> الدار الكائنة ببندر الطور المبارك المعروفة قديماً بدار بن كامل الكيال في الغلال<sup>(٦)</sup> المشتمله على باب
- ٥ — مربع<sup>(٧)</sup> يدخل منه الى ساحه بها مخزنين مسقفان بالخشب الفحل والقصب الفارسي على كل منهما باب خشب مربع الجميع مبنيين
- ٦ — بالطوب اللبن محيط بذلك ولذلك منافع ومرافق وحقوق<sup>(٨)</sup> وحدود الجاري ذلك يد البايع المذكور وملكه وتصرفه ما هو ستة اسهم من اصل
- ٧ — اربعة وعشرين سهماً من الدار المذكورة اعلاه منتقل اليه بالارث الشرعي من قبل والده نصر الله المالك قبل تاريخه وما هو ستة اسهم من اصل
- ٨ — اربعة وعشرين سهماً من الدار المذكورة بقية الحصه المذكورة منتقل اليه بالشرع الشرعي واحضر من يده كتاب<sup>(٩)</sup> ورق بلدي<sup>(١٠)</sup> مشترا يدل
- ٩ — على صحة ملكه لذلك وخصم منها بذلك ما ينبغي خصمه بفصل موافق لتاريخه ولشهوده وتسليمها البايع المذكور بمعاينه شهوده ولذلك
- ١٠ — حدود اربعة الحد القبلي ينتهي<sup>(١١)</sup> الى دار حلاوه العبياتي والحد البحري ينتهي الى ارض خالد بن يوسف السلياني والى ارض احمد بن
- ١١ — ابوراجح السلياني والحد الشرقي ينتهي الى ملك سالم بن السمين النصراني الملكي المعروف الان بملك الدين والحد الغربي ينتهي
- ١٢ — الى الطريق المسلوكة وفيه الباب بمقد ذلك كله وحدوده وحقوقه وعامره ودامره وكل حق للحصه المذكورة داخل فيها وخارج



١٣ — عنها وما يعرف بها وينسب اليها وما استجد بها من بنا وغير ذلك المعلوم ذلك  
جميعه عندها العلم الشرعي النافي للجهالة (١٢) شرا

١٤ — صحيحا شرعيا (١٣) بثمن (١٤) جملة من الذهب (١٥) الاشراف والظاهر (١٦)  
الطيب الوازن الخالص من الفس (١٧) المتعامل به يومئذ بالديار المصرية

١٥ — عشرون دينارا ذهباً نصف ذلك عشرة دنانير ذهباً زنة كل دينار منها يصنع  
الفضة درهم وقيراطان (١٨) الجميع على حكم الحلول مقبوضا

١٦ — بيد البائع المذكور بمعاينة شهوده وباعترافه (١٩) بذلك لشهوده ولم  
يتأخر له من ذلك شيء قل ولا جل واعترف المهقوى المذكور فيه

١٧ — بتسلم (٢٠) جميع ما اشتراه فيه لنفسه تعلمنا شرعيا بعد النظر  
والمعرفة والمعاينة الشرعية والتقليب (٢١) الشرعي والاحاطة بذلك

١٨ — علما وخبرا نافعين للجهالة واسقط (٢٢) كل منهما حقه من الفين في ذلك  
والدعوى به الاسقاط الشرعي وضمن البائع المذكور في

١٩ — ذمته وماله درك صبعة المبيع في الحصة المذكورة للمشتري المذكور الضمان  
الشرعي بالاذن الشرعي واقترانه ملي بما ضمنه

٢٠ — قادر عليه عارف بمعنى الضمان والمضمون له وما يترتب عليه شرعا ووكلا في  
ثبوت ذلك وسؤال الاشهاد وطلب

٢١ — الحكم وابدا الدافع والمطعن وتفيه التوكيل الشرعي (٢٣) وبه شهد بتاريخ  
ثاني شهر جمادى الآخرة سنة سبع وستين وثمان مائة (٢٤)

شهد عليهما با نسب الهمما

فيه في تاريخه و كنيه ابراهيم

من ابى بكر الشهيد بالقويضي

المسروب الى فيه صحيح على

ما نص وشرح اعلاه

و كنيه موسى بن نصر الله (٢٦)

شهد عليهما با نسب

الهمما فيه في تاريخه

و كتب عبد ابن عمر ابن احمد

الاطيحي عفا الله عنهم

شهد عليهما با نسب

الهمما فيه في تاريخه

و كتب عبد الكريم

ابن علي المايدي

٢٧- شهد عليهما

با نسب الهمما فيه في تاريخه

و كنيه (٢٥) عبد الله بن

احمد بن محمد

٢٥- الزواحي الخطيب بجامع

الطور

٢٦-

## الوثيقة الثانية

رقم الوثيقة	:	٢٨٥
نوع الوثيقة	:	خاصة
موضوع التصرف	:	اشهاد على وقف
المتصرف فيه	:	جميع الدار القائمة البناء الكائنة بيندر الطور
المتصرف	:	الواقف غنيم بن سالم بن الياس النصراني الملكي الشوبكي
تاريخ الوثيقة	:	١١ ربيع آخر ٨٨٨٢
ابعاد الوثيقة	:	٣٧ × ٢٧ سم
مادة الكتابة	:	ورق

- ١ — بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢ — حضر الى شهوده يوم تاريخه كل من الحضرة السامية خليل بن المعلم بدر بن ظريف والحضرة خلف بن القسيس مخلوف بن صدقة
- ٣ — والمعلم يوسف بن نصر الله بن يوسف والحضرة خليل بن ابراهيم بن سبابا النصراني الملكية المقيمين يومئذ ببندر الطور المعمور وهم معروفون<sup>(٢٨)</sup> واشهد عليهم شهوده اشهادا شرعيا معتبرا مرضيا من غير اكراه ولا اجبار<sup>(٢٩)</sup> ان غنيم بن سالم بن الياس النصراني الملكي الشوبكي ببندر الطور المعمور
- ٥ — وقف وحبس<sup>(٣٠)</sup> وابد وسبل وحرم وتصدق جميع الادار القايمة البناء الكائنة بالطور المعمور بجميع حقوقها
- ٦ — ومعالها ورافقتها وما يعرف بها ويتسب اليها علوا وسفلا<sup>(٣١)</sup> ولها حدود اربعة القبلى الى دار يد غنيم الواقف المذكور والشرق
- ٧ — الى الشارع وفيه الباب والبحرى الى دار تعرف بسالم بن السمين والغربي الى بيت سالم ابو عويته النصراني<sup>(٣٢)</sup> بمجد ذلك
- ٨ — وحدوده في سنة خمس وخمسين وثمانماية<sup>(٣٣)</sup> المعلوم عنده العلم الشرعى على مصالح دير طور سينا<sup>(٣٤)</sup> وقفا صحيحا شرعيا لا يباع ولا

٩ — يوهب ولا يرهن ولا يتناقل به بطريق من الطرق ولا بسبب من الاسباب  
ولا بوجه من الوجوه المخالفة للشرع قائما على

١٠ — اصوله فمن بدله بعدما سمعه فانما اتهمه على الذين يدلونه ان الله سميع عليم (٣٥)  
ووقع اجر هذا للواقف المذكور على الله سبحانه وتعالى يوم

١١ — يحزى المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين فمن عدل عن ذلك فانه طليبه  
وحسينه ومواخذه بعمله ومجازيه بفعله ومن

١٢ — اعان على امضائه ثبت الله مضجعه ولى الله وهو عليه راض غير غضبان  
عليه (٣٦) لقوله تعالى ليجزى الذين اساءوا بما عملوا

١٣ — ويجزى الذين احسنوا بالحسنى (٣٧) ووقع الاشهاد عليهم بذلك فى حادى  
بها عشر شهر ربيع الاخرة المبارك سنة اثنين وثمانين وثمانماية وحسبنا  
محمد بن محمد بن عبد الله ونعم الوكيل (٣٨) .

محمد بن محمد بن عبد الله  
الخطيب



## الوثيقة الثالثة

(١) الوثيقة الأم :

رقم الوثيقة : ٣٠٦

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : بيع

المتصرف فيه : حانوت ومخزن بيندر الطور

المتصرف : (١) المشتري : خليل بن يوسف بن نصير النصراني  
الملكي عرف بابن الحداد

(ب) بائع : سلمان بن عيسى بن جوده النصراني  
الملكي

تاريخ الوثيقة : ٢٧ جماد آخر ٨٦٥ هـ

أبعاد الوثيقة : ١٢٢ر٥ × ٣٨ سم

مادة الكتابة : رق

(ب) الوثيقة الهامشية :

نوع الوثيقة : خاصة

موضوع التصرف : بيع

المتصرف فيه : نفس العين المذكورة في الوثيقة الأم

المتصرف : (١) المشتري : القسيس مقاري بن مسلم بن شكري  
النصراني الملكي

(ب) البائع : خليل بن يوسف بن نصير النصراني  
الملكي عرف بابن الحداد وهو المشتري في  
الوثيقة الأم .

تاريخ الوثيقة : ٢٦ جماد آخر سنة ٨٩٢ هـ

## ( ١ ) الوثيقة الأم :

- ١ — بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على جميع الانبياء والمرسلين
- ٢ — اشترى خليل بن يوسف بن نصير النصراني الملكي عرف بابن الحداد وهو معروف بماله لنفسه من سلمان بن عيسى بن جودة
- ٣ — النصراني الملكي عرف بمجدة جميع الخانوت والمخزن الاتي ذكر ذلك ووصفه وتحديد في الجارى ذلك يد البايع
- ٤ — المذكور فيه وملكه وتصرفه واحضر من يده مكتوب رق<sup>(٣٩)</sup> مؤرخ باطنه<sup>(٤٠)</sup> بالتاسع من شهر تاريخه يشهد له بذلك وخصم
- ٥ — المذكور فيه بقضية هذا التبايع المذكور فيه في تاريخه بشهادة شهوده وهذه الخانوت والمخزن الميعان فيه ببندر
- ٦ — الطور المبارك ومن صفتها على ما دل [عليه<sup>(٤١)</sup>] باطن المكتوب المذكور فيه وهو ان الخانوت المذكورة تشتمل على مسطبه<sup>(٤٢)</sup> وباب يخلق عليه
- ٧ — زوجا باب ويحيط بذلك حدود اربعة القبلى الى ملك عبد الله بن حلاوة<sup>(٤٣)</sup> والبحرى الى الطريق وفيه باب
- ٨ — الخانوت المذكورة والشرقى الى حانوت محمد الحررى والغربى الى المخزن المذكور اعلاه ويشتمل المخزن المذكور فيه على باب
- ٩ — مسقف غشما ويحيط بذلك حدود اربعة القبلى الى مخزن سرور والبحرى الى دكان الرهبان ودكان
- ١٠ — محمد حلاوة والشرقى الى الشارع وفيه الباب والغربى الى الدكان المذكورة فيه بمحد كل من ذلك وحدوده



- ١١ — رحقوقه وما يعرف به وينسب اليه المعلوم ذلك عند المتبايعين  
المذكورين اعلاه العلم الشرعى النافى للجها له اشترا
- ١٢ — شرعيا تاما بما مبلغه عن ذلك من الذهب الظاهرى والاشرى الجيد  
المتعامل به يومئذ بالديار المصرية حماها الله تعالى
- ١٣ — اربعون دينارا نصفها عشرون دينارا الجميع على حكم الحلول اقر  
الباع المذكور فيه بقبض جميع الثمن المعين فيه على
- ١٤ — التمام والكمال ولم يتاخر له بسبب ذلك مطالبة واعترف المشتري المذكور  
فيه بتسلم ما اجاعه فيه تسلما شرعيا بعد النظر
- ١٥ — والمعرفة والتخيلة<sup>(٤٤)</sup> وصدر بين المتبايعين المذكورين اعلاه في ذلك معاقدة  
شرعية بالايجاب والقبول<sup>(٤٥)</sup> وتصادقا على ذلك
- ١٦ — التصديق الشرعى وو كلا في ثبوت ذلك وطلب الحكم به التوكيل الشرعى  
وهما في صيغة وسلامة وطوع واختيار<sup>(٤٦)</sup> في اليوم
- ١٧ — السابع والعشرين في جمادى الآخرة سنة خمس وستين وثمانماية  
حسبنا الله ونعم الوكيل
- ١٨ — شهد عليهما بذلك شهد عليهما بذلك شهد عليهما بذلك
- ١٩ — عبد الرحمن احمد الجسامى محمد بن على المنوفى عمر بن حسن النووى

(ب) الوثيقة الهامشية :

- ١ — الحمد لله رب العالمين ن (٤٠)
- ٢ — الحمد لله وحده
- ٣ — جرى ذلك (٤٨)
- ٤ — بمجلس الحكم العزيز الشافعي بخط وكالة قوصون (٤٩)
- ٥ — بين يدي سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ
- ٦ — الامام العالم العلامة سراج الدين شرف العلماء
- ٧ — اوحده الفضلاء مفتي المسلمين ابي حفص عمر النوى (٥٠)
- ٨ — الشافعي خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية
- ٩ — ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه اشترى
- ١٠ — القسيس مقارى بن مسلم بن شيرى النصرانى الملكى المعروف باسمه
- ١١ — وهو معروف بما له لنفسه من خليل المشتري المذكور قرينه
- ١٢ — وهو معروف بجميع الخانوت والمخزن الموصوف
- ١٣ — كذلك المحدود قرينه ويستغنى بوصف ذلك وتحديد
- ١٤ — قرينه عن الاعادة ها هنا المعلوم ذلك عند المتبايعين
- ١٥ — المذكورين اعلاه العلم الشرعى النافى للجهالة اشترى
- ١٦ — صحيحا شرعيا بضمن مجلته من الذهب الموصوف قرينه
- ١٧ — اربعون دينارا نصف ذلك عشرون دينارا
- ١٨ — الجميع على حكم الحلول اقر البائع المذكور فيه
- ١٩ — بقبض جميع الثمن المعين فيه على اتمام
- ٢٠ — والكمال ولم يتاخر له بسبب ذلك مطالبة واعترف
- ٢١ — المشتري المذكور فيه يتسلم ما ابتاعه فيه تسلماً شرعياً

- ٢٢ — بالتخليّة الشرعية بعد النظر والمعرفة والتقليب الشرعى
- ٢٣ — والمعاقدة الشرعية بالايحاب والقبول الشرعيين
- ٢٤ — وتصادقا على ذلك التصادق الشرعى ولما تكامل ذلك
- ٢٥ — وتم الاشهاد به عليهما وهما فى صحة وسلامة وطوع واختيار
- ٢٦ — حكم<sup>(٥١)</sup> سيدنا الحاكم المشار اليه اعلاه
- ٢٧ — ادام الله تعالى شرفه وعلاه لكل منهما على الاخر بموجب ما اشهد به على نفسه اعلاه على ما نص وشرح اعلاه حكما صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسيو لا
- ٢٨ — فى ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية<sup>(٥٢)</sup> واشهد على نفسه<sup>(٥٣)</sup> الكريمة بذلك فى اليوم المبارك السادس والعشرين من جمادى الاخرة سنة اثنى وتسعين وثمانى مائة وحسبنا الله ونعم الوكيل
- ٢٩ — شهد عليهم<sup>(٥٤)</sup> بذلك شهد عليهم بذلك
- ٣٠ — محمد بن محمد بن عمر النووى<sup>(٥٥)</sup> محمد بن عمر النووى

## التعليقات العلمية

١ - هذه هي افتتاحية الوثيقة ، وقد وردت - بعد البسملة - الصلاة على جميع الأنبياء والمرسلين ، وهي مناسبة في هذه الوثيقة حيث أن المتعاقدين ( البائع والمشتري ) من النصارى ، ولم ترد الصلاة على النبي محمد فقط كما في الوثيقة رقم ٢٥٨ .

وقد جاءت البسملة وتوابعها في سطر مستقل ، وعلى ذلك درج كتاب بعض الوثائق القانونية الخاصة بالنصارى في مدينة الطور . أنظر الوثيقة رقم ٣٠٦ .

وعن البسملة وتوابعها أنظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢١٩-٢٢٩ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « البسملة » .

٢ - ورد الفعل القانوني الدال على موضوع التصرف في بداية الوثيقة بصيغة الماضي ، لأنه أدل على انشاء العقد وتكوينه ، وهذه الصيغة دليل أكيد على تمام الارادة . ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ١٣٩ .

٣ - كانت مدينة الطور في تلك الآونة وحتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ميناء صالحا لاستقبال السفن ، ويظهر أن المالك قد بنوا بها قلعة للحراسة وديوانا ( جمرک ) لتحصيل الضرائب من القوافل البحرية التجارية . وكانت ميناء الطور ترتبط بعدة طرق تجارية بكل من جدة والفرما والقلزم

والقاهرة بریا وبحريا Enc. Isl. art. AL Tur.

ولا شك أن ميناء الطور قد احتلت المكانة التجارية لميناء عيذاب بعد سنة ١٣٧٨م - بسبب اضمحلال شأنها - مما جعل بندر الطور ميناء تجاريا هاما . Heyd : Histoire du Commerce du levant au moyen ages. T. 2. p. 444.

٤ - المبيع أو المحل هو النصف مشاعا من جميع الدار بيندر الطور ، فالحصة اذن شائعة في كل المال ( جميع الدار ) ولا تتركز في جانب منها بالذات ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المفردة ؛ والشئ المملوك في الشيوع لا يملكه الشركاء مجتمعين ، بل يملك كل شريك أو مشتاع Copropriétaire حصة فيه ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المشتركة .

د. أنور سلطان : العقود المسماة ص ٤١٢ .

ومن المعروف أن المالك في الشيوع له أن يتصرف في حصته السائغة بكافة أنواع التصرفات القانونية ومنها البيع ، دون حاجة الى موافقة باقى المشتاعين ، وبحيث لا يلحق الضرر بهم .

وهذا البيع صحيح جائز لأن المالك يبيع ما يملك ، ويحصل المشتري محله ويصبح مالكا على الشيوع بنسبة الجزء الذى اشتراه فقط .

د. محمد كامل مرسى : العقود المسماة ج ٦ ( عقد البيع ) ص ٥١٢ - ٥١٦ وما بعدها .

أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١ ، أحمد أبر الفتح : المعاملات ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

٥ - لا زالة الوهم بقدر الامكان احتياطا ومنعا لما عساه يحصل من النزاع بين المتعاقدين أو غيرهم ، تكتب فى وثيقة البيع كلمة « جميع » قبل لفظ الدار أو : شئ المبيع .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٢

٦ - هذه اشارة الى حرفة أحد سكان بندر الطور وهى « كيل الغلال » ، وكانت قوافل السفن التجارية تصل الى ميناء الطور من الشرق بأحمال البهار والتوابل والفلفل والقرفة وغيرها مما تغله بلاد الهند والشرق .

٧ - الباب المربع فى مصطلح رجال المعمار فى ذلك العصر ، هو الباب ذو العتب المستقيم ، أى ليس مقنطرا .

٨ - المنافع والمرافق والحقوق هى ما تبع للبيع ولا بد له منه ، ولا يقصد الا لأجله كالطريق والشرب للأرض ، وحقوق الارتفاق وهى حق الشرب ويتبعه حق للجرى ، وحق المسيل وحق الجوار .

ولا شك أن مثل هذه العبارة تدل على أن المحرر أو الكاتب للوثيقة كان يجترؤ فى كتابة عقد البيع عن ذكر ما يترتب عليه فساد التصرف الذى كتبت الوثيقة به .

الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ١٨٨ وما بعدها ، السيوطى : فتح القدير ج ٥ ص ٥٥٥ .

الزلمي : تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٩ وما بعدها .

ابن عابدين : رد المختار على الدر المختار ج ٤ ص ٣٥ .

قراءة : نفس المرجع ص ٢٤ - ٢٥ . مجموعة يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٧١ - ١٨٥ .

٩ - يقصد بذلك أن البائع يملك الشيء المبيع ، وأنه جار بيده وملكه وتصرفه حال صدور البيع ، بدليل أنه أحضر كتاب أو مكتوب ذلك - مستند الملكية الشرعي - ومن ثم فتصرف البائع صحيح ، لأنه تصرف فيما يملك وقت البيع ، ولأنه لنفاذ البيع يجب أن يكون البائع مالكا حتى يمكن نقل ملكية المبيع إلى المشتري ، ولأن بيع ما ليس مملوكا للبائع لا ينمق .

السهموري : البيع ص ٢٦٨ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ١٦٥ ، ١٦٧ .

هذا وقد انتقلت إلى البائع ملكية المبيع وقدره نصف الدار ( ١٢ سهما ) بطريقتين :

أولهما : بالارث الشرعي ( ستة أسهم ) عن والده نصر الله المتوفى .

ثانيهما : بالشراء الشرعي ( ستة أسهم ) بعقد بيع Titre de Vente ، ولأن البيع أحد أسباب الملك التام .

ولا شك أن البائع قدم سند الملكية Titre de propriété كدليل مادي Preuve matérielle على حقه في ملكية المبيع الذي تصرف فيه بالبيع ، لا ينازعه فيه أحد حتى تاريخ البيع .

محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ١٨٥ ، ٢٠٠ .

وهذا الكتاب دليل خطي ثابت بالكتابة ، وهو مستند محرر وموثق Pièce Justificative فيما نعتقده ، ولا بد من أن يؤخذ به بعد التحقق من صحته . ويظهر أن البائع كان عليه تقديم المستندات اللازمة - وخاصة تلك التي تثبت ملكيته - للمشتري عند التعاقد ، كما هو الحال في عصرنا الحاضر .

عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤١ ، السهموري : البيع ص ٥٩١ .

١٠ - هذه إشارة الى احدى مواد الكتابة المستمعة في ذلك العصر ، ويظهر أن الورق بأنواعه كان ذائع الاستعمال بدليل ورود ذكره في كثير من الوثائق المملوكية ، وأغلبها من دروج الورق الشامي أو الحموى الأوصال والمطوية على هيئة الملف (roll).

والورق الشامي على نوعين : نوع يعرف بالحموى وهو دون القطع البغدادى . ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي ، وقطعه دون قطع الحموى ، ودونها في الرتبة الورق المصرى وهو أيضا على قطعتين : القطع المنصوري وقطع العادق ولعله البلدى كما ورد في احدى الوثائق والمنصوري أكبر قطعا ، وقلنا يصقل وجهاه جميعا . أما العادة فانه فيه ما يصقل وجهاه ويسى في عرف الوراقين المصلوح . القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٨٧ ، ج ٦ ص ١٩١ .  
Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 24—25, 46—48, 53—56.

١١ - لا بد عند كتابة الوثيقة من ذكر الحدود الأربعة للعقار المتصرف فيه ، وعلى ذلك درج كتاب الوثائق الخاصة ( البيع - الإيجار - الوقف والاستبدال - الوصية - الهبة ) في العصر الوسيط ، وإن كان قد روى عن أبى يوسف أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفي آراء أخرى بثلاثة حدود ، إلا أن زفر قال : انه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة .

وهذه الوثيقة كتبت على أحوط الوجوه ، وتحرز فيها الكاتب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة حتى يكون التعريف حاصلًا على جميع الأقوال .

والقول بأن حدها القبلى ينتهى الى كذا ، أفضل وأدق من القول بأن حدها القبلى كذا ، لأنه على إحدى الروايتين عن أبى يوسف يدخل الحد مع المحدود في البيع .

ولما كان المبيع في حالتنا مشاعا فإنه يكتفى بتحديد الكل الذى منه هذا الجزء ، لكونه ليس له حدود خاصة ، فجعل تحديد ما اشتمل عليه تحديدا له .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤ .

١٢ - لا يعتبر المشتري راضيا رضا صحيحا الا اذا كان عالما بالمبيع علما كافيا بنفسه ، والعلم الكافي هو العلم النافي للجهالة شرعا ، فيصير العقد لازما .  
أحمد ابراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، الزيلعي : نفس المصدر والجزء  
ص ٢٨ ، الكاساني : نفس المصدر ج ٥ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

ومعنى هذا أن المبيع معين تعينا نافيا للجهالة الفاحشة ، وأحكام العلم بالمبيع مأخوذة عن أحكام خيار الرؤية التي يقصد بها رفع الجهالة اليسيرة لا الجهالة الفاحشة .

محمد حلمي عيسى : شرح البيع ص ١٤٧ - ١٤٨ عن مرشد الحيران مادة ٣٠٩ ويقول الفقهاء ان الوصف يغني عن الرؤية ، والبيع على الوصف جائز شرعا ، وليس للمشتري عند ذلك خيار الرؤية ، لأن الوصف يجعل اقرار المشتري أنه عالم بالمبيع بمثابة الرؤية . ولا شك أن المشتري يجب أن يكون عالما بالمبيع علما كافيا - وعلى ما جاء في الوثيقة العلم الشرعي النافي للجهالة - ويعتبر العلم كافيا اذا اشتمل العقد على بيان المبيع وموقعه وأوصافه وحدوده الأساسية بياضا يمكن من تعرفه مما يجعل المبيع مميزا عن غيره ، واضحا في ذهن المشتري ، لأن الوصف الدقيق يقوم مقام الرؤية الحقيقية . الزيلعي : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٨ .

ومهما يكن من أمر فقد تحقق في وثيقة البيع التي ندرسها الأمور التالية :

(أ) وصف المبيع مشاعا سطر ٤ - ١٠ ، ٦ - ١٢ .

(ب) اقرار المشتري بالعلم سطر ١٣ - ١٤ .

(ج) الرؤية والنظر عند التمسك سطر ١٦ - ١٨ .

وهذا كله يجعل الوثيقة صحيحة ولازمة لاستيفائها جميع الشروط الشرعية أو القانونية الواجب توافرها والتي نص عليها الفقهاء ، وهو ما يعرف عند الوثائقين بكمال الشكل الدبلوماسي للوثيقة *La forme Diplomatique* الذي لا يدع مجالا للنزاع أو الخصام مستقبلا .

قراءة : نفس المرجع ص ١٥ - ٣١ .



١٣ - لا بد أن تشتمل الوثيقة على ذكر ما يفيد صحة التصرف القانوني *L'acte juridique* الذى كتبت من أجله ، ونفاذه ولزومه وخلوه مما يفسده ولهذا كان أبو زيد الشرطى وبعض من بعده من أهل الشروط ، يكتبون فى وثيقة البيع ما يأتى : « شراء صحيحا باتا باتا لا شرط فيه وبلا خيار ولا فساد ... » وكذلك كانوا يكتبون : « شراء صحيحا » لأن هذا هو الغرض ، وكتابه عبارة « شراء صحيحا شرعيا » أو « اشتراء شرعيا » فيها اقرار من المشتري بصحة البيع وملكية لبائع للمبيع . قراءة : مذكره التوثيقات ص ٢٦ - ٢٧ .

١٤ - الثمن *Le Prix* ركن أساسى من أركان البيع ، وهو يميز البيع عن الهبة التى تقوم على الاعطاء دون مقابل ، وإذا انعدم الثمن بطل البيع . وتسمية الثمن وتعريفه تعريفا مانعا من الجهالة عند البيع أمر لازم ، فلو حدث البيع بدون تسمية الثمن أو تعريفه كان البيع فاسدا أو باطلا .

عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ٩٠ ، قراءة : نفس المرجع ص ١٩ - ٢٠ . ويلزم لتوافر ركن الثمن ، وبالتالي لقيام البيع وانعقاده ، تحقق الشروط التالية فى الثمن وهى أن يكون :

١ - تقديا أى مبلغا من النقود *Une somme d'argent* .

٢ - حقيقيا جديا *Prix réel, sérieux* وليس صوريا *Prix fictif, simulé* .

٣ - محددًا أو مقدرا *Prix déterminé* ومعينا فى عقد البيع .

السنهورى : البيع ص ٢٦٤ - ٣٧٠ ، ٣٨٣ - ٣٩٠ وما بعدها .

محمد حلمى عيسى : شرح البيع ص ٢٠٧ - ٢٦٩ ، ٢١٦ - ٢١٧ .

عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ٩١ - ٩٩ .

١٥ - لما كان محل الالتزام ( الثمن ) فى عقد البيع تقودا ، فانه يجب أن تكون معينة بنوعها ومقدارها . وفى الوثيقة فلاحظ أن الثمن مقدر بالذهب ( بالدنانير الذهبية ) حسب الزمان والمكان . ويظهر أن البائع قد اشترط استيفاء حقه ذهبا ، وهذا ما يسمى بشرط الذهب *Clause d'or* ، فيكون الثمن فى هذه

الحالة واجب الوفاء بالذهب payable en or ، لا بما يعادل قيمة الذهب من السكة السائدة في ذلك العصر وهي القلوس النحاسية ، حيث كانت القاعدة النقدية السائدة في عصر المماليك الجراكسة هي قاعدة النحاس copper standard وذلك لأن الذهب هو وحدة العملة الثابتة التي لها قوة الابراء غير المحدودة ، أو بسبب توفره في بندر الطور ذلك الميناء التجارى الثرى آنذاك .

١٦ - الدينار الأشرفي ينسب الى سلطان الملك الأشرف أبو النصر برسبای الدقماقى ( ٨٢٥ - ٨٤١ هـ ) ، وكان وزنه يتراوح بين ٣٣٨ - ٣٤١ جم ، و١٠ من أجود الدنانير التي ضربت في العصر الجركسى .

Lavoix : Cat. de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, T. III, pp. 419—425, pl. IX.

Lane poole : Cat. of the collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, p. 269.  
— Cat. of Oriental Coins in the British Museum (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 204, pl. VIII.

وقد عمل برسبای على اصلاح السكة الذهبية ، واحلال الأشرفية البرسيمية محل الدنانير الأفرنجية المشخصة .

السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٨ رقم ٣٨ ، دائرة المعارف الاسلامية مادة « برسبای » ، ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢ ، المقرئى : السلوك ( خط ) ج ١١ ص ٣٧١ - ٣٧٦ ، ٣٩٢ - ٣٩٩ ، ٤٠٤ - ٤٠٦ .

Gennep : Le ducat Vénitien en Egypt, p. 18.

أما الدينار الظاهرى فينسب الى السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق ( ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ ) وكان وزنه يتراوح بين ٣٣٧ - ٣٤٢ جم .

Lavoix : op. cit. pp. 429—440, pl. IX.

Lane poole : Cat. of the collection of arabic Coins, pp. 270—271.  
— Cat. of Oriental coins (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 206, pl. VIII.

وقد سار جقمق على سياسة برسبای في تمصير الدنانير الافلورية واصلاح السكة الذهبية . وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٣٦ ، وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص محكمة ١٠٥ .

السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٧١ رقم ٢٨٧ ، دائرة المعارف الاسلامية  
مادة « جقمق » •

١٧ - تشترط :لوثيقة أن تكون الدنانير من الذهب الطيب أو الجيد العيار ،  
الوازن الخالص من الغش ، المتعامل به بالديار المصرية ؛ في ذلك الوقت الذى  
غمرت فيه النقود الرديئة والزغل والزيوف الأسواق المصرية ، مما أضعف الثقة  
في السكة الذهبية المملوكية المنخفضة الوزن والعيار على السواء ، وحل محلها  
التقد الذهبى الفرنجى من الدنانير الافلورية أو الافرتية والدوكات البندقية •

وثيقة جوهر اللالا محكمة ٨٩ ، وثيقة السيفى قرايغا أوقاف ١١٨٩ ، وثيقة  
الزبنى خشقدم محكمة ٩٠ ، وثيقة طراباى من على باى محكمة ٢٦٥ •

ويمكننا أن نرجع فساد السكة الذهبية الجركسية - وزنا وغيارا - بصفة  
عامة الى قلة تدفق الذهب الأوروبى وقلة انتاج المناجم في مصر ، ونظام المقايضة  
في التجارة •

توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصر الوسيط  
( مجلة الجمعية التاريخية ٦ سنة ١٩٥٧ ) ، صبحى ليب : التجارة الكارمية  
وتجارة مصر في العصور الوسطى ( مجلة الجمعية التاريخية م ٤ عدد مايو ١٩٥٢ ) •

١٨ - من المعروف أن صنع السكة كانت تصنع من الزجاج حتى لا تستحيل  
الى زيادة أو نقصان •

أنظر د. عبد الرحمن فهمى : صنع السكة في مصر الاسلام ( القاهرة ١٩٥٧ )  
ص ١ - ٦ وما بها من مصادر •

ثم ظهرت الصنح المعدنية بعد ذلك ، وكان تحقيق أوزانها عن طريق المحتسب  
ودار العيار ، ولعل صنع الفضة هذه التي تشير اليها الوثيقة هي الصنح الطيارة  
التي تعير عليها الصنح المعدنية •

الشيذرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ( نشر العرينى ) ص ١٩ حاشية ٥ •  
وقد ورد مثل هذا النص في كثير من الوثائق المعاصرة للوثيقة موضوع بحثنا  
ومنها :

وثيقة الجبالي يوسف محكمة ١٠٥ ، وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٢٦  
بتاريخ ٨٦٥هـ ، وثيقة محمد تغرى برمش محكمة ٢٦١ •

ومن هذا النص يتضح لنا أن وزن الدينار الأشرفى يعادل وزن الدينار  
الظاهرى ، فكل منهما يزن درهما وقيراطان أو درهما وثمان تقريبا بصتج الفضة  
أى ما يوازى ٣ر٥١ جم باعتبار وزن الدرهم ٣ر١٢ جم والقيراط أو الخشوية  
١٩٤ و٠ - ١٩٦ و٠ جم . د عبد الرحمن فهمى : نفس المرجع ص ٣٧ - ٣٩ •

١٩ - اعترف البائع المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف النصرانى بقبض  
الثلث المذكور واستيفائه بشامه وكماله من مال المشتري ، أى أن القبض قد تم  
بوصول الثمن اليه ، وأنه لم يتأخر له من الثمن شيء قل ولا جل • وقد ورد  
اعتراف البائع واقاراه بقبض الثمن بصيغة الفعل الماضى ، وهكذا أبرأ البائع  
المشتري من الثمن المذكور فى وثيقة البيع بعد أن قبضه بيده وبشهادة الشهود  
وباعترافه بذلك لهم •

ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ١٩٩ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع  
ص ٤٦٣ ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٢٥١ •

٢٠ - اعترف المشتري المعلم سالم بن بشارة بن عامر النصرانى بتسلم جميع  
ما اشتراه تسلما شرعيا ، ومن المعروف أن العقد الملزم للجانبين ينشئ التزامات  
متقابلة فى ذمة كل من المتعاقدين • وفى حالتنا هذه الزمت الوثيقة ( عقد البيع )  
البائع بنقل ملكية المبيع فى مقابل التزام المشتري بدفع الثمن • والظاهرة الجوهرية  
فى عقد البيع هو التقابل القائم ما بين التزامات أحد الطرفين والتزامات الطرف  
الآخر •

السنهورى : الوسيط - نظرية الالتزام ص ١٥٨ •

وتسليم المبيع Delivrance الى المشتري من أهم التزامات البائع ، وهذا  
الالتزام فرع من التزامه بنقل ملكية المبيع ، وعقد البيع يلزم البائع بتسليم العين  
الى المشتري بالحالة التى كانت عليها وقت البيع وبالوصف والمقدار الذى عين  
فى العقد وبالملاحقات التى تتبعها •

السنهوري : البيع ص ٥٥٦ - ٥٥٨ ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ١٧٦ - ١٧٧ .

ولما كانت الغاية الأساسية من عقد البيع بالنسيئة للمشتري هي نقل ملكية المبيع إليه ، فلذا التخلية تعتبر لازمة لصحة التسليم . عيسى : شرح البيع ص ٤٠١ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص ١٩٠ .

والتسليم هو أن يخلى البائع بين المبيع وبين المشتري ، على وجه يتمكن المشتري من قبضه أو تسلمه من غير حائل ولا مانع .

الكاساني : بدائع الصنائع ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ .

مرسى : العقود المسماة ج ٦ ص ٢٢٥ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٤٥٠ .

ولا بد للمشتري من القبض أو تسلم المبيع قبل أن يتصرف فيه ، وهذا يؤكد وجوب التخلية وهو التزام يقوم البائع بإجرائه .

السنهوري : البيع ص ٤٢٣ حاشية ١ ، ٨٤٥ .

٢١ - يتضح لنا من هذه الصيغة القانونية أن انتقال الملكية Transfert de la propriété من البائع الى المشتري قد تم بتسليم فعلي ، وليس تسليماً صورياً أو حكماً - كما يرد في كثير من الوثائق - بتراضى الطرفين ، أى أن التسليم في هذه الحالة هو عمل مادي .

السنهوري : البيع ص ٥٩٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣١٦ .  
والدليل على أن تسلم المبيع قد تم مادياً ، اعتراف المشتري بتسليم ما اشتراه تسليماً شرعياً بعد النظر والمعرفة والتقليب الشرعى والاحاطة بذلك كما ورد في سطر ١٧ من الوثيقة .

٢٢ ، ٢٣ - هذه هي الفقرات الختامية وهي عبارة عن صيغ قانونية ( بالامتناع - والالتزام - والتوثيق ) تأتي بعد موضوع التصرف الوارد في الوثيقة ، وترمي هذه الفقرات الى تنفيذ العقد وضمان البيع ، بضمان حقوق

معينة لما ورد في التصرف القانوني ، وإعلان الصفة الرسمية للوثيقة والاجراءات التي اتخذت في سبيل جعلها صحيحة ونافذة ، ويتضح لنا ذلك فيما يلي :

( ١ ) أقر كل من الطرفين أنه ليس مغبونا ، وأسقط حقه من الغبن والدعوى به ، أى أن هذه الفقرة ( فقرة امتناع ) تمنع البائع والمشتري على سواء من الطعن في الوثيقة أو اتخاذ أية وسيلة قانونية يمكن أن تبطل أو تعطل تنفيذ العقد .

(ب) ضمن البائع والتزم في الفقرة الثانية - وهي فقرة التزام جزائية - في ذمته وماله درك صحة المبيع للمشتري ضمانا شرعيا ، وأقر أنه عارف بما ضمنه قادر عليه . وقد لجأ المشتري الى النص على هذه الصيغة لضمان حقه .

وعن ضمان الدرك في البيع أنظر قراة : مذكرة التوثيقا

ص ٢٥ ، ٢٦

( ج ) وآخر هذه الفقرات الختامية هي فقرة التوثيق الاثباتية التي حوت الاعلان بطرق التوثيق والاجراءات المطلوبة ، ومنها التوكيل في ثبوت التصرف والاشهاد عليه وطلب الحكم به وابداء الدافع والمطعن ونفيه حتى تصبح الوثيقة كاملة من الناحية القانونية ، صحيحة لها قوة اثباتية لا يمكن الطعن فيها ( وهي ضمانات متعلقة بالفعل القانوني ) وهذه لفقرة الأخيرة تدرس مع البرتوكول الختامي عادة .

٢٤ - هذا هو تاريخ التصرف القانوني وقد ورد في موضعه الطبيعي في نهاية البرتوكول الختامي للوثيقة . والتاريخ لا غنية عنه لأنه يكسب الوثيقة الصحة من الناحية الزمنية ، وقد أثبت فيه اليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجرى لتتحقق فائدته ، ذلك أن التفصيل في ذكر التاريخ ضرورى لصلاحية الوثيقة وسريان مفعولها وتأكيد قيمتها كسند قانوني .

القلقشندى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢ .

وقد ورد في هذه الوثيقة الخاصة ( عقد البيع ) ذكر المكان الذى دونت فيه - وهذا أمر نادر - وهو بندر الطور وفي ذلك تأكيد لاجتماع الشهود اذ جاء على الهامش الأيمن بين سطر ١٦ - ١٩ « كتب ذلك ببندر الطور المبارك » .

٢٥ - شهد في نهاية الوثيقة أربعة شهود عدول ، من بينهم عبد الله بن أحمد ابن محمد الزواعي الخطيب بجامع الطور ، وصيغ الشهادة جميعا متطابقة Témoignages uniformes لفظا ومعنا مستقيمة منتظمة ونصها « شهد عليهما بما نسب اليهما فيه في تاريخه وكتب » .

ويبدأ نص الشهادة بلفظ «شهد» بصيغة الفعل الماضي ، لأن الشاهد شهد على ما رأى وعرف وسمع ، وهي شهادة على ما صدر من التصرف الذي كتبت به وثيقة البيع ، وعلى طرفي العقد وهما المشتري والبائع بجميع ما نسب اليهما في عقد البيع .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٨ - ٢٩ .

بحثنا : التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣٠٧ - ٣١٠ وما بها من مصادر . أما كلمة « وكتبه أو وكتب » الواردة في نهاية صيغ الشهادة فانها تدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده ، بعد أن قام بكتابة عبارة الشهادة بالفاظها التي نطق بها ، وهذا يقطع في الدلالة على أنه متعلم عارف بالكتابة ، ومن ناحية أخرى - كما يتضح من الدراسة الباليوجرافية لخط الشهود - أن الوثيقة أصل وليست صورة .

٢٦ - شهد البائع كذلك على ذلك بنفسه ، وكتب بخط يده « المنسوب الى فيه صحيح على ما نص وشرح أعلاه وكتبه موسى بن نصر الله » وهذه أيضا من الحالات النادرة ، ذلك أننا لم نجد في جل الوثائق الخاصة التي أطلعنا عليها في مختلف المحفوظات توقيعا للمتعاقدين ، ويظهر أن عقود البيع الصادرة على يد شهود عدول أمام السلطة الدينية - كانت طبقا للعرف الذي كان سائدا وقتئذ - بغير توقيع من البائع والمشتري ، وكانت تعتبر صحيحة اذا تبين أن العقد قد عقب حصوله ، واستولى المشتري على المبيع . حلمى عيسى : شرح البيع ص ٣٣ .

٢٧ - نلاحظ في افتتاحية هذه الوثيقة أن الكاتب قد أتمج بالبسملة بالصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ليمس غير ، بالرغم من أن المتصرف الواقف - وبعض الشهود - من النصارى الملكية ، على عكس افتتاحية الوثيقة

رقم ٢٧٧ التى ورد فيها « وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين » والوثيقة رقم ٣٠٦ التى جاء فيها « اللهم صلى على جميع الأنبياء والمرسلين » .  
وهناك أمثلة كثيرة فى افتتاحيات وثائق دير سانت كاترين الخاصة بالتصرفات القانونية للنصارى تدلنا على عدم الاستقرار فى كتابة توابع البسلة .

٢٨ - الشهود الأربعة الواردة أسماؤهم فى بداية متن الوثيقة من النصارى الملكية المقيمين يومئذ ببندر الطورسهم شهود على الفعل القانونى (الوقف) الذى صدر عن المتصرف الواقف قبل ذلك بسبعة وعشرين عاما أى فى سنة ٨٥٥ هـ (أنظر سطر ٨) ، وهو تاريخ سابق على تاريخ التحرير المدون فى الوثيقة التى بين أيدينا ، وقد قبلت شهادتهم عند حضورهم يوم كتابة هذه الوثيقة بتاريخ ١١ ربيع آخر ٨٨٢ هـ لأنهم معروفون ، وذلك بعد أن قام العدول بتزكيهم عند الشهادة على هذا التصرف القانونى ، لأن القاضى يستعين بالعدول فى مجلس الحكم على تركية الشهود الذين يشهدون عنده ، ولا يحكم الا بالبيئة المزكاة « وأشهد عليهم شهوده اشهادا شرعيا ٠٠٠ » .

وهؤلاء الشهود الأربعة من النصارى ، قاموا بالشهادة فى نهاية الوثيقة بما نصه : « المنسوب الى فيه صحيح وكتبه » ثم وقع كل منهم بخط يده .

أما العدول من المسلمين فهم ثلاثة ، وقد شهدوا على الشهود الأربعة المذكورين . بما نسب اليهم - أعنى شهادتهم على المتصرف الواقف غنيم بن سالم ابن الياس النصرانى الملكى الشوبكى بندر الطور فيما تصرف فيه .

وعن العدالة والعدول انظر المقرزى : السلوك ج ٢ ص ٦ حاشية ٤ ،  
القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٩ السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص ٦٣ - ٦٤ .

عرفوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٣١ - ١٣٥ ، اسدرستم : مصطلح التاريخ ص ١٠٣ - ١٠٤ . ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢ - ٣١٣ ، ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٣٦ .



وربما كان الداعى الى صدور هذا الاشهاد على الوقف سبب محتمل من  
الأسباب التالية :

( أ ) أن يكون الواقف قد رجع عن وقفه أو أدخل به بطريقة ما ، مما جعل  
هؤلاء الشهود الأربعة النصارى - الذين ربما كانوا من المستفيين أو المستحقين  
في ريع الوقف - حيث أن الواقف وقف ما وقف على مصالح دير طور سيناء -  
يلجأون الى استخراج هذا الاشهاد الشرعى الخاص بالوقف .

( ب ) أن يكون الواقف قد طلب استخراج هذا الاشهاد بعد أن فقد وثيقة  
الوقف - ان كانت قد كتبت في سنة ٨٥٥هـ - وهو أمر لم تشير اليه الوثيقة  
التي بين أيدنا من قريب أو بعيد كما لاحظنا في بعض الوثائق بالأرشيف التاريخي  
لوزارة الأوقاف .

( ج ) أن يكون الواقف قد تصرف بالوقف أمام الشهود الأربعة في سنة ٨٥٥هـ  
ولم يدون أو يكتب ذلك في وثيقة أو مستند شرعى . ومن المعروف أن الوقف  
تصرف قانوني يصدر من جانب واحد وفيه اسقاط للملكية ، والشكلية ركن  
واضح فيه ، بمعنى أنه لا يصح الا اذا صدر به اشهاد شرعى ( محرر  
رسمى Ac. authentique ) لدى القاضى .

مرسى : شرح القانون المدنى الجديد - شهر التصرفات القانونية - العقد  
كسب لكسب الملكية ص ٧٨ ، ١١٣ - ١١٤ .

٢٩ - هذه الصيغة القانونية وما في معناها ، اصطلح عليها كتاب البرديات  
القانونية والوثائق العربية في العصور الوسطى للدلالة على صحة التصرف  
القانوني .

انظر جروهمان : أوراق البردى العربية ج ١ الوثائق الفقهية - يسوع  
رقم ٥٣ - ٧٢ ص ١٢٩ وما بعدها .

أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧)  
ص ٤٩٢ - ٤٩٧ .

زيد : مباحث الوقف ص ١٧ - ١٨ .  
ولا بد من النص صراحة في الوثيقة على أن المتصرف كامل الأهلية ( أهلية  
الوجوب وأهلية الأداء ) .

أحمد إبراهيم : الأهلية وعوارضها ص ٢ - ٤٤ ، السهوري : الوسيط  
ص ٢٦٦ - ٢٦٨

عبد الحى حجازى : النظرية العامة للالتزام ص ٣٧ ، محمد سامى مذكور :  
نظرية الحق ص ٨١ .

وأنه قد صدر منه التصرف فى حال صحة بدنه وكمال عقله  
وأنه غير مجبر ولا مكروه ولا مضطهد بل حصل بطوعه واختياره ورضاه ، وأنه  
لا علم به من مرض ولا غيره تمنع صحة وتقاذ التصرف .

قماحه : مذكرة التوثيقات ص ٢٧ - ٢٨ .

٣٠ - وقف وحبس كلمتان مترادفتان بمعنى واحد ، غير أن الأولى شاع  
استعمالها فى وثائق المشرق العربى والثانية فى وثائق الغرب الإسلامى .

وهذا اللفظ هو الدال على موضوع الوثيقة ( الفعل القانونى ) .

وعن الوقف أنظر عبد اللطيف إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق  
من عهد النورى ( تحت الطبع ) حيث تجدد دراسة وافية لموضوع الوقف  
ومصادره .

٣١ - ذكر فى وقف الدار علوها وسفلها ازالة للوهم ، فربما يكون السفل  
أو العلو ملك لرجل غير الواقف ، وقد يكون تحت الدار سرداب ملك لغيره لأنه  
إذا لم يذكر السفل والعلو فى الوثيقة ( التصرف ) ثم ظهر أنهما أو أحدهما ملك  
غير الواقف لأدى هذا الى فساد التصرف . ومنعا لهذا الوهم يكتب العلو  
والسفل فى الوثيقة ، وكذلك يراعى الشرط المذكور فى كل وثيقة تكتب بتصريف  
من التصرفات .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٢ .

٣٢ - سالم أبو عوينه هذا هو المشتري فى الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ ، وهو  
المعلم سالم بن بشاره بن عامر النصرانى الملكى المعروف بأبى عوينه المتسبب  
بيندر الطور - انظر الوثيقة رقم ٢٧٧ سطر ٢ .

٣٣ - هذا هو تاريخ التصرف الذي وقف فيه الواقف غنيم بن سالم بن الياس النصراني الملكي الشوبكي ، الدار ببندر الطور ، وهو سابق على تاريخ كتابة هذه الوثيقة التي بين أيدينا . انظر التحقيق رقم ٢٨ في هذه التعليقات .

٣٤ - درج الناس في العصر الوسيط - وهو عصر دين - المسيحيون منهم والمسلمون على السواء ، على وقف أملاكهم أو بعضها على الرهبان في الأديرة ، والصوفية في الخواصق . والواقف غنيم بن سالم بن الياس لنصراني الملكي - في هذه الوثيقة - وقف الدار المتصرف فيها على مصالح دير طور سيناء ، لتيسير سبل العيش للرهبان الناسكين وللمترددين على الدير من الزوار المسيحيين والمسلمين لكي يتمكنوا من الإقامة الآمنة في هذه البقاع النائية .

٣٥ - قرآن كريم - سورة البقرة ( مدنية ) آية ١٨١

٣٦ - هذه الصيغة الجزائية وأمثالها تواتر كتاب الوثائق العربية في العصور الوسطى على كتابتها ضمن الفقرات الختامية في وثائق الوقف بالذات ، وهي ذات أسلوب ديني مناسب لروح العصر ، وقد وردت فيها صيغ للنهي والعقاب وأخرى للترغيب والثواب ( سطر ١١ ، ١٢ ) .

٣٧ - قرآن كريم - سورة النجم ( مكية ) آية ٣١ .

٣٨ - الحسبلة هنا بمثابة الدعاء الختامي في نهاية الوثيقة ، وقبل شهادة الشهود والعدول مباشرة . وهناك اختلاف في صيغ الدعاء الختامي في الوثائق ، وإن اتفقت جميعا في ذكر الحسبلة التي ترد غالبا بلفظ الجمع « حسبنا » القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد ترد الحسبلة « وحسبنا الله ونعم الوكيل » بمفردها ، وقد يسبقها أحيانا أو يلحق بها الصلاة على النبي محمد وآله وصحبه .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

٣٩ - هذه اشارة ثانية الى مادة أخرى من مواد الكتابة وهي الرق ، كما ان الوثيقة التي بين أيدينا مكتوبة على دروج من الرقوق المخططة كذلك ، ويظهر ذلك بوضوح في اللوحتين رقم ٣ ، ٤ فيما بين السطرين ١٢ ، ١٣ . وعن الرق

كمادة للكتابة انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٨٤ — ٤٨٨ ،

ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ • ابن النديم : الفهرست ص ٣١

Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 24—25,

٤٠ — لفظ « باطن » في مصطلح الوثائق العربية يقصد به وجه الوثيقة

Recto ، أما لفظ « ظاهر » فيعني Verso •

٤١ — ما بين الحاصرتين سقطة من كاتب الوثيقة ، وقد أوردها بين

السطرين ٥ ، ٦ فوق الكلمة السابقة عليها •

٤٢ — كان لبعض الحوانيت في العصور الوسطى مصاطب أمامها ، وتبعا

لذلك كانت أرضية الحانوت ترتفع عن مستوى أرضية الشارع بمقدار متر

تقريبا ، وتمتد خارج باب الحانوت نفسه كمصطبة لعرض البضائع عليها ، وخاصة

في الشوارع التجارية الرئيسية ولأسواق في المدن ابان العصر الوسيط في القاهرة

وغيرها •

الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ( نشر العربي ) ص ١١ حاشية ٢ •

وقد تكون المصطبة عبارة عن عدة مجاديل من الحجر أو الرخام محمولة على

كباش أو حرمداقات بارزة ، أو قد تبني بالآجر أو بالحجر وتبلط •

وثيقة فرج بن برقوق محكمة ٦٦ ، وثيقة الظاهر بيبرس محكمة ١٢٦ ، وثيقة

النوري أوقاف ٨٨٣ سطر ٧٦٧ •

وكان المحتسب يراعى نظافة المصاطب ، ويأمر بعدم خروجها عن الحدود

وتنظيم الشوارع حتى لا تضر بالمار أو الجار على قول بعض الوثائق • وقد هدمت

كثير من هذه المصاحب أيام الحملة الفرنسية على مصر •

الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ١٦١ •

حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد لأثرية ج ٢ ص ١٤٠ •

٤٣ — لعل عبد الله بن حلاوة هذا هو ابن حلاوة العبياتي الوارد اسمه في

الوثيقة رقم ٢٧٧ سطر ١٠ •

٤٤ — انظر التحقيق رقم ٢٠ في بحثنا هذا •

٤٥ - لكي يتم العقد ويكون معتبرا صحيحا شرعيا لازما مرعيا ، يجب أن تتحقق أركانه وشروطه التي لا بد منها ، ومن هذه الشروط ما يتعلق بالأركان نفسها ( الإيجاب والقبول ) ومنها ما يتعلق بموضوع العقد ، ومنها ما يتعلق بالعقد ، وهكذا تكون المعاقدة الشرعية .

والعقد هو ربط بين كلامين أو عبارتين صادر كل منهما عن طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرفي عقد البيع تعتبر إيجابا ، وأن تسميه أحدهما إيجابا والأخرى قبولا ليست إلا تسمية اصطلاحية فقط لا واقعية . أحمد أبو فتح : المعاملات ص ٢٣٨ - ٢٣٣ .

ولكي ينتج ركننا العقد وهما الإيجاب والقبول أثرهما ، ويكون للعقد وجود معتبر شرعا ، يجب أن يتوافر فيهما ثلاثة شروط :

( أ ) أن يكون كل منهما صادرا من شخص مميز عاقل ، يدرك ما يقول ويعنيه حقا ، وبهذا يكون تعبيره مبرا حقا عن إرادته .

( ب ) أن يتوافق الإيجاب والقبول على شيء واحد ، أي على محل العقد بعينه أعنى المبيع والثمن .

( ج ) اتصال القبول بالإيجاب في مجلس العقد لأن كان الطرفان حاضرا معا . محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .

ولا شك أنه يجب لتكوين عقد البيع - وسائر العقود - وهو عقد رضائي *contrat consensuel* حصول الرضا *consentiment* الصحيح المجرد عن الإكراه أو الإجبار بين المتعاقدين ، وهو تقابل الإيجاب والقبول وتطابقهما ، ويشترط في الرضا وهو ركن من أركان البيع ، أن يكون شاملا كل الشروط اللازمة لتكوين العقد . كما يجب أن يكون رضا أحد طرفي العقد مطابقا لرضا الطرف الآخر تمام المطابقة ، وأن يتصل القبول بالإيجاب في مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الإيجاب *offre* والقبول *acceptation* ، أو توافق الإرادتين *accord des Volontés* الصحيحتين المتطابقتين ، أما كان طريق التعبير عن الإرادة ومظهره .

السنهوري : عقد البيع ص ٤١ - ٤٥ ، الوسيط - فظرية الالتزام  
ص ١٧٠ - ١٧٢ ، ٢٠٥ - ٢١٧ وما بعدها ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع  
ص ٢٥٧ •

محمد كامل مرسي : العقود المسماة ج ٦ ( عقد البيع ) ص ٣٣ - ٣٧  
وما بعدها •

عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ١٦ ، ٢٩ - ٣٠ •

أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المادية ص ١١٤ ، ١١٥ - ١١٥ •

علي الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ٦٨ - ٧٤ ، ١٦١ •

٤٦ - انظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٩ وكذلك بحثنا •

- وثيقة الأمير أخور كبير قراقبا الحصني ص ١٩٢ حاشية ٢ •

- وثيقة بيع ص ١٨٦ تحقيق رقم ٤٠ •

٤٧ - يلاحظ وجود حرف « ن » بعد كلمة العالمين ، وهي علامة وقف

stop sign ، وقد اصطلح كتاب الوثائق على كتابة حرف « هـ » كذلك كنوع

من الاختزال في الكتابة بمعنى « انتهى » •

Grohmann : From the world of Arabic Papyri, pp. 91-98.

٤٨ - هذه هي علامة القاضي الموثق سراج الدين أبو حفص عمر النوى

الشافعي خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، وقد كتبها بخط يده بقلم جليل •

وقد اصطلح الكتاب على الابتداء بالحمد له في كثير مما يكتبونه ، أما القضاة

الموثوق فقد كان لكل منهم صيغة معينة من الحمدلة باعتبارها علامته التي يكتبها

بخطه في سطر مستقل ، أو في نفس سطر البسملة بقلم جليل • وقد كان لكل

قاض علامته الخاصة المميزة التي ينفرد بها دون غيره من القضاة الموثقين في عصره ،

وكان يفتتح بها الشهادات في ظهور الوثائق - غالبا - التي تعرض عليه لتوثيقها ،

وهي ترد في الأسجال التوثيقي الحكمي والتنفيذي على السواء •

والحمدلة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيقي ( الموثق ) ، كما كانت تعني عن

التوقيع والختم •

ابن الأثير : المثل السائر ص ٤٠٩ •

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ج ١٤ ص ٣٤٢ - ٣٤٩ ،  
دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحمدلة » •

أما هذه الصيغة بالذات « الحمد لله وحده جرى ذلك » فقد لاحظنا من  
دراسة كثيرة من الوثائق ، أنها تكتب عادة في بداية الوثيقة التي يرد فيها  
الحكم بصحة التصرف - أى الاسجال الحكيمى التوثيقى - الوارد فيها فى آن  
واحد ، كما هو الحال فى وثيقة البيع الواردة على الهامش الأيمن من الوثيقة  
رقم ٣٠٦ •

٤٩ - هذه الوكالة - وهى فى معنى الفندق أو الخان على حد قول المقرئى -  
كان ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفسق والجوز  
واللوز والخرنوب ونحو ذلك ، وموضعها بالقاهرة فيما بين الجامع الحاكمى  
ودار سعيد السعداء ، بناها الأمير قوصون وجعلها غنقدا كبيرا الى الناية وبدائره  
عدة مخازن ، وكان يملوها رباع تشتمل على ٣٦٠ بيتا يسكنها نحو ٤٠٠٠ نفس ،  
وقد بدأ خرابها مع محن سنة ٨٠٦ هـ •  
المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩٣ •

٥٠ - هو الشيخ عمر بن حسن بن عمر بن عبد العزيز بن عمر السراج  
النوى ، ثم القاهرى الشافعى ، ولد بمصر سنة ٨٢٠ هـ بقرية نوى بمحافظة  
القليوبية ، ثم قدم القاهرة ودرس على شيوخها الفقه وأصوله والفرائض  
والحساب والحديث والعربية ( النحو والصرف ) والمنطق ، وقد تكسب بالشهادة  
على خير واستقامة ، ثم ولى القضاء خليفة للحكم العزيز الشافعى بالديار المصرية -  
أعنى نائباً لقاضى قضاة الشافعية •

السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٨٠ رقم ٢٧٣ •

٥١ - الحكم بمعنى قضاء القاضى عبارة عن قطع الحاكم ( القاضى )  
المخاصمة أو المنازعة وحسمه أياها ، والحكم فى هذه الحالة يكون ملزماً أو قطعياً ،  
لأنه حكم يصدر من القاضى لافادة لزوم الحق ، وتمكين أهل الحقوق من  
حقوقهم •

جميعط : الطريقة المرضية ص ٢١٤ - ٢١٦ ، عرفوس : تاريخ القضاء  
ص ١٤٠ - ١٤١ •

قراءة : الأصول القضائية ص ٢٨١ •

كما أن الحكم لا يمكن التعرض لنقضه ، ويمتنع على أى حاكم آخر ابطاله  
ما دام موافقا للشرع ، لأن حكم القاضى يرفع الخلاف •

ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ١ ص ٢٧ ، ١٧٤ ، جميعط : نفس المرجع  
ص ٢١٦ - ٢٢٢ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ •

ومهما يكن من أمر فإن حكم القاضى الموثق فى المحكمة المملوكية فى العصر  
الوسيط ( مجلس الشرع الشريف ) - كان حكما قضائيا وإداريا ملزما وواجب  
التنفيذ فى آن واحد ، لأنه لم يكن هناك فصل بين الولاية القضائية ( الحكم )  
والادارية ( التوثيق ) للمحكمة آنذاك • انظر بحثنا التوثيقات الشرعية  
ص ٣٩١ - ٣٩٢ •

وجدير بالذكر أن هذه الوثيقة ( عقد البيع ) قد تضمنت الى جانب التصرف  
القانونى ، حكم القاضى الموثق ( الاسجل الحكيمى التوثيقى ) فى آن واحد •

٥٢ - من المعروف أن هناك صلة قوية بين علم الوثائق والقانون ، وبين  
الوثائق العربية فى العصور الوسطى والشرعة الاسلامية - وهى الشرعة السائدة  
فى تلك العصور ، بدليل أن جميع المواطنين فى مصر بما فيهم النصارى كانت  
تصرفاتهم القانونية الخاصة كالبيع والوقف وغيرها تنظر أمام القضاء الاسلامى •

ومن ثم فإن كل محرر يكتب acte écrit, written deed سواء أكان من  
جانين acte juridique bilatéral أو من جانب واحد acte juridique unilatéral  
لابد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية فيه ، ليكون وثيقة شرعية  
دبلوماسية acte diplomatique بمعناها العلمى الدقيق الذى اصطلح عليه  
الوثائقيون •

ولكى تكون الوثيقة شرعية فلا بد من أن تكتب بشكل قانونى لا يدع  
مجالا للنزاع أو الخصام •

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣ - ١٥٤ ، ٣١ •



وهذا الشكل هو ما يعرف باسم الشكل الدبلوماسي للوثيقة *La forme diplomatique* وذلك بمرعاة الشروط الشرعية أو القانونية اللازمة التي نص عليها الفقهاء والمؤلفين عند كتابة الوثيقة - أيا كان نوعها - ، ومن حيث الصياغة القانونية لها *redaction technique* والواجب توافرها فيها بوضوح تام .

٥٣ - يقصد بذلك أن القاضي الموثق الشيخ عمر النوى الشافعي ، قد شهد على نفسه جميع العدول الذين حضروا مجلس حكمه وقضائه ، بما نسب إليه من الحكم بصحة التصرف القانوني الوارد في الوثيقة ولزومه ، فشهدوا عليه بذلك . ابن قاضي سماه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

٥٤ - شهادة الشاهد هنا تسحب على كل من البائع والمشتري والقاضي الموثق ، ولذلك وردت الشهادة بصيغة الجمع « شهد عليهم بذلك » ، فالشاهد هنا شهد على المتصرفين في الفعل القانوني وهما البائع والمشتري ، كما شهد على القاضي الموثق في الفعل التوثيقي بمد أن حكم بصحة التصرف ، وذلك لأن التصرف القانوني والحكم التوثيقي وردا في نفس متن الوثيقة .

٥٥ - الشاهد محمد بن محمد بن عمر النوى هو كاتب الوثيقة ، وهو ابن الشاهد الثاني ، وكلاهما من أسرة القاضي الموثق أبو حفص عمر النوى الشافعي . فقد كان لكل قاض موثق في مجلس حكمه مجموعة من أعيان الموقعين وكتاب الحكم من الشهود العدول ، وكان بعضهم من أسرته وذوي قرياه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يصل الى منصب القضاء أحيانا . وهؤلاء الشهود العدول هم أشبه شيء بمساعدى القضاة *juges suppléants* والموثقين .

ابن قاضي سماه : نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣٦ .

القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٩ .  
وقد لاحظنا وجود عدد من الشهود العدول من أقارب القضاة الموثقين في كثير من الوثائق العربية الخاصة ( بيع - وقف ... ) عند الشهادة في التوثيقات الحكومية أو التنفيذية ومثال لذلك أنظر وثيقة قايتباي محكمة ١٦٨ محفظة ٢٥ وثيقة النورى أوقاف ٨٨٢ ، ٨٨٣ .

وبعد ، فانه يمكن أن نخرج من دراستنا لهذه الوثائق - بعد نشرها وتحقيق  
نصه ، والتعليق العلمى عليها - بعدة ملاحظات هامة منها :

١ - ان طريقة اخراج الوثيقتين الأولى والثانية رقم ٢٧٧ ، ٢٨٥ تمثل  
مدرسة اقليمية ؛ فقد صدرت كل منهما وكتبت فى مدينة الطور بشبه جزيرة  
سيناء ، وهى مدرسة متخلفة بلا شك عن مدرسة القاهرة بتاريخها الطويل  
وطريقتها فى اخراج الوثائق المثيلة والمعاصرة .

٢ - الوثيقة الثالثة رقم ٣٠٦ درج كاتبها على نمط اخراج بعض وثائق  
البيع فى القاهرة ابان القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، ولا شك  
أنها قد كتبت وصدرت بمجلس الحكم العزيز الشافعى بخط وكالة قوصون  
بالقاهرة .

٣ - كاتب الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ - ولعله عبد الله بن أحمد بن محمد  
الزواعى الخطيب بجامع الطور - غير متمرس على كتابة الوثائق ، فقد شطب  
على بعض الألفاظ فى المتن ، انظر لوحة رقم ١ سطر ٤ كلمة « بملك » و « مخزين »  
وسطر ١١ كلمة « البحرى » اذ ضرب على هذه الكلمات بقلمه دون أن يشير  
الى ذلك فى نهاية الوثيقة .

كما وقع نفس الكاتب فى خطأ لغوى فيما نصه « بها مخزين مسنقان غشيمًا »  
سطر ٥ .

٤ - من حيث الدراسة الپاليوجرافية كتبت هذه الوثائق بخط سريع ، وبعض  
الألفاظ يصعب على البعض قراءتها بسهولة ويسر ، فقد درج كاتبها على وصل  
حروف الكلمات بعضها ببعض أو اهمال بعضها أحيانا كما نجد فى كلمة « جمدى »  
سطر ٢٨ فى الوثيقة الثالثة رقم ٣٠٦ ( لوحة رقم ٤ ) .

٥ - ورد الحكم بصحة التصرف فى متن الوثيقة مع الفعل القانونى ( البيع )  
فى آن واحد فى الوثيقة الثالثة رقم ٣٠٦ ( النص الهامشى ) .

٦ - جاء فى الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ ذكر مكان تدوينها على الهامش الأيمن  
فيما بين السطرين ١٦ - ١٩ ونصه « كتب ذلك بيندر الطور المبارك » ، وذكر

المكان له أهميته عند البحث في تاريخ الوثيقة ودراستها دراسة دبلوماسية نقدية كما هو معروف عند الوثائقيين .

٧ - نجد في نهاية الوثيقة الأولى رقم ٢٧٧ في السطرين ٢٥ - ٢٦ توقيع البائع المعلم موسى بن نصر الله بن يوسف النصراني الملكي المعروف بأبن الحصين بما نصه :

« المنسوب الى فيه صحيح على ما نص وشرح اعلاه وكتبه موسى بن نصر الله » .

وكذلك وردت شهادة الشهود الأربعة على الفعل القانوني في نهاية الوثيقة رقم ٢٨٥ اذ وقع كل منهم باسمه وبخط يده بعد عبارة « المنسوب الى فيه صحيح وكتبه » .

والاشك أن توقيع المتصرف والشهود على الوثيقة أمر له أهميته في اثبات صحتها - فالمتصرف بتوقيعه يثبت صحة واقعة ارادية تترتب عليها آثار قانونية ، والشهود بتوقيعاتهم يثبتون صحة واقعة مادية ( كتابة الوثيقة ) بعد شهادتهم على الواقعة الارادية ( التصرف القانوني ) .

والواقع أن التوقيعات أدلة خطية لها من الاعتبار مكان كبير ، وقد ثبت العمل بالخط بالأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة والاجماع ، فالكتابة تفوق الشهادة *Lettres passent témoins*

وكما يقول المثل الروماني القديم : الكلام ينسى وتبقى الكتابة

*Verba volant, Scripta manent*

٨ - أن الصياغة القانونية لهذه الوثائق الثلاث ، قد سارت على النهج الذي درجت عليه صياغة الوثائق العربية في العصور الوسطى ، بالرغم من أن كل المتصرفين فيها من النصارى ؛ ذلك أن الشريعة الاسلامية ومجالس الحكم العزيم ( المحاكم ) كانت هي المختصة بالنظر في جل التصرفات القانونية الخاصة الصادرة بين المسلمين أو بين المسيحيين أو بين هؤلاء وأولئك في ذلك العصر .

وفي الحقيقة ان هذا كله يعتبر جديدا في طريقة اخراج هذه الوثائق القانونية الخاصة ، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين ، والصادرة قبل خمسة قرون بمدينة الطور في شبه جزيرة سيناء .





















تم طبع هذه المجلة بالهيئة  
القائمة للكتب - مطبعة جامعة  
القاهرة - في يوم السبت  
الموافق ١٢ من أغسطس ١٩٦٧  
مدير المطبعة  
أحمد سلامة



gence of the spirit is to be effected. This is why Mary utters these words as though in a trance. The result is that the finest poetry in *The Family Reunion* is not dramatic.

I have devoted some space to an analysis of a play by Eliot in order to indicate the magnitude of the problem of communication. The attempt to meet the marked intellectual and cultural stratification of the modern audience by presenting a hierarchical design of characters and ethical values calls for exceptional powers on the part of the playwright. Other examples of double-pivoted plays may be given. *On The Frontier* (1936) presents a fundamental duality of approach, on the part of Auden and Isherwood, to drama. There is a façade which reflects, in racy, idiomatic, and conversational English, the mundane, drab and uninspiring conditions of modern living under the shadow of menacing war ; while in the background we are treated to the Utopian world of the authors' aspirations, a world of fraternity and freedom from economic stress, expressed in a highly selective language. Again in *Ascent of F 6* there is a dramatic pattern of a central character striving after self-realization through climbing a mountain. Another pattern also exists, representing a picture of a circumjacent society which has to illustrate, in emphasized terms, that state of affairs and those political principles against which the principal characters—as well as the authors presumably—revolt.

The problem becomes one of effecting an easy commerce between the two realms. Where the problem is not satisfactorily tackled the play fails to present a comprehensive symbol which indicates the totality of the cosmos, the earthly and the spiritual, indivisibly fused. In other words either the drama of external conflict and tension obscures voices of greater significance, or else the revelations given in flickering moments lose their impact because they have not been sufficiently connected with normal experience.

dilemma which the others, with the exception of Agatha, are not capable of making.

The failure lies in a divorce between the «divine» drama enacted by the central character and the «human» drama seen in the relations of the less assuming personages in the play. It is the failure of the «intuitive» approach to the human plight to vie side by side with the «ratiocinative».

The result is that we have a double-pivoted play. The failure of the two layers of presentation to interpenetrate results in two sharply designated sets of verbal styles. In *The Family Reunion* these styles are exemplified on the one hand by the terse, lucid and vigorous colloquialism of the spiritually moribund characters, and on the other by the «duets» or arias seen in the Harry-Mary scene or in the Harry-Agatha scene of the rose-garden. One illustration from Mary's speech to Harry may show the quality of the style that answers to the spiritual layer of presentation :

Pain is the opposite of joy  
But joy is a kind of pain  
I believe the moment of birth  
Is when we have knowledge of death  
I believe the season of birth  
Is the season of sacrifice  
For the tree and the beast, and the fish  
Thrashing itself upstream :  
And what of the terrified spirit  
Compelled to be reborn  
To rise toward the violent sun  
Wet wings into the rain cloud  
Harefoot over the moon ?(48)

This sublime awareness has its origin, not in human, but in supernatural experience. Mary is not really a dimensional growth. The latinate overlay is not in Mary's consciousness or in the habits of speech which testify to her role ; it is an expansive gloss by the author on the need for sacrificial and renunciatory action if a resur-

---

(48) *op. cit.* p. 60.



The crucial point about Harry is that in his person he combines the past of Wishwood, its agony and degradation, as well as its future, in the sense of his being its redemptive symbol. In Harry's being two generations meet. In the rose-garden scene, when the moment «in» time intersects the moment «out of» time, or when, in the words of Agatha, «the loop in time» comes(42), Harry assumes the character of his father as well as his own. To Agatha Harry becomes both a son and a lover. Being born of a sinful wish on Agatha's part Harry has lived on to be both a «son» and a «scourge». At his own end Harry calls to her as their phantoms haunt for a moment the luminous realm of the spirit, «O my dear, and you walked through the little door/And I ran to meet you in the rose-garden» (43). In the language of the *Four Quartets* the rose-garden is the «door we did not open» ; what «might have» been, rather than what «has» been ; a symbol of «desire, not in itself desirable».

Harry reflects, therefore, not only his own pattern of woe but also that of his parents. Whatever he himself has done recedes into a larger background of degradation and misery of which his own act, or rather «dream» of an act—pushing his wife overboard—is only an instance. Later both patterns become part of a universal bondage, a shadow of «something behind our meagre childhood,/Some origin of wretchedness(44).

This, precisely, is what Amy and her satellites cannot understand. Why, what has Harry done in his absence, to justify such attachment to loathing, such a sense of horror and self-defilement ? Elsewhere Harry attempts an answer :

It is not my conscience,

Not my mind that is diseased, but the world I have to  
live in(45).

To Agatha there is nothing eccentric about Harry. «He sees the world as clearly as you or I see it», says she to Downing, «It is only that he has seen a great deal more than that» (46). The only way of gaining admittance into his own world, Harry says to Mary, is by «seeing» (47). Obviously there is a genuine approach to Harry's

---

(42) *op. cit.* p. 18.

(43) *Ibid.* p. 108.

(44) *Ibid.* p. 100.

(45) *Ibid.* p. 81.

(46) *Ibid.* p. 129.

(47) *Ibid.* p. 87.

the «eye» she refers to as directed towards the house merges into the «unwinking eye» (38) of the rose-garden scene. It is the eye which supervises the measured movements of the body in fulfilment of the requirements of expiation.

But the attempt to unify several strands of feeling and experience may admit of approval in theory without being uniformly successful in practice. The problem is one of effecting an easy commerce between the «elect», the one with remarkable intellectual and spiritual insight, and the less assuming personages in the play. Consider the following illustrations from the dramatist's group of earlier play: *Sweeney Agonistes* (1924), *Murder in the Cathedral* (1935) and *The Family Reunion* (1939) respectively :

**Sweeney :** I gotta use words when I talk to you  
But if you understand or if you dont  
That's nothing to me and nothing to you(39).

**Thomas :** (To the Priests while the Knights assail the Cathedral) Those who do not the same  
How should they know what I do ?  
  
How should you know what I do ? Yet how much more  
Should you know than these madmen beating on  
the door (40).

**Harry :** But how can I explain, how can I explain to you ?  
You will understand less after I have explained it.  
And people to whom nothing has ever happened  
Cannot understand the unimportance of events(41).

The common feature in the examples under review is loss of contact, expressed in an impatient gesture on the part of the principal character and manifested in a breakdown of the range of communication. A brief analysis of Harry's dilemma may clarify the point.

---

(38) *op. cit.* p. 107.

(39) *Sweeney Agonistes* (Faber and Faber) 1923 p. 30.

(40) *Murder in the Cathedral*, *op. cit.*, p. 72.

(41) *The Family Reunion* p. 28.

ever, emerge at the other end, bent on renouncing the world. These may spend the rest of their lives in prayer and solitude, in a «stony sanctuary» beside «a primitive altar (33)»; or they may give up life after an incredible torture, crucified on an ant-hill by monkey-eating tribes. This is the spiritual plane of interpretation which Eliot's plays present for the understanding and the appreciation of a few sympathetic audience between whom and the protagonist there is to be a kinship of interest.

A specific example may not be out of place. On the surface plane of interpretation the method of designing, in *The Family Reunion*, parallel modes of behaviour continued over a span of two generations, brings into light the possibility of the existence of some «charm» which may be equated to the Greek «curse». Indeed Agatha, on more than one occasion, speaks of a «curse» coming to being «as a child is formed» (34), of an «eye» covering the house of Wishwood (35), and of an «enchantment» which Harry has been chosen to resolve (36).

Amy is struck by this recurrent rhythm which she has noted in the case of both husband and son. For thirty years Amy sought to contrive the happiness of her son. She selected his school mates, arranged the games he was to play, and even kept a poor relation in the house to be his future wife. But as the play draws to an end it comes as a shock to Amy to discover that her son is just such a weakling as his father was before him. As she catches the last part of Harry's conversation with Agatha, and realizes that he has consented, at his aunt's suggestion, to leave Wishwood and go on a long journey, she is forced to conclude that there must be some «spell» working «from generation to generation» (37).

Talking in terms of a spell or an evil eye is the charlatan's way of approaching the supernatural. For Amy this may be the sphere she can, both intellectually and emotionally, move within. Agatha, however, speaks of a «curse» in a way which suggests the Jewish conception of punishment visited on the sons and grandsons on account of sins committed by the fathers and grandfathers; while

---

(33) *The Family Reunion*, op. cit., p. 115.

(34) *Ibid.* p. 110.

(35) *Ibid.* p. 70.

(36) *Ibid.* p. 106.

(37) *Ibid.* p. 120.

audience, while the rest ... should share the responses of the other characters in the play(32).

Eliot, for one, attempted to present in his plays a complex pattern of varying spiritual and ethical beliefs through characters conceived in the form of a hierarchical design, with the «elect» on top. A brief reference to his dramatic work would be pertinent for the purposes of the present study.

The world as Eliot's plays depict it is inhabited mostly by fugitives, not from justice, but from phantoms, visions and spectres. Always in ignorance of invisible pursuers, men and women shun solitude where their phobias are magnified, seeking in one form of activity after another to drown that incessant craving for union with God. If only they would turn once in their flight, and accept their ghosts, confess some past failure, some mean and cowardly act, they might come to see their Furies as Eumenides, and in time come to follow rather than flee.

This theme lends itself to interpretation on more than one plane of understanding. One is that of the «thriller» or the crime-and-punishment type of play. In *Sweeney Agonistes* we hear of someone who «did a girl in» and kept her body «in a gallon of lysol» in the bathroom. In *The Family Reunion* the dubious circumstances in which Harry's wife disappeared on board a steamer gives rise to speculations on the part of Harry's relations, which are all but confirmed in the reader's mind by the appearance of Sergeant Winchell.

It would also be possible to interpret the phobias experienced by certain personages in Eliot's plays in terms of «psycho-pathology». The loss of identity figuring so frequently, the rejection of the cause-and-effect relationship as a basis for interpreting phenomena, and the identification of the insubstantial with the Real, have given rise to commentary couched in the phraseology of psychoanalysis, as only the introduction of Sir Harcourt Reilly as psychiatrist in *The Cocktail Party* would indicate.

But Reilly is only in part a psychiatrist. His «sanatorium» can give nerve-racked patients a merciful respite and then send them back to the world to «make the best of a bad job». A few others, How-

---

(32) Eliot, discussing questions of creation pertaining to *Sweeney Agonistes* in *The Use of Poetry and the Use of Criticism* (Faber and Faber) 1933 p. 153.

### III

In a healthily stratified society we expect to find a majority who are at one in a common understanding and with pleasures which are commonly shared. Not too remote from this larger public, and with frontiers so flexible as to allow continuous reciprocal influence and interaction among the whole, there are bound to exist smaller groups whose members are endowed with taste and discrimination, and who enjoy much the same background of education and manners. In an age of cultural debility, on the other hand, when canons of taste are continually shifting and deteriorating, reciprocity of feeling or understanding is restricted to the instinctive or the crude.

In order to cut through this cultural stratification presented by modern drama recipients certain playwrights have resorted to a corresponding laddering of planes of consciousness in the one play. This is not a novel device ; Professor Tillyard's discriminating analysis of Shakespeare's plays has revealed a hierachical design which, we expect, made its appeal at one end to the most refined scholars and courtiers of his time, and at the other to the rabble who wolfed down his plays in the way they enjoyed bear-baiting, cock-fighting and witch-burning.

This explains the frequent practice among modern playwrights of using some «democratizing» material—myth, ritual, folk yarn, musical-hall varieties, or some known part of the nation's history—which establishes an immediate response among the audience at the lower strata of consciousness, while the subtler effects are entrusted to the care of profounder insights. Part of the material of self-analysis attempted by certain verse-dramatists in the thirties goes to reveal the factory work which is done in the process of creation and which answers to the contention maintained here. Of this material the following statement stands out as significant :

I once designed, and drafted a couple of scenes, of a verse play. My intention was to have one character whose sensibility and intelligence should be on the plane of the most sensitive and intelligent members of the audience ; his speeches should be addressed to them as much as to the other personages in the play. There was to be an understanding between the protagonist and a small number of the

The exhortation is for the «idealists» of our time who lack the insight to perceive the advent of a new world. But the world of the future, as the play depicts it, has its ideals evoked only in name. We are simply told of the «borderless world of the many», and of the «melting away» of «states and separate power». But we can hardly accept the idea of the transfiguration of our world into a guiltless and beatific one if the argument in support of this idea is so naive : «Through that blazing instant when the squad shoots», we are told by the Third Red, the cause is miraculously strengthened :

When they are killed they fall like seeds  
Into the ground to bear the tenfold fruit  
Of our purpose ; thirty spring up,  
O, all the statistics show, where three comrades die(30).

Not only is the source of this power left vague and unobjectified, the result of stating rather than rendering, but we are also left uncertain whether it will not develop into another Hydra. Indeed it is difficult to see how the Third Red, with his dogmatic and sanguinary views, can refute the Judge's arguments :

your world is the antipodes  
Of the world of those  
Who seal us in this living tomb :  
And travelling there, where all seems opposite,  
Yet all will be the same ; only  
Those who are now oppressed will be the oppressors,  
The oppressors the oppressed. For your  
World and theirs exist to maintain their worlds  
And truth becomes the slave of the arrangements(31).

In *Trial of a Judge* there is something final about the Reds and the Blacks, and we shrink from accepting the picture which the poet draws of our way of living. In *The Rock*, on the other hand, these organizations and creeds are parts of a design ; and if the note jars at times, it is not altogether a stray one. The historical sense as a redeeming factor is seen at work in Eliot's play ; and it makes the whole difference between the «contemporary» and the «topical».

I come in conclusion to the problem of communication in drama, a problem which is essentially one of reception.

---

(30) *op. cit.* p. 107.

(31) *Ibid.*, pp. 101—102.

**Ethelbert** : Ah, they wants it just as bad as anybody and they've got it a 'ole lot worse. If people don't take their religion in the usual proper way, they'll take it in other ways, such as politics ; and then they get into a 'ell of a muddle(28).

It is hoped that this analysis of a minor play by Eliot has revealed the value to his art of a developed historical sense ; it has steadied the fluctuations in the transient material. Considering the work of some minor verse dramatists of the period under review we come to the conclusion that they are more «topical» than «contemporary», a basic problem of art creation. In the 1930's Stephen Spender was so busy trying his *Judge* that the latter failed to extricate himself from the web of political and social organizations of the time.

In *The Rock* we accept the Red Shirts and the Black Shirts, the violence and the political agitation, in a way we find difficult in Spender's play *Trial of a Judge* (1938). While Eliot's play seeks anchor in the past experiences of the race, Spender's heralds a future of whose identity we are left uncertain. The confusion of the Judge throughout the play reflects, we feel, the perplexity of our modern world. The Judge seeks to keep his integrity by upholding the standards of justice in the face of the coercion of both the Government and the Black Party in power. The incidents of the play, however, reveal that the modern world is determined to go on independently of abstract laws of justice. In Act V the action revolves round three prisoners : the Judge, the Third Red, and Petra's Flancée. They are awaiting trial by the Black Troop Leaders. We gather that the refusal of the Judge to back the Government's decision to set free the Jew's assassins and condemn the Reds, has failed to save either party. His two companions in prison seek to comfort him in his last hours :

**Flancée** : No, no, you are not that mad and glittering snowman  
Which you imagine. Simply, you are mistaken.  
It is your misfortune, for which we pity you,  
That being too honest for one time, you lacked strength  
To be born into another(29).

---

(29) Spender, S. : *Trial of a Judge* (Faber and Faber) 1938, p. 100.

Having stripped the experience of church building throughout the ages to its core—a life-giving symbol—Eliot is not unmindful of the other part of the agreement : the simple-minded Ethelbert and his fellow-workers who occupy the foreground. It is true that the battle of man against time has already been won in spirit. But the vision of the Church as eternally triumphant cannot for long be sustained by human nature. These simple people have their own problems, and it is no use telling them that a spongy site will stop leaking or that political agitators will cease to threaten their work. With «progressive» views filling the air about them, views about religion as an expression of a reactionary mind, a handicap to material progress, and about church-building as a waste of money and material which should go to housing poor families, building libraries and providing for health centres, it is difficult for Ethelbert and his companions to go on building the church unless The Rock sustains this battle as well. «You needn't believe in God», says Ethelbert, «but you've got to believe in a buildin' (26)».

This is man's battle in time which The Rock knows may have truces but no peace. Confronted by unwieldy material in the foreground—Red Shirts, Black Shirts, Plutocrats, humanists, social reformers, etc.—the dramatist alights on a convenient device by means of which he seeks to unify these varied manifestations of the «moment». The restlessness of the modern world Eliot accounts for in terms of self-exile from God, an attempt on the part of man to seek in various inadequate ways satisfaction for a permanent craving. In *The Rock* this primary urge in man is expounded in the simple words of two workers :

Alfred : ..... religion is like a drink. People may not want it drawn very strong, or very much o' the time, most of 'em ; but they seems to like to know that it's always there if and 'ow they do want it. And if they don't get it one way, they will another(27).

As for the situation in Russia.

(26) *The Rock*, op. cit., p. 18.

(27) *Ibid.* p. 15.

(28) *Ibid.* p. 15.



What saves all this from utter delirium is Eliot's systematic mind. As we read the play, it eventually resolves itself into two more or less closely-knit patterns, each of growth and decay. The first pattern traces vicissitudes in church building in past and present times. The second reflects the fluctuations in the quality of man's belief in God, analogously located at various points in history. The background scenes where churches are built, destroyed, repaired, defended, ignored and deserted, remind us of the cycle of growth and decay in *East Coker*—a poem which obviously looks back to experiments in *The Rock*.

Seen from a particular point, church building as an affair of man is depicted as a hopeless battle against the ravaging hand of time. Here man is seen whirled about on the circumference of the moving wheel, governed by the rhythm of the day and the night, the blood, and the seasons. His vision is arrested by the perpetual revolution of configured stars, his mind and body by the endless cycle of idea and action. «We build in vain,» say the Chorus, «unless the Lord build with us(23)». In *East Coker* these activities, uninspired and unguided by the divine power, are visualized as «Feet rising and falling,/Eating and drinking. Dung and death(24)».

Another pattern also exists, at a deeper level of interpretation. In *The Rock* as well as in *Four Quartets* Eliot makes use of his wide reading in Greek philosophy, history, and the Christian mystics' teachings, in an attempt to discern the «Form» which governs this growth-and-decay movement, the *Primum Mobile*. This he identifies as the symbol of Incarnation. This is the intersectional point where a moment in time—the birth of Christ—bisects eternity. Church building as revealed in the covenant of time—dust and clay moved by dust and clay—was reconciled in the still point where the Church received its permanent Form by assuming the body of Christ Incarnate. This, we are told, was

A moment not out of time, but in time, in what we  
call history ; transcending, bisecting the  
world of time, a moment in time but not  
like a moment of time,

A moment in time but time was made through that moment :  
for without the meaning there is no time, and  
that moment of time gave the meaning(25).

---

(23) *The Rock*, op. cit., p. 80.

(24) *Four Quartets*, op. cit., p. 16.

(25) *The Rock*, p. 50.

A characteristic feature of war-period verse drama is that it subjects current political and other issues to a powerful examination. But in effecting an easy commerce between the world of the drama and that of the general public major problems involving the essence of creation are bound to arise. Contemporaneity may lapse into topicality. To have a true sense of one's age is not only to reflect its urges and crises, but also to view it as a moment in the greater scheme of perpetual human existence, a moment which as yet has not resolved the deeper reality of its relationship with this scheme in terms of art.

A primary prerequisite on the part of a writer is, therefore, a historical sense—to be able to see the present in terms of the past, and vice-versa (22). Lacking this historical sense at the time I have chosen for the present study, Spender, Auden and Isherwood wrote plays which were more topical than contemporary; while even Eliot's *The Rock*, a play which is occupied at the surface plane with equally transient material, is not without its value. A closer analysis of two examples of writing in this period would be pertinent as an illustration of the value of the historical sense.

In *The Rock* Eliot was considerably handicapped. The scenario of the play had been set for him; he had only to supply the words. So was the occasion—to collect funds for a church to be built in one of the unassuming districts of London—as well as the type of the audience. The material he had to shape into play-form presented a considerable amount of heterogeneity. It ranged from biblical and historical material of a serious order to a vacuous wrangling between a brick-layer and his wife in a slummy quarter. There are parts of the Mass, a blessing in Latin of the departing Crusaders, five versions of church-building at various periods in history, as well as three episodes of church dedication. There are imperfectly digested creeds—communist, fascist, and humanistic. There is a Secondary Chorus of unemployed labourers, a labour strike, a street brawl, an undignified scramble after a golden calf, as well as some of the most stimulating choric verses Eliot ever wrote.

---

(22) The interrelationship of past and present is obvious :  
 «the historical sense involves a perception, not only of the pastness of the past, but of its presence».

(Eliot, T.S. : *Selected Essays*, op. cit. p. 14).

At that time Eliot was editing *The Criterion*, and he had for some time been watching with apprehension the continual closing of mental frontiers as the German and Italian contributions to this literary periodical were becoming more and more insular. The next year, commissioned to write a play for the festival of Canterbury, Eliot thought of bringing to the audience the contemporary relevance of the situation. The readers of the play are suddenly brought to alertness as the First Knight addresses the parishioners after the murder of the Archbishop :

I suggest that you now disperse quietly to your homes.  
Please be careful not to loiter in groups at street corners,  
and do nothing that might provoke any public outbreak (20).

In the course of the few years following, the ominous words were to impress themselves upon nation after nation as Europe crouched under the lengthening shadows.

Certain shock-tactics abound in war-period verse drama, reminding us at times of Shaw's disruptive influence, his quick-flashing technique. A favourite device answering to this intention on the part of the playwright is the Chorus who, in certain plays, is not content to preserve a placid emotional or intellectual aloofness. The Skeleton, one of the most disquieting figures created by Charles Williams, wheels more than once upon the audience to upbraid them for their lethargy and lack of faith :

And you, whose hands are still, lying now so quiet,  
one day, against your will, I may bid them move  
in their own life ; then they shall crawl  
slowly up sides, shoulders, and heads,  
till each spreads  
palms and fingers there, and waggles assent  
to all sins I call against you (21).

---

(20) Eliot, T.S. : *Murder in the Cathedral* (Faber and Faber) 1935, p. 83.

(21) Williams, C. : *Thomas Cranmer of Canterbury* (O.U.P.) 1936, pp. 42-43.

The preceding pages of this section are an attempt to determine some of the basic problems of creation attendant on the withdrawal from the contemporary scene. Pouring their sentiments into an idiom and a form of versification no longer suited to the sensibility of the age, the blank-verse dramatists—Phillips, Davidson, Binyon and Moore—inevitably exhibited in their plays an excess of emotion unaccompanied by a free play of the intellectual faculties. Arguing, on the other hand, that poetry was essentially a formal medium, and that it would better gain its effect by virtue of the singing voice, the choric dramatists—Masefield and Bottomley—stood in danger of developing the auditory imagination at the expense of the other provinces of the creative apparatus. I now turn to an examination of a third style—the politico-symbolical play.

## II

In the extremely unsettled conditions of society today a literary writer may at some time or other have to face a problem of choice between two attitudes. One is to consider his main concern to be the form he is to use. He may feel that themes are only pretexts for the presentation of some purely spiritual experience, that the spirit of literature bloweth where it listeth, and that it is like a symphony ; it neither proves nor disproves. Or he may adopt another view. When men and women are living under conditions which at any moment threaten a reversion to bestiality, and when such mad chaos may be brought about as a result of a personal whim or a single act of wickedness, whether it is a pistol-shot or a leading article, a writer may feel that he owes primary obligation to his society.

A number of verse plays in the thirties, like so much writing in this century, were conceived in the shadow of this appalling system under which modern man lives, «Do you need to be told», asks The Rock in Eliot's play bearing that name,

that whatever has been can still be ?

Do you need to be told that even such modest attainments

As you can boast in the way of polite society

Will hardly survive the Faith to which they owe their  
significance(19) ?

(19) Eliot, T.S. : *The Rock* (Faber and Faber) 1934, p. 41.

The tumult and the conflict within the soul of Christ as experienced during the night at Gethsemane are expressed through sheer sound modulation :

Full Chorus

And the turbulent night of a soul  
Is darker still with the roll  
And clanging of cloud-dark wings(15).

If we are looking in Bottomley's play for more than the aesthetic enjoyment engendered by the music, the echo and the reverberations, the fading and resurgence of tonal units, or the formal designing of masses of colour(16), we shall be disappointed. Action in drama Bottomley conceives mainly in sound :

the words become the action, a sound can be a blow, a sound can hurt or kill ; a sound can bring to life, a sound can stir the blood, a sound can paralyse or release(17).

As for the theme of the play it has been mapped out for Bottomley in the Apocrypha of the New Testament. How else can one conceive of St. Peter except as a biblical figure parrotting words which were cut and dried for him by some translator four hundred years before ? Throughout the play we follow him—he looks much like the conventional figure of the Sunday school—as he obeys the call, then denies it at the crucial moment, later becomes the foremost of the disciples, goes to Rome where he manipulates man upon man into religious consciousness, and finally meets his death.

It is interesting to speculate that had Jean Cocteau handled this theme he might have given us a modern Paris for the old Rome, a poor persecuted fisherman for St. Peter, and for diction all the gossip of the latest scandal in the Latin Quarter. But such a treatment would have needed a bolder and less scrupulous dramatist than Bottomley whose idea of verse drama can be summed up in these words of his :

The comparison of poetic drama should indeed be with opera all the time, and not with prose drama(18).

(15) *op. cit.* p. 22.

(16) Bottomley sought to create « a body of speech-choristers supplementary to the boys of the regular Cathedral choir in their cardinal red cassocks. » (*A Stage For Poetry*, p. 64).

(17) *Ibid.* p. XIV.

(18) *Ibid.* p. XIV.

The rock in pieces.  
 Sing, because Man receives  
 This Mercy that reprieves,  
 That blesses and relieves,  
 And lifts and lightens.  
 Sing, because Man is given,  
 This gateway into Heaven  
 This Peace of sins forgiven,  
 That burns and brightens(12).

Perhaps the best-rounded play in the whole group is *The Acts of Saint Peter* (1933) by Gordon Bottomley. It was commissioned by Dean Matthews, then of Exeter, for the Octo-Centenary celebrations of the consecration of the Cathedral church of St. Peter. By the time Bottomley came to write this play he had given up the cause of poetry among a public with marked lack of taste, and on a stage where mechanical devices were restrictive and oppressive to the exercise of the imagination. His main interest while writing this play was in the opportunities offered by the interior of the building of Exeter Cathedral for the contrapuntal effect produced by the poet's phonal units and musical passages. For this purpose Bottomley studied the topographic significance of the masses of building, the vaults and the arches, and the Gothic structure ; they were all inseparable, he tells us(13), from the text of the play. It is pertinent to keep in mind this feature when considering the play, for the action, which seems so tenuous on the printed page, is fitted with functional adroitness into the ecclesiastical setting. The following is an illustration from the play :

O, healing Voice, life-renewing Touch,  
 Disquieting and reassuring Presence,  
 Be near me as I speak ;  
 Be here ; be here. Come, Holy Light ...  
 He is so late. I am faint with listening,  
 And perhaps the quiet footfalls that I hear  
 Are only the sound of nightfall(14).

---

(13) In *A Stage For Poetry* p. 63, Bottomley writes :  
 « If ever a work of art was designed to fit a building, this one was, as truly  
 so as any series of 15th century frescoes for an Italian church ».

(14) Bottomley, G. : *The Acts of St. Peter* (Exeter Publications) 1933, p. 20.

was a spontaneous evolution from communal feelings, an articulation of religious and social stirrings. Wrenched now from its context, a Greek play may seem to the modern sensibility morbid, or long-winded, or ruthlessly gaunt and austere. The same qualities which once gave the Elizabethan play its distinctive identity—versatility, opacity and density of phrase, and lavishness of gesture and emotion—might give rise to such epithets as verbose, or too fanciful and sentimental, when judged by a world like ours brought up on a thin verbal diet. Around the turn of this century Stephen Phillips sought to transplant Greek forebodings into a modern soil. Laurence Binyon, in the example under review, sought to transplant the Elizabethan vision of the tragic into a modern climate. The result in both cases is a disharmonious growth.

From the blank-verse play I proceed to examine one more dramatic style which came into prominence in the thirties—the «choric» play. Mention has been made of John Masefield and Gordon Bottomley as the staunchest protagonists of this form in England in the period under study, and of the influence upon their work of Yeats's highly symbolical group of plays. Unlike *Plays For Dancers*, however, the choric plays do not exploit images of language, music, painting, dancing and sculpture, interwoven harmoniously in a single direction of emotional meaning. The emphasis rather is on a generalized mood, with the words themselves vague and half musicalized. The Chorus offers considerable opportunities in the pursuit of formal beauty ; it helps the evolution of strict patterns characterized by moderate complexity of design. An illustration from *Easter*, a play written, we are told by the author, «for twelve voices and a choir», reveals Masefield's attempt at a refinement of rhythm and an intensification of the aural effect :

#### The Angels

Sing, for the thing that was  
Is withered like the grass,  
Death's domination pass  
And life increases.  
Sing, because Man receives  
This April of green leaves  
Whose living impulse cleaves

---

(12) Masefield, J. : *Easter* (Exeter Publications) 1929, p. 9.

He guesses not with what a curb of steel  
 I check the extravagance of my heart, crush down  
 The hungry tenderness, am cold and wary  
 That I may set him like a pillar firm  
 In a sure socket (9).

The survival of this dramatic style into the late twenties explains in part the severance of verse drama from life. Poetry of this nature, dependent on lyricism and felicity of phrase had given John Locke, over a century earlier, occasion to pass some of his known judgments on the superfluity of art(10). Drama of this nature, dependent on the lure of costume and scenery, abounding in intrigue and disguise, and resorting for denouement to what William Archer called «the long arm of coincidence», had furnished Zola, in 1873, with material for ridiculing romantic extravagances and swooning postures(11).

Climates of thought and feeling differ, however slightly, throughout the ages. Sir Walter Raleigh fought, so the historians of the period tell us, with a sweeping flourish and a fanfare of drums. To the Victorians, on the other hand, fighting was a cool science and calculated tactics. Transferred into a different context of ideas, a dramatic form looks deplorably distorted. Greek drama as we know

(9) Binyon, L. : *The Young King* (Macmillan) 1935, p. 35.

(10) See «Essay Concerning Human Understanding», Book II, Chapter II, Section III :

« ... that entertainment and pleasantry of wit which strikes so lively on the fancy, and therefore so acceptable to all people, because its beauty appears at first sight, and there is required no labour of thought to examine what truth or reason there is in it».

(11) See his Introduction to his adaptation of *Thérèse Raquin* to the theatre : «The drama is dying its own fine death. It is dying of extravagances, lies, and platitudes ... Now that everything is torn down and swords and caps rendered useless, it is time to base our works on truth ... we must look to the future, and the future will have to do with the human problem studied in the framework of reality».

There is much in Zola's forthright utterances that is open to debate. The words «truth» and «reality» are certainly catch-words ; a moment's thought about the host of interpretations given them by various thinkers over the ages may raise doubt as to the absolute validity of that order of perception governing everyday relations between husband and wife, father and son, neighbours and acquaintances, or householders and shareholders,—topics dear to the naturalist playwright.

Nevertheless, there seems to be an undeniable truth about Zola's manifesto which amounts to a plea for recognition of a principle the validity of which has usually been confirmed by the history of art. A viable dramatic form derives its life from popular traditions or popular requirements.



the objects surrounding him, in the whole of the vast panorama of contemporary existence. Failure to satisfy this primary requirement is likely to result in «personal» writing in the objectionable sense(7). In the following section I seek to determine the consequences of this failure expressed in terms of withdrawal from the contemporary scene.

## I

An example of a belated dramatic style surviving into the thirties may be cited by reference to *The Young King* by Laurence Binyon. As late as 1934 this play was chosen for performance at the Chapter House of Canterbury Cathedral, a proof of the dearth in religious plays. Binyon's play can be called religious only by courtesy. In all probability it was not meant to serve the purposes of a religious festival(8). In his play Binyon keeps up the tradition of the martial and the sanguinary in drama, which he availed himself of earlier in *Attila* and *King Arthur*.

In *The Young King* the rebellion of Prince Henry against his father King Henry II is made the pretext for introducing a miracle worked by St. Mary as a chastisement of the Prince for daring to despoil her shrine at Rocamadour Abbey of its treasure. The following lines exemplify the sentiment and the writing in the play. Here King Henry is overburdened by the thought of enemies marching from North and West. The southern part of his kingdom in France is also being threatened by King Philip of Spain. His son, feigning illness, inopportunely decides to go to Normandy as a pilgrim—another move which the old king gravely suspects. Under the strain of overwhelming passion, or so at least we are expected to believe, King Henry braces himself to the fight without and within :

Why do we throne those sons on hopes so vast,  
Make them the deep foundations of our thoughts ?  
Why do we spend the torrents of our love  
Where it is despised, to soak into a sand  
Dry in an hour ?

(7) A main tenet in T.S. Eliot's critical theory expressed in the following terms :

In fact, the bad poet is usually unconscious where he ought to be conscious, and conscious where he ought to be unconscious. Both errors make him «personal». (*Selected Essays* (Faber and Faber) 1934, p. 21).

(8) Originally *The Young King* was written for performance at Masefield's Theatre, Oxford, in 1924.

(Easter 1929) ; Binyon (*Love in the Desert* 1928, *Godstow Nunnery and Memnon*, both 1929) ; and Bottomley (*Merlin's Grave* 1929). Bottomley wrote a number of plays on other occasions in the same style, which appeared in three volumes : *Scenes and Plays*, *Choric Plays*, and *Lyric Plays*, all published between 1929 and 1939.

Religious Festival plays also received impetus through the combined effort of a number of poet dramatists of unprecedented stature. For a few years after the performance, in the Canterbury Festival of 1935, of Eliot's play *Murder in the Cathedral*, it looked as though some foundations might be laid for the evolution of the religious play. Charles Williams, Ronald Duncan, Dorothy Sayers and Christopher Fry, sought at one time or another to adapt to their purposes the basic action which Eliot evolved in his play : a central character—a mystic, saint, or devout contemplative—caught in the toils of temptation, and eventually coming, through self-elimination, to acknowledge the primal source of his being and unite himself with it.

A student of the drama of this period cannot, therefore, complain of scarcity of material. Taken together, in their combined range, concentration and precision of awareness of the possibilities of the verse play in the contemporary world, the poet dramatists I have mentioned stand out as the most consistent and significant exponents of their form in modern times. Whether their vision of an established verse drama form has materialized into a common medium sufficiently elastic for the expression of widely different poetic personalities, lies out of the scope of this paper. It is not my intention to trace how far their experiments have culminated in communal conformity taking precedence over private deviation. The experiments will be valuable in so far as they constitute a genuine attempt to transcend certain limitations felt by these poets in the creation and the reception of their works.

\*\*\*

The problem of the new wine splitting the old bottles is as old as creativity itself. Every new departure in literature thrives in proportion as it abandons the old conventions which have become mere survivals. One of the primary requirements of a writer with any claim to genuine literary merit is to have a sense of his age, to be able to recognize its pattern while the pattern is yet incomplete, and to reflect with considerable accuracy upon the position and proportion of

the transition from one plane of existence to the other, from the level of the «transient» to that of the «eternal», without apparent self-consciousness.

To-day it would call for an unusual insight to accomplish this subtle transition. A primary requisite on the part of a modern writer is to have both imagination and a firm hold on the world of sense perception, so that the divine and permanent realities in existence should be the inevitable extension and sanctification of the domestic, the limited, the transient. It is this mediatory position which we imagine W.B. Yeats had in mind when writing the following statement :

We must find some place upon the Tree of Life high enough for the forked branches to keep it safe, and low enough to be out of the little wind-tossed boughs and twigs(6).

To preserve such an equilibrium has in modern times proved difficult. Poetic drama too deeply immersed in social problems failed to disentangle itself from the clinging roots and weeds. Symbolical drama, too much preoccupied by higher states of being, was blown this way and that by the vexing wind. This is as much a problem of creation as one of reception. It is in the hope of surveying some of these problems that I have chosen the present field of study.

Now for the period. The nineteen thirties may be considered a moment in the development of modern verse drama which was fraught with possibilities. For one thing the politico-symbolical type of play forged ahead under the inspiration of W.H. Auden, Christopher Isherwood and Stephen Spender, who broke away from the accepted standards of the verse play maintained earlier by the Scottish and Northern poet dramatists, and evolved a new medium of expression by using free verse. Their plays abounded in intellectual wit and modern symbolism, and had a direct social relevance.

Another type of play which came into prominence in the period under review was the choric play. It was supported in England by John Masefield, Laurence Binyon and Gordon Bottomley, and was mainly influenced by the example of Yeats's middle-period *Plays For Dancers*. In Masefield's theatre on Boar's Hill experiments in writing verse plays with choric interludes were conducted by Masefield himself

---

(6) *The Collected Works in Verse and Prose of W.B. Yeats* (Stratford Press) 1908 Vol. VIII, p. 18.

practice of the Elizabethan and Jacobean dramatists we notice that in general they recognized few grounds for preferring to use one medium—prose or verse—rather than the other(3). They wrote plays exclusively in one medium or the other, or used both mediums in the same play, the choice being determined in each case by reference to a commonly recognized convention that realistic plots would better be dealt with in prose, while loftier themes would lend themselves more naturally to poetic treatment.

We now speak of prose and verse drama as two different species of writing. We may be inclined, further, to stress the difference in scope appropriate to each medium and species. Critics are in the habit of speaking, mostly in a derogatory sense, of the intervention of realistic or naturalistic themes in poetic plays, and of the prosaic, or the prevalence of prose cadences, in verse. All this may in view of the circumstances be just and necessary. But it should not obscure the fact that the supposed antithesis between these two forms of dramatic writing is a symptom of a deeper maladjustment. Not infrequently do we come across arguments assigning to prose the role of imparting information whereas poetry is viewed as the proper vehicle for evoking emotions. It is possible to trace this distinction back to Dryden's time(4).

Analogously, the scepticism shown by critics with regard to realistic or naturalistic treatment of material in a poetic play may, in the present circumstances, be justified. But here again objection should not be made without reservation. Elizabethan and Jacobean playwrights made use of realistic as well as non-realistic themes without the practice resulting in the need for any deliberate effort to reconcile the two levels of consciousness. «The paradox of the human being», to quote Christopher Fry again, «is that he is ... brief, particular, transient and at the same time eternal, general, a continuation of the life which has been from the beginning(2)». Shakespeare may have held the same view of the paradoxical nature of man, but just as his personages, using blank verse, passed without seeming effort from ordinary statements to the most exalted utterances, so they effected

(3) The rigorous practice of Ben Jonson is one exception.

(4) The evocation of the passions, *Lisideius* remarks, «We have acknowledged to be the poet's work».

*Essay of Dramatic Poesy* (ed). Thomas Arnold 3rd ed (Oxford) 1959 p. 45 lines 8—9.

(5) Fry, C. : *Theatre Newsletter*, 11 March, 1950, p. 5.

fullest effect in the study and those which are more effective on the stage, is a product of a later age(1).

From general problems I proceed to discuss others of a more specific nature. While recognizing the principle of the organic unity of all forms of artistic expression, and while allowing for the fact that certain fundamental problems of art creation and reception are as old as creativity itself, this paper subjects to scrutiny a certain art form at a certain period—verse drama in the nineteen thirties. In a sense all academic research, by arresting the natural flow of the tide of a certain phenomenon, prejudices the issue. All that the researcher can do is to suggest reasons for his choice of the field of study.

My choice of verse drama has been actuated by the contention that in modern times this art form invites problems of a heightened nature. Questions of cultural debility, for instance, vitiating the recipient's canons of taste, can be seen at work more clearly in choreographic arts, refined music and poetry, by virtue of their proximity to abstract forms of expression, than in representational art forms.

Much as the verse dramatists in the last two centuries differ among themselves they are more or less united in their awareness of the challenge presented to their use of a verbal medium possessing an avowed metrical pattern. It would be possible, of course, to argue that the principle of selection governs the use of good prose no less than that of good poetry. Nevertheless, a verse dramatist has at least to get over the initial barrier which makes the ordinary playgoer react to verse in a more conscious way than that in which he responds to prose. In an article entitled «Why Verse ? » Christopher Fry wrote : «I should really write a play which should be so good that the question would never arise(2)». The question would not in all probability have arisen had the current of tradition in drama descended in direct line from the Elizabethan and Jacobean dramatists at it did to them.

Aristotle surveyed the tragedies available to him, and they happened to be written in a dialogue possessing avowed metrical qualities; although we may note, further, that to Aristotle the use of patterned language alone was not enough justification for deserving the quality that goes under the name of «poet». When we come to consider the

---

(1) i.e. the Romantic Age. Lamb's criticism is one instance.

(2) Fry, C. : *World Theatre*, Vol. 4, Autumn 1955, p. 57.

## SOME BASIC PROBLEMS OF MODERN DRAMA CREATION AND RECEPTION

by

FAYEZ ISKANDER

*Cairo University*

In modern times the tendency has been to stress the gulf between the art of the public and the art of the coterie, between what is preferred by the majority and what is accepted as valuable by the most qualified opinion. In literary circles it has been customary to point out the impotence of all serious art, and to compare the apathy and unsettlement of people to-day with the ardour of the communities that produced the Greek chorus, the Troubadour canzone, and the Elizabethan lyric.

It may be loosely maintained that Tennyson was the last poet in England who spoke with the voice of the nation. Tennyson was perhaps in a position, as no poet of equal stature has been since, to write poetry without dissipated effort, without frequently arguing, for instance, whether what he was writing had or ought to have had any use, and to whom it was going to be addressed. Tennyson was able to assume that there was a common understanding of the place of poetry in his world.

To-day, however, a writer has to decide in the first place the relation of literature to society. The attitude he adopts is likely to determine in the long run some of the major features of his work ; for example the degree of approach towards or withdrawal from the spoken language, the amount of suggestiveness reflected in his work if it were to appeal to various levels of culture, the choice whether to dwell upon the formal or the communicative aspect of his creation, etc.

It is now customary for a volume of dramatic criticism to begin with a reminder that the principle which has determined the selection of its contents is that drama is primarily literature and has to be read and appreciated as such. This principle would rule out, the author obviously implies, plays of less literary merit though having proved post-office success. This distinction between drama as literature and drama as material for performance, between plays which produce their

Virtually apart from erecting the two forts at Gondokoro (Ismailia) and Fatiko, the station of Foweira and the town of Taufikia, the expedition was unable to achieve its chief objects : the suppressing of the slave trade, the opening of the country to legitimate commerce, the placing of a steamer on Lake Albert Nyanza(155). Not only had Baker left the slavers almost undisturbed, he had contributed to a further deterioration of conditions in the Sudan and Equatoria by failing to distinguish between quasi—legitimate raids, upon tribes in league with the slavers, and mere predatory razzias. It is not surprising therefore that the expedition was frankly stigmatised by Mc William, Baker's chief engineer, as «a war of conquest and aggression». It had been expensive too. More than a million pounds had drained out of the Egyptian exchequer on account of «the big, square, hook—nosed, spade—bearded Sir Samuel(156)». In point of fact, he had acquired a flotilla of steamers for the Nile, but apart from them there was little to show for the cost except a few useful maps.

---

(155) Shukry, M. F. : *The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan*, p. 174.

(156) Beatty, C. : *His Country Was the World. A Study of Gordon of Khartoum*, p. 142.

of the steam vessels, the great events of the future will begin by the establishment of navigation in Central Africa».

As soon as he heard of the arrival of the expedition at Khartoum, the Khedive ordered a telegram to be sent to Sir Samuel, to congratulate him on his safety and on «the success of his mission(148)». This last statement, needless to say, was a matter of courtesy, for Ismail by then had become convinced that the success of Baker's expedition had been much exaggerated(149), and his mission generally speaking had proved very unsatisfactory in its results(150). Besides, in the course of a conversation with the British consul General in Cairo, the Khedive pointed out that the operations of Baker's expedition had given rise to a general feeling of hostility and dislike towards Europeans and his government in the «Upper Country», and that even between Khartoum and Gondokoro the road was unsafe, and tribes hitherto friendly and well disposed were giving considerable trouble. Ismail moreover disbelieved that the way was open to Zanzibar, nor did he think that Baker had penetrated as far as the Equator(151).

Accordingly, on his arrival at Cairo in August 1873, Baker was received by the Egyptian authorities with coolness and dispassionateness(152). Undoubtedly, the Egyptian government was very glad that his term of office had finally completed. Nevertheless no sooner had Baker reached Cairo than he submitted to the government an accusation against Abu Suud, whom he had arrested in Cairo by a telegraph sent from Khartoum. In addition, he delivered to Cairo authorities «seventeen documents sworn to upon the Koran, and signed by many witnesses» charging Abu Suud with the murder of natives, the pillage of districts, the hunting of slaves, and direct rebellion against the government(153). But this impeachment did not change the Khedive's mind, that Sir Samuel was himself to blame for many of the difficulties which he had encountered, and which eventually ended with the failure of his expedition(154).

---

(148) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 4 July, 1873.

(149) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

(150) F. O. 78/2281. Elliot to Granville, Therapia, 2 July, 1873.

(151) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

(152) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873.

(153) F. O. 78/2349. Baker to Derby, 16 May, 1874.

(154) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 11 December, 1872.



ment received a despatch dated 15th March from the «moudir general» of the Southern Sudan, reporting the arrival at Gondokoro of the reinforcements sent to Baker, and confirmed that «la mission est en bon état(143)», at a place about 40 or 50 miles south of Gondokoro(144).

Baker, in fact, had left Fatiko on 20 March, and arrived at Gondokoro on 1st April «without firing a shot en route(145)». Leaving Muhammad Ra'uf Bey in charge of government of Equatoria, Baker descended the Nile for Khartoum, and while en route he came across two vessels conveying ivory which belonged to Aggad and Company. On examining their cargos, he found also slaves hidden beneath them. Immediately he ordered the governor of Fashoda to take the slaves and confiscate the ivory.

Arrived ultimately at Khartoum, Baker sent a telegraph to the British Consul General in Cairo, in which he enumerated the achievements of his expedition as follows :

«The country as far as the Equator annexed to Egyptian dominion. All rebellions, intrigues and slave trade completely put down. Country orderly. Government perfectly organized and road open as far as Zanzibar. El Zaraf navigable. Victory on June 8, 1872 with only 105 men over army of Onioro. Mission completely successful(146)».

Few days later, Baker sent to the Khedive a similar message, in which after having mentioned in abbreviation the results of his expedition, he declared :

«The traffic in slaves has been suppressed, and an immense area has been added to the territory of Your Highness. Lake Albert joins Lake Tanganyika(147), and thus, when camels reach Ismailia (Gondokoro) for the transport

---

(143) F. O. 78/2284. Stanton to Granville, Alex. 17 May, 1873 ; and also F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Alex. 18 May, 1873 ; enclos. Dépêche du moudir general du Sud du Soudan en date du 15 Mars, 1873.

(144) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Alex. 22 May, 1873.

(145) F. O. 78/2284. Baker to Stanton, Gondokoro, 19 April, 1873.

(146) F. O. 78/2283. Confid. Vivian to Granville, Alex. 1 July, 1873.

(147) Some of Mutesa's envoys who had been sent to request Baker to visit Buganda, had given him the impression that they considered Lake Tanganyika to be merely a continuation of Lake Albert. This impression was due to the use of the name «Mwita Nziges» for Lake Edward as well as Lake Albert.

Baker who, it is believed, might be easier and more expeditiously reached by the Nile(136) ».

In point of fact, apart from the relief of Baker, as Beardsley himself had indicated in a previous letter to the Department of State, the expedition had been intended to join Livingstone(137) and assist him in the work of solving the geographical problems of Central Africa, and more especially the question of the true sources of the Nile(138). Consequently, Colonel Purdy, an American officer in the service of the topographical engineers corps of the Egyptian army, was the obvious choice for leading this «relief expedition(139). Purdy, however, was selected for this enterprise for his sterling qualities and restless energy on the one hand, and on the other for his previous experience as a commander of the scientific expedition which, in the autumn of 1870, had performed a reconnaissance of the country between the Nile and the Red Sea(140).

The preparations of Purdy's expedition regularly kept up, and on 5th March 1873 Beardsley informed his government that :

«The expedition under the command of Col. Purdy ... is about ready to take the field, and is expected to leave Cairo within ten days from this date(141)».

Yet Purdy's expedition did not leave for Zanzibar at all. On 25 April, it became known at Cairo, through a private telegraph which had been sent from Khartoum four days earlier, that Baker and his party were then at a place south of Gondokoro «in good health(142)». This intelligence was assured on 15th May when the Egyptian govern-

---

(136) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 5 March, 1873.

(137) David Livingstone (1813—1873), Scottish Doctor, Missionary, and explorer. In 1840 the London Missionary Society sent him to Kuruman, in Bechuanaland, far to the north of Cape Colony. To open up Africa, and to bring to bear upon it the influence of Christianity and civilisation became the passion of his life. In 1853 he explored the course of the great River Zambesi, and crossed the continent from shore to shore. Between 1858 and 1864, under a commission from the British government, he explored the Zambesi valley further, as well as Lake Nyasa. In 1866 he set out on the last and longest of his journeys to solve the remaining mystery of the Nile-Congo watershed, but he died on May 4th, 1873.

(138) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 15 Dec. 1872.

(139) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 7 May, 1873.

(140) Crabités, P. : *Americans in the Egyptian Army*, p. 53.

(141) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 5 March, 1873.

(142) F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Cairo, 25 April, 1873.

ing his energies to interrupting Abou Saoud's operations, and the hostilities in which he has been engaged may possibly have been undertaken with this view(132)».

By December 1872, however, the particulars of Baker's expedition was not known at Cairo «except that it was a disastrous failure(133)».

Yet, believing that Baker's expedition had been confronting with the formidable opposition of the natives in the Lake region, the Egyptian government had decided to attempt certain measures for its deliverance. In November, therefore, the whole problem had been put under discussion at the Ministry of War. On the 27th, General Stone, chief of the general staff of the Egyptian army, had submitted to the Khedive a report, in which it had been suggested that a «relief expedition» should be dispatched to communicate with Baker. And as the navigation of the Nile south of Khartoum was exceedingly perilous, owing partly to natural difficulties and partly to the hostility of the «savage tribes» inhabiting the Upper Nile basin, it had been intimated that this relief expedition would try to reach Baker by the way of Zanzibar(134).

At the beginning of December 1872, however, this scheme was notified to the British Consul General in Cairo. During a conversation with Stanton, the Khedive declared that he was thinking of sending an expedition via Zanzibar for the purpose of endeavouring to communicate with Baker on the Lake. Transmitting this information to the Foreign Office, Stanton appended :

«I am at present unable to offer an opinion, as to whether His Highness seriously entertains the idea of sending this expedition, or whether if serious in the matter, he may not have some other object... (135)».

About three months later, Beardsley, the American Consul General in Cairo expressed his doubts towards the proclaimed object of this expedition :

«as its first destination is Zanzibar or thereabout, it is difficult to believe that its ultimate object is the relief of

---

(132) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. ? December, 1872.

(133) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fieh, Cairo, 11 December, 1872.

(134) Douin, G. : tome III, 2e partie, pp. 89—91.

(135) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. 7 December, 1872.

Writing on 7th December 1872, Stanton, the British consul General in Cairo, informed Earl Granville, the Foreign Secretary :

«I have the honour to report to Your Lordship, that during a conversation with the Khedive, His Highness mentioned to me, with reference to Sir Samuel Baker's expedition, that he had received a despatch from the governor general of the Soudan, to the effect that an attempt recently made in compliance with His Highness' orders, to communicate with Sir Samuel Baker had failed and that the expedition sent from Khartoum, had been unable to pass the obstructions in the White Nile, which caused so much delay and difficulty to Sir Samuel himself, about eighteen months since, and His Highness added, he was without any reliable intelligence as to the position of Sir Samuel Baker, though numerous had reached Khartoum that he was in lake Albert Nyanza (131)».

Few days later, Stanton wrote again to Granville :

«With reference to my despatch of the 7th instant mentioning the rumours existing as to the position of Sir Samuel Baker's expedition, I have the honour to report to Your Lordship that during a recent interview with the Khedive, His Highness informed me that he had received intelligence that a certain Abou Saoud, the principal Ivory trader of the White Nile, had arrived at Khartoum, reporting that Sir Samuel Baker had been unable to reach lake Albert Nyanza in consequence of the hostility of the inhabitants, and that he had been obliged to abandon some of his stores, having been unable to obtain porters for their transport, and to fall back towards Gondokoro.

«The source of this intelligence is however not strictly reliable, as Abou Saoud is in all probability connected with the slave trade of that district, and it is very possible Sir Samuel Baker, knowing the intimate connection that exists between the Ivory trader and slave hunting, has been denot-

---

(131) F. O. 78/2229. Stanton to Granville, Alex. 7 December, 1872.

Equally there was another point, in endeavoring to set up amicable connection with Egypt's representatives to the north. Apparently Baker's activities in general were very different in purpose and execution from those of the northern traders. He might well be an advantageous confederate. Certainly it would be hazardous for Buganda to allow herself to become the loath victim of too close an alliance between Bunyoro and Egypt. Such an explanation readily accounts for the original despatch of emissaries to see Baker whilst he was in Bunyoro, as it probably explains Kabarega's concern to thwart their meeting, and it probably too elucidates the despatch of the Baganda army to its northern border(129), when Rionga appealed to Mutesa at a time when he feared an assault by Baker upon him was overhanging(130).

For had this occurred, it would have implied that an alliance between Kabarega and Baker had now been created, and if Rionga had succumbed, Buganda would have been next on the list for attack. But Baker at length clashed with Kabarega, and sided with Rionga. Mutesa was therefore quick to send envoys to Baker at Rionga's offering the help of Buganda's well-armed forces against the Banyoro, for no Kabaka could overlook any opportunity to weld a formidable alliance against his own most stubborn foe.

Baker, however, was now withdrawing, and went no further to assist Mutesa's quarrel with Kabarega. Yet such were almost certainly the terms in which these rulers looked upon the Egyptian intervention as it now began to develop.

At all events, a thick obscurity was then surrounding the expedition of Baker at Cairo and through the reports which arrived, the Egyptian government became convinced that the success of Baker was quietly doubted.

Since October 1871, Cairo had not any reliable intelligence concerning the position of Sir Samuel. From that time, and for more a year, the Khedive had received no communication from Baker.

---

(129) In his *Ismaïlia*, Baker treated this as a demonstration of Mutesa's friendly disposition towards the Egyptian government and of his desire to rid Bunyoro of the 'cowardly and treacherous Kabarega'. Furthermore, in a letter sent from Ismaïlia (Gondokoro) to the British Consul General in Cairo, Baker declared: 'I have allied with the king Mutesa of Maganda, who sent 8000 men to my assistance in Unyoro'. See, F. O. 78/2284, Vivian to Granville, Alex. 2 August, 8173; enclos. Baker to Stanton, Ismaïlia, 19 April, 1873.

(130) Wilson and Felkin: *Uganda and the Egyptian Sudan*, vol. 2 pp. 41-42.

secured the throne of Bunyoro. Yet the lesson was obvious, and Mutesa proceeded to encourage the Zanzibaris to come to his country more than ever before, more especially to provide him with arms. By 1871 it was said that he had over a thousand, which was more than any other kingdom in the area could as yet put in the field(125).

By then, as it happened, the Sultan of Zanzibar, the sovereign of the Arab and Swahili traders, had sent Mutesa an embassy with some presents(126), no doubt in order to exhibit his support for the trade which had now developed. Mutesa was quick to reply by sending his own envoys to Zanzibar with a handsome load of ivory as a present for the Sultan(127). Whether he was thinking primarily of procuring an ally against Egyptian intervention as has been suggested(128), is not by any means clear. Certainly, there is room for doubt whether he had fully grasped the design of Baker's expedition. Baker had not, for instance, when he sent his «special caravan» to Zanzibar, yet came into collision with Kabarega. Mutesa was, however, very probably solicitous to ascertain absolutely for his own source of arms and ammunition against any advance by the northern traders. And he was in all likelihood equally concerned to make sure that if Kabarega were to look again to the north for assistance, Buganda should be the first of the lacustrine kingdoms with whom the Zanzibaris from the south (with whom Kabarega, via Karagwe, was to some extent also in touch) would cooperate. There was point in a manifestation to make sure of this, particularly when the initiative had come from the side of Zanzibar.

---

(125) Baker, E. W. : *Ismailia*, p. 264.

(126) According to David Livingstone, amongst other presents Seyyid Majid sent eight buffaloes to Mutesa (Waller, H. : *The last journals of David Livingstone*, I, p. 273). This may seem at first sight rather like sending coals to Newcastle, but the animals were in all probability domesticated buffaloes which had been trained as transport animals and which came from India. History is silent as to whether any buffaloes ever reached Buganda at this date. See, Gray, J. M. : *Sir John Kirk and Mutesa*, *Uganda Journal*, vol. 16, March, 1951.

(127) The Baganda envoys are said to have set forth with one hundred and fifty tusks. We know for a fact that «upwards of fifty-five elephants' tusks» actually reached Zanzibar, and handed over to Seyyid Barghash bin Said, who had in 1870 succeeded his brother Seyyid Majid as Sultan of Zanzibar. See, Kirk's letter to the President of the Royal Geographical Society, 13 October, 1871 ; *Proceedings of the Roy. Geog. Soc.* 1871—1872, p. 186.

(128) Sir John Milner Gray suggests that Barghash received the Baganda envoys with great courtesy, «but failed to realise the fact that they came with a serious offer, of an offensive and defensive alliance». See, Gray, Sir J. M. : *Mutesa of Buganda*, p. 28.

to such «an independent chief of first importance(120)». Consequently, during his stay at Fatiko, the British commander and the celebrated Acholi chief were on the best of terms, and the whole of Ochama's very powerful influence was placed at the disposal of the Egyptian government(121).

Meanwhile messengers arrived from Buganda «begging» Baker to visit Mutesa as soon as possible, «as he had only one desire, i.e., to see my face, and that he did not wish for presents(122)». In his article on «Mutesa of Buganda», Sir John Milner Gray points out :

«The man whom Emin Bey(123) subsequently described as the most arrant beggar of all African potentates whom he had ever met, was not likely to decline gifts without good reason. When we remember the length of time during which Arab traders, Speke, Grant, and subsequent missionaries were involuntarily detained at Mutesa's court, it seems clear that Baker was to be invited into a trap. Mutesa wanted a valuable hostage as security against future Egyptian aggression. The trap, however, failed, Baker sent one of his soldiers, who had formerly served under Speke, in his place ... (124)».

To us looking back, marking the relations of Buganda with her neighbours, especially with Bunyoro, and knowing the terms in which the rulers of these lacustrine kingdoms looked upon Egyptian intervention, it seems that Gray's point of view is not by any means reasonable.

It has to be remembered that Mutesa's neighbour and rival, Kamrasi, Mukama of Bunyoro, had died in 1869, and Kabaka Mutesa had intervened upon the side of Kabugumire against Kabarega. Supported in considerable strength by the traders from the north, while the Baganda were only armed with spears, Kabarega at length

---

(120) Bere, R. M. : Awich—a biographical note and a chapter of Acholi History ; Uganda Journal, vol. 10, September, 1946, pp. 67—77.

(121) Gray, Sir J. M. : Rwtot Ochama of Payera, p. 122.

(122) Baker, S. W. : Ismailia, p. 447.

(123) Emin Pasha (Eduard Schnitzer), ? 1880—92 ; travelled in Turkey and Egypt ; 1877—8 Governor of Equatorial Province, Sudan ; 1888—9 «rescued» by Emin Relief Expedition under Stanley ; 1890 entered German service ; October 1892 murdered by slave-raiders.

(124) Gray, Sir J. M. : Mutesa of Buganda, Uganda Journal, vol. 1, January, 1934, p. 29.

chief to kill the «nasrane(113)» on his return from the south(114). Among the wounded prisoners was Wad el-Mak who, during Baker's previous journey, had been looked upon by the terrified natives as the ruler and scourge of western Acholiland(115). In spite of this shameful reputation, and though an instigator in the rebellion against Baker, he was forgiven and allowed to enter government service, together with nearly three hundred other irregulars, who selected this course rather than the alternative of flying in company with Abu Suud to Khartoum.

Yet, after an interval of rest at Fatiko, Baker established there a «strong fort», of which garrison was supplied with corn by the surrounding Acholi. He then set about tranquillizing the neighbouring districts, with a result that the entire country—as he claimed—soon reduced to perfect order, and the natives exceedingly satisfied with the new Egyptian «regime»(116), paid their monthly taxes of corn readily to Egyptian authorities(117).

Baker, however, remained about seven months at Fatiko (2th August 1872—20th March 1873), entering into amicably relations with the Acholi chiefs. Among these was Omar Oye, who was familiar with the slave traders and Baker as «Wad el Ajoos», namely the son of the old man, and who had been Rwot of Fatiko during the previous visit of Baker in 1864(118). Another chief was Ochama, Rwot of Payera, who, as it has been seen, had determined to offer his allegiance to Sir Samuel, while the later was proceeding to Bunyoro. At the zenith of his power, Ochama probably exercised effective rule over the whole country extending from Kitgum to Pakwach and the Murchison Falls. Conceiving that Ochama was a great and famous chief(119), Baker treated him with the deference he considered due

---

(113) Nasarene; and it denotes here Sir Samuel Baker.

(114) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 10 July, 1873; enclos. a copy of a telegram from Henzel; agent of New York Herald. Khartoum. 6 July, 1873.

(115) Ingham, K.: The Making of Modern Uganda, p. 25.

(116) F. O. 78/2283. Ibid.

(117) F. O. 78/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873; enclos. Baker to Stanton, Gondokoro, 19 April, 1873.

(118) Bere, R. M.: An Outline of Acholi History; Uganda Journal, vol. 12, March 1948, p. 6.

(119) Anywar, R. S.: The Life of Rwot Iburaïm Awich; Uganda Journal, vol. 12, March, 1948, pp. 72—73.



After the ruin of Masindi, Kabarega absconded with his wives, his cattle, and most of his people. Though he pretended that the attack was made without his order, it soon became apparent that further treachery was intended in the hope that the whole party should be massacred. Baker therefore decided to march to Rionga, for raising him and his supporters against Kabarega. Hence, few days after the catastrophe of Masindi, Baker set fire to his «beautiful station», and destroyed all effects that he could not carry. The terrible retreat of about eighty miles through a foe's country was attended with many hardships. The troops were attacked during the marsh by fresh levies gathered in every district through which they passed; and «sometimes thousands rushed from the ambuscades of dense grass jungle, and the lances whiffed unpleasantly about our ears, but the rapid fire of the Sniders invariably repulsed the enemy with great loss(110)».

Retreated towards the Somerest Nile, where Rionga was ruling over Chopi district, Baker was welcomed by this chief, with whom he hurriedly changed blood, according to the custom of true friends in Tropical Africa. After establishing a fort at Foweira, and leaving a small body of troops with Rionga, he continued his retreat to Fatiko, in order «to bring up supports from Ismailia (Gondokoro), and to form an irregular corps of such of the traders' people, who should swear allegiance to the government».

Arrived at Fatiko on 2th August 1872, Baker, unexpectedly, found the garrison he had left behind, had proved unable of grappling successfully with Abu Suud's Danaqla. During his stay at Masindi, these irregulars had attacked the Acholi, mainly because they had refused to fight the «Englishman» on his arrival from the north(111). Thus, the garrison of Fatiko had failed to give the Acholi any suitable protection(112).

Besides, instantly on his arrival he was greeted with an armed rebellion of Abu Suud's men, who were subdued only after a sharp engagement, in which 140 of them were killed and many taken prisoners. When Baker inquired of some of these prisoners for the reason they made war against him, they replied it was by order of their

---

(110) F. O. 78/2284. Ibid.

(111) Crasolara, J. P. : The Lwoo, part II, pp. 242—4.

(112) Gray, Sir J. M. : Acholi History 1860—1901, Uganda Journal, vol. 15, Sept. 1951, p. 125 ; Gray, Sir J. M. : Rwot Ochama of Payara, Uganda Journal, vol. 12, Sept. 1948, p. 122.

This success, however, appeared to be «*couleur de rose*» as—Baker himself wrote on 13 August to Stanton—the poison which Abu Suud had left behind soon took its effect in the mind of Kabarega. The later, in fact, was prepared on the first difference of opinion to believe all that he had heard against the government(107). About a month after he had notified the Khedive of the formal annexation of Bunyoro to Egypt, Baker was attacked at his station on 8 June 1872 by nearly six thousand of Kabarega's men(108). This sudden attack was described by Baker in a message to the British Consul General in Cairo in the following manner :

«On the night of 7th June Kabba Rega sent a present of seven large jars of plantain cider. About 20 gallons. I gave six jars to the troops, reserving one for ourselves. Thank God we did not drink it. A few minutes after the drink had been issued to the men. Lieut-Col. Abd el Kader ran in to the divan (government house) with the news that the troops were poisoned. It was about 8 p.m. About 40 men were in a distressing state, some insensible. I gave all strong emetics. I doubled all the sentries, and shut the sick within the fort. During the night we heard the lowing of cattle as though the cows were being driven away from the town. The utmost silence was observed by the natives, who were usually singing and drumming at night.

«On the following morning ... my men were hardly in poison, when we were attacked on all sides by about six thousand men, many of Kabba Rega's soldiers being armed with guns ... I immediately assumed the offensive cleared the castor oil jungle by a hot fire from the Sniders ... In about an hour and a half Masindi was destroyed, and the victory gained. The natives lost about 100 men including nine chiefs. This treacherous conspiracy to poison the troops and then to massacre those who might remain, ended in the total discomposure of Kabba Rega's army, and the destruction of his capital(109)».

---

(108) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

(109) F. O. 87/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873 ; enclos. Baker to Stanton, Fatiko, 13 August, 1872.

(107) F. O. 78/2284. Vivian to Granville, Alex. 2 August, 1873 ; enclos. Baker to Stanton, Fatiko, 13 August, 1872.

alliance, Baker was again forced to accept the methods of his trading predecessors(105), and renounce the rôle befitting his civilizing mission(106). Subsequently, he engaged in erecting a large room, which he called «government house», and made it as charming as possible. English views and coloured pictures of British notabilities were hung upon its walls, among these were a large portrait of Queen Victoria and another of the Princess of Wales. Kabarega and some of his chiefs visited that house, and were struck with wonder by its curious contents.

Tempted by the false friendliness of Kabarega, Baker formally proclaimed on 14 May 1872 the annexation of Bunyoro to Egypt. Four days before the formal annexation of this kingdom he had written from Masindi a letter to the Khedive, in which he addressed him as follows :

«I hope that Your Highness will be satisfied with what I have done. The difficulties with which I was confronted were almost insurmountable ; but, thank God, they have been conquered. Now that the slave traders are out of the country, the natives look with confidence upon the government of Your Highness».

Moreover, Baker declared that Kabarega had accepted without hesitation the Egyptian government, consenting to supply the troops with victuals ; and thus «j'ai monté le pavillon de Votre Altesse et j'ai déclaré l'annexion à l'Egypte». After several weeks however, continuing to point out, he would «pousser au sud de l'Albert Nyanza et de monter le pavillon de Votre Altesse à la source du grand lac», hoping to place before his return the Egyptian flag at least one degree south of the Equator, and thereupon the territory of Egypt would extend 33° south of Alexandria.

---

(105) As it happened, after Kamrasi, Mukama of Bunyoro, had gathered to his fathers in 1869, some of his innumerable sons proceeded to fight each other for the vacant throne. On this occasion the strife was prolonged and embittered by the intervention of the traders from Khartoum. But these traders were not the only people to take advantage of this fratricidal war. Mutesa of Buganda saw the opportunity of weakening the power of his country's hereditary enemies by fomenting strife and by endeavouring to secure the throne for his own nominee. He decided to intervene upon the side of Kabugumire against Kabarega ; but most ill-advisedly. For it was the traders from the north with their superiority in guns who proved to be the successful kingmakers.

(106) Gray, R. : *A History of the Southern Sudan*, p. 101.

country until porters from the Makaraka arrived, Baker marched on 18 March 1872 southwards to Bunyoro, following the common and safer way in former times(101). He passed on the route Abu Suud's southernmost station at Foweira on the Victoria Nile, and examined its mass of ivory, which he deemed government property. Having faced with the alternative immediate evacuation to Khartoum, the garrison of Foweira after a good deal of discussion loathingly agreed to enter government service, and Baker at once prepared to visit Bunyoro by sending presents to Kabarega.

On 25th April, the British commander reached Masindi, the orubuga (capital) of Bunyoro. Shortly after his arrival he heard that Abu Suud had been there to incite the natives against the expedition(102). Abu Suud, as has been seen, reached Gondokoro in June 1871, and though he was warned by Baker to withdraw his men from the district, the noted slaver left for the south, at a time when it appeared that Baker, involved with the Bari, might be unable to pursue him. Decided to make no attempt to evacuate but to sojourn in the south hazarding on the possibility that if Baker failed he would be able to continue his trading undisturbed, Abu Suud forthwith paid a hasty visit to the court of Bunyoro, during which he informed Kabarega that «the Pasha and his Egyptian troops were coming to take possession of his country, and to place the inhabitants under the Egyptian government and to enforce payment of tribute(103).

Baker therefore attempted to explain to Kabarega «the intentions of the Khedive of Egypt», namely «the suppression of the slave trade, and the return of every slave that had been kidnapped from this country». He further lamented the terrible change that had occurred throughout Bunyoro since his former visit, assuring Kabarega that «the future would be prosperous, and that, under the protection of Egypt, he would never have further cause for alarm(104)».

Yet although Kabarega received these declarations with simulated pleasure, his idea of conversation was almost certainly to procure Baker's support against his rival Rionga, the chief of the Chopi district on the banks of the Somerset Nile. In agreeing to this

(101) Crazzolara, J. P. 'The Lwoo, part I, p. 112.

(102) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 8 September, 1873.

(103) F. O. 78/2283. Vivian to Granville, Alex. 10 July, 1873 ; enclos. a copy of a telegram from Hensel dated Khartoum, 6 July, 1873.

(104) Baker, S. W. Ismailia, vol. 2, pp. 182-3.

attempts were unprofitable(93), and Baker's arrival at Fatiko was hailed with real delight by the natives and their leaders, especially by Rwot Ochama(94), who as Baker narrates «had never visited Abou Saoud or his people, but who would quickly tender his allegiance to me as the representative of the Khedive». On 16th March Ochama paid a visit to Baker at Fatiko assuring that when he had heard of his arrival «he had determined at once to offer his allegiance, and he and all adjacent countries would serve the government faithfully, in return for protection and justice(95)».

Hearing of the death of Kamrasi, Mukama of Bunyoro, and of the turn to Islam and learning Arabic of Mutesa, Kabaka of Buganda(96), Baker was enheartened to penetrate southwards(97). Whether for lack of time or other reason(98), Baker did not go to Buganda, and his longings consolidated on Bunyoro. His hopes however were rested on the conviction that the ruler of that kingdom would encourage the opening of trade, as well as on the fact that during his previous visit he protected Kamrasi from an attack by a party of de Bono's irregulars(99). He wished therefore to gain the aid of Kabarega, Kamrasi's successor, in opening up the river route to Lake Albert.

After leaving at Fatiko a small garrison for guarding a recently constructed magazine holding most of his ammunition, and keeping under control Abu Suud's men(100), whom he agreed to wait in the

(93) Crazzolara, J. P. : *The Lwoo*, part II, p. 243.

(94) Baker's Rot Jarma, and Rwotcamo in the Acholi narrative. It is worthy of note that Ochama claimed descent from Lwoo, the progenitor of all the Lwoo-speaking people. According to tradition, Labongo, who was the founder of the Babito dynasty in Bunyoro, was the common ancestor of both Ochama and his contemporary, Kabarega of Bunyoro.

(95) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. 2, pp. 95-127.

(96) Gray, Sir J. M. : *Mutesa of Buganda* ; *Uganda Journal*, Jan. 1934 ; Gee, T.W. : *A century of Muhammadan influence in Buganda*, *Uganda Journal*, Sept. 1938.

(97) Baker, J. A. : *Geographical Notes of the Khedive's expedition*, p. 142.

(98) On 18 December, 1874, Chaillé-Long sent from Gondokoro to General Stone, chief Staff of the Egyptian army, a report contained a detailed account of his mission to Mutesa of Buganda. In this report Long said that a black named Ba-Baker (Abu Bakr), Ivory agent of Mutesa, told him : «I prevented Baker (Sir Samuel) from reaching Uganda. You are a fortunate man, I will do everything to secure your admission to Uganda». See, *Provinces of the Equator. Summary of letters and reports of his Excellency the Governor-General*, Cairo 1877, pp. 37-38.

(99) Baker, S. W. : *The Albert Nyansa*, p. 371.

(100) Gray, Sir J. M. : *Acholi History 1880-1901*, I, *Uganda Journal*, Sept. 1951.

The expedition then went ahead to Labore, where they rested for nearly a fortnight and obtained 400 carriers to convey the stores(89). On their way they passed many pillaged villages, which had been ruined by the slave traders. Several parts of the country which Baker had formerly seen most flourishing had been entirely devastated by the slave hunters. Whole villages had been burnt, and «for 84 miles we passed through a country without a single inhabitant, whereas I recollect that years ago there was a teeming population there. This population was now gone(90) ».

Reached Fatiko, the «paradise of Africa» in March 1872, Baker found that the slavers had there a very large station, in which an immense number of slaves were kept under the custody of about 1100 armed Danaqla, with flags and drums. This station however belonged to Abu Suud, whose men were inexorably plundering the whole villages to the west across the Albert Nile or to the south east among the Lango and other tribes. Having not known what to do with these slaves, «I could not have fed them, for there were thousands and thousands», Baker gave the slavers a notice to quit without delay the country with their slaves.

Fatiko was one of four stations among the Acholi which were garrisoned by Abu Suud's Danaqla settlers, many of them were dressed in skins or bark-cloth. Although all the stations in Acholi-land were under the nominal control of 'Aqqad's company, many of these Danaqla had entered the country in de Bono's service, and formed a force capable of spreading devastation far and wide(91). Undoubtedly, the disturbed state of the peoples of the Equatorial kingdoms met the demands of the slavers, who confederating with the contending tribesmen, converted swiftly the country into a wasps' nest and gathered a rich harvest in the process(92).

There can be no doubt that Baker's advance southwards was a source of danger to the slavers, who spared no effort to persuade the Acholi by misleading reports to fight the expedition. Yet their

---

(89) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1872.

(90) Baker, S. W. : *The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa*, pp. 56—57.

(91) Speke and Grant have given graphic descriptions of the miseries which these irregulars inflicted on the countryside and, in his «Albert Nyanza», Baker fully confirms their story.

(92) Ingham, K. : *The Making of Modern Uganda*, p. 24.

received a letter from their commander, Muhammad Ra'uf, «inclosing and supporting official letters from the regimental officers proposing to abandon the expedition(84)». Threatened with entire failure, Baker at once ordered a campaign against the Bari, hoping that it would provide the soldiers with ample supplies(85). He further instructed that all soldiers seriously ill should go back to Khartoum. It was reported that six hundred troops took advantage of this permission, «many in strong health», and his armament was thus reduced to 502 officers and soldiers(86). Unable to bring over the Bari to exchange corn for trade goods or cattle, Baker authorized the troops to seize the supplies, and in January 1872 his forces cleaned the country by rubbing large quantities of corn and sent it by boats to Gondokoro. It is not surprising therefore, that Baker's stay among the Bari, is remembered by them in a series of lampoons, the bitterness of which is almost impossible to translate(87). Thanks principally to the Snider rifles used by his soldiers, Baker was ultimately able to subjugate his foes, and thereafter decided to penetrate southwards.

Eventually, on 22th January 1872 Baker penetrated into the interior, leaving at Gondokoro a very considerable portion of his force(88). His immediate step was to transport the sections of one of the steamers over the 120 miles separating Gondokoro from the navigable Albert Nyanza Nile south of the Fola Rapids, and thus to the successful accomplishment of Egypt's plans. A few days after his departure he reached Rejaf, where he met Bedden, a seemingly friendly chief to the south of that point, and whom Baker asked to provide with porters to carry the sections of the steamer, promising to pay in cattle. Distrusting Baker, or as the later indicates, hoping to obtain the cattle more easily by rapine, Bedden refused to collaborate and attacked treacherously the camp at night. His action threw down all hope of being capable to transport the steamer instantly, and Baker resolved to send the steamer sections back to Gondokoro and proceed south with his soldiers alone.

---

(84) F. O. 84/1871. *Ibid.*

(85) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. 1, p. 367.

(86) F. O. 84/1871. *Ibid.*

(87) Beaton, A. C. : Chapter in Bari History. *Sudan Notes and Records*, 1934, p. 190.

(88) F. O. 78/2283. Stanton to Granville, Alex. 18 April, 1873.

cattle were stolen from the Shir country, where an officer and six soldiers had been left to represent the government and help the natives in cultivating corn. When Abu Suud attacked the Shir tribe, they—as Baker claimed in his report to the Khedive—«concluded that the government troops were spies and killed the detachment except the officer and one man(81) ».

In the course of the next few months Baker's exigency of provisions for his troops accounts for the enmity of the natives to his expedition. When it became clear on 26th August 1871 that the corn supplies would be spent after two or three weeks, Baker before dawn on the 30th led out a force of six hundred troops on a raid to Belinian, where there was «an immense quantity of corn all over the country». After setting fire to the neighbouring villages, the troops encamped near the hill, where Baker and his nephew determined «to buy corn from the natives if we can make terms with them, or to take it from them if we cannot». A prolonged and useless negotiations were entered into, which ended by Baker's destruction to «all the villages for about three miles along the mountain». Hence, the leaders returned to Gondokoro rejoicing in the fact that «We shall now be able, knowing the country to catch the cattle at any time», but without having solved the problem of corn supplies(82).

Indeed, during his stay at Gondokoro, Baker seized the cattle from the neighbouring tribes, not only for reason of nourishing his men, but also for giving them to other tribes provided that they would be friendly with him and serve his expedition. Mc Williams, Baker's chief engineer, enunciated that :

«out of the numerous raids made against the inoffending natives near Gondokoro, many of them were led by Sir Samuel in person. Cattle and sheep to the number of 30,000 were captured. Baker's men received part of the cattle as their pay, while another share was given to the few tribes that promised to serve Sir Samuel(83)».

Nevertheless a general feeling of discontent among the troops for lack of provisions reached its climax on 12th October, when Baker

---

(81) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873 ; enclos. Abstract of Sir Samuel Baker's report to the Viceroy.

(82) Julian Baker's Diary, 30 August, 1871 to 24 September, 1871. Quoted by Gray, R. : p. 97.

(83) Shukry, M. F. : *Equatoria under Egyptian Rule*, pp. 443—445.



stream ; the soldiers dressed in clean uniforms were gathered, and Alloron and all the leaders of the country were summoned to witness the ceremonial. On 20 May 1871, taking up a position near the flagstaff, Bakar read an official proclamation declaring Gondokoro a part of the dominions of Egypt. Simultaneously, he issued the following «camp regulations» :

«1-No person shall cut or in other ways destroy any tamarind or oil tree under any pretext whatever. Neither shall any tree whatsoever be either cut or damaged within a distance of 2,000 paces from the flag-staff or camp.

«2-No person shall stray beyond 2,000 paces of the flag-staff or camp without permission.

«3-No person shall trade in ivory, neither shall any person accept ivory as a present or in exchange ; neither shall any person shoot, or cause to be shot, elephants : all ivory being the property and monopoly of the government of His Highness the Khedive of Egypt.

«4-No person shall either purchase or receive slaves as presents or in exchange(79) ».

At Gondokoro, a regular government was thus claimed to be established. This, not unnaturally, irritated the Bari, the most warlike in Central Africa, for they could no longer accompany the slavers in pillaging. The Bari therefore not only raised secretly the whole country against the government, but continued to annoy the expedition in every possible way, such as attacking the troops or destroying by night the sown corn. It was quite apparent that these bellicose Nilotes were preparing for open war, and although their attack on the government station was repulsed, Baker, neglecting the Khedive's instructions, decided to make an assault on their stockade, which was stormed and six hundred cows seized. In this manner the «Bari War» commenced in June 1871(80).

By then, and in accordance with the terms with 'Aqqad and Company at Khartoum, Abu Suud arrived at Gondokoro bringing with him 1400 head of cattle, which were at once seized by Baker in the name of the Khedive. His pretext for doing this was that the

---

(79) Baker, S. W. : *Ismaïlia*, vol. 1, p. 262.

(80) Baker, S. W. : *Ismaïlia*, vol. 1, p. 268.

they had enough time to foment intrigues and to incite all the tribes against the expedition. The Bari under Alloron their chief had become the allies of Aggad and Company. Acting as porters and mercenary soldiers, some of Alloron people had joined the slavers' parties in razzias against their neighbours. When the slave-hunters' parties left for their interior stations, the Lokoya, a near neighbour on the south east of Gondokoro, and who had lost slaves and cattle by the depredations of the slavers, attacked Alloron and forced his people to abandon their villages on the east bank of the river. They took refuge on islands, or along the west side of the Nile, where they waited for the annual visit of their Aggad's men(77).

Thus, instead of meeting friends, Baker encountered many enemies. When Alloron was sent for, and arrangements made with him to erect huts and till corn for the troops, the Bari headman seemed at first satisfied with these demands, but he forthwith refused to give any assistance to the expedition.

The troops therefore set to work, and a station was formed, which was named «Ismailia». All kinds of vegetables and fruits were planted. Though the large garden was quickly completed, meat food came to be unavailable, for Alloron refused to allow his people to sell the visitors neither sheep nor cattle. The Bari chief moreover questioned Baker's rights to establish himself and his men at Gondokoro(78), and informed the British commander that the sole method by which he could get meat would be by undertaking a large-scale razzia. Shortly after the expedition had established itself at Gondokoro, Alloron's men began to impel their cattle to graze on the grasslands near the station, which they had been incapable to utilize beforehand for fear of the Belinian and Lokoya tribes. Excessively in want of food, and large herds of fat cattle pasturing under their eyes, the state of the troops became unbearable. At the end of May 1871, after giving due warning, Baker ordered his men to capture a portion of Alloron's herds.

Having conceived that the Bari, who were allies of slavers, aimed at starving out the expedition and forcing its retreat to Khartoum, Baker hurriedly resolved to annex the country to Egypt. A flagstaff or camp was constructed on the highest place of land overtopping the

---

(77) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. 1, pp. 221—3.

(78) Douin, G. : *tome III, 2e partie*, p. 33.

acres under the plough and cost nothing. In the second year the profits should be double and the prosperity of the future will depend upon the energy of the administration(73) ».

After about one month's absence, Baker came back by steamer to Taufikia, leaving his vessels to follow him. According to the plans he had laid down, these vessels upon the commencement of the north wind arrived from Khartoum with supplies and fresh troops. At Taufikia, Baker was active for nearly two months in checking the slave trade. He claimed in a letter to Sir Roderick Murchison that :

«During my stay at this station, I have entirely suppressed the slave trade of the White Nile, not one slave having passed down the river to Khartoum. The steps that I took upon immediate arrival completely intimidated the traders, and the traffic no longer exists(74) ».

Certainly, Baker's acts to suppress the slave trade along the White Nile, raised much indignation in Khartoum, and «a passive but stubborn resistance» was ultimately excited against his expedition(75). The opposition was chiefly enticed by Aggad and Company, and its representative Abu Suud became a great antagonist to the British commander(76). Nevertheless the latter went on to put into force one of his mission's objects, the annexation to Egypt of the regions south of Gondokoro, and the establishment of a government therein.

In December 1870, consisted of a fleet of fifty-nine vessels, conveying the troops, workmen, and the various stores, the expedition left Taufikia and reached Gondokoro on 15th April 1871, after working for four months in nothing but mud and slush and tangled vegetation. Yet it was not till the 22nd of May that the entire flotilla attained to Gondokoro, having been delayed by foul winds and calms. On arrival at Gondokoro Baker found the country sadly changed since his previous visit. Villages had been demolished, and the whole region laid waste by wars, aroused by the slavers who took away the plunder. As the slave traders had been at Gondokoro the year before,

---

(73) Crabités, P. : *Ismail, the Malignant Khedive*, p. 104.

(74) Baker to Murchison, Tewfikesya, 6 December, 1870. *Proceedings. Roy. Geog. Soc.* vol. XV. London, 1871, p. 162.

(75) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. 1, pp. 147—148.

(76) F. O. 84/1371. Vivian to Granville, Alex. 6 September, 1873.

pass the rainy season. At the new station which was called «Taufkia», the carpenters and engineers of the expedition forthwith erected a quay on the margin of the river, a large stable for the horses, galvanized-iron magazines for use as store-houses, and hundreds of tidy huts arranged in streets, forming a little town. The natives did not delay to visit the station daily, bringing with them all kinds of goods for sale. They moreover took away the soldiers' corn, and brought it back ground into flour.

Paradoxically, Baker's return to Taufkia seemed to be a most unfortunate one, but in reality it was a most fortunate incident, for none of the slavers knew that he had established a huge camp there. Believing that he had retreated to Khartoum, the slave traders shortly came down with their boats laden with slaves, and of course they all fell into his hands. Baker however set all slaves at liberty, putting the captains of the boats in iron and sent them down to Khartoum(71). He offered at the same time Cairo a suggestion that the cargos of boats transporting slaves should be confiscated for the profit of the government, as a kind of punishment to the traders of the White Nile. Yet although the captured ships were seized in a region beyond his sphere of authority, the Egyptian government sent to him congratulating for the liberation of the slaves, but she refused his suggestion preferring to deliver the captured merchandize to their owners rather than to be confiscated for the profit of the state.

Since he wished to assure himself that the requisite preparations of the expedition were made, Baker returned in September 1870 to Khartoum. Here, he made an agreement with Aqqad and Company, in the presence of the noted slaver Abu Suud to provide his forces with supplies kept at the various stations belonged to the Company, and furnish him with irregulars in the event of any war with the negroes(72). From Khartoum Baker dispatched to the Khedive a message, in which he referred to his future plans as follows :

«I am thinking of establishing central stations, and of beginning to plant cotton in their neighbourhood. In this way it will be easy to cultivate, the first year, 1000 acres at each station. Our eight stations will thus give us 8000

(71) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa, p. 53.

(72) Baker, S. W. : Ismailia, vol. 1, pp. 159—160 ; Murray and White : p. 166.

The first station on the river was Fashoda, a most unhealthy town surrounded by marshes, though fortified with a garrison of Egyptian soldiers. Having passed the Shilluk country, and arrived at latitude 9° 21', Baker found that a terrible change had come over the Nile. The great and broad navigable stream had vanished and immense marshes took his place, and the expedition was forced to take the Bahr el Zaraf, a twining shallow branch of the Nile, which flows in the midst of the marshy plains dwelled by the Nuer, and enters the main river to the west of the Sobat junction. The slave hunters had used the Bahr el Zaraf as an alternative for the main stream and pushed their light vessels through this channel, to the open water of the Upper Nile, far above the obstruction. The region beyond these masses of floating vegetation was cut off from all law and authority, and was thereby admirably adopted for piracy(67).

But as the expedition penetrated southwards amidst endless marsh, the rapidity of the current diminished, the stream narrowed to a width that would scarcely admit the passage of the steamers. The channel gradually vanished, and the flotilla became fixed in a boundless sea of high grass. The party therefore worked for thirty-two days, in which they cut a passage for the boats about eight miles through the floating marsh—and swamp grass, and the sight of open water, from time to time, was cheering to the men, fatigued and sickened by hopeless labour in mud and stench(68). Rejoiced in the prospect of quickly reaching the White Nile, the whole force sailed merrily on. But suddenly the water became shallower and shallower, as well as the flotilla had to be dragged over a sandbank(69). The rain to worsen the matters fell then in torrents, so that it was absolutely necessary to return for fear of being blocked up by the masses of floating vegetation closing in the rear(70).

Refusing to return to Khartoum lest intrigues should set going and ruin his expedition, Baker went back to the Dinka country opposite the Shilluk, where on the right bank of the Nile, six miles below the Sobat junction, a station was formed, in which it was intended to

---

(67) Baker, S. W. : *The Khedive of Egypt's Expedition to Central Africa*, p. 58.

(68) Baker to Murchison, Tawfikesaya, 15 June, 1870. *Proceedings. Roy. Geog. Soc.* vol. XV, London 1871, p. 93.

(69) Baker, J. A. : *Geographical Notes of the Khedive's Expedition to Central Africa*. *Proceedings. Roy. Geog. Soc.* vol. XVIII, London 1874, p. 131.

(70) F. O. 84/1871. *Ibid.*

Several factors however account for the failure of Baker's expedition. Yet although the British commander had a «carte blanche» to equip his expedition in a way that should satisfy his exacting requirements, for as Baker wrote to his brother John «I am to have any number—thousands if required—of troops as re-inforcements, and I have a carte blanche for all expenses, appointments and everything pertaining to the expedition(63)», he neglected to supply his body of forces with sufficient provisions. Once short of supplies, orders were given by him to plunder the inhabitants of the country in particular of their crops and cattle. The effect was that inhabitants became so hostile as to render impossible the intercourse which used to be maintained with them(64). Furthermore, Baker's suspicion that Khartoum administration and even officers sent with him of being attempted to frustrate the «aim» of his mission, induced him not to hesitate to take the serious mistake of enlisting some of the slave hunters' bands in his own force, from which the natives ought have thought that the British commander and the slave hunters were in league(65).

However, no sooner had Baker received his appointment than he had three steamers commissioned from England and two steam life-boats built in Cairo to navigate the Nile and its tributary waters. Other necessities and trade goods were also ordered to help him in the accomplishment of his mission. Thirty-six vessels were supplied to carry the stores from Cairo to Khartoum. The European staff of the expedition composed of Baker's young nephew, Julian, who was a naval lieutenant, seven engineers, and a British physician. On 5th December 1869, Baker in company with his capable wife, left for the Sudan in the near of the expedition, and travelling by the Swakin route, reached Khartoum in thirty-two days. Departing from Khartoum on 8 February 1870, before all preparation had been completed, Baker started for the White Nile, leaving Higginbotham, the chief engineer, to come after with the remainedr. Baker's force however composed of 33 undecked vessels, 2 steamers, and 800 men commanded by the Egyptian officer, Muhammad Ra'uf(66).

---

(63) Gray, R. : p. 89.

(64) F. O. 78/2218. Elliot to Granville, Therapia, 2 July, 1872.

(65) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873.

(66) F. O. 84/1871. Vivian to Granville, Alex. 6 Sept. 1873 ; enclos. Abstract of Sir Samuel Baker's report to the Viceroy.

dary importance which would follow from the subjugation of the country. His mission was to conciliate the tribes and to disturb the commerce and trade with the Lower Nile as little as possible. He was to be cautious and diplomatic in all things, bearing in mind that his mission was to advance the interests of Egypt in Central Africa and do nothing which might retard the progress southward of the Egyptian flag.

«Undoubtedly, Baker attaching more importance to the destruction of the slave trade than to the aggrandizement of Egyptian interests, showed but little consideration to the slave-dealing tribes and none at all to the professional slave-traders. He perhaps counted too much on the Egyptian troops with him and hoped far too much from the Khedive's promises of support ... The slave traders were his deadly enemies from the beginning, a strong proof of his open hostility to the slave trade. He marched and fought, when necessary, under the Egyptian flag, in the capacity of an Egyptian Pacha, and his deeds were credited to the Egyptian government. The trade of the country was interrupted, fewer slaves came down the river and almost no ivory or ostrich feathers. The Khedive ... was disappointed, not that the slave trade was interfered with, but because commerce was checked and principally because the natives had become incensed against the Egyptian flag.

«His Highness said that he did not know Sir Samuel's object was in making the disastrous expedition into the interior of the country, the reports of which had just reached His Highness. In making this remark His Highness referred to this particular warlike expedition and not to the general nature of Baker's expedition, and when he afterwards intimated that Sir Samuel had disobeyed his orders, I understood him to mean that those orders were to conciliate the natives by peaceful and paternal measures, if possible, or to reduce them by force of arms to submission to Egyptian authority, if necessary, but to leave the suppression of the slave trade in the background as a question to be decided when the country was thoroughly occupied, and in any event not to wage war against it.(62)».

---

(62) D. S. Egypt. vol. 7. Beardsley to Fish, Cairo, 7 May, 1873.

Central Africa(57)», the only way to accomplish that object as well as to suppress slavery and check slavers was by annexing forcibly the country to Egypt(58). For this reason the British commander was throughout the expedition «too prone to fighting and the use of force, and neglected conciliation and arbitration between hostile tribes, means that might often have been employed to advantage(59)».

There is no denying the truth that the annexation of the country south of Gondokoro was the first step necessary for suppressing the slave trade, but Baker was not permitted to make any progress unless he utterly overthrew this traffic and founded a strong government at Gondokoro. Yet the results of Baker's expedition to this effect proved failure(60). When news reached Cairo concerning Baker's unjustified expedition on Bunyoro, the Khedive intimated that :

«Sir Samuel had not confined himself to the letter or spirit of his instructions, and that such expeditions as the one in question, were foreign to the objects of his mission(61)».

And because of illustrating this last fact, a reproduction of part of a length message sent from the American Consul General in Cairo to the Department of State, seems appropriate :

«The mystery which surrounds the expedition of Sir Samuel Baker is as great in Egypt as in Europe or America, and it not only attaches to and involves the fate of the expedition but its object ... From what the Khedive has informed me at different times, I am satisfied that he expected Baker to regard the destruction of the slave trade as a matter of second-

(57) Baker, S. W. : *The Khedive of Egypt's expedition to Central Africa*, p. 7.

(58) Sabry, M. : *L'Empire Egyptien sous Ismail*, pp. 445—7.

(59) F. O. 78/2284. Confid. Vivian to Granville, Cairo, 22 August, 1873.

appears that Baker was in fact trying to test the power of European weapons over the inhabitants of central Africa. After his return to England, Baker gave a lecture to the United Service Institution on «Experience in Savage Wars», in which he recounted the effects and prestige gained by firearms, rocket light-artillery and cavalry. Subsequently, the Duke of Cambridge declared that : «it was a wonderful thing that one should have been able to exert so much power over those savage hordes. What had been done once could be done again». See, Gray, R. : *A History of the Southern Sudan 1839—*, p. 173.

(60) O. 84/1371. Draft. Granville to Vivian, 3 August, 1873 ; and also Gordon Stanton, 15 Dec. 1874. *Sudan Notes and Records*, vol. X, Khartoum 1927, p.

(61) S. Egypt. vol. 7, Beardsley to Flish, Cairo, 11 Dec. 1873.



undertake no responsibility whatever for the consequences of it, either as regards themselves, or as regards any matter connected with it (53)». At Constantinople, the Porte showed great skepticism towards the intention manifested by the Khedive for suppressing the slave traffic ; and interrogated by him, Ismail was contented with replying that the object of the expedition was to extend southwards the possessions of the Sultan (54).

After much deliberation and consultation, Baker received on 16 May 1869 a firman from the Khedive, in which he was given the title of «Pasha» and rank of «Fariq», which were required for the command of the expedition. Furthermore, he was granted full power to procure such materials or stores as he might consider necessary for the success of his expedition. Baker's authority had to begin on April 1, 1869, and was entrusted to him for the period of four years from that date, at salary of £10,000 per annum (55).

From the outset however we should point out that when the alluded to firman was issued, Cairo authorities notion of the whole project was excessively at incompatibility with that of Baker. The Egyptian government understood the enterprise as a «mission» aimed at civilizing Central Africa (56). Consequently, the Khedive insisted upon that conception in his instructions to the British commander, and in his conversations with the representatives of the foreign powers. In one of his letters to Baker, the Khedive made clear to him that :

«Votre mission est une mission de pacification et de progrès. Vous êtes appelé à conciller les habitants du pays avec les hommes à peau blanche, qui, jusqu'à present ne se sont introduite dans leur pays que pour les tuer, les piller et faire des esclaves».

He moreover emphasized that his idea of sending such expeditions was to open up «le centre de l'Afrique à la science, au commerce, au progrès», while on the contrary Baker continued to misapprehend the object of the enterprise as pugnacious and combative. Since in his opinion the Khedive «first of all, wished to found a great empire in

(53) F. O. 78/2092. F. O. to Stanton, 15 April, 1869 ; also F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Alex, 5 May, 1869.

(54) F. O. 78/2075. Elliot to Clarendon, Const. 10 Juin, 1869.

(55) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. I, pp. 6—7.

(56) Shukry, M. F. : p. 162.

consideration accepted the viceroy's offer of the command of the greatest expedition of modern times(47)». Baker did so that he hurriedly left Egypt for England, for the purpose of preparing the necessary material for his expedition(48), the official character and the nature of which made it, as his authorized biographers pointed out «an undertaking of considerable importance(49)».

While Baker was occupied home in making preparation for his expedition, the Khedive accepted his contract «with the exception of the clause, which gives power of life and death over the personnel of the expedition, a stipulation which His Highness wants somewhat modified(50)». Nevertheless, it seems that the Khedive soon conceived that this clause was imperative for the success of the expedition. Hence, it was not ultimately modified and incorporated in the firman or superior order authorising Baker's expedition and appointing him «Governor-General of the Equatorial Provinces». But the very clause which Ismail refused «for some unexplained reasons» was the delimitation drawn by Baker for the districts should be placed under his command. The Khedive however modified this term, making the jurisdiction of Baker to begin from the 5° of north latitude only, and to stretch out southwards. Thus, the White Nile remained outside his power, and his government was confined to the Equatorial regions(51).

At any rate, Baker's enterprise provoked immediate responses in both London and Constantinople. At London, although Baker in an interview with Clarendon, Russell's successor at the Foreign Office, divulged some of his enthusiasm and confidence in the probable results of the expedition, Gladstone, the Prime Minister, remarked : «I conclude we undertake no responsibility with regard to this expedition(52)». The Foreign Office therefore did not formulate any observation regarding the aims of Baker's expedition, but instructions were forthwith sent to Stanton, the British Consul General in Cairo to the effect that notification should be made to «all British subjects who may take part in this expedition, that Her Majesty's Government

---

(47) Gray, J. R. : *A History of the Southern Sudan 1839—1889*, p. 87.

(48) F. O. 78/2092. *Ibid*.

(49) Murray and White : p. 183.

(50) F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Alex. 22 April, 1869.

(51) Baker, S. W. : *Ismailia*, vol. 1, pp. 151—2.

(52) F. O. 78/2092. Memoranda by Clarendon and Gladstone, 12 and 14 April, 1869.

draw from that annexation, looking forward to the establishment, on the system of agencies created in Canada by the Hudson Bay Company, of certain military posts which would serve at the same time as commercial centres(45).

Having approved of the ideas which were presented to him, the Khedive asked Baker to write the terms of the contract, by which he would enter the employment of the Egyptian government. On 27 March 1869, three days after the Prince of Wales had left Cairo, Baker presented to the Khedive a plan, in which he defined the principal purposes of the expedition as :

«1—to subdue to the Egyptian government the countries of the White Nile, which «sont actuellement habités par des nations sauvages sans lois, sans gouvernement et sans sûreté».

«2—to suppress the slave trade on the White Nile.

«3—to introduce a system of legitimate commerce, of which results would be advantageous to Egypt.

«4—to open to navigation the great lakes of the equator, which form the principal sources of the Nile.

«5—to establish a chain of military and commercial stations, from Gondokoro throughout the central basin of the Nile, at intervals of three days march, so as to secure a communication from the most distant point with Gondokoro, the base of operations.

«6—to annex to Egypt all these regions, making thus the Egyptian Empire stretched out from the sources of the Nile to the Mediterranean».

Baker however stipulated for the exercise of «pouvoir absolu, même celui de mort, sur tous ceux qui feront partie de l'expédition», as well as in all the country under his jurisdiction. This country was circumscribed by him of the whole Nile basin south the 14° of north latitude, that is from near Khartoum to Gondokoro(46).

After submitting his contract to the Khedive, Baker wrote on 5th April of the same year to his brother John that he had «after much

---

(45) Douin, G. : tome III, 1re partie, p. 479.

(46) F. O. 78/2092. Stanton to Clarendon, Cairo, 2 April, 1869.

Having returned to England in 1866 after his discovery of Albert Nyanza, Baker was knighted for his «laborious researches in Africa» which he had done «without costing the state a shilling». Two years later, the Nile explorer received a communication from the Khedive's minister Nubar on the determination of the Egyptian government to put down slavery and slave trade in the Sudan. No sooner had Baker received that communication, than he got an invitation to accompany the Prince and Princess of Wales on an official visit to Egypt on the occasion of the opening of the Suez Canal. Baker had to attribute the invitation to the fact that his brother Valentine was a close friend of the Prince, and it was thought of that Sir Samuel should lead the Prince in the delectation of crocodil avriving shooting on a tour up the Nile.

Arriving at Egypt in the suite of Prince and Princess of Wales, Baker with his vigorous personality and upright bearing impressed the Khedive, who felt that the British explorer was the very man he wanted to combat slavery in the Sudan. As it happened, during the festivities at the town of Ismailia, the Khedive communicated to the Prince of Wales his idea of nominating Sir Samuel to take command of an expedition for the suppression of the slave trade on the White Nile, and for the establishment of order in the Sudan(43). The Prince warmly supported the proposal, and as Baker afterwards declared :

«I can safely say that, although I might have had the command of the expedition offered to me, I am sure I should never have accepted it had it not been for the kindness of His Royal Highness, and the great interest he showed in its main object—the suppression of the slave trade. It was by the advice, and I may say by the kind personal interference, of His Highness that the arrangement were made with the Viceroy, and that I accepted the command ... (44)».

Having decided to engage the services of Sir Samuel, the Khedive demanded him to draw up a plan for the proposed expedition. In his first report to Ismail, Baker openly explained Egypt's permanent interest in the Nile water, «as the prosperity of whole Egypt depends on the Nile benefactor; it has become indispensable to annex to Egypt the two lakes Albert Nyanza and Victoria Nyanza, from which the Nile takes its sources». He showed the profit that the country would

---

(43) Murray and White : Sir Samuel Baker, A Memoir, p. 132.

(44) Baker, S. W. : The Khedive of Egypt's expedition to Central Africa. Proceedings. Roy. Geog. Soc. vol. XVIII. London 1874, p. 51.

Sudan, and recommending the establishment of a strong government at Gondokoro, the memorandum continued to suggest that Egypt should be committed with forming such regular government in the Equatorial regions in the following manner :

«The constitution of a permanent Egyptian post at Gondokoro would lead to the suppression of that infamous traffic in slaves, which is at present carried on to an enormous extent upon the Upper Nile and which the Egyptian government has declared itself anxious to suppress. The Council have reason to believe through information from those well acquainted with his character, that the Pasha of Egypt would readily appreciate the commercial advantages arising from such a policy, and when alive to them, would be willing to take measures to facilitate this inter-course by putting an end to barbarities now wholly beyond the pale of his jurisdiction. The Council are therefore of opinion that His Highness would the more willingly coöperate in the views here put forward, if he received the slightest encouragement from the British government(39)».

Murchison and Speke suggested that the encouragement could take the form of a scientific expedition which would act «as a prelude to future commercial settlements», and the Royal Geographical Society was willing to contribute £ 1,000 towards its expenses. But the Foreign Office was unwilling actively to encourage the extension of Egyptian power in the Southern Sudan(40).

When therefore the Egyptian government determined in 1869 to stem the notorious traffic in the Sudan, or at least reducing it to politically harmless dimensions, an action which had been begun in earnest since 1865(41), it was not uncommon to entrust with such a step to an Englishman, in order to assure the British government her decided resolution on overthrowing that trade in the Sudan(42). The Viceroy's choice for that task soon fell on the far famed British explorer, Sir Samuel Baker.

---

(39) F. O. 78/1839. Murchison to Russell, London, 28 April, 1864 ; enclos. Speke to Russell, London, 28 May, 1864.

(40) Gray, R. : A History of the Southern Sudan 1839—1889, p. 81.

(41) Shukry, M. F. : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, pp. 132—3.

(42) Douin, G. : p. 479.

Thus, in about 1865 a monopoly of the trade was established in each of the two regions of the Southern Sudan which had been opened up ; the Bahr Al Ghazal trade was thoroughly directed by Al Zubair Rahma Mansur, a Ja'ali from the central Sudan ; that of the Gondokoro region by Muhammad Ahmad Al-'Aqqad, an Egyptian from Aswan. This latter had purchased almost all the depots of his concurrents(37). Moreover, he obtained three years later a contract with Khartoum administration giving him monopolistic rights over an area of about 90,000 square miles south of Gondokoro, in return for paying yearly £ 3,000 for four years.

Yet although both Al Zubair Rahma and Al 'Aqqad professed to trade for ivory, the market in Khartoum—as Baker perceived—could not exist on the sale of ivory alone. Nor did the boats that took razzias to the field of their operations, carry trade goods : their only cargo were the arms and supplies required by the hunters. In this manner the «bootlegging» of slaves went on as in the past, and in a short time the slavers became the real sovereigns of these tracts. It was unlikely that Egypt would permit indeterminately the practical detention of her political sway by that of the «trading» monopolists. Being aware that open allowance of slavery in the Sudan was probably to injure her with European powers, the Egyptian government determined «to dry up the evil at its source».

It was in the opinion of Speke and Consul Saunders that annexation by Egypt of the regions round Gondokoro would help to a great extent to check the evil of the traffic in slaves. Saunders had suggested in July 1862 to his government that :

«if the Viceroy could be induced to extend his rule to Gondokoro by annexing the White Nile to Egyptian territory, an inestimable boon would be thereby conferred upon the suffering tribes in that direction, and an effectual blow struck at the root of so much misery(38)».

About two years later, a memorandum by the President and Council of the Royal Geographical Society on the subject of a projected expedition to the eastern Equatorial regions of Africa, was handed over in London for the consideration of Earl Russell, the Foreign Secretary. After describing the state prevalent in the Southern

---

(37) F. O. 84/1277. Hansel to Stanton, Khartoum, 5 Nov. 1867.

(38) F. O. 84/1181. Saunders to Russell, Alex. 31 July, 1862.

at the same time eager to overthrow the slave trade, the Egyptian authorities came to terms with the dealers and bought their stations, cattle, ivory and slaves, liberating these last miserable creatures. Yet this attempt was useless, for having pocketed the money, the traders forthwith established new stations and recommenced their activities as before (30). In January 1865 the Viceroy informed Sir Henry Bulwer that he was desirous to destroy the whole traffic, «for the negroes now suppose that I encourage and sanction the atrocities practised against them which makes my name odious to them, whereas what is going is being done by foreigners against my interests and in opposition to my authority(31)».

Accordingly, posts were founded at Kaka and Fashoda to check the slave trade on the White Nile ; and on Baker's return journey in 1865 he found an Egyptian camp of one thousand men established at Fashoda for this purpose. Much about this time, the European community in the Sudan began to dissolve. The few remaining European and Levantine merchants soon found their way out the country. Refusing to pay the «Werko»—poll tax—levied on merchandize imported by the White Nile, John Petherick, merchant and English Consul at Khartoum, had abandoned his business(32) and retired to seek legal compensation in Egypt and England(33). By 1865 Andrea de Bono left the Sudan and settled in Cairo, leaving a trading agent, Mahmud Ahmadani, in Khartoum(34). The Maltese trader sold his assets, valued by himself at £ 25,000, to the government for £ 5,000(35). Two years later Ambroise and Jules Poncet, the solitary remaining European dealers, put to sale theirs for a quarter of their real value. Some writers however are of opinion that the policy of the Egyptian government under Ismail inclined then to turn aside the Europeans from the White Nile region, and allow only the native traders to subsist there(36).

---

(30) Gessi, R. : *Seven Years in the Soudan*, pp. 3—4.

(31) F. O. 84/1246. Bulwer to Russell, Cairo, 6 January, 1865.

(32) Petherick, J. : *Travels in Central Africa*, vol. 2, p. 144.

(33) F. O. 78/2253 is devoted solely to Petherick's complaints.

(34) Hill, R. : *Biographical Dictionary*, pp. 110—111.

(35) F. O. 84/1246. Colquhoun to Russell, Alex. 10 July, 1865.

(36) Douin, G. : *Histoire du Règne du Khédive Ismail*, t. III, are partie, pp. 472—3.

their palaces, houses, and estates are supplied with slave labour—indirectly, because, in as much as the trade is ostensibly a forbidden one, they are enabled to levy on the dealers heavy toll for permission to evade the law. 2ndly, that the army of Egypt is largely recruited from the male black adult slaves ; and 3rdly, that the fellahs, or farmer-population, are glad to have the means of sending, as substitutes for themselves and children when summoned by the government to forced labour, slaves bought at these marts(25).

In spite of these difficulties the Egyptian government was resolved to check the traffic without inflicting serious loss on the population, and paralysing the industry of the country(26). Hence, the Egyptian authorities habituated to liberate slaves as soon as they reached Egypt, of whom adult males were drafted with their own consent into the Nubian regiments, the lads were to be taught music for the military bands, the young women were taken as house servants at wages, and the young girls were sent to receive some education in the government schools in Cairo(27). Some girls also were given in marriage to Egyptian officers with small pension which was registered, and «this register would always serve to prove their freedom, and to keep the government in their track(28)». More important still, it was the habit of slaves wishing their liberty to apply to the British Consuls or Consular Agents, who obtained it for them by sending the applicants to the police authorities and demanding their emancipation papers. The American Consul General in Egypt wrote to his government :

«Without either treaty-rights or any particular understanding on the subject with the Egyptian government, the English authorities in Egypt have been recognised as the champions of the Egyptian slave, and thousands of slaves have been liberated through their active interference(29)».

In the Sudan however the Egyptian government decided to check the traffic completely. Wishing to avoid fresh bloodshed, and

---

(25) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(26) D. S. Egypt. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.

(27) F. O. 84/1204. Colquhoun to Russell, Alex. 1 July, 1863.

(28) F. O. 84/1248. Bulwer to Russell, Cairo, 15 April, 1865.

(29) D. S. Egypt. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.



In point of fact, Sudan's administration since the fifties had gone from bad to worse. Razzias came and went without question or comment, hiding neither their purpose nor their destination(18). The slavers' boats were permitted to navigate with impunity, upon payment, for every voyage they made(19). Yet it was due to the steamers stationed by the Egyptian government on the White Nile, and the posts of inspection established by her to examine boats coming down the river, that a most marked effect upon the slave dealers was achieved(20). This success however was unfortunately transitory, for the check soon became «merely nominal», and «the boats having slaves on board are kept informed as to the movements of these steamers, and by sending their slaves into the country escape any danger that might have threatened them, had they been discovered with their cargo on board»(21). Consequently, slaves were brought to Egypt, and it was estimated that from ten to fifteen thousand slaves were yearly brought down the Nile to Cairo, while an equal or even greater number found their way to the ports of the Red Sea(22). As it happened, «every Turkish and Egyptian family has more than one, generally several black slaves-male and female-in their households. The position of these people however, is by no means a bad one. They are well and kindly treated, and are much better off, than if they had remained in their own country(23) ».

It is worthy of note that though the attack on slavery and slave trade in the Sudan was entirely a risky procedure in a country whose economy was established on slave labour, the Egyptian government under Ismail was «sincere and earnest» in her desire to suppress that notorious traffic in both Egypt and the Sudan(24). A British Consular official at Alexandria enumerated to his government certain reasons for the difficulty of overthrowing the slave trade in the following manner :

«1st, that important persons and functionaries of the government derive considerable profit and advantage from the trade, either directly or indirectly—directly, because

---

(18) Elgood, p. G. : *The Transit of Egypt*, p. 155.

(19) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(20) F. O. 84/1246. Stanton to Russell, Alex. 26 September, 1865.

(21) F. O. 84/1260. Stanton to Clarendon, Alex. 9 May, 1866.

(22) F. O. 84/1277. Reade to Stanley, Alex. 9 August, 1867.

(23) F. O. 84/1181. Hornby to Russell, 12 September, 1862.

(24) D. S. *Egypt*. vol. 8. Beardsley to Fish, Cairo, 16 Sept. 1873.

particular importance now, Gondokoro was by that time the grand emporium of the slave trade in the White Nile region.

This nefarious traffic however had its origin in the early part of the nineteenth century, when numerous European fortune hunters, frequenting the Southern Sudan in quest of ivory, for which there appeared to have been an European demand, foresaw more lucrative results from human cargoes, and transferred their activities to dealing in native slaves. From slave dealing they took to slave hunting, until this immense tract of equatorial territory lying between Khartoum and great Victoria Nyanza lake had become reduced to a pitiable state(13).

Thus, conformably to an eminent writer, «in 1863 ... nearly every European merchant was engaged in the slave trade. The slave raiders sailed their boats flying the English, French, Austrain, Turkish, and even the American flag»(14). Another distinguished author pointed out : «it is more particularly at Gondokoro that one is sure to meet with Europeans among the slave-traders. Their presence is recognised by the ability with which they carry on the work of devastation, and it is easy to understand why they use every precaution to conceal it from the knowledge of Europe»(15). Moreover, a British Consular official in Egypt informed his government : «I am afraid that it is even more than probable that British traders in those parts are no better than native traders»(16).

Arriving at Egypt in his way back to England, Baker uproariously complained to the British Consul General of the notorious operations of the European traders in the White Nile region. He was convinced that «all the ivory traders without exception are either openly slave dealers, or, what is nearly as bad, allow the men employed in their service to collect slaves on their own accounts». The famous Nile traveller's description of the state to which these traders had reduced the country was most lamentable, «ruin and desolation now reign where formerly rich valleys teeming with cattle met the eye, and the European in most parts of this vast country is looked upon as the scourge of the native(17) ».

---

(13) French, H. G. : *Gordon Pasha of the Sudan*, pp. 92—93.

(14) Budge, E. A. : *The Egyptian Sudan*, p. 225.

(15) Bertlous, E. F. : *The Slave Trade in Africa*, pp. 31—32.

(16) F. O. 48/1181. Hornby to Russell, 12 September, 1862.

(17) F. O. 84/1248. Stanton to Russell, Alex. 26 September, 1865.

reception in Bunyoro was hostile, because Wad al-Mak had preceded them, and had made the worst impression by his treatment of the Banyoro. At first Baker desired to follow the Nile down stream till it entered the Albert Nyanza, but the Banyoro would not allow him to do anything of the kind, or to make any journey off the main road along the Victoria Nile to Kamrasi's Capital.

Contrary to their anticipations, Kamrasi, Mukama (ruler) of Bunyoro, received the Bakers well, and this was the more fortunate, as Baker was very nearly dead with fever. But Kamrasi soon regarded Baker with the deepest suspicion and fear, for he could not believe that any man could come so far merely to see water ; his object must be to plunder or seize the kingdom from him. The «Beard» or Baker and the «little star» or Mrs. Baker (as they were called by the Banyoro) were practically held prisoners for some days, since Kamrasi stoutly refused to provide them with porters or to give them any assistance in fitting out their caravan for the expedition to the lake(10).

Finding, however, there was nothing to be got out of Baker, Kamrasi relented, accepted a double-barrelled gun, and sent off the explorer and his wife with two guides and an escort consisted of a body of about three hundred men, dressed in the most grotesque fashion. They wore leopard and white monkey skins, and had cows' tails fixed on behind, and antelopes' horns fitted on their heads. This escort, however, was soon set back owing to their noisy demonstrations, and after facing immense difficulties the Bakers reached on the 14th of March 1864 Luta N'ziga, which they named Lake Albert, and which proved to be part of the Nile system. Coasting along the eastern edge of the lake to the entrance of the Victoria Nile, the travellers returned to Gondokoro which they reached in March 1865.

When Baker arrived at Khartoum he wrote to the British Consul General in Cairo, «Gondokoro was swarming with slaves this year. Many thousands were there ... Debono's people are about the worst of the lot, having utterly destroyed the country, of course their zareeba (encampment) is full of slaves ... I have much to say to you on this matter, as I have myself been a witness to the atrocities of the White Nile trade»(12). Needless to say that though a town of no

---

(10) Fisher, A. B. : *Twilight Tales of the Black Baganda*, pp. 5—7.

(11) Johnston, H. : *The Nile Quest*, pp. 184—86.

(12) F. O. 78/1871. Baker to Colquhoun, Khartoum, 21 June, 1865.

of the British government, and that his object was to put down the slave trade(6).

On the 26th February 1863 Speke and Grant sailed in Baker's boats on their return voyage to Khartoum. Tempted by Speke's news of the reported existence of a large lake to the south west, which was called by the natives Luta N'zige (i.e. the «dead locust Lake»), and which was believed by Speke to be a second source of the Nile(7), Baker determined to proceed to this lake. Having a great weight of luggage, which consisted largely of beads, copper, and ammunition, Baker was anxious to obtain assistance from Muhammad Wad al-Mak, de Bono's (8), agent and the leader of the party with whom Speke and Grant had just arrived. Wad al-Mak's porters had brought a quantity of ivory from the interior, and Baker offered to pay them well if they would carry his goods at twelve days' journey on their way back to the station at Faloro.

Wad al-Mak promised to grant Baker's request, but his friendly manner was only a pretence. He not only did not intend to keep his promise, but he secretly incited Baker's Khartoum men to desert him, that the expedition might not proceed any farther. The White Nile traders were most anxious to keep such men as Baker out of the regions in which they hunted down the negroes and spread destruction with fire and sword. In spite of all attempts to frighten him, Baker managed to persuade 17 of his old servants to accompany him, and on the 26th of March 1863 a start was made. Without guide or interpreter, the Bakers were once more moving southwards(9).

The slavers' grasp over the Southern Sudan was so great that the travellers found themselves obliged to join up with a slaving caravan in order to make some progress towards Bunyoro kingdom. After countless delays occasioned by the indolence and hindrance of the natives, and by starvation, fever and fatigue, they arrived at the Karuma Falls on the Victoria Nile, and entered Bunyoro. Their first

---

(6) Baker, S. W. : p. 61.

(7) Budge, E. A. : The Egyptian Sudan, its history and monuments, vol. 2, pp. 220—221.

(8) Andrea de Bono ( —1871) Maltese trader and explorer, he came to the Sudan in 1848, erecting a corn mill in Khartoum and manufacturing lime and kiln-dried bricks, his activities led him to enter the white Nile trade, and combine the export of slaves with that of ivory.

(9) Lomax, A. El. : Sir Samuel Baker. Hunter, explorer, administrator, pp. 41—44.

main stream, known as the White Nile, and explore the Nile tributaries of Abyssinia. After twelve months' wanderings, during which the Athara, Settite, Rohad, Dinder and the Blue Nile were explored(3), Baker the greatest big-game hunter of his age(4), travelling with his wife by way of the Blue Nile, reached Khartoum.

On their arrival at Khartoum, in spite of being armed with a letter from the Viceroy in Cairo, the Bakers were given a hostile reception from the then Governor-General, an intriguer named Moosa Pasha Hamdi. This latter, being mostly deep in the horrible slave traffic and fearful of the travellers' revelation, tried to throw trouble in their way. Baker however narrates :

«We were just ready to start ; the supplies were all on board, the donkeys and horses were shipped, when an officer arrived from the Divan, to demand from me the poll-tax that Moosa Pasha, the Governor-general, had recently levied upon the inhabitants ; and inform me, that in the event of my refusing to pay the said tax for each of my men ... he should detain my boats. I ordered my captain to hoist the British flag upon each of the three boats, and sent my compliments to the Government official, telling him that I was neither a Turkish subject nor a trader, but an English explorer ; that I was not responsible for the tax, and that if any Turkish official should board my boat, under the British flag, I should take the liberty of throwing him overboard. This announcement appeared so practical that the official hurriedly departed, while I marched my men on board, and ordered the boatmen to get ready to start.» (5).

Thus, on December 18th 1862 the Bakers left Khartoum for the south, arrived at Gondokoro on February 2nd, 1863. Here, the dramatic meeting with Speke and Grant took place on the 15th of the same month. Gondokoro was then «a nest of robbers, sacred to slavery and to every abomination that man could commit». While Baker was at that town, the traders looked on him with great suspicion, nor would they believe that the object of his journey was the discovery of the Nile sources. They said that he was there as a spy

---

(3) Baker, S. W. : *The Nile Tributaries of Abyssinia*, pp. 388—9.

(4) Perham, M and Simmons, J. : *African Discovery*, p. 215.

(5) Baker, S. W. : *The Albert N'yanza, Great Basin of the Nile, and explorations of the Nile Sources*, vol. 1, p. 19.

## SAMUEL BAKER AND THE SOUTHERN SUDAN

by

EL SAYED RAGAB HARRAZ. PH.D.

*Lecturer in Modern History, Cairo University*

---

Speke and Grant had plunged into Africa, and all trace of them had been lost for more than two years, when Samuel Baker(1) determined to explore the Nile, and at the same time to search for the missing travellers, who had been sent out via Zanzibar with that object(2).

At his own expense and accompanied by his wife, Florence Ninian von Sass, a Hungarian lady, who insisted on sharing the hazards of the journey, Baker on the 15th April 1861 sailed up the Nile from Cairo. The voyage on the Nile was continued for twenty-six days, and Korosko was reached. At this point there is a great bend in the river. To save time, the travellers therefore mounted camels and made their way, a seven days' journey, across the desert. Reaching Abou Hamed, the travellers proceeded along the banks of the river for eight days, until they came to Berber, a town of some importance on the Nile. At this locality Baker decided to leave the

---

(1) Samuel White Baker (1821—83), British traveller and sportsman, he completed a desultory education at the University of Frankfurt-am-Main and then embarked on a varied career, visiting Mauritius in 1844, founding an English agricultural colony in Ceylon in 1846—55, and undertaking the management of the construction of a railway being built from the Danube river over the Dobruja to the Black sea in 1859—60.

(2) In 1858 the Foreign Office, the East India Company, and the Royal Geographical Society provided funds for two Indian Army officers, Burton and Speke, to investigate the rumours of a huge inland sea reported in 1842—9 by Krapf and Rebmann, two C.M.S. missionaries who had first sighted the snow-capped mountains of Kenya and Kilimanjaro. Burton and Speke reached Lake Tanganyika and on the return journey Speke broke off to the north and discovered in 1858 that Victoria Nyanza was the source of the Nile. In 1860, again assisted by the Government and the R.G.S., Speke returned accompanied by Grant, another Indian Army officer, to obtain further proof of the wonderful discovery he had made in 1858.

the social researcher is also subject to a number of individual and social forces that may interfere with his observation ; for instance, his physical characteristics and capacity, his training, his status and role and so forth.

The analysis and interpretation of research findings do not represent an isolated process. They are affected also by the social framework of the research undertaking. Analysis is done within a certain theoretical framework and in the light of certain logical-theoretical constructs which will direct the analysis one way or another. The reality orientation of the researcher or his ideological commitments will be reflected in this phase of analysis. A researcher committed to the maintenance of the statusquo will analyze his material in a way different from that of a revolutionary researcher.

Finally, when it comes to reporting his findings, the researcher sometimes faces complications if not dilemmas. What will be the reaction to his report on the part of his organization, his association, and/or the broader social order ? What about if his findings will hurt certain segments of the community ? What if the findings are harmful to a group but beneficial to another ? Will he report all the findings, or part of it, or keep it undisclosed ? We do not claim to have an answer to these and comparable questions. We do not even believe that there is an all-inclusive answer. However, these questions illustrate the social dimensions and social pressure that bear upon the social researcher and on his methods too. Needless to say that the end product of his research will be coloured by these sociological factors.

To sum up, our purpose was to introduce one of the new fields of inquiry in the social sciences, the sociology of social research, by exploring what constitutes its major dimensions and the way in which they affect research methodology and conclusions. Further investigation is still needed to analyze in detail the interaction between each dimension and the research process. It should be clear that probing into the nature and consequences of this interaction does not convey that social research is largely controlled by forces other than the norms of science and scientific investigation. In fact norms of science are there and will continue to provide valuable guidelines for social research. The point this study intended to stress is that of the existence, beside the norms of science, of a host of sociological factors which affect the very norms of science. An awareness of such factors is essential, if not imperative, so that research findings could be seen and evaluated in a meaningful and true perspective.

will encounter barriers in the research process. On the other hand, the formal organization of the bureaucracy which employs the social researcher and sponsors this research is likely to have a stake in the selection of a research topic. For instance, some universities are specialized in specific research topics and in accordance with a certain school of thought. Often times, research topics will be selected and dealt with in accordance with this specific framework. Even the social scientist who works independently cannot separate himself from the very social order he seeks to study and explain ; for the conflicts and struggles he experiences in society provide him with insights into the working of the system. This involvement in the social order is expected to affect the social scientist in selecting his research topic. However, these effects upon the selection process do not, by any means, prevent the researcher from pursuing meaningful generalizations which add to our body of knowledge.

If we consider the research design, one may not readily conceive the impact of sociological factors. But suffice to say that the procedures incorporated in the design must be acceptable to the people who will be selected as respondents, that these procedures ought not conflict with the cultural values of the society. In other words, the adoption of this rather than other types of research designs is not solely determined by scientific norms. Sociological factors bear upon the formulation of a specific design which may not be, scientifically speaking, the most appropriate designs. Often times, certain concessions have to be made to ensure some degree of conformity of the design to the society and its value system. For instance, certain experimental designs are not permissible because of the mere fact that we are dealing with human beings. On the other hand, and within the broader society, there are certain organizations particularly universities which adhere to a particular approach in their research endeavors and this is often reflected in their research designs.

In the collection of data we find that both the kind of data collected for research purposes, its sources as well as the way it is collected are affected, by one way or another, by the social components in the research process. For example ; observation, as a source of data, could be acceptable in certain topics, but could be rejected in others. Observation can be done by non-professionals and in this case it may provide valuable information not available otherwise. However, this information may have certain shortcomings for it may be subject to bias and subjectivity. Observation by



way in which the researcher adapts his logical theoretical constructs, selects his problems and methods, and analyses and writes up his findings as we shall see later.

To sum up, social research does not take place in a vacuum. It is affected by the nature of the social order which tolerates and supports it, by the characteristics of the particular social setting which sponsors it, and by the social researchers who carry it out. The interaction between these major components have given birth to a new field of inquiry in the social science, came to be known as the sociology of social research. Now, the question arises as to the way in which these dimensions of the sociology of social research, as outlined before, affect the research methods in particular. This makes up the subject matter of the second part of this study.

## II.—Research Methods

The role behavior of the social researcher, as we have seen before, is affected by his status in various social groupings ; by the setting in which he carries out his research, and by the broader social order. Consequently this will bear upon the methods applied to the research problem, and this in turn may have its bearing upon the research findings. To illustrate this relationship, we will use the term «method» in a rather broad sense to connote the way in which the researcher goes about conducting research, or the major steps that are generally followed in the research endeavor, and then try to identify how these effects come about. Within this framework, we will examine the effects of the social dimensions upon those identifiable phases of the research process, namely, selection of a research problem, the research design, methods of data collection, interpretation of findings, and reporting those findings. It is possible that these effects are more readily apparent in one phase than in the other.

The selection of a research problem is not conditioned solely by the ideals of science namely filling gaps in knowledge. The needs of the community and the social and economic problems facing its members have a stake in what topics to be studied; particularly in the developing countries where research oriented toward alleviating the hardships of life and raising the level of living takes precedence over other subjects of inquiry. The value system of the society may favor investigation in certain areas, but in the meantime may prohibit research in certain others. These taboo areas, if selected for inquiry,

is adapted to the conditions of each particular country. «Research specifically oriented toward characteristic problems of newly developing countries is necessary, even as a prerequisite to making maximum use of the world's existing reservoir of science and technology» (7). If science and technology is to be adapted to peculiar conditions of each country, it should be taken for granted that social research must be in accord with the particular social order within which it is conducted. The National Charter of the U.A.R. has rightly expressed this viewpoint stating that, «the real solutions for the problems of any country cannot be imported from the experiences of other people», (Chapter 5.) Hence, a close relationship exists between types of social research and the social order which orients research one way or another ; for instance, the deteriorated social and economic conditions in the U.A.R. prior to the Revolution of 1952 made it imperative that research should be oriented toward the discovery of scientific solutions for the baffling social and economic problems. This trend has been clearly defined in the National Charter.

«The scientific research centres are required at this stage of the struggle to develop themselves so that science would be in the service of society. At this stage, science for its own sake is a responsibility which our national potentiality cannot shoulder.

Therefore science for society should be the motto of the cultural revolution at the present stage. The achievement of the objectives of the national struggle will enable us, at a further stage of our development, to make a positive contribution to the world in the domain of science for its own sake» (8).

The Charter, while taking full cognizance of the essentiality of science for science, i.e. filling gaps in knowledge, made science for society take the precedence. This is dictated by the historical phase of great transformation the Egyptian society is going through. Hence, the nature of the social order at a certain point in time is an important variable that bears upon the research process. On the other hand, the value system, the mores and folkways, and the cultural values particular to each social order will affect, to a great extent, the

7. Ibid.,

8. See the National Charter, U.A.R., 1962, Chapter 8.

same time. The professional norms dictate certain role behaviour which meets with that of the bureaucrat at certain points but may diverge at certain others. This presentation of various factors involved in the research setting refrains from passing any judgment about the efficiency or inefficiency of bureaucratic and other organizational structure for conducting research.

In fact these organizations may become a must if research is to flourish particularly in the developing areas of the world where individual research is scarce and sporadic. However, it calls the attention to the interaction between the research setting and the research process in order to provide controls for whatever variables inherent in the setting which may distort research findings.

**The broader social order :** Social research takes place within a certain social order and at a certain point in time. Considerations of time and place bear upon the research process. There is a relationship between the type of social order and the degree of tolerance or intolerance of research as well as the kind of research to be carried out. In fact, research does not depend solely upon technical conditions, but upon social and psychological conditions too.

A passive society may be indifferent to research and this retards its progress. One can but compare the relative position of research in general and researchers or the funds spent on research in a highly industrialized country and in a less-developed country. It has been noted that the number of research scientists in general working in the less-developed countries is comparatively small. It has been roughly estimated that there are ten scientists per million in the less-developed areas of the world, compared with about a thousand per million in the developed areas(6). In this context, it is expected that the percentage of social researchers in the less-developed areas will be much smaller as they are relatively late comers in the social research field. More often than not, the conditions under which scientists and research experts work in less developed countries do not make for maximum effectiveness.

It might be claimed that the less developed countries can draw upon a great wealth of accumulated scientific knowledge and technology, the result of centuries of research in the advanced countries. However, such knowledge in its present form is not enough, unless it

---

6. Scientific Research and Progress in the Newly Developing Countries. Op. Cit., P. 12.

between social research and modern organizations do have certain advantages. Some aspects of research are undertaken in such setting otherwise would not be possible in simple social orders. Modern agencies with the scope of its means, funds and facilities have made possible, not only certain types of research but, and this is crucial, have contributed a great deal toward the refinement of research tools and techniques and the development of methodology in the social sciences. The studies conducted by the Social and Criminological Research Center in the U.A.R. on certain aspects of crime and addiction are cases in point. In fact research centers and agencies particularly in the developing countries are serving a dual purpose for carrying out research and for training a new cadre of researchers who are a scarce human resource in those societies. Hence, it is this structure which sponsors research, provides funds, selects research problems, and acts or not upon the findings. Within this setting, the danger may lie in the interaction between the researcher and the bureaucratic structure in which he functions due to certain differences in the nature of the research process and the nature of bureaucracy.

While certain bureaucratic attributes may facilitate the function of research as an organized activity, others may be dysfunctional to the research process in general or to certain phases of it. The efficient operation of a bureaucracy often requires a high degree of reliability of behaviour by means of a high degree of conformity with prescribed rules and regulations, and patterns of action. Conformity and rigid adherence to routine performance may prohibit flexibility which is often necessary for conducting research in the social sciences. Social researchers, when they become bureaucratic agents develop over the years a sense of common destiny and vested interests and a sense of pride in their official status. Hence, they may become subject to conflicts between their adherence to the norms of science and their loyalty to the bureaucratic organization which provides them with means of livelihood. On the other hand, material considerations may come in conflict with the ideal norms of scientific investigation. In other, words, researchers may find themselves committed to the ideals of science and at the same time required to sustain the bureaucratic organization in order to ensure the flow of funds for further research which may end in inefficiency when research becomes more concerned with its continuity rather than with its substance. However, this is not peculiar to social research. The situation exists, with varying degrees, whenever professional norms come into contact with bureaucratic structures, or whenever professionals act as bureaucrats at the

terms of research findings. For this reason, any research undertaking must take into account the researcher himself as one of the major variables involved in the different phases of the research process with differential effects.

**The research setting :** Here we are concerned with the kind of setting where social research is carried out and which may bear upon its methodology and in turn upon research findings. It is evident that as the society grows and advances and gets complex, it becomes in need of social data and in turn in need of social research to provide knowledge for making objective, rational decisions and policies. The more the decision is based on accurate information and guided with research findings the more it is apt to serve the purpose best. As the society grows in its complexity, research tends to become an organized activity. In fact, it is becoming increasingly evident that research in modern society is conducted within an organizational structure, be it a governmental department, a university, a research institute, an industry, a social agency and so on. This does not deny the existence or the essentiality of independent research carried on by individual researchers unattached to any such organization. Independent research will continue to exist and will continue to perform a vital function to the community and to the scientific cause particularly the development of theory and theoretical constructs. However, the great bulk of modern research is conducted within bureaucratic structures and is largely controlled by these structures. With the expansion of large scale research, means must be found for supporting it. These means can be diversified. In socialistic countries and in many developing countries research is carried under government auspices. In the U.S.A. this is covered by various types of grant giving agencies and foundations which represent government, business in a broad sense and other organizations. In the more complex industrial societies of the West, it may even become imperative for the researcher to join such structures to pursue his research activities. In this respect Robert Merton has found that the researcher in the U.S.A., «if, on the other hand, he remains unattached in order to preserve full opportunity of choice, he characteristically has neither the resources to carry out his investigations on an appropriate scale nor any strong likelihood of having his findings accepted by policy-makers as a basis for action» (5). However, close attachment

---

5. Ibid., P. 217.

family, whether his family of orientation or family of procreation or both, and he has obligations to either one or to both of them. To some extent, the family exerts certain controls upon the researcher as a member, although the extended kinship family may be more behaviour controlling than the nuclear type common to the urban industrial populations. Furthermore, if he is committed to the ideals of science, seeking knowledge for its own sake, the researcher will enjoin with others in the pure scientific community devoted to the quest for new knowledge, particularly in those societies which progressed rapidly with respect to research. Here, means of control will evolve largely from the norms of science themselves. Or otherwise the researcher will be a member of a professional association which exerts certain controls upon his behaviour, not only for the maintenance and development of research endeavors, but for the furtherance of their narrow guild concerns. On the other hand, the researcher, as a human being, has his personal interests and hobbies which he pursues mostly in his leisure time. For this purpose he joins various voluntary organizations which serve to satisfy his own interests and needs. His residence in a certain neighborhood may require him to join with others in voluntary community activities serving the interest of their locality. Again, his membership in these associations exerts controls or at least makes certain demands upon the researcher. Finally, the researcher is a citizen in his nation and this controls his activity whether he wants it or not. The impact of the nation varies from one country to another. The regime of the country as well as its stage of development are variables in operation. The newly emerging countries with their strong sense of nationalism are different in this respect from a highly industrialized country. Building up of a new nation and the demands of development have considerable impact upon the researcher in those societies. The presentation of these variables does not mount to an exhaustive list of various reference groups to which the researcher relates himself and his scientific endeavors. However, it serves to illustrate the whole range of social controls the researcher is subject to which, in a sense, support him, but it may also lead to role conflicts within him and this in turn will bear upon the research process. Hence, the researcher as an individual, and as a member of different groups in the society is subject to a variety of factors which may affect the way he selects his research problems and sees them and the way he draws up his research design and selects research methods and techniques and this in the long run will, by one way or another, affect the end products in

persisted considerably to the extent that, in Merton's words, «the hobo and the saleslady have been singled out for close study but we seem reluctant to analyze the social scientist as an occupational type» (4).

To what extent does the role of the social researcher bear upon his research methods, and, in turn, his research findings and conclusions ? In examining this relationship, we would like to stress the role of the researcher as an individual, and as a member of certain group or groups, although the two roles are, to a great extent, inseparable from each other. First of all, the social researcher is an individual human being. Like any other human being, the social researcher may possess certain attributes which might or might not be advantageous form the point of view of scientific research. For instance, his biological build-up may bear upon his sensory perception and this again may affect his observation. Also, the intellectual capacity is another variable involved in his ability for research undertakings. As any other human being, he has his preferences and dislikes, he has dispositions, hereditary or otherwise, for certain things and not for others. However, most of these attributes are created and nurtured by the society in which he lives and the culture in which he grows. Of course, one cannot deny certain hereditary attributes, though most of these are conditioned by the society too.

More specifically, and with regard to research methodology, one may rightly say that the social researcher is what he conceptually is. In other words ; he sees his research problem or certain aspects of it in the light of his own conceptualization. Of course, social researchers differ in the way they conceptualize, but some of this difference lies in the type of social structure the researcher has grown and has been socialized in. After all the researcher, as a human being, is programmed by other human beings ; by his parents ; his teachers ; his culture and his society. Initially he is programmed by others though he later develops self-sufficiency and automatic programming. However, conceptualization is an ongoing process. And since the human being is to exist, his selection of concepts will be adapted to what he already has. One expects that the extent to which his adaptation is a flexible or a fixed process will bear upon his research methodology and behaviour.

The social researcher, as mentioned before, is not an isolated individual. He is a member of a multiplicity of groups which affect his role behaviour as a researcher. First of all, he is member of a

---

4. Ibid.,

research for which it is given differ in diverse social structures. Clinging to the norms of science may favour the idea that research is best when carried out in a social vacuum. However, scientific research seldom occurs in a vacuum. This applies to research in the physical science and in the social science too. The latter is our concern in this study.

Needless to say that social research is carried out by human beings, and for human beings. One has either to recognize this fact and study its implications, or to continue unaware of its consequences which are already there. It is this gap in knowledge which called for a new sociological discipline, the sociology of social research, to deal mainly with the reciprocal relations between social research and the social structure. Though the need for such line of inquiry is readily apparent, the newness of the field did not make for much clarity with respect to its subject, method, tools of research and particularly its position in the conventional social science picture. However, this is a sign of maturity and dynamism of sociology and sociologists who are consistently filling up gaps in our knowledge of complex social relations by pursuing new lines of inquiry, the newest of which is the sociology of social research. In this study, we will try to point out the major dimensions of this new sociological inquiry. To this end we will examine three components which, in our viewpoint, determine the nature of the research process, namely the social researcher, the social setting, and the broader social order.

**The social researcher :** The social researcher is an important variable in the research process, and unless controls are provided for his presence, the validity of the research findings is likely to be affected. Apparently the social researcher, as the incumbent of a certain status or statuses and like other members of the society, is affected by the social structure in which he functions and this, in turn, is reflected on his role behaviour. However, little has been done to pursue this relationship ; i.e. between the social structure and the researcher's role behaviour, particularly its bearing upon the research process. Referring to this situation, Robert Merton has noted that, «intellectuals devoted to social science have been so busy examining the behaviour of others that they have largely neglected to study their own problems, situation, and behaviour» (3). This situation has

---

3. Robert Merton : *Social Theory and Social Structure.*, The Free Press, Illinois, 1957. P. 207.



of these relations have received uneven attention ; the impact of research upon society eliciting more attention, and the impact of society upon research eliciting little, if none. The reason for that lies partly in the fact that, more often than not, the impact of scientific research on the social structure is readily apparent. Research in the physical sciences have given birth to an array of technological by-products which left marked effect upon the social structure. In fact, and since the industrial revolution, scientific research has been contributing a great deal toward enhancing social and economic well-being of populations, though with unequal distribution of benefits. The growth of knowledge in many sciences has opened the way to new power sources, new means of communication and transportation, new measuring instruments, advances in medicine and other fields and innumerable other items in the material progress of societies. Research in the twentieth century has come to the forefront to the extent that scientific research, both basic and applied, has become widely recognized as an important factor in economic progress (1).

Though not to the same extent and because of its recent origin, research in the social sciences has also produced good many findings which affect the social structure by one way or another. Moreover, research has been regarded as an indispensable tool for meeting the problems that arise in industry ; in agricultural development ; in medicine and public health ; in education, social welfare and other aspects of modern life to the extent that investment in research is regarded as a criterion of a dynamic society (2). In other words, the identifiable consequences of scientific research for society made for perceiving the impact of the former upon the latter. However, this was not so with regard to the effects of diverse social structures upon scientific research. On the other hand, it may probably be that the ideals of science in themselves have created some reluctance on the part of the researcher to conceive of his inquiry as dependent upon particular social structures. One may refer, in this respect, to the ideals of objectivity ; partiality, and universalism which are perceived to cut across structural barriers. These norms seem to be endangered by the fact that scientific research is an organized activity supported by the society and that the measure of this support and the types of

---

1. *Scientific Research and Progress in Newly Developing Countries*. Stanford Research Institute, California, 1968, P. 11

2. *Ibid.*

# **SOCIAL RESEARCH AND THE SOCIAL ORDER**

## **INTRODUCTION TO THE SOCIOLOGY OF SOCIAL RESEARCH**

*by*

**Dr. EL-FAROUK YOUNIS**

*Faculty of Arts-Cairo University (Khartoum Division)*

---

The purpose of this study is to examine social research in its societal context and to explore the extent to which this bears upon research methods and research findings. Obviously, it is a rather new subject of inquiry in the social sciences, and so, comprehensive coverage of the topic is not feasible, at least for the time being. Hence, the study will be selective to some extent, focusing upon what we conceive of as the major dimensions in this regard. Our discussion of this topic will be divided into two parts :

Part I, will examine some of the dimensions of this growing field, namely the sociology of social research. However, the discussion herein will be limited to three major components, the social researcher; the setting in which research is carried out, and the broader social order. Needless to say that these components are not separate entities. They do overlap and interact with each other. This separation is only for analytical purposes.

Part II, will focus on the research methods, however, our interest is not in these methods per se, but rather in the way in which they are affected by the social dimensions discussed in Part I and how this, in turn, bears upon the end products of social research.

### **I.—Dimensions of the Sociology of Social Research**

Little attention has been given to the dynamic interdependence between scientific research in its broader sense, and the social structure within which it is conducted. It is not until recently that reciprocal relations which exist between research as a process and society as a conditioning factor have been recognized. However, reciprocity



«Reader-consider not this as a romance merely.-Over their passions and their weaknesses, mortals cannot keep a curb too strong. The progress of vice is gradual and imperceptible, and the arch enemy ever waits to take advantage of the failings of mankind whose destruction is his glory. That his seductions may prevail, we dare not doubt; for can we otherwise account for those crimes, dreadful and repugnant to nature, which human beings are sometimes tempted to commit? Either we must suppose that the love of evil is born with us (which would be an insult to the Deity), or we must attribute them (as appears more constant with reason) to the suggestions of infernal influence» (35).

Zofloya-as we have seen-has neither originality (except conception of the Devil) nor any other great merits and its place in literary history would have been negligible had it not had some influence on Shelley's two juvenile romances: *Zastrozzi* (1810) and *St. Irvyne* (1811). Both these are the outcome of a boyish ambition to practise the art of freezing the blood, and their composition was a source of pride and delight to the young author.

In *St. Irvyne*; or, *The Rosicrucian*, (36) the supernatural element is borrowed from *Zofloya* and the motif of the «Elixir of life» is taken from Godwin's novel *St. Leon*. (1799). In world literature the most ancient instance of the theme occurs in the Babylonian myth of Ishtar's descent into Hades. *St. Leon* which was a favourite book with Shelley has been indicated by the poet himself as another source of his romance (37). The plot of this supernatural historical romance centres on the theories of the Rosicrucians. Godwin himself believed that the Rosicrucian order was started by one of the Crusaders in the East in the fourteenth century. Only in the seventeenth century were the ideas of this sect popular. Their notions of secret and magic knowledge, such as the transmutation of metals, the prolongation of life and power over the elements and elemental spirits are probably derived from the Arabs (38).

---

(35) *Zofloya*, op. cit., p. 280.

(36) *St. Irvyne: The Rosicrucian: A Romance* by a Gentleman of the University of Oxford (1811).

(37) T. Medwin, *The Life of Percy Bysshe Shelley*, (1912), p. 49.

(38) cf. W. Godwin, *Lives of the Necromancers*, (1834), p. 35.

Before the spirit is seen' a full strain of melodious music sounded in the air». Having got rid of both her husband and Lilla (32) (Henriques's wife), Victoria offers herself as Henriques's mistress. But Henriques obstinately refuses and is finally killed. To escape arrest by the Inquisition Victoria, upon a promise of safety, pledges herself to Zofloya, who thereupon conveys her to a distant ravine amid the loftiest Alps. Here they encounter a gang of bandits with whom they live a lawless life and various adventures follow. Victoria and Zofloya are besieged by a great number of soldiers, but upon her promise to commit herself wholly to him, Zofloya swears to protect her, and at the same time a fearful explosion shakes the earth, the cavern crumbles and in an instant she finds herself on the summit of a beetling crag, with the Moor standing by her side. Reminding her of his past services, he demands that she shall once and for all give herself unequivocally to him «heart, body and soul». The wretched woman devotes herself to Zofloya by a fearful oath, whereupon with a loud laugh he bids her look upon him, and as she gazes, in the place of the beautiful Zofloya, she sees «a figure, fierce, gigantic and hideous to behold». The Evil One thus appearing in his true colours, addresses his disappointed devotee :

«Dost thou mark, vain fool.» he cried in a terrific voice, which drowned the thundering echo of the waters-«Behold me as I am-no longer that which I appeared to be, but the sworn enemy of all created nature, by men called SATAN».

With fearful taunts «he grasped more firmly the neck of the wretched Victoria-and as she fell his loud demoniac laugh, his yells of triumph echoed in her ears, and a mangled corpse, she was received into the foaming waters below (33).

It requires but little observation to realise that all this is merely a reproduction of the final catastrophe of *The Monk*. Again, just as in the original issue of *The Monk*, (34) Lewis had a final paragraph pointing a moral, so Charlotte Dacre also concludes *Zofloya* with a final paragraph conveying a moral to her story. She assumes an even deeper moralizing tone as she touches upon the great problem of the origin of Evil and Satan's role in our life.

(32) cf. *Zofloya* Vol. III. Chapter XXIX.

(33) *Zofloya* p. 259.

(34) M.G. Lewis. *The Monk*, (1924) III, p. 210. This edition is printed from the first edition 1796.

were encircled with the finest Oriental pearl ; he wore a collar of gold around his throat, and his ears were decorated with gold rings of an enormous size. Victoria contemplated this figure with inexplicable awe, and as she gazed he bent his knee, and extended his arms towards her. While in this attitude, her mind filled with terror, she looked upon him with dread, and essaying to fly, she stumbled and awoke» (29).

Zofioya is in fact none but the Devil himself disguised as a Moor. It is only on this account of depicting Satan as such that Mrs. Dacre may be accredited with a certain measure of originality. It is the first time in English fiction that the medieval notion that negroes are the offspring of marriage between demons and mortal women is utilized. On the other hand, through political and religious prejudice, the Saracens or Moors (who were often confused with negroes because of their black colour) were thus considered to be either devils in disguise or sons of devils. This is most likely the basis of the authoress' conception of the Principle of Evil as a Moorish slave.

Another interesting aspect of Mrs. Dacre's treatment of the Devil is, again, the unusual method of contacting his victim. In this romance he does not come on his own to stir up trouble among human beings, nor is he invoked by the mighty power of a magician's spell ; but he simply appears to the wicked Victoria in her dreams' Luring her to attempt the completion of her wildest wishes'. Such a device is probably suggested by the Oriental tradition-promulgated by Defoe in two of his books, (30). that the Devil first appeared to Mankind in visions and dreams.

Zofioya strangely attracts her, and after several interviews he offers to help her win the object of her love and dispose of her husband (31). She is struck by and frequently muses upon the mystery surrounding this extraordinary being who is a master of Satanic chemistry, hypnotism and telepathy. He seems to appear suddenly even in the depths of a forest glade and sometimes his presence is heralded by sweet aerial sounds, the tremulous vibration of a double-toned flute. This of course is very similar to what happens in *The Monk* when Matilda summons the demon in the vaults.

---

(29) *Zofioya*, p. 180.

(30) These are *A System of Magic* (1726) and *History of the Devil* (1727).

(31) cf. *Zofioya* Vol. II. Chapter XIX.

and very often the imitation is not only confined to theme, characters, and incidents, all of which are repeated over and over again in many chapters with exemplary fidelity, but there are also very distinct verbal echoes to be heard, dialogue at second-hand which merely differs from the original by very slight insignificant alterations. The novels which directly derive from *The Monk* are in themselves so numerous that it would be tedious to set down a large number of parallel passages or discuss details that in most of them are stereotyped copies. Our discussion of such novels must necessarily be limited to the relevant parts in them which deal with Satan and the Satanic. An outline of the main incidents in the story of each novel to be considered will therefore be given here to enable us to indicate the points of resemblance or identity between the original and the imitation. The first and most important is Charlotte Dacre's novel *Zofloya*; or, *The Moor* (1806).

Mrs. Dacre-better known as Rosa Matilda-was a professed disciple of *The Monk*, and her *Zofloya*; ; *The Moor* (27), a romance of the fifteenth century, is almost a reproduction of the plot, characters and atmosphere of the original work. «Beautiful and accomplished as an angel» Victoria, the heroine, is none the less proud and haughty, wild, ardent, implacable, revengeful and cruel. «The wildest passions predominated in her bosom; to gratify them she possessed an unshrinking relentless soul, that would not startle at the darkest crimes». In brief, she is Lewis's Matilda denuded of her diabolical supernaturalism. In some ways Matilda may be regarded as a «Succubus» (28). This view is supported by Lucifer's statement to this effect in the last scene when he disclosed to his victim Ambrosio how he was deceived by him. Five years after her marriage with Count Berneza, the wicked Victoria conceives a guilty and devouring passion for Henriques, the Count's brother. In her dreams she is haunted by the figure of a noble and majestic Moor, whom she recognises as Zofloya, the servant of Henriques :

«He was clad in a habit of white and gold ; on his head he wore a white turban, which sparkled with emeralds, and was surmounted by a waving feather of green ; his arms and legs, which were bare,

---

(27) Ch. Dacre, *Zofloya ; or, The Moor* (1806) Edition used (1928) (ed.) M. Summers.

(28) i.e. female demon having sexual intercourse with men.

Orientalising movement which continued throughout the earlier nineteenth century by publishing his collection of *Romantic Tales* (1808). In this collection, besides the «Anaconda» (an East Indian Tale), and the «Four Facardins» (an Arabian story), Lewis wrote an Oriental romance called «*Amorassan or The Spirit of the Frozen Ocean*», Part of which is original and part a close translation from a Faust story (*Der Faust Der Morgenlander*) by F.M. Klinger.

In his eager desire to do the right thing and whatever is good for the Caliph and his people, the Grand Vizier Amorassan seeks aid from an Egyptian necromancer who teaches Amorassan the spells and incantations by which he invokes the Spirit of the Frozen Ocean :

«The spell was complete ; trice had he pronounced it in the awful name of Solomon, the powerful and the wise ; and now a thick grey cloud descending into the room, hovered a while over the chafing-dish and then spread itself through the whole apartment. Gradually, it dispersed ; and now Amorassan beheld a female figure, the faultless perfection of whose form and features sufficiently assured him, that she was no terrestrial being» (24).

In reply to his question «What art thou ?» the Spirit who in the past was one of the slave-Jinn of King Solomon, says, «She, whom you summoned, and whom you need ; a Spirit from the islands of Chillness and gloom». What the good Vizier wants her to do is to guard him against others and still more against himself. «Unmask the wilful hypocrisy of those who surround me, and dispel the involuntary illusions of my own enthusiastic heart» (25).

### **Influence of «The Monk» on Contemporary Gothic Romances :**

However adversely we may judge Lewis to-day, in his own time and during the first half of the nineteenth century his influence was considerable. In addition to contemporary novelists, many later writers, both English and foreign, some far more talented than Lewis, drew upon *The Monk* for inspiration (26). His followers are legion,

(24) M.G. Lewis, *Romantic Tales* (1808) «*Amorassan or the Spirit of the Frozen Ocean*» Vol. IV. p. 151.

(25) M.G. Lewis, *Romantic Tales* (1808) «*Amorassan or the Spirit of the Frozen Ocean*» Vol. IV. p. 157.

(26) e.g. Sir W. Scott borrowed from it the idea of the tragic Knight Templar's love for the Jewess Rebecca in *Ivanhoe* see M. Frazer *The Romantic Agony* (1988), p. 112.



This last statement by Lewis is significant because it shows that the debt he owes to the story in the *Guardian* (i.e. *Santon Barsisa*) is not mere inspiration but something more, since the «moral and outline» of *The Monk* are also taken from this Oriental tale.

There can be little doubt that Lewis's intention was to teach the most virtuous man to be on his guard against the first false step and this entirely agrees with the moral of «*Santon Barsisa*» namely «Let every man take care that he do not fall» (22); but he certainly enjoyed the portrayal of active vice made necessary by his plan.

In *The Monk*, the incidents follow one another in kaleidoscopic variety like the disjointed phases of a delirium or nightmare, from which there is no escape. In Lewis's wonder-word there are no elusive shadows, he hurls us without preparation or initiation into a daylight orgy of horrors. To some extent this melodramatic and direct method of using the supernatural horror resembles that used in some of the Oriental tales of terror such as those in *The Arabian Nights* and the *Turkish Tales*. Like writers of those «wild» Oriental tales, the lifelike and the natural are not powerful enough for our author's taste and so to arouse violent emotions, shock and startle his readers Lewis magnified, exaggerated and distorted facts and situations. Again, like them, in reckless abandonment Lewis, sometimes throws to the winds all restraints, both moral and artistic. Yet, with all its limitations, this most extravagant tale has firmly established the «School of Horror» in English literature and the vogue for sensational effects by diabolical supernatural machinery continued for a considerable length of time after its author's death. Commenting on the importance of *The Monk* as an influential work and the contribution it has made to the field of romantic fiction at large, Dr. Varma maintains that the book «marks a new phase in romanticism inherent in tragedies of the soul, revealing deep, human conflicts, the struggle between good and evil for ultimate mastery in human life» (23).

In other words, Lewis is to be credited for reviving Marlowe's old theme of demoniac temptation and league with the powers of Evil.

The author of *The Monk* was interested not only in the Gothic romance but also in the Oriental tale of terror, and contributed to the

(22) *The Guardian*, (1713) No. 148.

(23) D.N.P. Varma, *The Gothic Flame* (1957), p. 158.

«Fiend., 'tis false. Infinite is the Almighty's mercy, and the penitent shall meet His forgiveness. My crimes are enormous, but I shall not despair of pardon» (17).

The Devil does not keep his agreement to release him, after all, for as the author tells us, taking his victim to the top of the mountain and,

«darting his talons into the monk's shaven crown, he sprang with him from the rock. The caves and mountains rang with Ambrosio's shrieks. The demon continued to soar aloft till, reaching a dreadful height, he released the sufferer. Headlong fell the monk» (18).

He plunged to the river's brink after which a storm evoked by the Devil swept away his body in the flood.

On the publication of *The Monk*, charges of indecency, immorality and irreligion were directed against its author by several critics and contributors to the periodical press (19). Lewis's explanation and apology in respect of the earlier editions (20) are contained in a letter addressed to his father, dated the 23rd February, 1798—a letter of extreme interest to us because it shows the close relation between *The Monk* and the story of *Santon Barsisa* which inspired it. The young author pleads that inexperience prevented his distinction of what would offend, but as soon as he found offence was given, he made the only reparation in his power :

This indeed was no difficult task ; for the objections rested entirely on expressions too strong and words carelessly chosen, not on the sentiments, characters or general tendency of the work .

That the latter is undeserving censure, Addison will vouch for me ; the moral and outline of my story are taken from an allegory inserted in the *Guardian* and which he commends highly, for ability of invention and propriety of object» (21).

---

(17) *The Monk*, Vol. III. pp. 199, 200.

(18) *The Monk*, Vol. III p. 209.

(19) The warm love scenes between Ambrosio and Antonia were the main targets of criticism and abuse.

(20) In the second edition, which closely followed the first, all passages that gave reason for such charges were removed.

(21) M.B. Wilson, (ed.) *The Life and Correspondence of M.G. Lewis*, (1839) Vol. I. p. 156.

She gives him the magic book and before she disappears «in a cloud of blue fire»—she tells him that he can conjure Lucifer if he read the first four lines of the seventh page backwards. When the repentant monk insists on refusing, she departs in an angry temper, and, before long, Lucifer himself appears before him, not in his glory as he did last time, but in all his dread and familiar ugliness.

«His blasted limbs still bore the marks of the Almighty's thunders ; a swarthy darkness spread itself over his gigantic form ; his hands and feet were armed with long talons ..... Over his huge shoulders waved two enormous sable wings ; and his hair was supplied by living snakes which twined themselves with frightful hissings. In one hand he held a roll of parchment, and in the other an iron pan. Still the lightnings flashed around him and the thunder bursts seemed to announce the dissolution of Nature (16).

After a good deal of resistance and a heated discussion Ambrosio is overawed into selling his soul and signs the contract with his blood. So, to Lewis the Devil's compact is still a necessary bond that must be signed with the blood of those mortals who seek the assistance of the Infernal Powers. That is, the traditional condition of service and forfeiture of man's immortal soul, is the «established price». This revival of the Devil tradition as set by Marlowe is particularly clear from the powerful and moving description of the last scene between the Monk and the Devil. In many respects the situation, the philosophical and theological ideas expressed and the tragic conclusion of the victim's life recall Marlowe's play *Doctor Faustus*.

In answer to Ambrosio's appeal for safety, the fiend asks, «Will you be mine, body and soul ? Are you prepared to renounce Him who made you and Him who died for you ? Answer but «Yes.» and Lucifer is your slave». When the Monk refuses to do so in the hope of heavenly salvation, the Devil who is anxious to have his soul for ever argues :

«On what chimera rest then your hopes ? Miserable wretch. Are you not infamous in the eyes of men and angels ? Can such enormous sins be forgiven ? Your fate is already pronounced. The Eternal has abandoned you. Mine you are marked in the book of destiny, and mine you must and shall be».

---

(16) *The Monk*, Vol. III. p. 198.

«Agnus Dei», (13) which she breaks in pieces and throws into the flames. Suddenly she utters a loud and piercing shriek. She appears to be seized with an access of delirium and drawing the poniard from her girdle, plunges it into her left arm. The blood spurts beyond the magic circle. Ambrosio waits with fear the spirit's appearance whose coming is announced by thunder and earthquakes. Yet to his great surprise, the Devil appears in the form of a very beautiful young man, whose features, overcast with melancholy like a fallen angel, recall to mind Milton's Satan and Beckford's Eblis.

«Enchanted by a vision so contrary to his expectations, Ambrosio gazed upon the spirit with delight and wonder : yet, however beautiful the figure, he could not but remark a wildness in the demon's eyes, and a mysterious melancholy impressed upon his features, betraying the fallen angel, and inspiring the spectators with secret awe»(14).

Lucifer gives the witch «a silver wand», a branch of myrtle whose touch opens all doors. No sooner has she received it, than the music is again heard ; a thick cloud spreads itself over the apparition ; the blue flames disappear and total obscurity reigns through the cave. To impress the abbot and entice him to solicit the evil spirits and sell his soul to the Devil, she says,

«My magic arts will now be of no use to you : In future you can only hope for supernatural aid, by invoking the demons yourself, and accepting the conditions of their service. This you will never do. You want strength of mind to force them to obedience ; and unless you pay their established price, they will not be your voluntary servants»(15).

When Ambrosio and Matilda fall into the hands of the inquisition, the latter manages to escape, by means of magic powers. Dressed in splendid garments she returns to visit the monk in his prison cell and declares :

«I have renounced God's service, and am enlisted beneath the banners of His foes ... «Abandon a God who has abandoned you, and raise yourself to the level of superior beings».

---

(13) A cake of wax stamped with the figure of a lamb bearing cross or flag, and blessed by the pope.

(14) *The Monk*, Vol. II pp. 184—185.

(15) *The Monk*, Vol. II pp. 186.

may be considered the story of a diabolical assault upon the virtue of a man who, priding himself on his virtue, was really devoid of principle. With this fact kept in mind, the gradual development of the plot becomes in the highest degree interesting, for it is really managed with considerable art. As in the previous Devil's compact stories, the object of the tempter (the Evil One) is to lead the self-confident Ambrosio from crime to crime till his cup of iniquity is full to overflowing, thus securing his hopeless damnation. But the choice of events and situation which lead to the final catastrophe is quite different.

In the first temptation scene which eventually leads to the Monk's ruin, Matilda, repulsed by Ambrosio, who, till then, has had the reputation of a saint, bares her beautiful bosom and makes as if to plunge a dagger into it.

«She had torn open her habit, and her bosom was half exposed. The weapon's point rested upon her left breast : and, oh, that was such a breast. The moon-beams darting full upon it enabled the monk to observe its dazzling whiteness : his eyes dwelt with insatiable avidity upon that beautiful orb : a sensation till then unknown filled his heart with a mixture of anxiety and delight ; a raging fire shot through every limb ; the blood boiled in his veins, and a thousand wild wishes bewildered his imagination. «Hold» he cried, in a hurried, faltering voice ; «I can resist no longer. Stay then, enchantress. Stay for my destruction» (11).

#### **Diabolism in The Monk :**

Upon Ambrosio's falling in love with the innocent virgin, Antonia, Matilda promises to aid him with her magical arts. Her magic frightens the monk and she rebukes him for his superstition and bigotry. The vision of Antonia undressing to bathe, which the witch causes to appear in a mirror, succeeds in overcoming the reluctance of Ambrosio, who again gasps : «I yield Matilda, I follow you. Do with me what you will» (12). So he follows the witch into the crypt where she begins to fashion spells with various ingredients, among which an

---

(11) *The Monk*, Vol. I p. 68.

(12) *The Monk*, Vol. II, p. 178.

In composing *The Monk*, Lewis abandons the Oriental setting, converts the Turkish Santon into a Christian monk and embroiders the story according to his wild fancy with its strong Gothic bias for sexual passion, bloodshed and demonology. Though the plot is entirely directed towards giving opportunity for the type of horrific description in which the author excels, we cannot fail to notice a number of significant parallels in the two works which may be summarised as follows :

1. The hero's character in both narratives is almost the same—an ecclesiastic with wide reputation for virtues and chastity.

2. The Santon and the Monk both yielded to the Devil's temptation in the form of a woman.

3. Once fallen, both heroes plunge further into hideous crimes.

4. In both stories the Fiend makes his appearance only towards the end to offer a bargain that completes the victim's ruin.

5. Both heroes are betrayed by the Devil.

6. The moral of both stories is identical, namely, «Let the most virtuous man be on his guard against the first false step».

7. The theme—temptation and the punishment of those who succumb to it—is also the same in both stories.

It should be acknowledged that Lewis's plot is better conceived and ingeniously worked out, and all the more so as it is not till he reaches the end of the story that the reader obtains the key to its meaning. In the concluding pages the Fiend who has carried off the wretched Ambrosio reveals to him the steps by which his ruin has been accomplished.

«Know, vain man, that I have marked you for my prey ; I watched the movements of your heart ; I saw that you were virtuous from vanity, not principle, and I seized the fit moment of seduction».

It is very interesting to note the most lively and original manner in which Lewis treated the traditional theme of «demoniac temptation». So great indeed is the role of the Devil in this story that it

penetrated the cloistral walls. As her cowl falls back he recognises in her radiant beauty a sacred picture (of the Madonna) which some two years before had been brought by the monks, and which has been the object of his increasing adoration. After a brief but fierce struggle, the celibate yields to the overwhelming temptation and seeks satisfaction in her wanton caresses. His lust having been satiated, he feels disgust towards his first mistress and before long the Monk embarks upon a new criminal adventure whose victim is Antonia, a young virgin of fifteen. Matilda consents to aid his evil designs and help debauch the innocent object of his violent desire. In order to achieve this end she summons a demon and at midnight in the dark vaults of the monastery Ambrosio takes part in infernal rites. By means of a magic spell he gains admittance to Antonia's chamber and is about to violate her, when Elvira her mother interrupts his wicked attempt. To escape, he murders the wretched woman, and, unsuspected, regains his cloister. By Matilda's contrivance he then administers a sleeping drug to the poor girl and being supposed dead she is conveyed to the vaults for burial. Here Ambrosio waits until she awakes and in spite of her cries effects his lustful purpose. To conceal his crime, in a wild frenzy he stabs her, but this second murder is soon discovered (9). With his accomplice Matilda, he is thrown into the dungeons of the Inquisition and charged with the horrid crimes of murder, rape and sorcery. Through torture a full confession is made by Matilda and both are condemned to the stake. Devoting herself to the Devil, Matilda obtains freedom and at the last moment Ambrosio also sells his soul to Lucifer on the condition of instant release (10). Accordingly he is borne to the wilds of the Sierra Morina, where the deceitful and mocking fiend reveals to him the bitter facts that Elvira whom he slaughtered was his mother, and Antonia whom he ravished and killed was his sister. As the condition of release has been fulfilled, nothing more will be granted by the Fiend who suddenly lets loose his grip, and the wretched monk is hurled down to the bottom of the abyss.

---

(9) The analogy between this incident and the corresponding situation in the story of *Santon Barsisa* is worth of note.

(10) cf. *infra*. Comparison between the two stories (The English and the Turkish).

«Santon Barsisa». «The first idea of this romance» says Lewis, «was suggested by the story of the Santon Barsisa, related in the *Guardian*. This story of the hermit Barsisa (7) was first published by Addison in No. 148 of the *Guardian*, August, 1713. Though it is brief and crude, «Santon Barsisa» is swift in movement and powerful in a way not unlike early versions of the Faust legend. The dialogues between the Devil and the Hermit are thoroughly dramatic; no mention has been made of the Devil at all, and the reader is as unprepared for his sudden stage entrance as is the Santon himself. An evil idea (to lie with his patient, the beautiful young maid) arises in Santon's mind, and quick as thought, the Devil, taking this opportunity whispers in his ear thus: «O Santon, do not let slip such a fortunate minute» (8). The Santon yields, commits one crime after another, is eventually detected and condemned to be hanged. On the scaffold he hears a whisper in his ear: «O Santon if you will worship me, I will extricate you out of this difficulty and transport you two thousand leagues from here, into a country where you shall be revered by men as much as you were before». «I am content», says Barsisa, «deliver me and I will worship thee». «Give me first a sign of adoration», replies the Devil; whereupon the Santon bows his head and says, «I give myself to you». The Devil then raising his voice, says, «O Barsisa, I am satisfied; I have obtained what I desired», and with these words, spitting in his face, he disappears, and the wretched Santon is hanged. This disappointment at the end on the part of Barsisa and Ambrosio the monk is typical of all bargains with the Devil from Doctor Faustus onwards.

To show how much Lewis' Gothic romance owed to this short Oriental tale, it is necessary to give a brief summary of the main incident in *The Monk*.

Ambrosio, the Monk, is Abbot of the Capuchins at Madrid, and revered throughout the city for his sanctity. The youngest novice of the house, Rosario, becomes a particular favourite with the Abbot, who one evening when they are together in the garden discovers to his horror and amazement that his companion is a woman. The lady declares herself to be Matilda de Villanegas, the daughter of a noble house, and passionately avows that she has for his dear love alone

---

(7) «Santon Barsisa» is one of the most interesting stories in *The Turkish Tales* which first appeared in English in 1708, 1714 and was later included in H. Weber's *Tales of the East* (1812)

(8) Citations are taken from the text quoted by Addison in *The Guardian* No. 148, August 1713.



The mysterious twilights of Medievalism invited eyes tired of the noonday glare of Augustan formalism. The natural had become familiar to monotony, hence men craved the supernatural and found satisfaction in the Oriental tale of terror and the Gothic romance. Medievalism, which formed an important aspect of Romanticism in all European countries also implied diabolism, since the Devil occupied a position of great importance in medieval arts and letters. Medieval legend and history have thus brought into literature magic potions, witches' sabbaths, devil-compacts, vampirism and many other aspects of Satanism.

In England, the Gothic school of fiction brought diabolism into vogue as far back as the last quarter of the eighteenth century. The leader in this field of horror-supernaturalism is, without question, Mathew Gregory Lewis, whose famous work *Ambrosio or the Monk* (4) (1796) was a masterpiece of the English School of Terror. By introducing diabolical machinery into the popular novel, Lewis created the so-called diabolical supernaturalism which in contrast to Mrs. Radcliffe's method, disdains all rational explanation (5). Lewis may be given credit for having introduced into modern fiction the theme and motif of the Devil. In *The Monk* the Devil incarnate is not brought in with an allegorical or satirical aim, but is the leading character; the mainspring of action. *The Monk* was Lewis's first literary achievement and proved to be his greatest work. It was very popular from the beginning and ran into several issues and new editions following on one another's heels (6).

In this Gothic romance, Lewis has amplified the character of the Turkish «Santon Barsisa» (whose story he knew from the *Guardian*) in a most masterly and impressive manner. The stranger passions are finely delineated and exemplified in the progress of artful temptation working on self-sufficient pride, supersition and lasciviousness.

#### **Santon Barsisa and The Monk :**

Among several sources of *The Monk* which the author acknowledges in the «Advertisement», predominance is given to the Oriental tale

---

(4) M.G. Lewis, *The Monk, A Romance*, 3 volumes, (1796)-Edition used is published in 1924 by Brentano's Ltd.

(5) cf. Sir W. Scott's views concerning the use of the supernatural; article in *P.M.L.A.*, March 1935, p. 235 f.

(6) A second edition was published in the same year (1796) and the third, fourth and fifth followed in 1797, 1798 and 1800.

## ORIENTAL BACKGROUND OF THE MONK

by M.G. Lewis and Its Impact On Horror Romantic Fiction  
In England during the Late Eighteenth Century

by

Dr. M. SAMIR ABDEL HAMID

*Asst Professor-Dept. of English-Ain Shams Univ.*

Because of the sway of rationalism, the supernatural scarcely ventured into the English novel of the first half of the eighteenth century. the supernatural horror in those weird narratives which exemplify the subtle fusion of the Oriental tale of terror and the Gothic romance.

Because of the sway of rationalism, the supernatural scarcely ventured into the English novel of the first half of the eighteenth century. Defoe's pamphlet, «A True Relation of the Apparition of one Mrs. Veal» (1706) is merely a vivid account of a current ghost story and an interesting attempt to rob the supernatural of all extraordinary and «romantic» qualities. Any innate desire for the «marvellous» was met at this period chiefly by oral tradition and by such works as Galland's translation of *The Arabian Nights* and similar collections of genuine and pseudo-oriental tales (1) ; collections of fairy tales ; and Charles Perrault's *Contes de Ma Mere l'Oye* (1729). Many essays in the periodical magazines indicate clearly the state of popular opinion. In one of the «Spectator» essays, Addison admits that he is strongly inclined to believe in the existence of spirits, though he repudiates the ridiculous superstitions which prevailed in his day, (2) Defoe, however, in the preface to his «Essay on the History and Reality of Apparitions» (1727) (Which appeared 21 years after Mrs. Veal's), declares uncompromisingly : «he that is not able to see the devil, in whatever shape he is pleased to appear in, he is not really qualified to live in this world, no, not in the quality of a common inhabitant» (3).

---

(1) e.g. *Turkish Tales* (1708). *Persian Tales* (1714) and *Mogul Tales* (1736).

(2) *The Spectator* (1711) No. 110.

(3) D. Defoe, *Novels and Miscellaneous Works of D. Defoe* (1840) Vol.13,p.x.



Spain, a nation between East and West, a country that although it belongs to the West is proud of her Oriental ancestry. The only European land that has treasured the best essences of the Arab soul and can therefore affirm that its friendly relations with the Muslim world are deep-rooted and everlasting. Spain, a country with European mind and Arab soul.

Alvaro and Abbot Sanson. Notwithstanding the Muslim civilization grows and the Christian decays. In the days of Abd-ar-Rahman III there are in Cordova only a few Christian intellectuals, who later on migrate to Northern Spain, attracted by the intellectual revival of Cluny in the XII century. Parallel to it, Mussulman learning fades away in Ali-Andalus from the XIII century onwards. Abul Baqa' Al-Waqqasi and Ibn Quzman are the last representatives of a folk fighting now not for literary supremacy but for physical survival. The Spanish language is born, the great medieval authors write their masterpieces, the Spaniards acquire slowly the sense of nationality and they do their best in order to bring the whole country under their rule.

### Summing Up

Spain has enjoyed the Oriental influence during many centuries but, I must reassert it, she never forgot her European roots. Present Spain is the result of this encounter and peaceful meeting of East and West. The Western world prevailed at the end but the Oriental traits are there and nobody can deny them. It is for this reason that Spain means a compromise between both cultures. She is the only European nation who can boast of an Oriental heritage without being indeed an Oriental country. In the days of Spanish hegemony in the world our historical destiny held us aloof from the Muslim world and sent us across the seas to create our own civilization in the Western hemisphere. Notwithstanding the Mussulman was never forgotten and the Spanish-speaking countries overseas have also got something from the Arabic essences of the Spanish soul. The mudéjar architecture, that of Muslim architects working in Christian Spain, could be the best exponent of this. Mudéjar, a style which you can find in America in the cathedral of Santo Domingo, in the house of Diego Colón, in Santo Domingo de Tunja, in San Francisco de Cartagena. Finally, let us remember there are big Syrian, Turkish and Libanese colonies in South America bringing together the Arab and Spanish ideals. The similarity between both of them has paved the way for cultural movements considered impossible one hundred years ago, for instance the revival of Arab poetry. Is it not surprising that some of the greatest Arab poets of this century were born in the Western Hemisphere ? Poets like Fawzi Maahuf and Al-Keraui born in Brazil, like Goubran Khalil Goubran and Mikhail Naima born in the U.S.A., like Ilias Qonsul born in Argentine. Ilias Qonsul is a bilingual poet writing both in Arabic and Spanish.

Muslim Cordova could boast of a cultural tradition several centuries old going back to Hosius, Seneca and Lucan. It flourished in Cordova the highest civilization of its time, its university was the chief centre of European learning, and Albucaais, Abenzoar, Ibn Hazm and Averroes were the chief scientific luminaries. Any way, I must repeat it, they were Spaniards who developed a Muslim culture just as centuries before another Spaniards had developed in the same place the Roman and Christian civilization. Spain was always an active, dynamic agent of Muslim learning. When the Spanish Muslims were compelled to leave the peninsula they tried to maintain alive their cultural tradition on African soil, but they having been deprived of their roots they did not succeed in the long run and brought forth a mimetic civilization, a constant repetition of the glories of Al-Andalus.

The interest for Muslim culture will on the other hand be kept alive by Christian Spaniards who travel through Africa and Asia and sometimes accept Islam. For instance, Leon de Granada, whose real name was Hassan Ibn Mohammed, born at Granada in 1491, author of a giant «Description of Africa» (11526) ; Luis de Mármol Carvajal, who lived 22 years in Africa, principally in Tunisia, author of a «General Description of Africa» (1573) ; Ali Bey el Abbasi, already referred to ; Hach Mohammed el Bagdadi (José Maria de Murga), and Sheikh Ismail (Joaquín Gatell).

I have pointed out the survival of Christian Spain inside Muslim Spain. This survival accelerated the Reconquest. The Christian kingdoms of North Spain kept a watchful eye on these follow-believers and tried to establish their rule over them. The Reconquest must therefore be considered as a roll-back, as a turn of the tide, as a civil war between both communities and not as an Spanish invasion of the Spanish fatherland. Codera has proved that many Latin languages and dialects were spoken in Al-Andalus, where Arabic was simply the official language. Latin was at the same time employed for literary and canonical purposes ; The Christians of the VIII-XI centuries could not of course create a civilization competing with that of Cordova. They lived on scanty books and had no libraries like that of al-Hakam II. Therefore the great writers of this period are Muslims like Algazal, Ibn Abd Rabbihi, Ibn Hani, Azzobaidi, Sa'id. It is the great age of «zejel» and «muwassaḥa». But the Christian tradition instead of dying away lives underground, in Cordova itself, thanks to the scholarship of men like Speraideo, Saint Eulogius, Paulo

## Arabic and European Civilization

Let us see Spain with European eyes. A German, a Briton, a Frenchman, a Scandinavian will tell you that Spain, considered as an European country, is a very queer one. They notice racial, spiritual, cultural differences we are not always aware of. These traits are the sequel of our Oriental past, specially of our Arab tradition. In our literature, our folklore there are many traces of this Eastern trend. Spanish chivalry and hospitality have Islamic roots. The Spanish language, on account of our Roman ancestors, remains a Latin language up to the present day ; she has, however, adopted many thousands Arabic and Persian words. The Spanish poetry uses strophes akin to the Arabic ones. Our early medieval poetry, as Dámaso Alonso says, has not Provençal but Muslim origins. Our oldest poems contain Arabic and Spanish words gracefully intermingled. In present Spain there are many towns and villages the holydays of which—the feasts of Moors and Christians—call up those happy days in which bigotry did not hinder a common life. There is still a Spanish village, Benamahoma (Cadiz), i.e. the town of Mohammed children, where the warlike show always ends with a Muslim victory.

Thousands of Spanish geographical names have an Arabic origin. This happens because Al-Andalus was not simply a reservoir of Islamic civilization but one of its chief centres. Muslim culture developed there nurtured by the Spaniards themselves, who fostered it with the same passion they put in the advancement of Roman culture. «Whatever can be done by sheer force of genius or the impulse of some ardent passion, whether in the physical or in the spiritual world, that a Spaniard has done», writes the British historian Havelock Ellis. The same author remembers that the old Iberians formed part of a great Mediterranean race which reached from Spain to Africa, where they may still be seen in their present form, by the ancient called Lybians, by the modern Kabyles and Berbers. A kinship that maintains itself due to the Carthaginian presence in Spain, that explained even in Roman days, the curious affinity between Africa and Spain in the resemblance in literary spirit between the Latin African writers and Spanish writers.

Spain remains today a compact, homogeneous people ; India is composed of peoples speaking many languages, belonging to many languages, belonging to many races, believing in many religions.

Spain can be proud of her Arabian heritage, she being true at the same time to her Christian tradition. The Muslim presence in the Peninsula enriched our spirit, changed it partially but it did not substantially modify a national genius which had had occasion for developing along original lines many centuries before the advent of Islamic civilization. Let us not forget that Roman Spain supplied the Roman Empire with philosophers, economists, writers, poets and emperors. Thus, my country had the obligation of maintaining a culture, a spirit that had moulded our mind since the arrival of Greece and Rome to our coasts. Christianity came with the Romans and it intended to stay. The Reconquest was started in 718, seven years after the Visigothic defeat, and the rolling back could not be prevented by the Mussulmans. It seems idle to speak of eight centuries of Muslim Spain. Forty per cent of the Iberian soil had been reconquered as early as 1065, at the death of Ferdinand I. The southernmost point of the Peninsula, Tarifa, fell in Christian hands in 1292. As a matter of fact Muslim Spain had been reduced to an enclave two centuries before the fall of Granada.

Please, bear also in mind that Christian Spain was not isolated from Europe. The European countries, Italy and France mainly, granted Christian Spain the cultural and spiritual support she barely needed for resisting the pressure of Islamic civilization that, as everybody knows, was paramount and better than our own during the first centuries of this confrontation. Roman tradition, Christian religion and European backing in this crucial period modelated Spain and made my country European for ever in spite of the Oriental marks and the spiritual ties with the American continent. Had Spain been forgotten like Albania, she would be today a different land. History decided thus and to ignore its lessons seems the best way for misunderstanding a nation. To overlook the permanent reality of Christian Spain amounts to forget the existence of Pharaonic or Ptolemaic Egypt. The vigorous personality of Egypt, if compared with that of other Muslim countries, has its roots in the historical grandeur before Islam. Nomadic peoples who never produced a great civilization possess a single cultural layer. This might be the case of the Eskimos but not that of Egypt and Spain.



I must reassert it. Spain is an European country though in a peculiar way having little in common with the Europeanism of Germany, Italy or France. Europe means for us something else. We are Europeans as well, mainly Europeans but not exclusively Europeans. Just as the Russians are European and Asiatic at the same time.

My country, due to her geographical situation lives inside a magic triangle : Europe, America and Africa. Not to understand this is the best way for misunderstanding Spain. The Frenchmen say «Africa begins at the Pyrenees». Well, Africa may begin at the Pyrenees. We are proud of it, we don't forget there are racial links between the Iberian and the Berber tribes since prehistoric times. In spite of it Spain differs from Africa just as Africa differs from Spain. I consider necessary to lay stress upon this reality, as Muslim historians went sometimes so far as to identify Mussulman Spain with Africa and the Orient. They wrote by the by pages of delicious candour about the Christian invaders of Al-Andalus. The Spanish arabist Isidro de las Cagigas has proved that only a few thousands Muslims have been necessary for conquering Visigothic Spain. Including the Almoravide and Almohade troops who came thereafter, the Arab and African soldiers occupying the Peninsula during the famous eight centuries never supposed the bulk of our population, only a small part of it. To put it in other words, the Spanish Muslims have been no foreigners but mainly Spaniards converted to Islam who formed a minority-a bright, a powerful one, of course-even in Spain. For this reason the Reconquest was actually a civil war between Christian and Muslim Spaniards. Islamic toleration permitted the existence of big Christian and Hebrew communities in Al-Andalus. Marriages between Christians and Muslims, military alliances between Christian and Muslim princes with a view to overrunning Muslim or Christian enemies have not been seldom but, as a matter of fact, the general law. The case of Muslim Spain bears a striking likeness to that of Muslim India, though there is a capital difference : Muslim power was destroyed in the subcontinent by European nations, not by the natives themselves as it happened in Spain. Therefore the outcome has been different :

The Holy Qur'an says in this connection : «And when the trumpet is blown there will be no kinship among them that day, nor will they ask of one another».

### Spain as a Western Country

Nobody should think I am trying to make amends for eventual errors in the past or pretending to show before your eyes the image of a Spain that could be an integral part of the Mussulman world. Were this the case, one would have to explain how it is possible that my country be a Roman Catholic one, that no Muslim minorities live there like in Bulgaria or Poland, not to speak of an overwhelming Muslim population like in Albania. Of course not. Spain remains a part of Europe. Spain began her career as a modern nation with the discovery of America, in 1492, i.e. the same year of the Granada surrender. Nations must undergo a physical growth in order to achieve historical maturity. Important are only the elements composing the national body. On the other hand Spain has absorbed Oriental elements during 25 centuries and they cannot be thought off, ignored, excluded without maiming the very framework of our soul. Nobody should, however, think these Oriental elements are the principal ones. To believe this is the usual error of some Arab historians, who mistake themselves and their readers by taking no account of our history as a whole, limiting their research to Muslim Spain. Why not to Greek, Carthaginian, Roman, Byzantine or Visigothic Spain ? I don't wish to criticise such an illustrious historian as Amr Ali but I cannot help to smile when I read these words printed in his famous «History of the Sarracens» : The Moors were banished ; for a while Christian Spain shone, like the moon, with a borrowed light ; then came the eclipse, and in that darkness Spain has grovelled ever since». The truth is just the opposite. After having achieved her national maturity in 1492, Spain rose during a couple of centuries to preeminence in Europe and throughout the world, attained her golden century. Her definitive political fall in 1898 has to be explained as the result of a hopeless struggle with rising European powers like Germany, Holland, France and Great Britain. Our downfall is logical due to the enormous task we took on our shoulders. The reasons for our decay should not be looked for in the existence or absence of Muslim communities in our country after 1492. Had Spain remained Muslim during those bright centuries, the European nations would not have spared her, just as they did not spare the Ottoman Empire, Persia, India or the Arab world.

Do not forget, please, that French and German intrigues with a view to conquering Morocco forced Spain, at the beginning of this century, to intervene there in order to avoid that another European power might establish itself in the neighbourhood of Southern Spain. For the same reasons when France conquered Mauritania we took the necessary steps for protecting the Canary Islands. Britain, for instance, has more than once tried to convert these two Spanish provinces into a British colony.

We are living today in a changing world, in a world where colonialism and imperialism are regarded as curses we cannot put up with. In this connection the Spaniards feel like all the Afroasian countries because we are still suffering under colonialism. We are sure of the final disappearance of colonialism but in any case nobody can overlook the historical and geographical fact that Spain and Africa are complementary parts of a whole. Summing up, it is convenient to remind oneself that Spain, as regards her policies towards the Oriental world, has been conquered before conquering herself the tiniest bit of land; that Spain has lived under Oriental influence 2500 years and only exerted her own influence during the last five centuries; that even in those bygone days when my country was a sea power in the Mediterranean she always fought a defensive war, never trying to rule over other peoples, though this might have been possible on several occasions. It is therefore correct to speak of Spanish political inhibition in the Mediterranean as well as of a continuous trend towards friendship and cultural intercourse with Arab countries.

Spain learned very much from the Muslims, adopted their culture and established blood ties with them. We are proud of our Arab past. We believe that this common origin secures the continuity of our friendly relations with the Arab world. This community of ideals and interests gives its special flavour to our spiritual presence in the Oriental world, though one must not forget that Spain is an European country and a Roman Catholic one. Our preference for the Arabic civilization has nothing to do with Imperial preferences or Imperial rights to be defended with warships, parachutists and airborne troops. It is the result of a common destiny. Kinships due to political domination, to a colonialist past, are doomed to disappear, to show their real face. Those who have to suffer under them will only be glad to see them in jeopardy, to free themselves from such «relatives».

like Sheikh Mohieddin Ibn Arabi, the Spanish mystic glory of Islam, and nobody knows whether he was really an agent of Madrid or a convinced Muslim who endeavoured to give Mussulman countries the independence from Ottoman supremacy they were bound to attain in this century.

The XIX century means the arrival of Imperialism, of European yoke over the Orient. It could have been the great Spanish opportunity for getting its share of flesh of the Turkish body. Notwithstanding Spain maintains her defensive position, as she has no political interests there. She assists at the gradual decay of Ottoman power without availing herself of the circumstances. (In the Middle Ages Spain did not take part in the Crusades). Spain retires from Algeria and cedes her historical rights to France. She fights unwillingly in Morocco and has to back Great Britain and France because these countries exert such an influence over our own home affairs that they can at any time overthrow all the Spanish governments. In 1860 the war with Morocco has to be organized as a means of unifying the Spanish political parties and the gains thereof are meagre. Its sole important consequence will be the introduction in Morocco of printing, electric power and railroads, a modernization carried out by Spain.

Up to the present day my country remains active in Africa. Africa does not mean for us a remote continent, as it lies 10 miles away from Spain, being therefore our neighbour, a neighbour we must live with. River Congo is broader than the Gibraltar Straights. It would be foolish to pretend we have no interests in Africa, just as it would be absurd to believe Turkey has no interests in Europe. I would like, however, to make it quite clear, in order to avoid misunderstandings, that the Spanish action in Africa has never had colonialistic purposes. We always spent lots of money there and got very little in exchange. Our chief aim was always to protect us and our African neighbours against third parties who could lay siege to Spain both from the North and the South. Our only imperialistic onrush in Africa was carried out in the years 1590—91 when an Army of Moroccans and of Spanish mercenaries crossed the Sahara and after a 3.200 kms march, from Marrakesch to Gao, conquered the Sudanese Empire of Askea Mohammed Gao. True, the commander-in-chief of this Army was also the Spanish Muslim Yuder but he acted on behalf of sultan Ahmed el-Mansur of Morocco. This is the origin of the imperialistic dreams of some Moroccans.

lecture at Zaragoza, by the fact that the French Prime Minister, M. Jules Ferry, denied in the year 1885 before the French Assembly that the Human Rights Declaration may have anything to do with Negroes.

The Spanish record is quite different. Surely Spain has been an Empire, too, which gave birth to twenty nations. This has not been, however, the case as regards the Orient. To begin with, Spain lived many centuries under Oriental influence. Phoenicians, Carthaginians, Byzantines, Arabs established themselves on Spanish soil, left there their culture and religion. One thousand years before Christ the Phoenicians founded their stronghold of Gades, the present Cadiz, cited in the Bible ; Hannibal marched across the Pyrenees in order to invade Italy commanding an army composed of Carthaginians and Spaniards, and after Carthago's fall Carthaginian civilization survived a couple of centuries in the Spanish island Ibiza. Later on, at the beginning of the VIII century, the Muslim conquest of Spain begins and the racial, cultural and religious symbiosis is consequently going to last till the XV century. The Muslim domination ends in 1492 but Christian Spain does not intend to avail herself of the circumstances with the purpose of bringing North Africa under her control. She tries just her best to secure the navigation lines across the Mediterranean by keeping some strongholds on the African coast. Spain is compelled to fight against European powers in Europe, America and the Pacific Ocean and wishes to live in peace with the rising Ottoman power, a wish that as a matter of fact seldom comes true. The innumerable watch-towers along the Spanish coast constructed for preventing Muslim sea inroads bear witness up to the present day of this defensive mentality. Spain, encouraged by the Papacy, destroys the Ottoman sea power at Lepanto on October 7, 1571, but this overwhelming victory hailed with jubilation throughout Europe will not be followed by the logical landing in Turkey. Really Spain has no imperialistic ambitions in the Orient and contents herself with a truce with the Turks that will mean their recovery, their survival until the First World War. Even the Moroccan onslaught against Ceuta in 1791, which ended with the defeat of sultan Muley Eliacit's army, did not prevent our king Charles IV of forbidding the activities of the Spanish adventurer Domingo Badia Ali Bay el Abbasi in the Muslim world-who had in the meantime succeeded in gaining support for his cause in Morocco, Algeria, Palestine, Syria and Arabia. Domingo Badia lies buried in Syria

## SPAIN BETWEEN EAST AND WEST (\*)

by

ANTONIO IGLESIAS LAGUNA

### Spain as an Eastern Country

Among all the European nations having ever built a bridge between Eastern and Western civilization, Spain is perhaps the country that better preserved the Oriental heritage. Much better than Greece, Rome or Byzantium, Greece absorbed much of the Oriental cultures of her age, specially in her origins, but she remained Greek, I mean European throughout the centuries. It is for this very reason that we, Europeans, talk about Greek culture and thought as the living source of our spiritual life. Rome, too, was imbibed of Oriental spirit but for the Romans the Orient consisted only of far-off provinces that had to be protected and raised to Roman standards of civilization. Greece formed the European mind. Byzantium should be considered as a kind of Christian bulwark able to resist the Asiatic onrush till 1453, in which year Constantinople was conquered by the Turks.

Lastly, the great powers of modern Europe—England and France—came to the Orient with a view to subduing it. Colonization, Imperialism were means for a political task which besides the political enslavement included the diffusion of European ideas and habits but not the opposite, though the total impermeability was impossible. Those countries were more interested in cheap raw materials than in cultural values. The antagonism brought about the jealousy between both of them. In Egypt, for instance, England and France clashed in Napoleonic times. The invasion of Syria proved to be of no avail and Napoleon had to return to France in August 1799, but this war only reflected the struggle for supremacy in the Middle East between both nations. Their colonial mentality is well illustrated, as Dr. Ahmad Anwar, Egyptian Ambassador in Madrid remembered in a

---

(\*) A paper read at the Faculty on 28 Nov. 1966 by Mr. Antonio Iglesias Laguna, Spanish writer and chief editor of «LA ESTAFETA LITERARIA», guest of Dr. S. Okasha, Deputy Prime Minister of Culture (U.A.R.)



# CONTENTS

## OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
<b>ANTONIO IGLESIAS LAGUNA :</b>	
Spain Between East and West ... ..	1
<b>M. SAMIR ABDEL HAMID :</b>	
Oriental Background of the Monk by M.G. Lewis and Its Impact On Horror Romantic Fiction In England during the Late Eighteenth Century ... ..	13
<b>EL-FAROUK YOUNIS :</b>	
Social Research and the Social Order Introduction to the Sociology of Social Research ... ..	29
<b>EL SAYED RAGAB HANBAZ :</b>	
Samuel Baker and the Southern Sudan ... ..	41
<b>FAYEZ ISKANDER :</b>	
Basic Problems of Creation and Reception Dealing On Modern English Verse Drama ... ..	81



**The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ;  
in May and December. All requests for copies should be  
made to the Cairo University Library Giza. Communi-  
cations regarding contributions should be addressed to the**

**Editor of the Bulletin Dr. Abd El-Latif Ibrahim  
Assist. Prof. Faculty of Arts, Giza, U.A.R.**

---

**Back numbers of this Bulletin are available  
at 30 P. T. for each Part**

**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXV—PART I**

**May 1963**

**CAIRO UNIVERSITY PRESS**

**1967**



**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXV—PART I**

**May 1963**

# مجلة كلية الآداب



المجلد الخامس والعشرون - الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٦٣

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦٨



# مجلة كلية الآداب



المجلد الخامس والعشرون - الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٦٣

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية  
مطبعة جامعة القاهرة  
١٩٦٨

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من  
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية  
الطلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب  
بجامعة القاهرة .

وتمن الجزء الواحد من أى مجلد ثلاثون قرشا مصريا



## فهرس القسم العربى

---

صفحة

- من الوثائق العربية فى العصور الوسطى : وثيقة استبسال للدكتور  
عبد اللطيف ابراهيم . . . . . ١
- ملاحظات فى تحقيق النص على عقد زواج للدكتور حسن على حسن الخلوه ٣٩
- الطرق الصوفية فى مصر للدكتور أبو الوفا الفنىمى التفتازانى . . . ٥٥
- فلسفة الشك واللاادرية لدى العربى والخيام للدكتور عبد القادر محمود ٨٥
- مدخل الى دراسة المناخ التفصيلى للدكتور يوسف عبد المجيد فايد . ١٤١



## من الوثائق العربية في العصور الوسطى :

### وثيقة استبدال

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم

استاذ الوثائق المساعد

هذه وثيقة استبدال من العصر الوسيط ( الاسلامي ) في مصر الجركسية ، ترجع إلى أوائل القرن العاشر الهجري - الخامس عشر الميلادي ، كنت قد وعدت بنشرها (١) منذ سنوات مضت .

والوثيقة مكتوبة على عشرة دروج من الورق الأوصال من كلا الوجهين ، مطوية من أسفل إلى أعلى على هيئة ملف ( roll ) ، ويبلغ طولها ٣٧١ مترا ، ويتراوح طول الدرج بين ٣٥٩ - ٣٧٦ سم ، وعرضه بين ٢٨١ - ٢٨٦ سم ، وعرض الهامش الأيمن بين ٨٢ - ١٠٢ سم ، ومن ثم فإن متوسط طول الدرج الواحد هو ٣٧١ سم ، ومتوسط عرضه هو ٢٨٥ سم ، ومتوسط عرض الهامش الأيمن هو ٩٧ سم (٢) .

ونجد على الدرج الأول من الملف القصة ( الالتباس أو طلب الاستبدال ) ملصقة على الجانب الأيمن منه ، وأبعاد هذه القصة ٢٣ × ١٤٤ سم ، وهي مكتوبة على ورق خشن المنس سميك نوعا ويضرب لونه إلى الاصفرار ، وهو أقل جودة من دروج الوثيقة نفسها ، وقد أصطلح على تسميته في بعض وثائق الاستبدال بالورق البلدي (٣) .

---

( ١ ) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة وقف مسرور بن عبد الله الشبل الجندار ( مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢١ جزء ٢ - ديسمبر سنة ١٩٥٩ ) ص ١٣٤ ، ١٣٥ حاشية ١١ .  
( ٢ ) أنظر الجدول الخامس بأبعاد كل درج وعدد سطوره في ص ١٠ من بحثنا هذا .  
( ٣ ) الفلقشنى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧ ، ج ٦ ص ١٩١ حيث نجد ذكرا لأنواع الورق المستعمل في مصر إبان العصر الوسيط ، أما الورق البلدي فقد ورد ذكره في وثائق الاستبدال على أنه الورق الذى تكتب عليه القصص .

والدرج الأول من الملف به آثار رطوبة واضحة ، كما نجد به تمزقا وبعض ثقب في الهامشين الأيمن والأيسر ، وقد أدى ذلك إلى ضياع بعض الكلمات والحروف أو زوال لون الحبر وبخاصة في القصة سطر ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٣ وفي نهاية بعض سطور الوثيقة نقصا مثل السطر رقم ٢ ، ٣ ، ٦ . والوثيقة بالرغم من ذلك كاملة وسليمة إلى حد كبير ومحفوظة حفظا جيدا .

وقد ورد في وجه الملف نص القصة وعدد سطورها ١٣ سطرا ، ووثيقة الاستبدال بتاريخ ١٨ رجب سنة ٩١٢ هـ وعدد سطورها ٧٦ سطرا ، ثم فصلى الجريان والأعذار وعدد سطورهما ٧٤٩ على التوالي ، أما في ظهر الملف فنجد الإشهاد الشرعى وهو الإسجال التوثيقي الحكيم بتاريخ ٢٠ رجب سنة ٩١٢ هـ وعدد سطور ٤٤ سطرا .

ولا يوجد على الدرج الأول لوجه الوثيقة سوى ثلاثة سطور فقط ، لأن القصة المصقفة عليه تحتل معظم المساحة ، أما بقية الدروج فيتراوح عدد السطور المدونة عليها بين ٨ - ١٠ سطور .

\* \* \*

وقد كتبت الوثيقة بحبر أسود به قدر من أكسيد الحديد ، بخط ديوانى هو قلم التوقيع المطلق<sup>(١)</sup> فيما عدا بعض الكلمات والعبارات ، وهى تلك التى كتبها قاضى القضاة - أو كبير الموثقين - الشيخ عبد البر بن الشحنة الحنفى بجوار القصة وعلى الهامش الأيمن لها ونصه :

« الشيخ غرس الدين المقرئ أعزه الله تعالى

ينظر فى ذلك بطريقه الشرعى »<sup>(٢)</sup>

(١) قلم التوقيع المطلق يكتب به فى قطع الثلث ، وهو إلى التقور أميل منه إلى البسط ، وفى سطور تقوير ما على نسبة تقور حروفه كما يقول ابن الصائغ . الفلشندي : نفس المصدر ج ٣

ص ٥٥ ، ٥٨ ، ١٠٠ - ١٠٢

(٢) أنظر الوحة رقم ١

أو ما كتبه نائبه القاضي الموثق لهذه الوثيقة ، وهو الشيخ غرس الدين أبو الجود خليل الإمام المقرئ الخنفى فى وجه الوثيقة مثل كلمة « ليمجل » على الهامش الأيمن للوثيقة أمام سطر ٣ - ٤ ، والتصديق على شهادة الشاهدين سطر ٧٥ ، وفى نهاية فصل الجريان سطر ٨ ، ٩ وفصل الأعدار سطر ٦ ، ٧ وكذلك فى ظهر الوثيقة حيث كتب بخط يده ما يلى :

١ — علامته : وهى « الحمد لله على كل حال » سطر ١

ب — التاريخ : وهو « العشرين من شهر رجب الفرد الحرام » سطر ٩

ج — الحسيلة : وهى « وحسبنا الله ونعم الوكيل » سطر ٣٥

وبما لا شك فيه أن كاتب نص وثيقة الاستبدال فى وجه الملف ، والاسجال التوثيقى الحكيمى فى ظاهرها شخص واحد هو عبد العزيز بن عمر الجمانوتى ، وهو الشاهد العدل على الفعل القانونى فى الوجه سطر ٧٤ ، وعلى الفعل التوثيقى فى الظهر سطر ٣٩ فى آن واحد .

\* \* \*

أما طريقة إخراج وكتابة الوثيقة باطنا وظاهرا - على حد مصطلح كتاب الوثائق العربية فى العصور الوسطى - فهى لا تختلف عما كان متبعاً فى الوثائق الدبلوماسية الخاصة بإبان عصر المماليك الجراكسة فى مصر بصفة عامة من حيث الهوامش ، والمسافات بين السطور ، وكتابة النص تباعاً وغير ذلك ، وهى الطريقة التى سار عليها كتاب الوثائق فى القاهرة ، وعلى نسقها سار كاتب هذه الوثيقة الذى درج على إهمال المهمزات والشكل إهمالا تاما ، أنظر لفظ العلماء سطر ٦ ، ١١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، فضلا سطر ٢٦ ، ٤٠ ، وكذلك أبدل الكاتب المهمزة اللينة فى أواسط الكلمات ياء مثل الزوايد والقوايد سطر ٩ ، وسائر سطر ١٣ ، الوظائف سطر ١٥ ، ٦ فى ظهر الوثيقة ، صحافيه سطر ١٧ ، شايها سطر ٣٣ ، مسيولا وشرايطه سطر ٢٨ فى ظهر الوثيقة ، وغيرها من الألفاظ والكلمات ، كما كتبت كلمة حسبا هكذا « حسب ما » سطر ٣٧ ، ٤١ ، ٤٩ فى مقطعين منفصلين .

وقد استغل كاتب الوثيقة الهامش الأيمن لوجه الملف ودون عليه هذين النصين :

اولهما : نص ورد فيما بين سطر ١٠ - ١٧ ، يفيد انتقال ملك العين المستبدلة بطريق البيع من الزبني رمضان (المستبدل) إلى ملك السيقي طراباي (المشتري) أمير رأس نوبة النواب الملكى الأشرفى جاريخ ٢٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ .

ثانيهما : نص ورد فيما بين سطر ١٧ - ٢١ ، يفيد وقف السيقي طراباي للعين المذكورة على أولاده ثم من بعدهم على من عينه في كتاب وقفه المسطر بذيل مکتوب وقفه الكبير المؤرخ فى ١٥ شعبان سنة ٩١٥ هـ (١) .

ومن حيث طريقة اخراج هذه الوثيقة كذلك ، فقد ورد فى نهاية الوجه نصان أحدهما خاص بالجريان والثاني بالاعذار - وقليلًا ما يحدث هذا ، إذ ان المتبع فى طريقة اخراج وثائق ذلك العصر كتابة مثل هذه النصوص على الهامش الأيمن وهو ربع عرض الدرج ، تبعًا لما درج عليه الكتاب المعتبرين ، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون (٢) .

أما النصان المذكوران فهما :

١ - فصل الجريان : (٩ سطور) الخاص بالعهادة على جريان العين المستبدلة فى وقف المبذل الشرقى يونس وفى استحقاقه وتحت نظره إلى حين صدور هذا الاستبدال فى ١٨ رجب ٩١٢ هـ .

٢ - فصل الاعذار : (٧ سطور) الذى اشهد فيه المتصرفان على نفسيهما أنهما لا دافع لهما ولا مطعن فى جميع ما تضمنته مکتوب (وثيقة) الاستبدال ولا فيمن شهد فيه ، ولا فيما شهد به فيه ولا فى شيء من ذلك .

---

(١) قمنا بالبحث عن وثيقتي السيقي طراباي المذكورتين (البيع والوقف) ولكننا لم نلثر عليهما فيما بين أيدينا من وثائق تلك الفترة فى المحفوظات التاريخية بالقاهرة ، وهذا وتوجد السيقي طراباي عبدة وثائق فى أرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة هي :

- ١ - وثيقة بيع بتاريخ ١٩ رمضان ٩١٠ هـ رقم ٢٤٨ محفظة ٣٩
  - ٢ - وثيقة بيع بتاريخ ٨ ربيع آخر ٩١٢ هـ رقم ٢٥٧ محفظة ٤٠
  - ٣ - وثيقة بيع بتاريخ ٢٦ ربيع آخر ٩١٢ هـ رقم ٢٥٨ محفظة ٤٠
  - ٤ - وثيقة بيع ووقف بتاريخ ١٢ جاد الثاني ٩١٢ هـ ٩ رجب ٩١٤ هـ رقم ٢٦٥ محفظة ٤١
- (٢) الفلشنسى : صبح الأمل ٦ ص ١٩٥ ، ج ٩ ص ٣٣٣ - ٣٣٥

### دراسة في مراحل انشاء وثيقة الاستبدال :

وهذه الوثيقة التي بين أيدينا تعتبر مثلاً لطريقة إخراج بعض وثائق الاستبدال التي وصلتنا من ذلك العصر ، وتوضح لنا المراحل التي مرت بها عند انشائها - أعني مراحل تدوين وثيقة الاستبدال وتحريها بعد أن صدرت إرادة المبدل (الفعل القانوني) بالاستبدال .

ومن دراستنا لهذه الوثيقة وغيرها من وثائق الاستبدال يمكن أن نخرج بنتائج جديدة تسهم في بناء علم الوثائق العربية - الذي لا يد قبل الكتابة فيه من دراسة كتب المصطلح الوثائقي دراسة تحليلية نقدية مقارنة ، ونشر أعداد كبير من الوثائق التي وصلتنا على اختلاف أنواعها - لأنها توضح لنا الخطوات والمراحل التي تمر بها وثيقة الاستبدال عند تحريرها بعد أن مرت بمرحلة الإرادة أو الفعل القانوني - وهي سابقة على تدوين الوثيقة كما هو معروف - وهذه المراحل هي :

أولاً : يقوم الواقف أو الناظر على الوقف أو المستحق لريعه برفع قصة - في حالة إرادته الاستبدال - إلى قاضي القضاة ( كبير الموثقين ) يلتمس أو يطلب فيها أذنه الكريم لأحد نوابه في الحكم ( القاضي الموثق ) بالنظر في ذلك ، والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف <sup>(١)</sup> ، أي أن المبدل يطلب تأييد طلبه أو التوصية بالتامسه واتخاذ الخطوات القانونية اللازمة .

ثانياً : تعرض القصة على قاضي القضاة الذي يقوم بإحالتها إلى أحد نوابه أو مساعديه من نفس مذهبه ( خليفة الحكم العزيز ) - ويكتب على يمين القصة أو على الهامش الأيمن للدرج المصقفة عليه ما يفيد ذلك <sup>(٢)</sup> - لينظر في ذلك بالطريق الشرعي .

( ١ ) أنظر القصة بسطر ١١ ، ١٢ - وكلنت القصة تكتب على قطعة من الورق ، وتلصق على الدرج الأول في وجه الملف كما هو الحال في هذه الوثيقة ، أو تكتب مباشرة على وجه الدرج الأول نفسه أو في بدايته وخاصة أرحالة وثائق الاستبدال المكتوبة على دروج من الرقوق المخيطة كما اتضح لنا من دراسة كثير من وثائق الاستبدال . وقد ثبت لنا كذلك من الدراسة الباليوجرافية المقارنة - لعدد من وثائق الاستبدال - بين الخط الذي كتبت به القصص وخط الوثائق نفسها ، أن الكاتب في الحالتين شخص واحد في أغلب الأحوال .

( ٢ ) جرى المصطلح الوثائقي على القول بأن قاضي القضاة « يتوج هامشها بخطه الكريم » الوثيقة

ثالثاً : عندما تعرض القصة على القاضى الموثق الذى عينت عليه ، كان يتأملها تأملاً شافياً ويقف عليها وقوفاً وافياً<sup>(١)</sup>، ولكن يتأكد من أن التصرف (الاستبدال) صحيح وشرعى ، كان يتحتم عليه قبل الأمر بكتابة وثيقة الاستبدال - الرجوع إلى وثيقة الوقف ذاتها ، فيطلب مكتوب أو وثيقة الوقف من رافع القصة<sup>(٢)</sup> أو المبدل باعتبارها مستندة في ذلك وليثبت بنفسه من ثلاثة أمور قبل الاذن بالاستبدال - وهى :

١ — أن العين المطلوب استبدالها في القصة المرفوعة من المبدل ، قد ورد ذكرها فعلاً في وثيقة الوقف ضمن ما وقفه الواقف<sup>(٣)</sup> .

٢ — أن شرط الاستبدال قد ورد ضمن شروط الواقف صراحة في وثيقة وقفه<sup>(٤)</sup> .

٣ — أن التصرف القانونى الوارد في وثيقة الوقف ثابت صحيح محكوم به في الشرع الشريف<sup>(٥)</sup> .

رابعاً : مرحلة الأمر أو الاذن من القاضى الموثق بكتابة أو تدوين نص وثيقة الاستبدال - بناء على طلب المبدل - في وجه الملف أو باطنه ( Recto ) وما يتبع ذلك من كتابة النص التوثيقي ( الاسجال الحكيمى ) في ظاهره ( Verso ) وذلك بعد أن يكون الطلب أو الالتماس ( القصة ) الذى قدمه أو رفعه المبدل قد حصل على موافقة القاضى الموثق من كافة النواحي القانونية .

وقد تمر الوثيقة بمرحلة المسودة ( الشكل الأول أو التمهيدي ) ثم تأتى بعد ذلك مرحلة المبيضة أو تحريرها في شكلها النهائى ، وما يتبع ذلك من شهادة الشهود على الفعل القانونى وتوقيعاتهم وتأشيرات القاضى الموثق في وجه الوثيقة .

( ١ ) الوثيقة سطر ٢٥ ، ٢٧ - ٢٨

( ٢ ) الوثيقة سطر ٢٨ - ٢٩

( ٣ ) الوثيقة سطر ٣٢ - ٣٥

( ٤ ) الوثيقة سطر ٣٧

( ٥ ) الوثيقة سطر ٣٩ - ٤٢ وظهر الوثيقة ٢٩ - ٣٢



أما في ظهر الوثيقة فنجد الاسجـال الحـكمى وعلامة الغاضى الموقـق (المـحدلة) -  
وهى بمثابة التوقيع أو الختم - والتاريخ والحـسبلة بخط يده ، ثم شهادة الشهود على  
الفعل التوثيقى .

ونود ان نشير هنا إلى أن الأمر أو الاذن بالاستبدال لم يرد مدونا فى هذه  
الوثيقة كما لا حظنا فى غيرها من وثائق الاستبدال .

وجدير بالملاحظة أن هذه لوثيقة التى ندرسها قد مرت بالمراحل الاساسية التالية  
عند إنشائها وتدوينها وهى :

( ١ ) مرحلة طلب الاستبدال أو كتابة القصة الملصقة على الدرج الأول وما  
يتبعها من اجراءات .

( ب ) مرحلة كتابة نص وثيقة الاستبدال فى وجه الملف ، وما يتعلق بها مثل  
فصلى الجريان والاعذار .

( ح ) مرحلة كتابة الاشهاد أو الاسجـال التوثيقى الحكمى فى ظهر الملف .

ولكن هذه الوثيقة موضوع الدراسة ، أغفلت تدوين مرحلتين من المراحل  
التى تمر بها بعض وثائق الاستبدال عند إنشائها ، فقد وصات إلينا وثائق استبدال  
أخرى أكثر كـملا ، لأنها تحوى المراحل الثلاثة الواردة فى هذه الوثيقة بالإضافة إلى  
مرحتين أساسيتين هما :

١ - محضر الكشف على العين موضوع التصرف ( المستبدلة ) بواسطة  
المهندسين .

٢ - الإذن بالاستبدال من الغاضى الموقـق .

أما محضر الكشف فإنه يكتب عادة فى وجه الملف بعد القصة مباشرة بناء على  
طلب الغاضى الموقـق الذى عينت عليه القصة وبإذن منه للمهندسين من أرباب الخبرة  
بالعقارات وعيوبها والأراضى وذرعها - على حد قول بعض تلك الوثائق - لـكى

يبدوا رأيهم القنى فى حالة العين الموقوفة والمطلوب استبدالها<sup>(١)</sup> ، وإذا ما أقر المهندسون ذلك وشهدوا لدى القاضى - بعد الكشف على العين - بأنها متهدمة مثلاً أو قدم بناؤها أو قل ريعها سبب أو لآخر ، صدر الإذن بالاستبدال من القاضى الموثق ، ويرد نص الإذن بالاستبدال عادة فى بداية ظهر الملف ، ويبدأ غالباً بعبارة نصها : « أذنت فى ذلك على الوجه الشرعى » بقلم جليل بخط القاضى الموثق نفسه . وفى هذه الحالة - التى نجد فيها محضر الكشف ، والإذن بالاستبدال - فإن وثيقة الاستبدال نفسها كانت تكتب على الهامش الأيمن للدروج فى وجه الملف أو بعد محضر الكشف كنص قائم بذاته إذا ما وجد يياض فى بقية الدروج . وأخيراً نجد فى ظهر الملف - آخر مرحلة من مراحل إنشاء وثيقة الاستبدال - الاسجالت التوثيقى الحكيمى .



وبعد - فإن وثيقة الاستبدال فى ذلك العصر كانت تمر بخمس مراحل عند انشائها أو تدوينها وهى تتمثل فيما يلى (٢) :

١ - القصص أو الالتماس أو طلب الاستبدال وكانت تكتب أو تلتصق على الدرج الأول فى وجه الملف .

٢ - محضر الكشف ويكتب على دروج الوثيقة فى وجه الملف .

٣ - الإذن بالاستبدال ويكتب فى بداية ظهر الملف .

٤ - وثيقة الاستبدال وتكتب على الهامش الأيمن غالباً فى وجه الملف .

٥ - الاسجالت الحكيمى ويكتب على دروج الوثيقة فى ظهر الملف .

(١) إلى مثل هذا تشير كثير من وثائق الاستبدال - أنظر وثيقة استبدال محمد بن قنرى برمشى بحكمة رقم ٣٦١ محفظة ٤١ بتاريخ ٢١ رمضان ٩١٢ هـ التى ورد فيها ما نصه : « . . . وقد كشف المهندسون المتوبون لكشف المكان المذكور وتقويمه من بين يلى سيدنا الحاكم المشار اليه . . . وشاهدوه وأحاطوا به علماً وخبرة نافعين للجهالة وأقاموا شهادتهم لدى الحاكم المشار اليه فيه مسيرين فى ذلك بعد الكشف التام طو جلوه قد قدم بناؤه وقل ريعه . . . »

وأنظر كذلك وثيقة استبدال السيى مصر باى بن عبد الله بحكمة رقم ٧٤٩ محفظة ٣٩ بتاريخ ١٢ ذى القعدة ٩١٠ هـ حيث جاء فيها النص التالى : « . . . وهما من الملمين المهتمين العارفين بالمقاربات وقيمتهما والابنية وعيرهما والأراضى وذرعها والأماكن وخططها . . . »

(٢) أنظر وثائق الاستبدال رقم ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٣٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٦٨٤ فى مجموعة الوثائق التى اكتشفت أخيراً فى الأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف بالقاهرة والتى عهد البنا بدراستها .

## فهرسة الوثيقة :

مكان الوثيقة :	الأرشيف التاريخي بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .
رقم الوثيقة :	٢٥٩
رقم المحفظة :	٤٠
مادة الكتابة :	ورق
شكل الوثيقة :	ملف ( Roll )
عدد الدروج :	١٠
متوسط أبعاد الدرج :	٣٧١ × ٢٨٥ سم
نوع التصرف :	خاص

موضوع وتاريخ التصرف : استبدال بتاريخ ١٨ رجب ٩١٢ هـ .

الصين وموقعها : جميع الحصة التي قدرها نصف عشر وهي حصة كاملة شائعة في جميع أراضي ناحية سرو بجبا بالدقهلية .

التصرف : ١ - المستبدل : الصدر الأجل المحترم الحاج زين الدين رمضان بن المجلس المرحوم السيدي طوغان الزيني .

٢ - المبدل : الجناب العالي الأميري الكبير السيدي المالكي المحدثي الشرفي يونس بن المقر المرحوم السيدي طوخ من تمر، وهورافع القصة والواقف والناتظر على وقته والمستحق أربعة بقرده في آن واحد .

الاشهاد التوثيقي وتاريخه : اسجل حكمي بتاريخ ٢٠ رجب ٩١٢ هـ

القاضي الموفق : الشيخ غرس الدين ابو الجود خليل بن ابي عبد الله محمد الامام المقرئ الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ونائب كبير الموقنين وقاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة الحنفى .

« جدول بيان أبعاد كل درج من دروج الوثيقة وعدد سطوره »

رقم الدرّج	طول الدرّج	متوسط عرض الدرّج	متوسط عرض الحاشئ الأيمن	عدد السطور في كل درّج
١	٣٧,٣	٢٨,٢	٨,٢	٣
٢	٣٧,٥	٢٨,٣	٨,٥	٩
٣	٣٧,٤	٢٨,٢	٩,٤	٨
٤	٣٧,٦	٢٨,٦	١٠,٢	١٠
٥	٣٧,٥	٢٨,٥	١٠,١	٩
٦	٣٦,٤	٢٨,٤	١٠	١٠
٧	٣٥,٩	٢٨,٢	٩,٨	٩
٨	٣٧,٢	٢٨,٣	٩,٣	٩
٩	٣٧	٢٨,٦	٩	١١
١٠	٣٧,٥	٢٨,٦	٩,٦	١٦

أولا : وجه الوثيقة :

(١) القصة :

- ١ - بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي<sup>(١)</sup>
- ٢ - الملوكة<sup>(٢)</sup>
- ٣ - يونس بن طوخ<sup>(٣)</sup>
- ٤ - يقبل الأرض<sup>(٤)</sup> بين يدي سيدنا ومولانا قاضي القضاة<sup>(٥)</sup> [شيخ]<sup>(٦)</sup>
- ٥ - الاسلام أمتع الله تعالى بطول حياته الأنام وينهى<sup>(٧)</sup> أن من الجارى
- ٦ - في وقفه على نفسه وتحت نظره ( وفي استحقاقه بمفرده
- ٧ - جميع حصّة كاملة قدرها نصف [ع] شر باراضى ناحية سرو بمججا<sup>(٨)</sup>
- ٨ - بالدقيلية وشرط لنفسه في وقفه الزيادة والتقصان
- ٩ - والاستبدال<sup>(٩)</sup> وبدا له ان يستبدل ذلك بما هو أنفع لجهة
- ١٠ - الوقف<sup>(١٠)</sup> من ذلك ويوقف على حكم شرط وقفه وسواله من
- ١١ - الصدقات العميمة اذن كريم لاحد السادة النواب في الحكم
- ١٢ - العزيز بالنظر في ذلك والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف
- ١٣ - [أنه] فى ذلك والحمد لله وحده<sup>(١١)</sup>

الشيخ غرس الدين المقرئ آخره الله تعالى  
ينظر في ذلك بطريقه الشري

• ترجع زيادة عدد السطور في هذا الدرّج إلى كتابة فصل الجريان والاحذار عليه (أنظر اوحة رقم ٧)  
بطريقة تختلف عن كتابة متن الوثيقة نفسها من حيث ضيق المسافات بين السطور .

( ب ) الوثيقة :

- ١ بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
- ٢ هذا مكتوب (١٣) استبدال شرعى معتبر محرر مرعى مضمونه انه لم [أ]
- ٣ رفع لسيدنا ومولانا (١٤) العبد الفقير (١٥) إلى الله تعالى الشيخ (١٦) الامام (١٧) العالم (١٨) للعامل (١٩) العلامة (٢٠) الحبر (٢١) البحر القه [أمة]
- ٤ المحدث (٢٢) الحافظ (٢٣) العمدة (٢٤) المحقق (٢٥) المدقق (٢٦) الرحلة (٢٧) المجتهد (٢٨) الأوحد (٢٩) الامة المحرر المتقن الحجة (٣٠) الخاشع (٣١) الناسك (٣٢) القدوة (٣٤) الورع الزاهد الصالح العابد قاضى القضاة (٣٥) شيخ الاسلام (٣٦) مفتى الأنام (٣٧) محقق
- ٦ القضايا والأحكام (٣٨) ملك العلماء الاعلام (٣٩) حسنة الليالى والايام (٤٠) صدور مصر والحجاز والعراق
- ٧ والشام (٤١) سرى الدين لسان المتكلمين (٤٢) حجة المناظرين (٤٣) منعم المجادلين (٤٤) رحلة الطالبين (٤٥) عمدة المحققين (٤٦)
- ٨ بقية المجتهدين (٤٧) سلطان الفقهاء والأصوليين (٤٨) كنز النجاة والمعربين (٤٩) قدوه السالكين لازال
- ٩ علم علمه منصوباً ابداً وثنا مجده مرفوعاً بخفض العدا مستخرج الزوايد من بحار القوايد
- ١٠ مشيد القواعد باقتناص الاوابد امام النقلة والمفسرين (٥٠) حجة الحفاظ والمحدثين (٥١) (٥)

يوجد على الماشى الأيمن للوثيقة بين السطر ١٠ - ١٧ النص التالى :

١ - الحمد لله وحده

٢ - انتقل ملك جميع الحصص التى قدرها نصف عشر بأراضى ناحيتى وبجبا المحددة المينة فى ملك الزينى رمضان المستبدل المذكور فيه

٣ - الى ملك مولانا المقر الاشرف الكرم العالى المولوى الاميرى الكبيرى السيلوى المالكى الخفوى السيلوى طراباى أمير راس نوبة التواب الملكى الاشرفى اعز الله انصاره انتقالا

- ١١ مرجع الحساب والقرضين (٥٣) سيويه زمانه فريد عصره واوانه (٥٣)  
قاضي المسلمين (٥٤) سلالة العلبا
- ١٢ العالمين (٥٥) قانع المبتدعين (٥٦) محي سنة سيد المرسلين (٥٧) خالصة مولانا  
امير المومنين (٥٨) ابي البركات
- ١٣ عبد البر ابن الصحنة الحنفى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية  
وساير الممالك
- ١٤ الشريعة الإسلامية وشيخ الفيوخ (٦١) بالغانقاة الشيخونية (٦٢) كايه  
وجده (٦٣) وما اضيف لذلك من
- ١٥ الوظائف الدينية والانظار الحكيمة ادام (٦٤) الله ايامه الزاهدة وجمع له بين  
خيرى الدنيا
- ١٦ والاخرة وانفذ اقصيته واعز احكامه وختم بالصالحات اعماله واحواله
- ١٧ واحسن اليه واسبغ نعمه فى الدارين عليه وملا من الخيرات صحايفه  
ويديه (٦٥) القصة (٦٦) الملصقة باعاله التى مضمونها \*

== ٤ - شرعيا بتبايع شرعى مسطر بالرقوق المحيط بعضها على بعض موافق لتاريخه ولشهوده بتاريخ  
سابع عشر شهر رمضان المعظم قدره وحرره سنة اربعة عشر وثمانماية .

٥ - شهد فى اصله  
٦ - محمد بن حجاج الأزهرى  
عمر بن حجاج الخافوق

٥ - يوجد على الحامش الأيمن بين سطر ١٧ - ٢١ النص التالى

١ - الحمد لله رب العالمين

٢ - صارت جميع الحصة التى قدرها

٣ - نصف عشر من اراضى ناحية سروجيجا المهدود

٤ - كاملها فيه تلقا شرعيا من جملة

٥ - اوقاف مولانا المقر الأشرف الكريم العالى

٦ - المولوى الأميرى الكبيرى المهدوى السبقى طراباى

٧ - راس توبة التوب بالديار المصرية المشار اليه اعلاه

٨ - بالفصل المسطر اعلاه بمقتضى انه وقف ذلك

٩ - على اولاده ثم من بعدهم على من عيه فى كتاب وقته

١٠ - المسطر بذيلى مكتوب وقفه الكبير المورخ بالحامش عشر

==

- ١٨ بعد البسملة الشريفه المملوك يونس بن طوخ يقبل الارض بين يدي سيدنا  
ومولانا قاضي القضاة شيخ
- ١٩ الاسلام امتع الله تعالى بطول حياته الانام وينهى ان من الجارى في وقفه  
على نفسه وتحت نظره وفي
- ٢٠ استحقاقه بمفرده جميع حصه كامله قدرها نصف عشر اراضي ناحيه سرو  
بمجا بالدقهلية
- ٢١ وشرط لنفسه في وقفه الزيادة والتقصان والاستبدال وبدى له ان يستبدل  
ذلك بما هو
- ٢٢ اتفق لجهة الوقف من ذلك ويوقف على حكم شرط وقفه وسواله من  
الصدقات العميمة اذن كريم
- ٢٣ لاحد الساده النواب في الحكم العزيز بالنظر في ذلك والعمل بما يقتضيه  
الشرع الشريف انهى ذلك
- ٢٤ والحمد لله وحده وتوج هامشها بخطه الكريم اعلاه الله تعالى ما قرانه  
الشيخ غرس الدين المقرئ اعزه الله تعالى
- ٢٥ ينظر في ذلك بطريقه الشرعى وعرضت القصه المذكورة على من عينت  
عليه وهو سيدنا العبد الفقير
- ٢٦ الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة غرس الدين شرف العلماء اوحد  
الفضلاء مفتى المسلمين ابو الجود خليل
- ٢٧ الامام المقرئ الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ابد الله تعالى  
احكامه واحسن اليه فتاملها تاملًا شافيًا

== ١١ من شعبان المكرم سنة خمسة عشر وتسعمائة وثبت وحكم به

١٢ بالشرع الشريف بموافقة تاريخه وشهوده وحسبنا الله ونعم الوكيل

١٣ شهد في اصله بذلك شهد في اصله بذلك

١٤ محمد بن ابراهيم التتاي صالح بن علي الاطفيحي الشافعي

- ٢٨ ووقف عليها وقوفا وافيا وطلب سيدنا الشيخ غرس الدين الحاكم المشار اليه اعلاه من الجتاب الشرفي يونس رافع
- ٢٩ القصة (٦٨) الملتصقة باعاله مكتوب وقفه (٦٩) الشاهد له بذلك فاحضر مكتوب رقوق غيظ (٧٠) بعضها على
- ٣٠ بعض من مضمونه بعد البسملة الشريفة اشهد عليه الجتاب العالى الشرفي يونس بن المقر المرحوم السيف طوخ
- ٣١ من تمرزاه مجلس والده كان شهوده الاشهاد الشرعى في صحته وسلامته (٧١) انه وقف جمع ابنة وحصص
- ٣٢ ومن جملة ذلك جميع (٧٢) الحصاة المعينة بالقصة الملتصقة اعلاه التى قدرها نصف عشر وهى حصاة كاملة
- ٣٣ شايها (٧٣) ذلك في جميع اراضى ناحية سرو بججا بالدقهلية ولكامل الناحية المذكورة حدود اربع القبلى
- ٣٤ ينتهى الى (٧٤) اراضى ناحية منية ابى عبد الله والبحرى ينتهى الى اراضى ناحية شرباص والشرقى
- ٣٥ ينتهى الى بحيرة برنال والغربى ينتهى الى الخور الفاصل بين هذه الحصاة وبين حصاة الجزيرة الذى شرط لنفسه
- ٣٦ فى مكتوب وقفه المنبه عليه اعلاه شروطا منها انه شرط لنفسه الزيادة والنقصان والادخال
- ٣٧ والاخراج والتغيير والتبديل (٧٥) ومنها انه شرط لنفسه ان يستبدل ذلك حسب ما ذلك مشروح بمكتوب
- ٣٨ وقفه المذكور المورخ المكتوب المذكور بالخامس عشر من شوال المباركة سنة احدى وثمانين وثمان مائة (٧٦)
- ٣٩ الثابت المحكوم به بالشرع الشريف لدى سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ بدر الدين شرف العسا



٤٠. اوجد الفضلا مفتي المسلمين ابي الفضل محمد بن الشيخ تقي الدين بركة المسلمين بقية السلف الصالحين ابو الخير محمد
٤١. سبط النوري الحنفي خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان حسب ما يشهد بذلك
٤٢. اسجلاه الكريم المسطر بظاهره المورخ بخطه الكريم بالسابع من ذى الحجة الحرام سنة احدى وثمانين وثمان مائه
٤٣. واقتضى رأى الجنا ب الشرفى يونس الواقف المشار اليه اعلاه ان يستبدل ذلك فمقتضى ذلك استبدل الصدر
٤٤. الاجل المحترم الحاج زين الدين رمضان (٧٧) بن المجلس المرحوم السيئى طوغان الزينى حفظه الله تعالى بماله لنفسه من
٤٥. الجنا ب العالى الاميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى الشرفى يونس بن المقر المرحوم السيئى طوخ من تمر لزامه مجلس
٤٦. والده بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان واعز جنا ب ولده المشار اليه اعلاه
٤٧. جميع الحصص التى قدرها نصف عشر ومى حصص كاملة المعينة اعلاه الجارية
٤٨. الحصص المستبدلة المعينة اعلاه فى وقف الجنا ب الشرفى يونس المشار اليه اعلاه وفى استحقاقه
٤٩. وتحت نظره الى حين صدور هذا الاستبدال حسب ما يشهد له بذلك المكتوب المذكور اعلاه
٥٠. المخصوص فيه بقيقه هذا الاستبدال بهامشه الخصم الشرعى (٧٨) الموافق لتاريخه ولشهوده ومن سيوضع
٥١. اسمه بالتفصيل (٩٩) الذى سيسطر فيه المعلوم ذلك عند المستبدلين المشار اليهما اعلاه
٥٢. العلم الشرعى النافى للجهالة (٨٠) شرعا استبدالا صحيحا شرعيا بمبلغ (٨١) جلته من الذهب
٥٣. الاشرفى والظاهرى (٨٢) الطيب الوازن السالم من عيب مثله معاملة تاريخه بالديار

- ٥٤ المصرية الف دينار ومائة دينار [ و ] احد وستون ديناراً ومن الفضة  
 ٥٥ العددية الانصاف (٨٢) ثلاثة عشر الف نصف نصف الذهب المذكور  
 ٥٦ حفظاً لاصله ونضيفاً لجلته خمسية دينار وثمانون ديناراً ونصف دينار ونصف  
 ٥٧ الفضة المذكورة ستة الاف نصف وخمسية نصف حالاً مقبوضاً (٨٤) بيد الجناب  
 ٥٨ الشرفى يونس المبدل المشار اليه اعلاه من الزينى رمضان المستبدل المذكور  
 اعلاه بتمام ذلك  
 ٥٩ وكاله باعترافه بذلك لشهوده الاعتراف الشرعى واعترف الزينى رمضان  
 المستبدل  
 ٦٠ المذكور اعلاه بتسلم ما استبدله فيه لنفسه التسلم الشرعى بعد النظر  
 والمعرفة (٨٥) والمعاقدة الشرعية  
 ٦١ المشتملة على الايجاب والقبول الشرعيين (٨٦) فبمقتضى ذلك صار المبلغ  
 المذكور اعلاه متحصلاً  
 ٦٢ لجهة الوقف المذكور ليصرف فى مصرفه الشرعى فى شراء عقار او حصّة من  
 عقار او غير ذلك  
 ٦٣ ويوقف على حكم شرط الواقف المشار اليه اعلاه فى الحال والمال والتعذر  
 والامكان والنظر  
 ٦٤ والاستحقاق والشرط والترتيب وصارت الحصّة المستبدلة اعلاه ملكاً طلقاً  
 من جملة املاك  
 ٦٥ الزينى رمضان المستبدل المذكور اعلاه وحقق من حقوقه يتصرف فى ذلك  
 وفيما شاء منه تصرف ذوى  
 ٦٦ الاملاك فى املاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع له فى ذلك  
 ولا معارض  
 ٦٧ ولا رافع ليد بصادقهما على ذلك كله التصديق الشرعى ووقع الاشهاد عليهما  
 بذلك وبالتوكيل  
 ٦٨ فى ثبوته وطلب الحكم به وسؤال الاشهاد وابدأ الدافع ونفيه التوكيل  
 الشرعى (٨٧) وهما بحال الصحة

٦٩	والسلامة والطوعية والاختيار بتاريخ ثامن عشر شهر رجب الفرد الحرام سنة اثني عشر وتسعماية (٨٨)
٧٠	اشهد على المستبدلين
٧١	المذكورين اعلاه بجميع ما نسب
٧٢	اليهما اعلاه في تاريخه اعلاه
٧٣	وكتبه (٨٩)
٧٤	عبد العزيز بن عمر الحانوتي
٧٥	محمد بن حجاج الازهرى
٧٦	شهدا عندي بذلك
	اعزهما الله تعالى (٩٠)

### (ج) فصل الجريان :

١	الحمد لله وحده
٢	يشهد من يوضع اسمه باخره بمعرفة العين المستبدلة اعلاه المعرفة الشرعية النافية للجهالة شرعاً
٣	ويشهد مع ذلك بجريانها في وقف الجناح الشرقي يونس المشار اليه اعلاه وفي استحقاقه
٤	وتحت نظره وبانه يستغل ذلك استغلال الاوقاف الى حين صدور هذا الاستبدال بعلم شهوده
٥	ذلك ويشهدون به مسؤولين في ذلك بسؤال من جاز سواه شرعاً وحبنا الله ونعم الوكيل
٦	شهد بمضمونه
٧	شهد بمضمونه
٨	الحاج عمر بن شرف الدين
	الحاج ابراهيم بن محمد
	وكتب عنه باذنه (٩١)
	شهدا بذلك
	وكتب عنه باذنه
٩	وقبلا فيه

( د ) فصل الاعلاد :

- ١ الحمد لله وحده
- ٢ اشهد عليه الجناح الشرفى يونس والزيتى رمضان المستبدلان المشار اليهما اعلاه
- ٣ شهوده الاشهاد الشرعى انها لا دافع لها ولا مطعن فى جميع ما تضمنه مكتوب الاستبدال
- ٤ المسطر اعلاه ولا فيمن شهد فيه ولا فيما شهد به فيه ولا فى شى من ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل
- ٥ شهد بذلك شهد بذلك
- ٦ محمد بن عبد القادر شهدا عندى بذلك عبد القادر بن . . . (٩٢)
- ٧ اعزهما الله تعالى

ثانيا : ظهر الوثيقة :

الحمد لله وحده وصلى الله عليه وسلم

- ١ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على كل حال (٩٣)
- ٢ هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ
- ٣ الامام العالم العلامة غرس الدين شرف العلماء اوحد القضاة مفتى المسلمين ابو الجود
- ٤ خليل بن سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ شمس الدين مفيد الطالبين قدوة

- ٥ السالكين بقية السلف الصالحين ابي عبد الله محمد الامام المقرئ الحنفى
- ٦ خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية وما اضيف لذلك من الوظائف الديلية  
ايد الله
- ٧ تعالى احكامه واحسن اليه من حضر مجلس حكمه وقضايه (٩٤)
- ٨ وهو نافذ القضا والحكم ماضيها وذلك فى اليوم المبارك
- ٩ العشرين من شهر رجب الفرد الحرام (٩٥)
- ١٠ من شهور سنة اثنى عشر وتسمايه انه ثبت عنده وصح لديه احسن
- ١١ الله تعالى اليه على الوضع المعتبر الشرعى والقانون المحرر المرعى بشهادة
- ١٢ من اعلم له تلورسم شهادته باخر مكتوب الاستبدال المسطر باطنه اعلام  
التادية
- ١٣ والقبول على الرسم المعهود فى مثله اشهاد المستبدلين المشار اليهما
- ١٤ باطنه على انفسهما بجميع ما نسب اليهما باطنه على ما نص وشرح باطنه
- ١٥ ومعرفتهما المعرفة الشرعية وباطنه مورخ بالثامن عشر من شهر رجب الفرد
- ١٦ سنة تاريخه ثبوتاً شرعياً (٩٦) وثبت ايضا عنده ثبت الله مجده
- ١٧ وانجح قصده بشهادة من رقم له تلورسم شهادته باخر فصلى الجريان والاعذار
- ١٨ المسطرين اذنى باطنه رقم التادية والقبول على الرسم المألوف فى مثله
- ١٩ مضمون كل منهما على ما نص وشرح فيه ثبوتاً صحيحاً شرعياً وحكم (٩٧)
- ٢٠ ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه بموجب ذلك وبصحة الاستبدال
- ٢١ المسطر باطنه وبصيرورة العين المستبدلة باطنه ملكاً طلقاً من املاك
- ٢٢ الزينى رمضان المذكور باطنه وحقا من حقوقه بصرف فى ذلك وفيما  
شأ منه
- ٢٣ تصرف ذوى الاملاك فى املاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع
- ٢٤ له فى ذلك ولا معارض ولا رافع ليد وبصيرورة المبلغ المقبوض باطنه مختصاً

- ٢٥ لجهة الوقف المذكور باطنه ليشتري به ما هو انفع لجهة الوقف من العين المستبدلة
- ٢٦ باطنه ويوقف على حكم شرط الواقف المذكور في الحال والمال والتعذر والامكان
- ٢٧ والشرط والترتيب والنظر والاستحقاق صيرورتين وحكما
- ٢٨ صحيحا شرعيا تاما محتررا مرضيا مسيو لا في ذلك مستوفيا شرابطه الشرعية (٩٨)
- ٢٩ عالما بالخلاف في ذلك وذلك بعد ان اتصل بسيدنا الشيخ غرس الدين الحاكم
- ٣٠ المقار اليه اعلاه ادام الله علاه حكم سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ بدر الدين
- ٣١ شرف العالما اوحد الفضلا مفتي المسلمين ابي الفضل محمد سبط النوري الحنفى خليفة
- ٣٢ الحكم العزيز بالديار المصرية كان تغمده الله بالرحمة والرضوان المعين باطنه
- ٣٣ الاتصال الشرعى بالطريق الشرعى واشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ
- ٣٤ الذى سيكمل بخطه (٩٩) الكريم اعلاه شرفه الله تعالى وزاد اعلاه بمحمد واله
- ٣٥ وحسبنا الله ونعم الوكيل (١٠٠) اشهدنى (١٠١)
- ٣٦ سيدنا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة غرس الدين
- ٣٧ شرف العالما اوحد الفضلا مفتي المسلمين الحاكم المشار اليه اعلاه على نفسه الكريمة
- ٣٨ بما نسب اليه في اسجاله المسطر اعلاه فشهدت عليه به في تاريخه وكتبه
- ٣٩ عبد العزيز بن عمر الحانوقى
- ٤٠ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه اعلاه
- ٤١ وكتبه
- ٤٢ محمد بن حجاج الازهرى (١٠٢)
- ٤٣ وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به وكتب
- ٤٤ خضر بن محمد الازهرى (١٠٣)
- ٢٠

## التعليقات العلمية

١ - درج كتاب قصص الاستبدال على كتابة عبارة « وهو حدى » بعد البسلة مباشرة . قارن ذلك بافتتاحية الوثيقة نفسها التى أثبتت فيها البسلة بالصلاة على النبى محمد وآله وصحبه .

أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة « بسلة »

٢ - عن لفظ « ملوك » أنظر زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر ( مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية م ٤ ج ١ مايو ١٩٣٦ ) ص ٨١ والمحاضى ٥٤ - ٥٧ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٥٠٧ - ٥٠٩ والواقع أن اللفظ قد تجرأ عن معناه الحرفى ، وكان يقصد به النعت للدلالة على التواضع والطاعة ، وخاصة فى حالة الاتباس وخطابة قاضى القضاة عند طلب الاستبدال فى القصص القضائية .

أنظر : المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٢ حاشية ٢ ، السيوطى : الكنز المدفون والفلك المشحون ص ١١ ، ١٢ - وثيقة الصالح طلائع بن رزيك بحكمة ١ محفظة ١

أنظر كذلك الوثائق التالية بأرشيف بحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة :

وثيقة الشهابى أنسابى من بىرس بحكمة ٢٢٠ محفظة ٣٥ ، وثيقة السقلى مصرى بحكمة ٢٤٩ محفظة ٣٩

وثيقة الناصرى محمد بن السقلى فارس بحكمة ٢٥٢ محفظة ٤٠

وثيقة محمد بن تفرى برمش بحكمة ٢٦١ محفظة ٤١

وثيقة فاضل الدين الصواف بحكمة ٢٨٦ محفظة ٤٤

وثيقة قانى باى الحميدى بحكمة ٢٩٣ محفظة ٤٤

٣ - هو الجانب العالى الأميرى الكبيرى السيسى المالكى الخدوى الشريفون بن المقر المرحوم السقلى طوخ من تمر ، الواقف والناظر على وقفه والمستحق لريبه بمفرده والمبدل رافع القصة المنصقة على الدرج الأول . الوثيقة سطر ٤٥ . هذا ولم نثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من المصادر التاريخية . يوكتب التراجم المختلفة .

٤ - صيغة اصطلاح عليها فى كتابة قصص الاستبدال والالباسات ، وقد ترد بالمفرد أو المثنى أو الجمع حسب الحال . وقد وردت فى كثير من القصص فى بداية وثائق الاستبدال ومنها على سبيل المثال الوثائق برقم ١٠٤٢ ، ١٤٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ،

٣٤٢ ، ٣٥٧ : ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ : ٤٥٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥١٦ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٧ ، ٦٣٩ ، ٦٦٨ في المجموعة المكتشفة أخيراً بالأرشيف التاريخي لوزارة الأوقاف ، والتي قمنا بدرسها وفهرستها .

٥ - قاضي القضاة هو عبد البر بن الشحنة الحنفي - الوثيقة سطر ١٣ ، وهو في نفس الوقت كبير الموثقين ، لأنه لم يكن هناك فصل بين الوظيفة القضائية La Juridication contentieuse والوظيفة الإدارية أو الولاية La Juridication gracieuse للقاضي والمحاكم في ذلك العصر .

٦ - ما بين الحاضرئين متكامل وغير ظاهر في الأصل . وعن هذا القلب الفخري أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ١٦ ، ٣٦

٧ - لا زال هذا اللفظ مستعملاً في الالتباسات والطلبات التي يقدمها أصحاب الحاجات إلى المسئولين حتى اليوم .

٨ - سروجيجا من القرى القديمة واسمها المصري بجيجا ، وفي العهد العربي الإسلامي عرفت باسم سروجيجا ثم عرفت بالسرو ، وهي من أعمال الدقهلية مركز فارسكور قرب دمياط . وسرو كلمة هريية معناها الأرض المرتفعة التي لا يملؤها ماء النيل إلا بواسطة الآلات الرافعة .

ابن عثاق : قوانين الدواوين ص ٨٩ ، ابن دقاق : الانتصار لواسطة الآلات ص ٧٣  
ابن الجيدان : النسخة السنية ص ٦٣ . محمد رمزي : القاموس الجغرافي القسم الثاني ج ١ ص ٢٤١

٩ - هذه هي بعض الشروط التي ترد في وثائق الوقف ، وهي المعروفة باسم الشروط العشرة عند الموثقين والفقهاء ولكنها لا ترد كاملة ، لأنها مترادفة للمعاني ، ويمكن القول بأن شرطاً التفسير والتبديل يغنيان عنها كلها . الوثيقة سطر ٣٦ - ٣٧ ، خلاف : أحكام الوقف ص ٦٩ - ٧٠

١٠ - وردت هذه الصيغة كتبرير لطلب الاستبدال والفعل القانوني ، لأن القاضي الموثق لا يمكن له أن يوافق على الاستبدال إلا في هذه الحالة فقط - أي أن يكون ذلك أنفع لجهة الوقف ، وأن يوقف على حكم شرط وقفه .

١١ - درج كتاب الوثائق في المصور الوسطى على كتابة هذه العبارة « الحمد لله وحده » في ختام قصص الاستبدال بدلاً من الحيلة التي ترد عادة في ختام النص .

١٢ - هذه العبارة بخط قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفي وهي تأشيرة باحالة القصة إلى الشيخ غرس الدين المقرئ لينظر فيها بالطريق الشرعي ، أنظر الوثيقة سطر ٢٤ ، ٢٥

١٣ - هذا اللفظ « مكتوب » أو « كتاب » هو المستعمل في الوثائق العربية في العصر الوسيط سواء كانت بيع أو وقف أو استبدال ، وقد نزل محله في العصر العثماني لفظ « حجة » بالضم بمعنى الدليل والبرهان



والسند القانوني وما تثبت به الدعوى من حيث النوبة به على الخصم **Pièce Justificative**  
ابن منظور : لسان العرب مادة ححج ، الفيروز هادي : قاموس المحيط مادة الحج ، البستاني : محيط  
المحيط مادة ححج ، ابن قاضي شماوة : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٤

والمكتوت الشرعي المتضمن تصرفا قانونيا من أى نوع ( سواء كان من جانب واحد أو من جانبيين )  
هو الوثيقة في مصطلح المصير الحديث .

١٤ - يطلق لقب سيدنا ومولانا على كبار العلماء من رجال الدين وخاصة قضاء القضاة على المذاهب  
الأربعة . حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٣٤٥ - ٣٥٠ ، ١٦ - ٥٢٢ وما بها من مراجع .

١٥ - لقب من ألقاب التواضع والخضوع لله تعالى ، وهو من الألقاب التي ينعت بها الشيوخ كبارهم  
وصغارهم . حسن الباشا : نفس المرجع ص ٣٩٣

١٦ - الشيخ في القفة الطامن في السن ، وكان يطلق للتوقير على كبار العلماء والقضاة والمنصوفة في عصر  
المماليك ، وهو من الألقاب الأصول ويأتي غالبا في مقدمة الألقاب . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٦٤ -  
٣٦٦ وما بها من مراجع ، الفنون الاسلامية والوظائف ج ٢ ص ٦٢٧ - ٦٣٣

١٧ - الامام هو القدوة ، ويطلق على أهل الورع والعلم ومن هو قدوة في شئون الدين ، وأطلق  
اللقب على الخلفاء كما أطلق على سلاطين المماليك فكان يقال لهمضم « الامام الأعظم » كظهور من مظاهر  
طموحهم للسيطرة على العالم الاسلامي كله . حسن الباشا : الألقاب ص ١٦٦ - ١٦٧ وما بها من مراجع  
وقد أطلقوا هذا اللقب على القضاة الذين أظهروا نبوغا ووصلوا إلى أعلى درجات العلم .

١٨ - العالم من ألقاب السلاطين والعلماء ، فهو لقب مشترك بين رجال السيف والقلم ، وقد ورد  
هذا اللقب ضمن ألقاب قضاة القضاة وروايجهم في عصر المماليك في مصر والشام . حسن الباشا : الألقاب  
ص ٣٩٠

١٩ - العاقل من ألقاب أهل الصلاح ويلحق غالبا بلقب العالم الذي يعمل بما يعلم من أمور الدين .  
حسن الباشا : الألقاب ص ٣٩٢

٢٠ - العلامة هو العالم الغاية والمتكمن من علمه . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٠٥ - ٤٠٦ وقد  
ورد اللقب ضمن ألقاب قضاة ذلك العصر .

٢١ - الحبر من ألقاب كبار العلماء . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٢ وقد يضاف اليه البحر  
الفهامة دلالة على سعة علمه وفهمه لأمر الدين .

٢٢ - المحدث من ألقاب رجال الحديث الذين يعرفون الرواية والدراية والعلم بأسماء الرجال وطرق  
الاحاديث والاسانيد والجرح والتعديل ونحو ذلك . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤

٢٣ - الحافظ ادم فاعل عن الحفظ بمعنى الاستظهار ، وهو من ألقاب المحدثين لحفظهم للاحداث وأسماء الرجال وتواريخهم ونحو ذلك . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٢

٢٤ - العمدة في اللغة ما يعتمد عليه ، وقد أضيف إلى لفظ عمدة بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل عمدة المحققين ( سطر ٧ ) ويقصد به العالم أو القاضي الذي يعتمد عليه لتقصيه الحقيقة عند عرض القضايا عليه للفصل فيها ، وهو من ألقاب العلماء والقضاة . ولقب عمدة المحققين لم يرد في كل من حسن الباشا : الألقاب ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ولا في القلقشندي في صحيح الأضنى ج ٦ ص ٦٠ - ٦١  
أنظر الوثيقة سطر ٧

٢٥ - المحقق هو المتخصص للحقيقة ، ويلقب به القضاة والعلماء والصوفية . القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٦

٢٦ - الملقق هو الذي ينم النظر في المسائل ويناقشها بدقة علمية تامة ، وهو من أشهر ألقاب العلماء والقضاة في عصر الماليك . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٦٦ ويرد عادة ضمن ألقاب قضاة القضاة دون نوابهم كما اتضح لنا من دراسة ألقابهم الواردة في الاسجلات الحكيمة والتنفيذية في كثير من وثائق ذلك العصر .

٢٧ - الرحلة في اللغة من رحل إلى للاستفادة من علمه ، وقد اختص به المحدثون الذين يرمل الرحل إليهم لأخذ العلم والحديث بالذات عنهم . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٠٢ . ورحلة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من ألقاب العلماء عامة ودرسي الحديث خاصة ، أما رحلة الطالبين فلم يرد في حسن الباشا ولا في القلقشندي ومعناه واضح لا يحتاج إلى تفسير أو شرح - أنظر الوثيقة سطر ٧

٢٨ - المجتهد من أشهر ألقاب علماء عصر الماليك . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٥٤ ، والمجتهد هو من يستنبط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، القلقشندي : صحيح الأضنى ج ٦ ص ٢٦ ويظهر أن هذا اللقب كان قليل الاستعمال حل أيام القلقشندي ، ولكنه ذاع بعد ذلك في أواخر عصر الماليك . والحقيقة أن الاجتهاد شرط أساسي في تولية القاضي منصب القضاء بل إن بعض الفقهاء يعتبرونه شرط الأولوية مثل الإمام الشافعي . وقد ورد كلقب مركب « بقية المجتهدين » الوثيقة سطر ٨ ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦ ، قراءة : الأصول القضائية ص ٢٨٠ ، عروفس : تاريخ القضاء ص ١٦ - ١٧ ، ١٢٥ ، ابن قاضي عمارة : جامع الفصولين ج ١ ص ١٤ - ١٧ .

٢٩ - الأواحد من الألقاب التي حدثت تفاوت كبير في استعمالها فهو من الألقاب السلطانية كما يطلق على صفار الكتاب ، ويدخل في تكوين ألقاب مركبة كثيرة مثل « أواحد القضاة » وهو من ألقاب القضاة ، والمضاف في اللقب المركب يشير عادة إلى وظيفة الملقب وهي إما عسكرية أو مدنية أو دينية . كما أن اللقب يشير إلى أن صاحبه يتفرد بدرجة رفيعة بالنسبة لأفراد طائفته ، فقد ورد اللقب بصيغة أنزل التفضيل . حسن الباشا : الألقاب ص ٢١٧ - ٢١٩

٣٠ - الحجة هي البرهان - لقب فخرى للعلماء وكبار قضاة عصر المماليك ، أما حجة المناظرين فلقب فخرى يطلق على المدرسين . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٦ - ٢٥٧

٣١ - الخاشع هو الخاضع المتذلل إلى الله تعالى وهو من ألقاب الصوفية وإن كان يطلق على كل من اتصف بالصلاح والتقوى من المدنيين والعسكريين في ذلك العصر . وكان يطلق على نائب الشام نتيجة لتقليد المنحة في التلقب في العصر المملوكي ، وعلى رؤساء النصارى كالباب والبطاركة وذلك لمنابته لهم . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٧٠ وما بها من مراجع .

٣٢ - الناسك من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، ومعناه الورع الزاهد الصالح العابد - كما ورد بعد ذلك في السطر رقم ٥ من الوثيقة - أخذنا من النسك بمعنى العبادة ، وقد يلقب به أرباب السيوف والأقلام الصالحين .

القلقشندي : صحيح الأعشى ج ٦ ص ٢٢

٣٣ - هذا اللفظ بخط القاضي الموثق غرس الدين أبو الجود خليل الامام المقرئ الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، و نائب قاضي القضاة وكبير الموثقين الأستاذ عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وقد كتبه بصيغة الأمر بعد أن حكم بصحة التصرف ( الاستبدال ) وما ترتب عليه من آثار قانونية .

ظهر الوثيقة سطر ١٩ - ٢٦

أنظر عبد الطيف إبراهيم : وثيقة بيع ( مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ١٩ عدد ٢ ديسمبر ١٩٥٧ ) ص ١٥٦ - ١٦١

٣٤ - القدوة بمعنى الأسوة من ألقاب العلماء والصلحاء ، وكان يضاف اليه أحيانا بمعنى الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل قدوة العلماء وقدوة البلغاء وغيرها . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٣٠

٣٥ - قاضي القضاة لقب مركب انتشر استعماله ولقب به كبار قضاة المذاهب الأربعة منذ قيامها في مصر المملوكية ، وأول من غوط به في مصر القاضي أبو الحسن علي بن النعمان ، وكان أبه الحسين ابن علي أول من كتب له هذا القبط في سجله . حسن الباشا : الألقاب ص ٧٤ - ٧٥ . عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ٩٥ - ٩٩

وقاضي القضاة هو أجل أرباب الوظائف الدينية وأعلام شأنا وأرفعهم قدرا وأجلهم رتبة ولا يتقدم عليه أحد ، وكان لمن يتولى هذه الوظيفة النظر في الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها .

القلقشندي : صحيح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢

وقاضي القضاة كان يتصرف في نواب الحكم العزيز - على مذهبه - تقليدا وعزلا ، ويتفقد أحوالهم وأعمالهم ويتصنع أفضيتهم ويراعى أمورهم وسيرهم في الناس . وكان أول ظهور هذه الولاية في بغداد فلا يطلق قاضي القضاة إلا على قاضي بغداد .

أنظر القلقشندي : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٤ - ٣٥ ، ج ٥ ص ٤٥١ ، ج ٦ ص ٢٣

السيوطي : حسن المحاضرة ( ط . الوطن ) ج ٢ ص ١٢٠ . جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ج ١ ص ٩٠ وما بها من حواشي ، مشرفة : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ص ٢٢٢ - ٢٢٣ عبد النعمان ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ص ١٤٠ - ١٤١ . أنظر كذلك الدراسة المستفيضة للزميل الأستاذ الدكتور حسن الباشا في كتابه الفنون الاسلامية والوظائف ج ٢ ص ٨٦٧ - ٨٨٠ وما بها من مصادر

٣٦ - شيخ الاسلام لقب مركب نعت به كبار العلماء والقضاة في مصر المملوكية أواخر القرن ٥٩ - ١٥ وحتى نهاية الدولة . حسن الباشا : الألقاب ص ٣٦٦ . ولزيادة تعظيم صاحبه يقال له شيخ شيخ الاسلام أو شيخ مشايخ الاسلام كما ورد في إلقاب ابن الفرفور الشافى - ظهر وثيقة الفورى أرفاف رقم ٨٨٣ سطر ٢٤٠

٣٧- متى الأنام لقب مركب لم يرد في كل من القلقشندي ج ٦ ص ٧٠ ، حسن الباشا ص ٨١-  
٤٨٢ وهو لا يختلف في معناه عن متى المسلمين ، وكان يطلق على كبار العلماء ورجال الفتوى مثل الامام  
الغزالي . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٨٢

٣٨- محقق القضايا والأحكام لقب مركب لم يرد كذلك في المصدرين السابقين ، وكان يطلق على قضاة  
القضاة لأن صاحبه يتقضى حقيقة القضايا والأحكام التي تعرض عليه بمد أن يكون نوابه قد حكموا فيها .

٣٩- مك العلماء الأعلام لقب مركب لم يرد أيضا في المصدرين السابقين ، ومعناه الرئيس الأهل  
للعلماء المشهورين بعلمهم ، ويستشف من هذا اللقب اتضاع لقب الملك في تلك الفترة من حياة الدولة  
المملوكية أما عن لقب « الملك » فانظر حسن الباشا : الألقاب ص ٩٦ - ٤٠٢ .

٤٠ - حسنة الليال والأيام من ألقاب أرباب الأقاليم من الوزراء والقضاة ، والمراد أن  
الزمن أحسن بالامتنان به . وقد ورد في القلقشندي نفس المصدر ج ٦ ص ٤٦ « حسنة الأيام » فقط .

٤١ - صدر الشيء ، أواه ، وقد استعمل كلقب من ألقاب الكناية المكانية تفخوما لصاحبه لكونه صادرا  
بين العلماء والقضاة في كل من مصر والحجاز وال عراق والشام في عصره وللدلالة على اتساع نفوذ صاحبه  
العلمي في كل تلك الأصقاع من أنحاء المملكة الشريفة الاسلامية .  
القلقشندي نفس المصدر ج ٦ ص ٥٧

٤٢ - لسان المتكلمين لقب مركب شاع استعماله في نهاية العصر المملوكي ولقب به العلماء والمدرسون  
حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٧ ، ٤٤٢ . وربما كان المقصود بالمتكلمين العلماء يعلم الكلام وهو أصول  
الدين .

القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٦٧

٤٣ - حجة المناظرين لقب فخرى يطلق على المدرسين . حسن الباشا : الألقاب ص ٢٥٧ ، والمراد  
بالمناظرين أهل البحث والجدل ، أخذنا من النظر وهو الفكر المؤدى إلى الدليل ، ويقصد به هنا قوة صاحبه  
في المناظرة والجدل . القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥

٤٤ - مفتح المجادلين من ألقاب الفقهاء والقضاة في أواخر عصر المماليك ، وهو نادر الإستهال ،  
ولم يرد في كل من حسن الباشا والقلقشندي . ولم يلقب به من قضاة القضاة في سنة ٩١١ هـ إلا عبد البر بن  
التشمة الحنفى . انظر ظهر وثيقة النورى أوقاف ٨٨٣

٤٥ - انظر : التحقيق رقم ٢٧ في بحثنا هذا .

٤٦ - انظر : التحقيق رقم ٢٤ في بحثنا هذا .

٤٧ - انظر : التحقيق رقم ٢٨ في بحثنا هذا .

٤٨ - سنان الفقهاء والأصولين لم يرد في كل من القلقشندي ج ٦ ص ٥٣-٥٤ ، وحسن الباشا :  
الألقاب ص ٢٢٣ - ٢٢٩ ، وهو من ألقاب كبار الفقهاء وعلماء الأصول ، والمقصود به أن صاحبه  
حجة وبرهان في الفقه وأصوله وله السيادة على المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية .

ومن المعروف أن سلطان لقب ذو معنى سينى واسع ، وهو لقب عام فحاكم في عصر الأيوبيين  
والمماليك وآل عثمان ، أما في كتب الفقه فهو يشير إلى الحاكم أي ، انقاضي . حسن الباشا : الألقاب ص  
٢٢٣ - ٢٢٩ وما بها من مراجع .

٤٩ - كنز النجاة والمحررين لقب مركب لم يرد في كل من القلقشندي ج ٦ ص ٦٦ وحسن الباشا :  
الألقاب ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ وهو من ألقاب أهل العلم ومدرسي النحو بالذات من ذوي المكتبة والرفعة  
في هذا الميدان ، وقد كانت العلوم اللسانية والقنوية من نحو وصرف وغيره تدرس ضمن العلوم العقلية ،  
وذكرت لنا بعض الوثائق ما كان يوجد من كتبها في المكتبات المملوكية والعثمانية .  
عبد الطيف إبراهيم : المكتبة المملوكية ص ٥٢ ، مكتبة في وثيقة ص ٢٦ ، وثيقة باستلام كتب  
ص ٨ ، ١٦ ، مكتبة عثمانية ص ٢٨ ، ٣٠ - ٣٢

٥٠ - إمام النقلة والمفسرين لقب مركب لم يرد في القلقشندي ج ٦ ص ٣٨ ولا في حسن الباشا :  
الألقاب ص ١٦٦ - ١٧٩ والمقصود به أن صاحبه كان إماما للمشتغلين بالعلوم العقلية . باماة وتفسير  
القرآن وغيره بخاصة ، وأصل هذه العلوم العقلية الوضعية كلها على حد قول ابن خلدون هي الشرعيات  
من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله ، والعلوم العقلية كثيرة من أهمها علم التفسير  
وتفسير غريب القرآن . ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٢

٥١ - حجة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من ألقاب العلماء عامة ورجال الحديث منهم خاصة . حسن  
الباشا : الألقاب ص ٣٠٢ وقد سبق لنا شرح لفظ محدث وحافظ وحجة في بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٢ ،  
٢٣ ، ٣٠ على التوالي .

٥٢ - مرجع الحساب والفرضيين من ألقاب كبار العلماء والفقهاء الذين يرجع إليهم في علم الفرائض  
والميراث ، والمرجع هو السند والمصدر الذي يعتمد عليه ، وقد ورد هذا اللقب المركب بصيغة أخرى  
هي « عمدة الحساب والفرضيين » ضمن الألقاب الفخرية لقاضي القضاة ابن الفرور الشافعي . ظهر وثيقة  
النورى أوقاف ٨٨٣ ط ٢٠٨ بتاريخ ٩٩١ هـ .

٥٣ - فريد عصره وأوانه لقب مركب ، وهو من ألقاب أكابر العلماء والقضاة في عصر المماليك ،  
ومعناه المنفرد بما لا يشاركه فيه غيره . لم يرد في كل من القلقشندي ج ٦ ص ٢٢ وحسن الباشا : الألقاب  
ص ٤٢١ .

٥٤ - عن لفظ « قاضي » أنظر حسن الباشا : الألقاب ص ٤٢٤ ، الفنون الإسلامية  
والوظائف ج ٢ ص ٨٣٣ - ٨٦٢ وكذلك أنظر ص ٨٦٤ « قاضي الجماعة » والمقصود به قاضي  
المسلمين .

٥٥ - سبق لنا شرح لقب العالم والمعلم في بحثنا هذا تحقيق رقم ١٨ ، ١٩ ، وعبد البر بن الشحنة الحنفي من بيت فضل وعلم وكوالده وجده - الوثيقة سطر ١٤ - أنظر التحقيق رقم ٦٣ في بحثنا هذا .

٥٦ - قانع المجتدين لقب مركب من ألقاب أكابر العلماء ، ويعني أن الملقب به كان قاعما لمن يتحدث بعده ، وهي ما خالف أئمة النبوية وما عليه الجماعة . حسن الباشا : الألقاب ص ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، وقد ورد هذا اللقب ضمن الألقاب الفخرية لكثير من قضاة القضاة في أوائل القرن ١٠ هـ - ١٦ م في وثائق الممالك الجراكسة .

٥٧ - بحى سنة سيد المرسلين من ألقاب العلماء والصلحاء في عصر المماليك ، ويقصد به أن صاحبه من الماملين على أحياء سنة سيد المرسلين محمد بن عبد الله ( ص ) . حسن الباشا : الألقاب ص ٦٣٣

٥٨ - خالصة مولانا أمير المؤمنين لقب قديم من الألقاب التي تطلق على كبار رجال الدولة من الكتاب وأرباب الأقاليم منذ أواخر العصر الأيوبي ، وأورده القلقشندي : صبح الأمشق ج ٦ ص ٤٦ ، ١٠٩ مع الجناح الكريم ضمن ألقاب الوزراء ومن في منتهام على حد قوله .

وكثيراً ما نجد هذا اللقب ضمن الألقاب الفخرية لقضاة القضاة في وثائق عصر المماليك الجراكسة في مصر .

٥٩ - هو الشيخ سرى الدين أبو البركات عبد البر بن محب الدين محمد بن الشحنة الحلبي القاهري الحنفي ، ولد بحلب في ٩ ذي القعدة سنة ٨٥١ هـ وجاءه إلى القاهرة مع والده حيث درس على مشاهير علماء عصره ، ومهر في الفقه والحديث والأصول وغيرها ، وتولى عدة وظائف سنية ، وفي سنة ٩٠٤ هـ ففاه السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه إلى قوص ثم حماة . وفي عهد المادل طومان باي قرر في قضاء الحنفية قاضياً للقضاة ثم عزل في نفس العام سنة ٩٠٦ هـ . وكان من أخصاء الغوري فهو جلسيه وصفيه وصديقه ، وكان يضبط ويصل به ، وقد توفي في ٢٨ رجب ٩٢١ هـ بعد أن شغل وظيفة قاضي القضاة مدة طويلة .

أين إياس : بذائع الزهور ( ط . استنبول ) ج ٣ ص ١٣٠ ، ٢٠٩ ، ٤٠١ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ ، ج ٤ ص ٣٨ - ٣٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ٤٧٠

الحنبل : در الحب في تاريخ أعيان حلب ( مخطوط - تصوير شمس دار الكتب المصرية رقم ٢١٠٥ تاريخ تيموري ) ص ١١٨ ، الطبايع : أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٨١ ، الفري : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢١ . ابن المهدي الحنبل : شذرات الذهب ج ٨ ص ٩٨ وما بعدها .

وعبد البر بن الشحنة هو قاضي قضاء الحنفية وكبير الموقفين الأحناف في عصره ، وعلمته التي كان يكتبها في الاسجلات على الوثائق التي تعرض عليه هي « الحمد لله عليه توكلت » وقد وردت في الوثائق التالية : وثيقة أبو العباس أحمد بن أنغرفور بحكمة ٢٢٧ بحفظه ٣٦ ، وثيقة الشيخ عبد الرحمن المغربي بحكمة ٢٤٦ بحفظه ٣٩ ، وثيقة السيوطي بحكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ بحفظه ٤٠ ، وثيقة السيوطي بحكمة ١٠٢٠ بحفظه ٢٨١ بحفظه ٤٣ ، وثيقة السيوطي بحفظه ١٠٢٠



فرغ من بناء جامعة نجاعها تماماً بست سنوات - وبني بجوارها جامعين وعدة حوانيت وغير ذلك ، وفرغ من بنائها في سنة ٧٥٧ هـ ورتب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ودوسا الخديث وآخر للقرامات السبع ، ووقف عليها الأمير شيخو أوقافاً كثيرة للصرف من ريعها على طلبة العلم والصوفية ، ودفن بقر فيها عند وفاته في سنة ٧٥٨ هـ ، ومنذ مطلع القرن ٩ هـ - ١٥ م سادت حالة هذه الخانقاة وتدهورت لأسباب مختلفة .

المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣١٤ ، ٤٢١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٣١ حاشية ٦ ، ص ٢٦٩ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩١ . حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧

Van Berchem : C. I. A. Egypt, T. I. pp. 232 - 236,

Hauteocoeur and Wiet ; Les Mosquées du Caire p. 270.

٦٣ - بيت ابن الشحنة من بيوت العلم . والشحنة في البلد من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان.

أنظر لسان العرب وقاموس المحيط ومحيط المحيط مادة « شحن » وكذلك المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ - ٩٨٢ . ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٧

Dozy : Supp, Dict, Ar.

Lane ; Arabic - English Lexicon art ( شحن )

والد عبد البر هو قاضي القضاة محب الدين محمد بن محمود بن غازي الثقفي الشهير بابن الشحنة الحنفي ، وأصله من حلب ولد بها سنة ٨٠٤ هـ وكان أماً عالماً فاضلاً فقيهاً في مذهبه ، تولى قضاء الحنفية عدة مرات كما ولي مشيخة الخانقاة الشيعونية والمريدية والصرختمشية بالقاهرة ، وله عدة مؤلفات قيمة ، وتوفي في ١٦ محرم سنة ٨٩٠ هـ .

السخاوي : الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٩٥ - ٣٠٥ رقم ٧٥٥ ، ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٠٩ ، ابن الهادي الحنبلي : شذرات الذهب ج ٧ ص ٣٤٩

أما جده فهو محب الدين أبو الوليد محمد ، وهو تركي الأصل فقد ولد بحلب سنة ٧٤٩ هـ واشتغل بالعلم وتفقّه فيه ودرس وأقّى في حلب ودمشق والقاهرة ، توفي في حلب يوم الجمعة ١٢ ربيع آخر سنة ٨١٥ هـ

السخاوي : نفس المصدر ج ١٠ ص ٢ - ٦ رقم ٥ ، ابن الهادي الحنبلي : نفس المصدر ج ٧ ص ١١٣

٦٤ ، ٦٥ - ما بين الرقمين عبارات دعائية ، دوج كتاب الوثائق العربية في العصور الوسطى على ذكرها في هذا الموضوع من متن الوثائق المختلفة ، بهذه الصيغة أو بصيغ قريبة منها تؤدي نفس المعنى .

٦٦ - القصة هي الطلب أو الالتئاس أو الشكوى أو العريضة يرسلها صاحب الحاجة إلى السلطان عن طريق موظف خاص هو « قصة دار » القلقشنلي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤ . والقصد



تختلف بحسب الحال ، وقصة الاستبدال هنا هي التماس برفعه المبدل للوقف إلى قاضي القضاة يطلب منه فيه أذنه الكريم لأحد نوابه النظر في عريضته أو ملتصقه القضائي والعمل بما يقتضيه الشرع الشريف .

الوثيقة سطر ٢٢ - ٢٣

وتفتتح قصص الاستبدال بالبسملة في سطر مستقل ، ثم يرد اسم المبدل سواء كان هو الواقف أو الناظر على الوقف أو المستحق لريه مسبقا بلفظ ملوك ، ويبدأ نص القصة بالعبارة التقليدية « يقبل الأرض بين يدي سيدنا ومولانا قاضي القضاة . . . » وهي صيغة تواتر على كتابتها في القصص بصفة عامة ، والقضائية بصفة خاصة . ويكتب القاضي الموثق على حاشية القصة بالكشف عبارة نصها : « يكشف ثم يقوم » .

٦٧ - غرس الدين أبو الجود خليل الإمام المقرئ الحنفى ، هو القاضي الموثق وأحد نواب قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى . ولم نعث له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر تاريخية أو كتب التراجم الخاصة بتلك الفترة .

٦٨ - رافع القصة هنا هو المبدل الشرقي يودن بن السجى طوخ من تاجر وهو الواقف والناظر على وقفه والمستحق لريه بمفرده .

ولا يمكن أن ترفع قصة الاستبدال إلا بواسطة المبدل سواء كان هو الواقف أو المتوفى على الوقف ( الناظر ) أو المستحق لريه ، وباعتباره متصرفا قانونيا في وثيقة الاستبدال .

وقد وقعت بين أيدينا عشرات من وثائق الاستبدال التي تثبت ما ذكرناه ، وخاصة في مجموعة الوثائق التي عثر عليها أخيرا في الأرضيف التاويضي بوزارة الأوقاف . أنظر تحقيق رقم ٤

٦٩ - يقصد بذلك وثيقة وقفه التي تشهد للمبدل بأن العين المستبدلة جارية في الوقف المذكور حتى حصول الاستبدال . ومكتوب الوقف في هذه الحالة مستند شرعى ، وهو مثل مستند أو عقد الملكية في حالة البيع ، ومن ثم يكون التصرف صحيحا . ويظهر أنه في حالة الاستبدال ، كان يتحتم على المبدل أن يقدم أو يبرز كتاب الوقف لكل من القاضي والمستبدل عند التصديق ، بل أن القاضي نفسه كان هو الذى يطلب مكتوب الوقف ليتأكد من صحة أمور - الوثيقة سطر ٣٢ - ٤٢

٧٠ - يمكن القول بأن سجل الوثائق العربية في تلك الفترة سواء الأصول أو الصور ، كانت مطوية من أسفل إلى أعلى على هيئة الملف fol - وإذا كانت مادة الكتابة هي الورق سميت الدروج الموصلة أو الورق الأوصال ، وإذا كانت هي الرق كما في هذه الحالة سميت بالرقوق المحيطة على حد مصطلح كتاب الوثائق آنذاك .

أنظر عبد الطيف ابراهيم : ثلاث وثائق فقهية من وثائق دير سانت كاترين ( مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٥ جزء ١ مايو ١٩٦٣ ) من ١٢٥ تحقيق رقم ٣٩ وما به من مراجع .

٧١ - هذه الصيغة القانونية وما في مناتها اصطلاح عليها الشرطيون وكتاب الوثائق الشرعية للدلالة على أن التصرف قد صدر من المتصرف وهو كامل الأهلية ، في صحة بدنه وسلامة عقله .

أحمد إبراهيم : الأهلية وصوارضها ص ٢ وما بعدها ، السبوري : الوسيط ص ٢٦٦ - ٢٦٨  
مذكور : نظرية الحق ص ٨١ ، عبد الحى حجازى : النظرية العامة للالتزام ص ٣٧ . قراعه :  
مذكرة التوثيقات ص ٢٧ ، ٢٨

٧٢ - لازالة الوهم بقدر الامكان ، احتياطا ومتنا لما عساه يحصل من النزاع ، كان يكتب فى وثيقة  
الوقف كلمة « جميع » قبل لفظ الدار أو المقار أو المحل موضوع التصرف .

٧٣ - الموقوف أو المخل هو حصة كاملة شاملة فى جميع أراضى الناحية المذكورة ولا تتركز فى  
جانب منها بالذات ، وهذا ما يميز الوقف الشائع عن الوقف المفرز ، وهذا الوقف جائز صحيح شرعا  
لأن الواقف المبدل يستبدل ما وقف ، ويميل المستبدل محله ويصبح مالكا على الشيوخ بنسبة الجزء الذى  
استبدله فقط ، وتصير الحصة المستبدلة ملكا مطلقا من جملة أملاك المستبدل ، وحقا من حقوقه يتصرف  
فى ذلك وفيما شاء منه تصرف ذوى الأملاك فى أملاكهم وذوى الحقوق فى حقوقهم من غير منازع له فى ذلك  
ولا معارض ولا رافع ليله - الوثيقة سطر ٦٤ - ٦٥

دكتور أنور سلطان : المقود المساء ص ٤١٢ . أحمد إبراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١  
أحمد أبو الفتح : للمعاملات ص ٣٠٠ - ٣٠١

٧٤ - درج كتاب الوثائق القانونية الخاصة على ذكر الحدود الأربعة للمعار المتصرف فيه ( المستبدل  
فى حالتنا هذه ) وقد اختلفت الآراء فى عدد الحدود فقال بعضهم يحصل بذكر حدين أو ثلاثة إلا أن منهم  
من قال إنه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة ، ولذلك فإن كاتب هذه الوثيقة - محتاطا ومتحرزا عن  
مواضع الخلاف - قد ذكر الحدود الأربعة .

والقول بأن سحبا القيل ينتهى إلى كذا ، أفضل وأدق من القول بأن سحبا القيل كذا ، ولما كان  
الموقوف فى حالتنا هذه مشاعا فإنه يقتضى بتحديد الكل الذى منه هذا الجزء لكونه ليس مقررا وليست له  
حدود خاصة ، فبمثل تحديد ما اشتمل عليه تحديدا له . قراة : التوثيقات ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

٧٥ - أفضل التحقيق رقم ٩ فى بحثنا هذا .

٧٦ - هذا هو التاريخ الوارد فى وجه وثيقة وقف الشرقى يونس بن السبى طوخ من تمر ( ١٥  
شوال سنة ٨٨١ هـ ) ، والى قام بتوثيقها الشيخ بدر الدين أبى الفضل محمد بن تقي الدين أبو الخير محمد  
سبط النويرى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية بدلالة إسجاله الملون بظاهرها والمؤرخ بخطه  
فى ٧ ذى الحجة سنة ٨٨١ هـ - سطر ٣٩ - ٤٢

٧٧ - الحاج زين الدين رمضان بن السبى طوغان الزينى هو الطرف الثانى فى هذا العقد ( المستبدل )  
ولم نثر له كذلك حل ترجمة فى المصادر التاريخية وكتب التراجم الخاصة بتلك الفترة .

٧٨ - المقصود بالنقص الشرعى هنا هو إسقاط العين المستبدلة وإخراجها أو خصمها من الوقف  
بمد صدور الاستبدال ، وذلك بالنص كتابة على الماشى الآمن لوثيقة الوقف وأمام العين الموقوفة بأنها  
قد استبدلت بتاريخ كذا ( وهو نفس تاريخ وثيقة الاستبدال ) وبشهادة الشهود ( شهود وثيقة الاستبدال ) .

وكان يسبق توقيع الشاهد في نهاية النعم الشرعى ما نصه «شهد في أصله» أى شهد في وثيقة الاستبدال .

٧٩ - المقصود بذلك فصل الاعذار المدون في نهاية وجه الوثيقة ، والذي أشهد فيه على المستبدل (المبدل والمستبدل) أنهما لا دافع لهما ولا مطن في جميع ما تضمنته مكتوب الاستبدال .

٨٠ - لا يعتبر المقد صحيحا - وهو في حالتنا هذه عقد استبدال - إلا إذا كان كل من طرفي العقد (المبدل والمستبدل) راغيا رضا صحيحا ، وعالما بجميع ما تضمنته العقد علما كافيا بنفسه ، والعلم الكافي هو العلم الشرعى النافي للجهالة شرعا ، فيصير العقد لازما .

أنظر : عبد الطيف إبراهيم : ثلاث وثلاثين قضية ص ١١٤ وما بها من مراجع .

٨١ - يقصد الثمن ورجلته من الذهب ١١٦١ ديناراً ومن الفضة ١٣,٠٠٠ نصف فضة ، فهو معين بنوعه ومقداره ، ويظهر أن المبدل لم يشترط استيفاء حقه بالذهب وحده ، وربما كان ذلك لعدم توفر النقد الذهبي في تلك المرحلة القاسية التي كانت تمر بها الدولة المملوكية البركسية في أواخر أيامها كما هو معروف .

أنظر عبد الطيف إبراهيم : وثيقة بيع (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - مجلد ١٩ عدد ٢ ديسمبر ١٩٥٧) ص ١٧٩ تحقيق رقم ٣٧ وما به من مراجع .

٨٢ - عن الدينار الذهبي الأذرنى والظاهرى - أنظر نفس المرجع السابق ص ١٨٣ تحقيق رقم ٣٨ وما به من مصادر .

٨٣ - الفضة الأنصاف أو أنصاف الفضة مسكوكات صغيرة الوزن من معدن الفضة ، ومن المعروف أن السلطان الملك المؤيد شيخ المموحى قد ضرب الأنصاف والأرباع من الفضة عند سكته للدرهم المملوكية .

المقريزى : شلور العقود (نشر الأب أنستاس مارى الكرمل) ص ٦٣ - ٦٦

ابن حجر السقلاوى : أنباء النمر بأبناء العمر (مخطوط) ج ٢ ص ١٠٤

ويذكر لنا المقريزى في كتابه السلوك (مخطوط) ج ١٠ ورقة ٢٩١ ، ٣٠٢ أن الدرهم المملوكية حملت أنصاف وأرباع وأنهم استكثروا من ضرب الأنصاف .

ومن المعروف أن أنصاف الفضة كانت تختلف في وزنها وقياسها من حين لآخر . ابن اياس : بدائع الزهور (نشر د . محمد مصطفى) ص ٥٢ ، على مبارك : الخطط ج ٢٠ ص ١٤٣ - ١٤٥ ومن الأرجح أن يكون هذا الجزء من الثمن والمعين بنوعه من الفضة الأنصاف قد قبلها المبدل بالمدد باعتبارها شرعية من حيث الوزن والقياس والسك .

٨٤ - الثمن المقدور في عقد الاستبدال - سواء من الذهب أو الفضة - حال الدفع (مبجل) باعتباره واجب الأداء فور العقد (اتفاق إرادة الجانبين) والقاعدة هي أنه يجب على المستبدل أداء الثمن والوفاء به في نفس الوقت الذى يقوم فيه المبدل بتسليم العين المستبدلة . إن دفع الثمن - الذى تحدد بالمبلغ التقضى

التي ارتضاء المتعاقدان في عقد الاستبدال - هو الزام أساسي واجب على المستبدل مقابل نقل ملكية العين المستبدلة اليه من المبدل عند قيضه لثمن .

أنظر عبد الحفيظ إبراهيم : وثيقة بيع ص ١٨٥

٨٥ - اعترف المبدل الشريف يونس بقبض الثمن من الزبي رمضان المستبدل بتماحه وكاله ، وقد تم وصول الثمن اليه بقبضه بيده ، وباعتراؤه بذلك للشهود . كما اعترف المستبدل الزبي رمضان بتسلم العين المستبدلة من المبدل تسلما شرعيا بعد النظر والمعرفة والمعاينة الشرعية .

ومن المعروف أن عقد الاستبدال عقد ملزم للجانبين ، وينشئ التزامات متقابلة في ذمة كل من المتعاقدين ، وفي حالتنا هذه ألزمت الوثيقة أو المعاهدة الشرعية المستبدل بدفع الثمن ، كما ألزمت المبدل بتسليل ملكية العين للمستبدل وتسليمها له ، وقد قام بتسليمها تسلما شرعيا .

والظاهرة الجوهريّة في عقد الاستبدال - وهو مثل عقد البيع تماما اللهم إلا أن العين أو المثل موضوع التصرف ليس ملكا طلقا أو حرا ولكنه وقف يسمح باستبداله - هو التقابل القائم ما بين التزامات أحد الطرفين (المبدل) والتزامات الطرف الآخر (المستبدل) ، باعتبار الطرف الأول بائنا الوقف ولصاحبه ، والثاني مشتريا .

وتسليم العين المستبدلة إلى المستبدل من أهم التزامات المبدل ، وهذا الالتزام فرع من التزامه بنقل ملكية العين بالحالة التي كانت عليها وبالوصف والمقدار الذي عين في عقد الاستبدال ، ولذلك فإن التخلية تعتبر لازمة لصحة التسليم ليمكّن المستبدل من تسلل العين من غير حائل ولا مانع .

عبد الحفيظ إبراهيم : ثلاث وثائق فقهية ص ١١٨ - ١١٩ تحقيق رقم ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

٨٦ - يعتبر الإيجاب والقبول من أهم أركان المعاهدة الشرعية أو العقد الملزم للجانبين *Contrat synallagmatique* ، والمعاهدة اشرعية هي رباط بين كلامين أو عبارتين صادركل منهما من طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرف عقد الاستبدال تعتبر إيجابا ، ولكن تسمية إحداها إيجابا والأخرى قبولا ليست إلا تسمية اصطلاحية فقط وليست واقعية .

أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٢٢٨ - ٢٣٣

ولكى ينتج ركنا المعاهدة الشرعية وهما الإيجاب والقبول أثرهما ويكون للعقد وجود شرعي ، يجب أن تتوافر عدة شروط معروفة . محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٢٥٤ - ٢٥٧ ولا شك أنه يجب لتكوين عقد الاستبدال وهو عقد رضائي *contrat consensual* حصول الرضا بين المتعاقدين ، وهو تقابل الإيجاب والقبول وتطابقهما ، وأن يكون رضا أحد الطرفين مطابقا لرضا الطرف الآخر تمام المطابقة ، وأن يتصل القبول بالإيجاب في مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الإيجاب والقبول أو توافق الإرادتين الصيحتين المتطابقتين .

السنبوي : الوسيط - نظرية الالتزام ص ١٧٠ - ١٧٢ ، ٢٠٥ - ٢١٧ وما بعدها .

أحمد إبراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ٧٧ - ١١٤ - ١١٥

على الحفيظ : أحكام المعاملات الشرعية ص ٦٨ - ٧٤ ، ١٦١

وبمقتضى هذه المعاهدة الشرعية المشتعلة على الإيجاب والتبول ، ونتيجة لما ترتب على ذلك من آثار :

١ - صار المبلغ أو اثمن المذكور في العقد متحصلا بلجهة الوقف ليصرف في شراء عقار أو حصّة من عقار أو غير ذلك ويوقف على حكم شرط الواقف .

٢ - صارت العين المستبدلة المذكورة في العقد ملكا مطلقا من أملاك المستبدل وسقا من حقوقه يتصرف فيها وفيها شاء منها من غير منازع ولا معارض .

٨٧ - هذه الفقرات جزء من البروتوكول الختاي الوثيقة ، وهي عبارة عن صيغ قانونية توثيقية إثباتية ، درج كتاب الوثائق العربية في ذلك العصر على كتابتها بعد موضوع التصرف أو صلب الوثيقة بأجزائه المختلفة وهي ترى إلى تنفيذ العقد وضمانه ، وإعلان الصفة الرسمية للوثيقة بما يتبع من إجراءات تجعلها صحيحة ونافذة . وقد سوت الإعلان بطريقة التوثيق ومنها التوكيل في ثبوت التصرف وطلب الحكم به وسؤال الشاهد وإبداء الدافع ونفيه ، حتى تصبح الوثيقة كاملة من الناحية القانونية ، صحيحة لها قوة إثباتية ، ولا يمكن الطعن فيها - أي أنها ضمانات متمثلة بالفعل القانوني .

٨٨ - هذا هو تاريخ التصرف القانوني ، وقد ورد في موضعه الطبيعي والمتاد في نهاية البروتوكول الختاي لوثيقة الاستبدال ، وقد أثبت فيه اليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجري ، وذلك أمر ضروري لصلاحيّة الوثيقة وتأكيد قيمتها كسند قانوني .

ويمكن ملاحظة أنه لم ترد بعد التاريخ العبارة الختامية وهي المحسلة ، وهي الصيغة المتواترة عليها في ختام الوثائق القانونية الخاصة من بيع ووقف واستبدال وقبل شهادة الشهود مباشرة . أنظر القلشنسي : صبح الأعشى ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢

٨٩ - شهد في نهاية الوثيقة كل من عبد العزيز بن عمر الحانوق ومحمد بن حجاج الأزهرى بعد نص شهادته سطر ٧٥ - ٧٣ ، ويتضح أن صيغة الشهادتين متطابقة لفظا ومعنى . وقد كتب كل منهما نص شهادته ووقع بخط يده .

٩٠ - هذه هي تأشيرة القاضي الموثق فرس الدين خليل بن محمد الامام المقرئ الخنق الذي عرفست عليه القصة وأمر بتحرير وثيقة الاستبدال ، وحكم بصحة التصرف القانوني في أسجاله الحكمي في ظهر الوثيقة ، وقد قام بكتابة هذه العبارة بخط يده بعد توقيع الشاهدين المدلين للدلالة على أداء الشاهدين لشهادتهما عنده وأنها متصبتان للشهادة متبلمان بالمدالة ، وقد كتب القاضي الموثق هذه العبارة ( التأشيرة أو العلامة ) بقصد الإعلام بصحة التوقيع وقبول الشهادة - أنظر ظهر الوثيقة سطر ١١ - ١٣

٩١ - الشاهدان في فصل الجريان لا يعرفان الكتابة ، ولم يكتب نص الشهادة ولم يوقعا بخطهما ، بل كتب ووقع عن كل منهما بإذنه ( سطر ٨ من فصل الجريان ) وبفضوره بلا شك ، أحد كتاب الحكم أو الشهود المدول من مساعدي القاضي الموثق والحاضرين مجلس حكمة وقضائه .

وهذا يدل على أن الشاهدين من العامة وعلى قدر إجتاهي معروض .

وعن شهادة أصحاب الحرف والصنائع ومن في مقامهم الاجتماعي أنظر كل من :

ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٢٩  
ابن عابدين : العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ج ١ ص ٣١٥ ، رد المحتار على الدر المختار  
ج ٤ ص ٢٩٤

ومهما يكن من أمر فإن الإقرار أو الشهادة باللسان في مجلس الحكم أو القضاء أقوى دلالة من الإقرار  
المكتوب ، وهنالك مثل روماني قدم يقول : ألسنة الخلق أقلام الحق Vox populi Vox Dei  
ومن ثم فلا عيب ولا شبهة في شهادتهما والأخذ بها ، بالرغم من عدم قيامها بكتابة الشهادة والتوقيع -  
أنظر كذلك .

جسيت : الطريقة المرضية ص ١٧٣ ، أحد إبراهيم : طرق الإثبات ص ٦٤

٩٢ - لم أتمكن من قراءة بقية اسم الشاهد قزامة صحيحة أو مؤكدة ، ولذلك آرت تركه بياضا .

٩٣ - هذه هي علامة القاضي الموثق ، وقد كتبها بخط يده بقلم جليل ، والحمدلة تعبر عن شخصية  
الفاعل الوثيق ، كما كانت تفي عن التوقيع والنظم بل هي بديل لكل منهما .

القلقشني : صحيح الأضنى ج ٦ ص ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ج ١٤ ص ٢٤٢ - ٢٤٩

٩٤ - يقصد بذلك أن القاضي الموثق قد أشهد على نفسه من حضر مجلس حكمه وقضائه - وهو في  
نفس الوقت مجلس لتوثيق - أنه ثبت عنده وصح لديه بشهادة الشهود في وجه الوثيقة ما يلي :

(أ) صحة عقد الاستبدال ، كافة النواحي القانونية .

(ب) صحة فصل الجريان والأضرار .

وبناء على ذلك فإنه يقوم بالحكم بصحة التصرف وتوثيق العقد .

ابن قاضي سياه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضي لأن الغرض من الشهادة الحكم بمرجعها ، ولا كراهة في  
أن يكون مجلس القضاء والحكم في المسجد .

ابن عابدين : رد المختار ج ٤ ص ٣٨٥ ، الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٣١٩ وما بعدها .

الكاساني : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٧٩ . قراءة : الأصول القضائية ص ١٥٨ - ١٥٩

هرونس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٥ - ١٢٦

أحد إبراهيم : طرق القضاء ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، طرق الإثبات ص ١٣٤ - ١٣٥

والخاضعون لمجلس الحكم والقضاء هم الشهود الممول وكتاب الحكم من تليق للقاضي عدالتهم ويكتب لكل  
منهم اسجبال بذلك . القلقشني : صحيح الأضنى ج ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٩

وهؤلاء هم مساعو القاضي في وظيفته التوثيقية خاصة وكانوا يحملون حوله يمنة ويسرة على  
ترتيب عدالتهم ، كما كان للقاضي الحق في تفقد أمورهم وأحوالهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالمدالة  
والجرح ليحصل له الوثوق بهم .

الموردى : الأحكام السلطانية ص ٥٩ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦ حاشية ٤ ،  
فرنوس : تاريخ القضاء ص ١١٣

٩٥ - هذا هو تاريخ الاسجال الحكى وهو بخط القاضى الموثق ، وقد دوج كتاب الوثائق على ترك  
مكان التاريخ . يياضا يكتبه القاضى الموثق بنفسه كما يفعل تماما فى الحملة والحسبة . وذلك لأهمية التاريخ  
الكبيرة فى اكساب الاشهاد صفة الصحة والرسمية . أنظر ظهر الوثيقة سطر ٣٢ - ٣٤

٩٦ - الثبوت لثة حصول الأمر وتحققه عن طريقة معرفته حق المعرفة ، أو هو ما ثبت به الحق  
بنهوض الحجة والبيئة وقيام الدليل الشرعى السالم من التيب والمطاحن .

ولإثبات أمر معناه قيام الحجة على ثبوت السبب عند الحاكم (القاضى) ، فان قامت الحجة على سبب  
الحكم وانتفتت الريبة وحصلت الشروط المطلوبة شرعا ، فهذا هو الثبوت ويكون الحكم من لازمه ،  
وهذا دليل على أن الثبوت يجرى مجرى الحكم ، بدليل قولهم عند الاشهاد أو التوثيق الحكى « ولما ثبت عند  
القاضى ثبوتا شرعيا حكم ... »

والواقع أن الفعل القانونى Acte Juridique - الذى هو مصدر الالتزام - هو محل الاثبات  
وذلك متى استوفى كل شروط الشرعية من قيام البيئة والافرار بها وتركيبها وقبولها .

والثبوت عند الحنفية هو حكم بتعديل البيئة وقبولها وجريان المشهود به ، أى أنه صار كالحكم الذى  
حاز حجية الشيء المقضى به فلا يمكن التمرض لنقضه ، وإذا قيل أنه حكم بثبوت البيئة أمتنع على حاكم  
(قاض) آخر لإبطاله .

أحمد إبراهيم : طارق الاثبات الشرعية ص ٢ . ابن فرسون : تبصرة الحكام ج ١ ص ٨٢  
جميعط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ - ٢٢٢ ، ابن قاضى سماعة : جامع الفصولين ج ١ ص ١٩-  
٢٠ ، ج ٢ ص ٣٢٦ ، فرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤١ - ١٤٢

٩٧ - عن حكم القاضى الموثق أنظر عبد اللطيف إبراهيم : ثلاث وثائق فقهية ص ١٢٩ تحقيق رقم  
٥١ وما به من مراجع وجدير بالملاحظة أن حكم القاضى هنا قد تضمن ثلاثة أمور هى :

- (أ) صحة الاستبدال المكتوب فى وجه الملف - سطر ٢٠ - ٢١
- (ب) صيرورة العين المستبدلة ملكا ملكا (حرا) من أملاك الزينى رمضان - سطر ٢١ - ٢٤
- (ج) صيرورة المبلغ (التمن) المقبوض مختصا بلغة الوقف ليشترى به ما هو أنفع من الدين المستبدلة  
ويوقف على حكم شرط الواقف - سطر ٢٤ - ٢٧

٩٨ - من المعروف أن الوثيقة سواء كانت عقدا بين طرفين ( بيع - إيجار - زواج - استبدال )  
أو تصرفا من جانب واحد مثل الوقف والهبة مثلا ، لا بد أن تكون مستوفية للشروط الشرعية التى نص  
عليها الفقهاء والمؤلفون ، ولأنها بذلك تأخذ الشكل الدبلوماسى La form diplomatique  
لوثيقة ، وخاصة من حيث الصياغة القانونية rédaction technique الواجب توافرها فيها .

ومن هنا تظهر الصلة القوية بين علم الدبلوماسية والقانون وبين الوثائق العربية في العصور الوسطى والشريعة الإسلامية .

أنظر عبد العلييف إبراهيم : التوثيقات الشرعية ص ٣٩٥ تحقيق رقم ٥٩

٩٩ - أنظر كل من التحقيق رقم ٨٨ ، ٩٥ في بحثنا هذا

١٠٠ - الحسبة هي الدماء الختام في نهاية الاسجال الحكى ، وقد وردت في أبسط صورها بخط القاضى الموثق بقلم جليل .

ومن المعروف أن الحسبة قد يسبقها أو يتبعها الصلاة على النبي محمد وآله وصحبه . أنظر القلقشندي : صبح الأُمى ج ٦ ص ٢٦٧ - ٢٧٠ ، ج ١٤ ص ٣٤٢ - ٣٤٩

وإذا كانت الحسبة جزء أساسى في الاسجال بظهور الوثيقة ، إلا أنها لم ترد في نهاية وجه الوثيقة بمد التاريخ كما هي العادة - أنظر التحقيق الرقم ٨٨

١٠١ - تبدأ الشهادة الأولى - على القاضى الموثق - بصيغة « أشهدنى سيدنا العبد . . . » أما في الشهاداتين الثانية والثالثة فتبدأ بصيغة « وبذلك أشهدنى . . . » وهذه هي الصيغة التى جرت عليها شهادة الشهود في نهاية الاسجال الحكى تقريبا طوال العصر الجركسى .

أما ختام نص الشهادة فهو غالبا : « . . . . . فشهدت عليه به في تاريخه وكتب » ثم توقيع الشاهد العدل بخط يده .

والشهود هنا يشهدون على صدور الحكم من القاضى بصحة التصرف القانونى ( الاستبدال ) ولزومه وتوثيقه .

١٠٢ ، ١٠٣ - الشاهدان محمد بن حجاج الأزهرى وخضر بن محمد الأزهرى من أسرة واحدة ، ولعل كل منهما ابن عم الآخر . وكثيرا ما لاحظنا علاقة القرابة بين الموقعين وكتاب الحكم من الشهود المدلول بمجلس الحكم والقضاء ، بل إن بعضهم قد يكون من أسرة القاضى الموثق نفسه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يصل إلى منصب القضاء أحيانا . وهؤلاء الشهود المدلول هم أشبه شيء بمساعدى القاضى الموثق في العصر الوسيط . ابن قاضى سماوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٦

القلقشندي : صبح الأُمى ج ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٩

وثيقة النورى أوقاف ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، وثيقة قايتباى محكمة ١٦٨ محفظة ٢٥



بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٥٩

الحمد لله رب العالمين  
والصلاة والسلام على  
سيدنا محمد وآله الطيبين  
الطاهرين  
الذين هم  
البركة والرحمة  
والهدى والنعيم  
والعزة والكرام  
والجود والسخاء  
والعفو والصفح  
والغنى والفاخر  
والعز والبرهان  
والجود والسخاء  
والعفو والصفح  
والغنى والفاخر  
والعز والبرهان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله رب العالمين



١٠٠  
 ١٠١  
 ١٠٢  
 ١٠٣  
 ١٠٤  
 ١٠٥  
 ١٠٦  
 ١٠٧  
 ١٠٨  
 ١٠٩  
 ١١٠  
 ١١١  
 ١١٢  
 ١١٣  
 ١١٤  
 ١١٥  
 ١١٦  
 ١١٧  
 ١١٨  
 ١١٩  
 ١٢٠  
 ١٢١  
 ١٢٢  
 ١٢٣  
 ١٢٤  
 ١٢٥  
 ١٢٦  
 ١٢٧  
 ١٢٨  
 ١٢٩  
 ١٣٠  
 ١٣١  
 ١٣٢  
 ١٣٣  
 ١٣٤  
 ١٣٥  
 ١٣٦  
 ١٣٧  
 ١٣٨  
 ١٣٩  
 ١٤٠  
 ١٤١  
 ١٤٢  
 ١٤٣  
 ١٤٤  
 ١٤٥  
 ١٤٦  
 ١٤٧  
 ١٤٨  
 ١٤٩  
 ١٥٠  
 ١٥١  
 ١٥٢  
 ١٥٣  
 ١٥٤  
 ١٥٥  
 ١٥٦  
 ١٥٧  
 ١٥٨  
 ١٥٩  
 ١٦٠  
 ١٦١  
 ١٦٢  
 ١٦٣  
 ١٦٤  
 ١٦٥  
 ١٦٦  
 ١٦٧  
 ١٦٨  
 ١٦٩  
 ١٧٠  
 ١٧١  
 ١٧٢  
 ١٧٣  
 ١٧٤  
 ١٧٥  
 ١٧٦  
 ١٧٧  
 ١٧٨  
 ١٧٩  
 ١٨٠  
 ١٨١  
 ١٨٢  
 ١٨٣  
 ١٨٤  
 ١٨٥  
 ١٨٦  
 ١٨٧  
 ١٨٨  
 ١٨٩  
 ١٩٠  
 ١٩١  
 ١٩٢  
 ١٩٣  
 ١٩٤  
 ١٩٥  
 ١٩٦  
 ١٩٧  
 ١٩٨  
 ١٩٩  
 ٢٠٠

[illegible]

جزء من نص وثيقة الاستبدال ورد فيه  
اسم كل من البديل والمستبدل ( المتصرفان )



و قد علمت من سيرة القضاة المذكورة في  
 في احوالهم والنزاهة والعدل وسائر الخصال الحميدة  
 التي هي من صفات السادة القضاة في كل عصر وفي كل زمان  
 والامانة والاعتماد في الحق والعدل في كل شأن  
 ولا اذ لم يزلوا على ما هم عليه من العدل والعدل في كل شأن  
 في كل شأن والاعتماد في الحق والعدل في كل شأن

والسلامة والعدل والاعتماد في الحق والعدل في كل شأن  
 استشهدوا بذلك  
 استشهدوا بذلك  
 استشهدوا بذلك  
 استشهدوا بذلك  
 استشهدوا بذلك

شهدت بذلك  
 اعزها الله تعالى











الذي يكل غطاء الكرم لا يشرف الله على هذا  
**وحسبنا الله ونعم الوكيل**  
 هذا العهد الفخراني بعد العالي اسم الامام العادل  
 عز العلى او بعد الفضايلة في المسلم حاكم امارته لئلا  
 ماتت اليد في اجماله المستعلا فتهرب عليه في تاريخ  
 وهدى العبد في الله على احكامه احسن  
 حجاج الامير  
 وفيه كذا من ابدى الله على  
 حجاج الامير



## ملاحظات في تحقيق النص على عقد زواج

من القرن الخامس الهجرى

للدكتور حسن على حسن الطوطه

مدرس الوثائق - كلية الآداب - جامعة القاهرة

نشر ا. جرومان عقد زواج تحت الرقم (٤٥١) ، ضمن ما نشر من مجموعة الوثائق المحفوظة في دار الكتب المصرية<sup>(١)</sup> ، فأخطأ في القراءة في موضعين ، تغير مضمون العقد كثيراً ، فأرأينا أن نصحيح القراءة حتى لا يرتب المؤرخ نتائج على وقائع غير صحيحة .

(١) قرأ ا. جرومان الكلمة السابعة من السطر التاسع<sup>(٢)</sup> : « ليلي »<sup>(٣)</sup> فجاءت الجملة على النحو التالي : « وأخرت الثلاثة دنائير || ٩ الباقي مهرها عليه إلى انقضى خمسة ليلى متواليات أولهن تاريخ || ١٠ هذا الكتاب »<sup>(٤)</sup> . وهى قراءة خاطئة خطأ بينا . والصواب أن تقرأ « ستين » . ويتضح ذلك من دراسة رسم الكلمة أولاً ، وغص مدلول العقد ثانياً .

A. Grohmann, Arabic papyri in the Egyptian Library, I, Cairo, 1934, no. 45 (Pl.V), (١)  
p. 101-106.

(٢) أنظر الوحة .

(٣) أى « ليل » مع حذف الفتحة الممدودة - الألف - بين الياء الأولى واللام الثانية كما فى :  
« دينارين » = « دينارين »

A. Grohmann, o. c. no. 38. Pl. III, I, 7, 8; no. 40. Pl. IV, I, 6; no. 41, Pl. III, I, 5.

Ibidem, no. 48, Pl. VII, I, 9

و « ثلث » = « ثلاث »

Ibidem, no. 67, Pl. XVII, I, 8, 14.

و « ثلثة » = « ثلاثة »

Ibidem, no. 48, Pl. VII, I, 9.

و « ثلاثين » = « ثلاثين »

Ibidem, no. 43, Pl. IV, I, 4r, 4v; no. 37, Pl. II, I, 13.

و « ثلاثمائة » = « ثلاثمائة »

Ibidem, no. 44, Pl. VI., I 6.

و « جمدى » = « جمادى »

وغير ذلك من الأمثلة فى المرجع نفسه

(٤) يشير الرقم الموضوع فوق العلامة || إلى بداية السطر الذى يحمل هذا الرقم فى الوحة .

## ( أولا ) رسم الكلمة :

تتألف الكلمة من حروف أربعة ، خالية من النقط تماما ، في هيئة خطوط مقوسة تتفاوت في مقدار تغيرها ، الأول والرابع كبيران ، والثاني والثالث صغيران .

أما الحرف الأول فلا يمكن أن يكون اللام ، لأن كاتب الوثيقة <sup>(١)</sup> لا يكتب أبدا الخط المنتصب من اللام <sup>(٢)</sup> في هيئة خط مقوس ، مقعر قليلا ، مستلق بزاوية قدرها ٥٠ درجة تقريباً <sup>(٣)</sup> . وإنما يكتبه دائما في هيئة خط مستقيم ، غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب ، كالآلف تماما <sup>(٤)</sup> ، سواء جاءت اللام مركبة مبتدأة <sup>(٥)</sup> ،

( ١ ) يتضح من النظر إلى خط الوثيقة أن هناك أيادي ثلاثة اشتركت في كتابتها : يد أولى ( ١ ) رئيسية كتبت معظم الوثيقة ( الأسطر ١ - ٢٢ ) ، وهي اليد التي نعتبها هنا . ويدان أخريان ( ب ، ج ) ، هما يدا شاهدَي العقد ، كتبت إحداهما ( ب ) النصف الأيمن من السطر ( ٢٢ ) ، وكتبت الأخرى ( ج ) النصف الأيسر من السطر ( ٢٢ ) والسطر ( ٢٣ ) كله . أنظر القوحة ، وأنظر أيضا :

A. Grohmann, o. c., p. 101, l. 11—15.

( ٢ ) أنظر في خمسة اللام : القلقشنى ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٣٢٢ هـ - ١٩١٤ م ، ص ٣٥ .

( ٣ ) أنظر القوحة ، سطر ٩ .

( ٤ ) أنظر في خمسة الألف : القلقشنى ، المرجع المذكور ، ص ٢٧ .

( ٥ ) أنظر في القوحة الكلمات : « الرحيم » ( سطر ١ ) ؛ « المنكنا » ، « القدر » ، « الساكن » ( سطر ٢ ) ؛ « الطراف » ، « الساكنة » ، « المدينة » ، « المذكورة » ( سطر ٣ ) ؛ « العميون » ( سطر ٦ ) ؛ « ذلك » ، « لنفسها » ( سطر ٧ ) ؛ « التمين » ، « الثلاثة » ( سطر ٨ ) ؛ « الباقي » ، « إلى » ، « متواليات » ، « أولهن » ( سطر ٩ ) ؛ « الكتاب » ، « آله » ، « بالمعروف » ( سطر ١٠ ) ؛ « آله » ، « آله » ( سطر ١١ ) ؛ « له » ، « ذلك » ، « ولي » ، « بذلك » ( سطر ١٢ ) ؛ « الشيخ » ، « الفضل » ، « العباس » ، « آله » ، « القاضي » ، « القاسم » ( سطر ١٣ ) ؛ « آله » ( سطر ١٤ ) ؛ « الحكم » ، « الصلاة » ، « الخطابة » ، « القضاء » ، « المظالم » ، « أمهاتها » ، « آله » ( سطر ١٥ ) ؛ « حالها » ، « المتولى » ، « ذلك » ( سطر ١٦ ) ؛ « الناكحة » ، « الزوج » ، « المسما » ، « بالمهر » ، « المذكور » ( سطر ١٧ ) ؛ « المذكورين » ، « الكتاب » ، « له » ، « بالرضا » ( سطر ١٨ ) ؛ « الزوج » ، « المتولى » ، « النكاح » ، « ألزمه » ( سطر ١٩ ) ؛ « الزوجين » ، « المتولى » ، « الشيخ » ( سطر ٢٠ ) ؛ « العشر » ( سطر ٢١ ) .

أو مركبة محتتمة<sup>(١)</sup>، أو وسطى<sup>(٢)</sup>، أو مفردة<sup>(٣)</sup>. ولا يكتبه على غير هذه الهيئة إلا في اللام ألف، إلا أنها حرف له كيان قائم بذاته، فضلاً عن أنه يكتبه فيها مستقياً وليس مقوساً، منكباً وليس مستلقياً<sup>(٤)</sup>. وإذن فإن اليد التي كتبت الحرف الأول لم تقصد أبداً أن يكون اللام، فليست هذه طريقته في رسمها. وقراءتها لأمأ هي من ثم قراءة خاطئة، والصواب قراءتها سيناً فتلك هي طريقة الكاتب في رسمها مثبته الأسنان كما يتبين بما لا يدع مجالاً للشك من خصصها في الكلمات الأخرى التي وردت فيها<sup>(٥)</sup>.

أما الحرف الأخير فلا يمكن أن يكون الياء. ذلك أن الياء تتركب من خطوط ثلاثة: مستلق هو رأسها، ومنكب هو صدرها، ومقوس<sup>(٦)</sup>. وقد جرت عادة كاتب الوثيقة في رسم الياء المركبة المتأخرة على أن يحذف رأسها ويبقى على صدرها ليركبه على الحرف السابق كما يتبين من الكلمات التي وردت فيها الياء مركبة متأخرة<sup>(٧)</sup>. وعلى ذلك فإن صدر الياء هو دليلنا هنا في الحكم على طبيعة الحرف:

(١) أنظر في الوحة الكلمات: «جل» (سطر ١٠)؛ «قبل» (سطر ١٦)؛ «قبل» (سطر ١٨)

(٢) أنظر في الوحة الكلمات: «طلقها»؛ «طلقة» (سطر ٥)؛ «عليه» (سطر ٨)؛ «عليه» (سطر ٩)؛ «صل»؛ «عليه»؛ «عل» (سطر ١١)؛ «سلم»؛ «تسلياً»؛ «عليها» (سطر ١٢)؛ «عل»؛ «خليفة» (سطر ١٤)؛ «عل» (سطر ١٥)؛ «آجله»؛ «عليها» (سطر ١٨)؛ «عل» (سطر ١٩)؛ «عل»؛ «عليها» (سطر ٢٠)

(٣) أنظر في الوحة الكلمة: «عدل» (سطر ١٨).

(٤) أنظر في الوحة الكلمات: «الثلاثة» (سطر ٨)؛ «انصلاة»؛ «الأخوين» (سطر ١٥)؛ «الأخير»؛ «الأخر» (سطر ٢١).

(٥) أنظر في الوحة الكلمات: «سنة» (سطر ١١)؛ «سلم»؛ «تسلياً» (سطر ١٢)؛ «سنة»؛ «ستين» (سطر ٢١).

(٦) أنظر في هيئة الياء: القلقشنى، صبح الأعشى، طبعة دار الكتب الحيدوية، الجزء الثالث، ص ٣٨، ٤٧، ١٠١، ١٠٣، ١٦٨، ١٣١، ١٣٢

(٧) أنظر في الوحة الكلمات: «استقن» (سطر ٨)؛ «إلى»؛ «انقضى» (سطر ٩)؛ «يتقن» (سطر ١٠)؛ «صل»؛ «عل» (سطر ١١)؛ «نولى» (سطر ١٢)؛ «القاضى» (سطر ١٣)؛ «عل»؛ «القاضى»؛ «أبى» (سطر ١٤)؛ «عل» (سطر ١٥)؛ «المتولى» (سطر ١٦)؛ «المتولى»؛ «رضى» (سطر ١٩)؛ «المتولى» (سطر ٢٠).

فإن وجد الصدر كان الحرف ياء ، وإن لم يوجد كان حرفاً آخر غيرها . وإذا نحن دققنا النظر في الحرف الأخير من الكلمة فأننا لانجد فيه أثراً لصدر الياء على الاطلاق . وإذا نحن قرأته ياء قراءة خاطئة ، والصواب أن نقرأه نونا فتلك هي طريقة الكاتب في رسم النون مركبة متأخرة<sup>(١)</sup> بل ومفردة<sup>(٢)</sup> .

أما الحرفان الثاني والثالث فهما النون والياء على الترتيب ولا يمكن أن يكونا الياء واللام . وذلك أن اسم العدد « خمسة » وإن كان يبيح لنا أن نقرأ « ليلى » = « ليلى » أو « ستين » أو أى شئ آخر يكون معدوداً يدل على الزمن مثل « أيام » أو « شهور » إلا أن قراءة الحرفين الأول والأخير سيتنا ونونا على الترتيب — كما سبق أن بينا — يحتم علينا أن نقرأ « ستين » دون أى شئ آخر أى أن نقرأ الحرفين الثاني والثالث نونا وياه وليس ياء ولا ما . ويؤكد هذه القراءة أن تلك هي طريقة الكاتب في رسم النون الوسطى<sup>(٣)</sup> والياء الوسطى<sup>(٤)</sup> .

(١) أنظر في الوحة الكلمات : « حسن » و « بن » و « الساكن » ( سطر ٢ ) ؛ « من » و « ايمن » ( سطر ٨ ) ؛ « ستين » و « أولن » ( سطر ٩ ) ؛ « يحسن » ( سطر ١٠ ) ؛ « أين » ( سطر ١٣ ) ؛ « بن » و « الرحمن » و « الحسن » ( سطر ١٤ ) ؛ « الأشمونين » ( سطر ١٥ ) ؛ « عن » ( سطر ١٦ ) ؛ « من » ( سطر ١٧ ) ؛ « المذكورين » ( سطر ١٨ ) ؛ « من » ( سطر ١٩ ) ؛ « الزوجين » ( سطر ٢٠ ) ؛ « ستين » ( سطر ٢١ ) .

(٢) أنظر في الوحة الكلمات : « الميون » ( سطر ٦ ) ؛ « أن » ( سطر ١٠ ) ؛ « أن » ( سطر ٢٠ ) .

(٣) أنظر في الوحة الكلمات : « مدينة » ( سطر ٢ ) ؛ « الساكنة » و « المدينة » ( سطر ٣ ) ؛ « مستنصرية » ( سطر ٦ ) ؛ « ديتارا » و « منه » و « لنفسها » ( سطر ٧ ) ؛ « منه » ( سطر ٨ ) ؛ « سة » ( سطر ١١ ) ؛ « بمدينة » ( سطر ١٥ ) ؛ « النكاح » و « بينهما » ( سطر ١٩ ) ؛ « سة » ( سطر ٢١ ) . ويلاحظ أن هذا الحرف في ذاته ودون أى اعتبار آخر يصح أن يقرأ ياء أيضاً . فالكاتب يرسم النون والياء المتوسطين في هيئة سة غير منقوطة .

(٤) أنظر في الوحة الكلمات : « دنانير » ( سطر ٦ ) ؛ « ايمن » و « استين » و « دنانير » ( سطر ٨ ) ؛ « عليه » و « متواليات » ( سطر ٩ ) ؛ « عليه » و « فيها » ( سطر ١٠ ) ؛ « نبيه » و « عليه » ( سطر ١١ ) ؛ « حفيف » ( سطر ١٣ ) ؛ « بمدينة » و « الأشمونين » و « اليه » ( سطر ١٥ ) ؛ « جميعه » ( سطر ١٩ ) ؛ « الزوجين » و « الشيخ » و « جميع » و « عليهما » ( سطر ٢٠ ) ؛ « جميعه » و « الأخير » و « ستين » ( سطر ٢١ ) . ولا يمكن أن يكون هذا الحرف لاما لما سبق أن ذكرناه من طريقة الكاتب في رسم اللام عند الكلام من الحرف الأول من الكلمة .



وأخيراً فإن كلمة « ستين »<sup>(١)</sup> — ولا شك في قراءتها هكذا<sup>(٢)</sup> — تشبه كلمة « ستين » التي قرأها أ. جرومان « ليلي » = « ليلى » في رسمها وهندستها تمام حتى أنه لا يمكن التفرقة بينهما لولا سياق الكلام . وهذا الشبه يؤكد أن الحرفين الأول والأخير من الكلمة التي ندرسها إنما هما السين والنون على الترتيب ولا يمكن أن يكونا اللام والياء ، وأن الكلمة في مجموعها هي « ستين » ولا يمكن أن تكون « ليلي » = « ليلى » .

ولو فرضنا جدلاً أن كاتب العقد أراد أن يكتب « ليلي » = « ليلى » وليس « ستين » فإن ما توهمه أ. جرومان من وجود ألف أسقطها الكاتب بين الياء واللام استناداً ولا شك إلى ما جرت عليه عادة بعض الكتاب من حذفها في بعض الكلمات<sup>(٣)</sup> لا يتفق أبداً مع ما جرت عليه عادة كاتب العقد من إثبات الألف في هذه الكلمات عينها وهو ما تشهد عليه كلمة « دنائير »<sup>(٤)</sup> و « ديتار »<sup>(٥)</sup> و « الثلاثة »<sup>(٦)</sup> و « جمادى »<sup>(٧)</sup> . وعلى ذلك فإن كاتب العقد لو أنه أراد أن يكتب « ليلي » = « ليلى » وليس « ستين » لكان كتبها « ليلى » مع إثبات الألف وليس « ليلي » مع حذفها كما توهم أ. جرومان . وهذا يؤكد مرة أخرى أن الكلمة هي « ستين » وليس « ليلي » .

### « ثانياً ) معلول عقد الزواج :

يتلخص عقد الزواج في أن « حسن بن المكننا بأبو البدر »<sup>(٨)</sup> « أصدق » ضيا ابنة غنایم<sup>(٩)</sup> الطواف<sup>(١٠)</sup> « أربعة دنائير مستنصرية استرجعها بها — بعد طلاقة

( ١ ) أنظر في اللوحة الكلمة الثانية عشرة من السطر الحادى والعشرين .

( ٢ ) وقد قرأها أ. جرومان هكذا .

( ٣ ) أنظر ص ٣٩ حاشية ٣

( ٤ ) أنظر في اللوحة الكلمة الرابعة من السطر السادس .

( ٥ ) أنظر في اللوحة الكلمة الثالثة من السطر السابع .

( ٦ ) أنظر في اللوحة الكلمة بالمشرة من السطر الثامن .

( ٧ ) أنظر في اللوحة الكلمة الثامنة من السطر الحادى والعشرين .

( ٨ ) قرأها أ. جرومان « القدر » .

( ٩ ) قرأها أ. جرومان « عظام » أو « غنام » أو « غنام »

( ١٠ ) قرأها أ. جرومان « الطواف »

واحدة — وعجل لها منها دينارا واحداً وأخرت هي الثلاثة دنانير الباقي مهرها عليه إلى انقضاء خمس سنوات أولهن تاريخ العقد <sup>(١)</sup> . ولكن ا. جرومان قرأ « خمسة ليلى » ( = « ليلى » ) بدلا من أن يقرأ « خمسة سنين » . و « خمسة ليلى » ( = « ليلى » ) فترة زمنية قصيرة جداً لا تتبين الحكمة من تأخير أجل الصداق إلى حين انقضائها ، لاسيما إذا كان المقصود أن يكون السداد على نجوم خمسة بواقع ثلاثة أعماس دينار عند كل نجم <sup>(٢)</sup> ومقابل إقرار من الزوجة بالقبض في كل مرة <sup>(٣)</sup> . ويؤكد رأينا هذا أن هناك خمسة عقود زواج أخرى نشرها ا. جرومان ، ضمن مانشر من مجموعة الوثائق المحفوظة في دار الكتب المصرية ، تحت الأرقام ( ٣٨ ) و ( ٤٠ ) و ( ٤١ ) و ( ٤٢ ) و ( ٤٤ ) ، ثلاثة منها ( رقم ٣٨ و ٤٠ و ٤١ ) من النصف الأول من القرن الثالث الهجري <sup>(٤)</sup> ، وواحد ( رقم ٤٢ ) من القرن الثالث الهجري <sup>(٥)</sup> ، وواحد ( رقم ٤٤ ) من بداية القرن الخامس

( ١ ) « في المشر الأخير من جمادى الآخر سنة إحدى وستين وأربعمائة » ( ١٧ من أبريل - ٢٦ من عام ١٠٩٦ م ) أنظر القوحة ( سطر ٤ ) وكذلك التعليق على السطر الرابع في  
A. Grohmann o. c., p. 106.

( ٢ ) أنظر A. Grohmann, o. c., p. 71-72

( ٣ ) أنظر A. Grohmann, o. c., p. 72 حيث يقول :

« A receipt is given for the sadâq as also for the various instalments (cf. no. 49 ff.) » . وقد جاءت ترجمة هذه الجملة في « أوراق البردى العربية ، الجزء الأول ، ص ٧٧ ، على النحو التالي : « وكان يعطى إيصال كما كان الحال عند دفع كل نجم من أنجم الصداق ( راجع رقمي ٤٩ و ٥٠ ) » والصواب : « وكان يعطى إيصال عند دفع مقدم الصداق وكذلك عند دفع كل نجم من أنجم مؤجل الصداق » .

( ٤ ) « في شهر ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين » ( ٥ من يناير - ٤ من فبراير عام

٨٧٢ م . أنظر . A. Grohmann, o. c., n. 38 (Pl. III), l. 18-19 ; p. 73.

في التعليق على السطرين ١٨ و ١٩ المذكورين ؛ « في المشر الأواخر من شعبان سنة إحدى وسبعين ومائتين » ( ١١ من فبراير - ٢٠ من فبراير عام ٨٨٥ م ) أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 40 (Pl. IV) l. 11, 8 ; p. 85.

في التعليق على السطر ١١ المذكور ؛ « وذلك في المشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ومائتين » ( ١٨ من سبتمبر - ٢٧ من سبتمبر عام ٨٩٢ م ) أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 41 (Pl. III), l. 16 ; p. 91.

في التعليق على السطر ١٦ المذكور .

( ٥ ) تأكل الجزء الذي فيه صيغة التاريخ ، ويقترح ا. جرومان القرن الثالث الهجري . أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 42 (Pl. V), p. 91.

المهجري<sup>(١)</sup> ، وقد سجل فيها جميعا جزء من الصداق وأجل الجزء الباقي إلى انقضاء سنة واحدة<sup>(٢)</sup> أو خمس سنوات متواليات<sup>(٣)</sup> أو ثمانى حجج متواليات<sup>(٤)</sup> . وليس من بينها عقد واحد آخر فيه أجل الصداق إلى انقضاء بضع ليالى<sup>(٥)</sup> . وقد تلبه ا . جرومان إلى أن تأخير الثلاثة دنانير — فى العقد الذى ندرسه (رقم ٤٥) — إلى انقضاء خمس ليالى متواليات — على ما توهم — من تاريخ العقد لا يتفق وما جرى عليه العرف فى عقود الزواج الأخرى . ولم يجد بطبيعة الحال تفسيراً لذلك فاعتر أن الأمر لا يعدو أن يكون حالة شاذة ، فيقول :

«an exceptional instance is found in no. 45, 1.8-10, where the balance of three dinars is payable within five successive nights from the date of the document.» (٦)

(١) تأكل الجزء الذى فيه صيغة التاريخ ، ويقترح ا . جرومان ١٥ من جمادى الأولى عام ١٩١٩ م (١١ من يونيو ١٩٢٨ م) استنادا ولا شك إلى ما جاء فى السطرين الخامس والسادس من العقد من تأخير أجل الصداق إلى انقضاء سنة واحدة أولا فى النصف من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وأربعمائة . ونحن نبتفق معه فى هذا ، لأنه جرت العادة فى عقود الزواج التى نشرها ا . جرومان فى المرجع المذكور أن يكون تأخير أجل الصداق ابتداء من تاريخ العقد . أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 44 (Pl. VI), p. 96.

(٢) «وعلى أن الدينار الذى هو بقية صداقها مؤخر لها إلى انقضى سنة واحدة أولا فى النصف من جمادى الأولى من سنة تسع عشرة وأربعمائة » أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 44 (Pl. VI), 1,5-6

(٣) « ويبقى لعائشة ابنت يوسف الله على زوجها اسمعيل مولى أحمد بن مروان دينارين مؤخرين إلى خمسة سنين الله أولهن شهر ربيع الأول سنة تسع وخسين ومائتين » أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 38, (pl. III), 1.7-9.

« وأخرت . . صداقها على زوجها بحسن بن شودة الله خمسة سنين متواليات أولهن شعبان

من سنة احدى وسبعين ومائتين » أنظر 1.7-8, A. Grohmann, o. c., no. 40 (Pl. IV).

« بعد أن خلين خمسة سنين متواليات أولهن جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين ومائتين » أنظر

A. Grohmann, o. c., no. 41 (Pl. III), 1.6.

(٤) « ويبقى لها [كذا ديتار] مؤخرها لها عليه إلى انقضى ثمانية حجج متواليات الله أولهن تاريخ

A. Grohmann, o. c., no. 42 (Pl. V), 1.4-5.

هذا الكتاب » أنظر والمقصود بالحجة هنا السنة . أنظر 94. A. Grohmann, o. c., p. 94. فى التعليق على السطر رقم ٤ (٥) أنظر أيضا فى تأكيد وجهة نظرنا :

Papyrus aus der Sammlung der staatlichen Museen zu Berlin, 12789, 15055.

ومجموعة البرديات المحفوظة فى دار الكتب المصرية (تاريخ ١٧٣٥ / ٤ ؛ ١٧٣٥ / ٥

١٧٣٥ . وقد جاء ذكرها فى A. Grohmann, o. c., p. 72. فى التعليق على السطر (٦) من العقد (٣٨)

A. Grohmann, o. c., p. 72.

(٦)

وجاءت ترجمة ذلك على النحو التالي :

« وتوجد حالة شاذة عثرنا عليها في رقم ٤٥ س ٨ — ١٠ حيث يتكون الباقي من ثلاثة دنانير تدفع في خمس ليال متواليات مبتدئة من التاريخ الذي حرر فيه الصك » (١) .

ولم يفتبه إلى أن ما اعتبره حالة شاذة إنما هو في الحقيقة خطأ من جانبه في قراءة الكلمة . وأن القراءة الصحيحة هي « خمسة سنين » — كما بينا — وليس « خمسة ليل » .

### ( ثالثاً ) كيف وقع الخطأ ؟

وجدنا إذن ، استناداً إلى رسم الكلمة ومدلول العقد ، أن القراءة الصحيحة هي « سنين » وليس « ليل » ( = ليال ) . وتساءل الآن كيف وقع ا. جرومان في الخطأ . وتقوم أهمية هذا السؤال في أن الإجابة عليه تخص فصلاً من فصول منهج البحث في الوثائق بوجه عام والوثائق العربية بوجه خاص (٢) . ذلك أن ناشر الوثائق العربية إن هو في الحقيقة إلا ناسخ من طبعة ممتازة من النساخ — أو هذا هو المفروض أن يكون على الأقل — فإذا نحن قمنا الظروف التي تؤدي إلى وقوعه في الخطأ وحرصنا بالتالي على تحاشيها فإننا نقرب بذلك شيئاً فشيئاً ، قدر الإمكان ، من الكمال المنشود في نشر الوثائق العربية .

ونحن نعتقد أن ثمة ظروفًا ثلاثة أدت تضافرها إلى وقوع ا. جرومان في القراءة الخاطئة :-

### ( الظرف الأول ) تكون عادة في القراءة مفصلة ؟

نلاحظ أن كاتب العقد يتبع طريقتين مختلفتين في رسم السين . الطريقة الأولى

---

( ١ ) أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية ، ترجمة المؤلف ا. جرومان بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن . السفر الأول ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ م ، ص ٧٦ - ٧٧

( ٢ ) هو فصل نقد النص في كتب المنهج التاريخي — وهو المنهج الذي يتبع على وجه العموم في نقد الوثائق . انظر على سبيل المثال Robert Marichal, La critique des textes (Encyclopédie de la Pléiade XI : L'histoire et ses méthodes, Paris, 1961. P. 1247-1366).

أن يثبت أسنانها الثلاثة وهو الأغلب<sup>(١)</sup> . والطريقة الثانية أن يرسلها ارسالا دون أن يثبت أسنانها وهو الأقل ولا يتحقق إلا في ست كلمات فقط<sup>(٢)</sup> . ونلاحظ من ناحية أخرى أن كلمة ( سنين ) التي وقع الخطأ في قراءتها هي أول كلمة من كلمات العقد يرسمها الكاتب بسين مرسلة غير مثبتة أسنانها بينما جميع الكلمات السابقة عليها قد أثبتت أسنان السين فيها<sup>(٣)</sup> . وعلى ذلك فإنه يبدو لنا أن ا. جرومان عندما بلغ من قراءة العقد كلمة « سنين » تعذر عليه أن يرى في الحرف الأول منها سبينا لأنه كانت قد تكونت لديه عادة عقلية - قوامها أن كاتب العقد يرسم السين مع إثبات أسنانها - منعه من أن ينتبه إلى انتقال الكاتب من طريقته الأولى في رسم السين إلى طريقته الثانية في ذلك . لا سيما وأن الكاتب قد عاد بعد ذلك مباشرة إلى طريقته الأولى في رسم السين مثبتة أسنانها كما يتبين من الكلمتين « يحسن »<sup>(٤)</sup> و « سبحانه »<sup>(٥)</sup> .

#### ( الظرف الثاني ) سياق كلام وتشابه رسم وعادة نسخ :

ولما فات ا. جرومان أن يقرأ « سنين » لأنه لم ير في الحرف الأول من الكلمة سينا ، وكان سياق الكلام يقتضي بعد اسم العدد « خمسة » كلمة تكون معدوداً يدل على الزمن<sup>(٦)</sup> فإنه لم يكن أمامه إلا أن يقرأ « ليلى » ( = ليالي ) استفاداً إلى

- 
- ( ١ ) أنظر في الوصلة الكلمات : « حسن » و « الساكن » ( سطر ٢ ) ، « الساكنة » ( سطر ٣ ) ، « مستأنفا » ( سطر ٤ ) ، « استرجعها » ( سطر ٥ ) ، « مستنصرية » ( سطر ٦ ) ، « لنفسها » ( سطر ٧ ) ، « استيق » ( سطر ٨ ) ، « خمسة » ( سطر ٩ ) ، « يحسن » ( سطر ١٠ ) ، « سبحانه » ( سطر ١١ ) ، « العباس » و « القاسم » ( سطر ١٣ ) ، « الحين » و « مسرة » ( سطر ١٤ ) ، « مستحقة » ( سطر ١٦ ) ، « الميا » ( سطر ١٧ ) ، « نفسه » ( سطر ١٩ ) . كما يلاحظ أن الكاتب يرسم الشين مثبتة أسنانها دائما : « الشيخ » ( سطر ١٣ ) ، « الأشوثين » ( سطر ١٥ ) ، « كشف » ( سطر ١٦ ) ، « شامى » و « شهدا » ( سطر ١٨ ) ، « شهد » و « الشيخ » ( سطر ٢٠ ) ، « العشر » ( سطر ٢١ ) .  
( ٢ ) أنظر في الوحة الكلمات : « سنين » ( سطر ٩ ) ، « ستة » ( سطر ١١ ) ، « سلم » و « تمليا » ( سطر ١٢ ) ، « ستة » و « ستين » ( سطر ٢١ ) ، أنظر ص ٤١ هامش ٥  
( ٣ ) أنظر الكلمات المذكورة في الهامش ( ١ ) من حلة الصفيحة في الأسطر ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩

( ٤ ) أنظر الوحة ( السطر العاشر )

( ٥ ) أنظر الوحة ( السطر الحادى عشر ) .

( ٦ ) أنظر ص ٤٢

قرائن ظلها سليمة كلها . القرينة الأولى أن النظرة الأولى غير الفاحصة ولا المقارنة يمكن أن ترى في الهيئة العامة للكلمة « ليلى »<sup>(١)</sup> . والقرينة الثانية أن هناك تشابهاً في الرسم بين قوسى الياء والنون - المركبتين المحتمتين - يجعله يرى في الحرف الأخير من الكلمة ياء<sup>(٢)</sup> . والقرينة الثالثة أن الحرف الثانى من الكلمة يصح أن يكون في ذاته ياء<sup>(٣)</sup> . والقرينة الرابعة أن من عادة بعض كتاب ذلك العصر الذى كتب فيه العقيد أن يحدفوا الألف - أو الفتحة الممدودة - في بعض الكلمات فنسب هذه العادة إلى كاتب العقد لتكتمل له حروف كلمة « ليالى » الخمسة وتستقيم له القراءة التى يريد<sup>(٤)</sup> .

### ( الطرف الثالث ) اففال مبدا من مبادئ نقد النص : هو مقارنة رسم الحروف :

ولكن ربما كان يمكن أن يتجنب ا. جرومان الوقوع في القراءة الخاطئة<sup>[١]</sup> لو أنه درس كل حرف من حروفها ، وقارن طريقة رسمه فيها بطريقة رسمه في الكلمات الأخرى من العقد . ولكنه لم يقم بهذه الدراسة المقارنة ، فأغفل بذلك مبدأ من مبادئ نقد النص نبع بعض الدبلوماسيين الألمان من أمثال تيودور فون سيكل (Th. von Sickel) في تطبيقه في دراسة وثائق العصر الوسيط الأوربي<sup>(٥)</sup> . ولعله ، وإن كان قد صادف شيئاً من الصعوبة في قراءة الكلمة ، قد طاب نفساً بما خطر له من قراءة براءة ، فلم يلق بالآ إلى مبدأ المقارنة . ولما تبين له ما في تأخير أجل الصداق إلى انقضاء خمس ليالى متواليات من خروج على المألوف في عقود الزواج في ذلك العصر ، اعتبر ذلك حالة شاذة ، ولكنه لم يشك لحظة واحدة في أن ما اعتبره حالة شاذة إن هو في الحقيقة إلا خطأ منه في قراءة الكلمة<sup>(٦)</sup> .

(١) ولكن النظرة الأولى أيضا يمكن أن ترى في الهيئة العامة للكلمة « ستين » . وقد بينا أن النظرة الفاحصة المقارنة لا يمكن أن تقرأ غير ذلك .

(٢) والواقع أنه يوجد فارق في الرسم بين الياء والنون المركبتين المحتمتين . أنظر ص ٤١ - ٤٢

(٣) كما يصح أن يقرأ نوتا . أنظر ص ٤٢

(٤) أنظر ص ٣٩ هامش ٣ ، ص ٤٣ . وقد بينا في ص ٤٣ خطأ إضافة هذه العادة إلى الكتاب .

(٥) أنظر A. de Bouard, Manuel de diplomatique française et pontificale, I, Paris,

1939, p. 28-29.

(٦) أنظر ص ٤٤ - ٤٦

(ب) — كذلك قرأ ١. جرومان في السطر السادس عشر : « وَتَزَوَّجَهَا »  
وكيل المتولى ذلك » ، ولنا منه أن الواو لعطف هذه الجملة على الجملة السابقة عليها ،  
وأن « تزوج » فعل ماضٍ مفعوله الضمير المؤنث المتصل به وفاعله « وكيل » ،  
وأن « وكيل » مضاف و « المتولى » مضاف إليه ، و « ذلك » اسم إشارة للعاقل  
بدل من « وكيل » (١). وهذه قراءة خاطئة . والصواب في ، رأينا ، أن يقرأ :  
« ... وَتَزَوَّجَهَا » . فقبل المتولى ذلك » على اعتبار أن « تزوج » اسم مجرور  
معطوف على الاسم الذي قبله وهو « كشف » بواو العطف ، وأنه مضاف والضمير  
للمؤنث المتصل به مضاف إليه ، وأن « قبل » فعل ماضٍ فاعله « المتولى » ، وأن  
« ذلك » مفعول به يشير إلى غير العاقل وهو أمر القاضي « أبو القاسم » إلى  
الشيخ « أبو الفضل » بكشف حال « الزوجة » « وتزوجها » . فيكون الكلام :  
« ... وولى تزويجها إياه بذلك || ١٣ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله  
بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم || ١٤ عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفه  
القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله || ١٥ علي الحكم والصلاة والخطابة والقضا  
والمظالم بمدينة الأثمنين وأعمالها إليه || ١٦ بكشف حالها وتزوجها فقبل المتولى  
ذلك وكشف عن حالها فوجدها مستحقة || ١٧ الناكحة فزوجها من الزوج المسمى  
معا فيه ... » ولا يكون الكلام : « ... وولى تزويجها إياه بذلك || ١٣ الشيخ  
أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم || ١٤ عبد الله  
بن علي بن عبد الرحمن خليفه القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله || ١٥ علي الحكم  
والصلاة والخطابة والقضا والمظالم بمدينة الأثمنين وأعمالها إليه || ١٦ بكشف  
حالها وتزوجها وكيل المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجدها مستحقة || ١٧  
الناكحة فزوجها من الزوج المسمى معا فيه ... » .

ويتضح لنا ذلك من دراسة رسم كلمة « فقبل » أولا ، ونخص مدلول  
البعد ثانيا .

(١) وقد ترجم هذه الكلمات :

And this representative of the guardian has given her in marriage.

A. Grohmann, o. c., p. 104, 1. 16. أنظر :

## (أولاً) رسم الكلمة :

أن الحرف الذي قرأه ١. جرومان كافاً في ما ظن أنه كلمة « وكيل » إنما هو قاف وليس كافاً ، فليست هذه طريقة كاتب العقد في رسم الكاف المركبة سواء كانت مبتدأة أو متوسطة أو مختتمة . فهو يكتبها في هذه الحالات مبسوطة من خطوط أربعة : مستلق ، ومستلق (أو مقوس أحياناً) أحد زاوية من المستلق الأول ، ومتنصب ، ومستلق مواز للمستلق الثاني وأطول منه قليلاً (١) ، ولا يكتبها أبداً في هيئة رأس مستديرة وقوس هذه طريقته في كتابة القاف المركبة المبتدأة (٢) .

## (ثانياً) مدلول العقد :

أن ثمة أسباباً ثلاثة تمنعنا من أن نقرأ : « وَتَرْوَجَّهَا وَكِيلَ الْمُتَوَلَّى ذَلِكَ » .

(١) السبب الأول أن المقصود بكلمة « المتولى » (٣) (السطر ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ من العقد) من « ولي » (السطر ١٢ من العقد) هو « الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن غيف » وهو ما تؤكد العبارة « شهد على إقرار الزوجين

---

(١) أنظر في اللوحة ، فيما يتعلق بالكاف المركبة المبتدأة ، الكلمات : « الساكن » (سطر ٢) ، « الساكنة » (سطر ٣) ، « كانت » (سطر ٤) ، « كا » و « كتابه » (سطر ١١) ، « كشف » (سطر ١٦) ، « الناكحة » و « المذكور » (سطر ١٧) ، « المذكورين » (سطر ١٨) ، « كتب » (سطر ٢١) ، ٢٢ ، ٢٣ . وأنظر فيما يتعلق بالكاف المركبة المتوسطة ، الكلمات « المكتنا » (سطر ٢) ، « الكتاب » (سطر ١٠) ، « الحكم » (سطر ١٥) ، « بكشف » (سطر ١٦) ، « الكتاب » (سطر ١٨) ، « النكاح » (سطر ١٩) . وأنظر ، فيما يتعلق بالكاف المركبة المختتمة ، الكلمات : « ذاك » (سطر ٧) ، ١٢) . وأنظر من رسم الكاف : الفلشندي ، صبح الأعشى ، طبعة دار الكتب الخديوية ، ٣٤-٣٥ و ٨٤-٨٥

(٢) أنظر في اللوحة الكلمات : « أصلقها » (سطر ٦) ، « قبضته » (سطر ٧) ، « قبض » (سطر ٨) ، « الباقي » (سطر ٩) ، « أقرار » (سطر ٢٠) ، « قرى » (سطر ٢٠) ، « فأتروا » (سطر ٢٠) ، « أقرار » (سطر ٢٢)

(٣) وقد ترجمها أ. جرومان : guardian في A. Grohmann, o. c. p. 103-105 في الأسطر ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ من ترجمة العقد .



والتولى الشيخ بجميع ما فيه<sup>(١)</sup> » حيث « الشيخ » بدل من « المتولى »<sup>(٢)</sup> .  
وليس في العقد ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن « المتولى الشيخ » قد وكل عنه  
أحداً للكشف عن حال الزوجة وتزوجها من الزوج حتى يحق لنا أن نقرأ « وكيل »  
ونعتبر « ذلك » اسم إشارة للعاقل بدلا من « وكيل » المزعومة . إن هناك سؤالا  
تثيره هذه القراءة الخاطئة ولا يملك صاحبها جوابا عليه : أين هو « وكيل  
المتولى ذلك » ؟ .

(ب) السبب الثاني أن كاتب العقد يفرق في الاستعمال بين الفعل الماضي « تزوج »  
والفعل الماضي « زوج » ، وهو ما تبينه ا. جرومان ولا شك عندما ترجم الفعلين :  
«and by it he takes her ..... in marriage.»<sup>(٣)</sup> و «So he married her to  
the husband named together with her herein.»<sup>(٤)</sup>

على الترتيب . فإذا نحن قرأنا « وتزوجها وكيل المتولى ذلك » لكان في هذه القراءة  
خروج بمعنى الفعل « تزوج » إلى معنى آخر وهو « زوج » ، وهذا ما لا يفعله  
كاتب العقد

(ج) السبب الثالث أن القراءة التي يريد ا. جرومان معناها أن وكيل الشيخ  
« أبو الفضل » زوج « ضيا » من الزوج المذكور قبل الكشف عن حالها ، ثم كشف  
عن حالها بعد ذلك فوجدها مستحقة النكاح فزوجها إياه ا ومعناها أيضاً أن القاضي  
« أبو القاسم » أمر الشيخ « أبو الفضل » بكشف حال الزوجة وحسب ، ولكن  
وكيل الشيخ كشف عن حالها وزوجها فضلا عن ذلك . وعلى الحالين فإن هناك  
خروجاً على منطق العقد السليم . فلننطق بالسليم بقضى بأن يأمر القاضي الشيخ

(١) السطر ٢٠ من العقد .

(٢) وقد ترجم ا. جرومان هذه العبارة :

«(The following witnesses) have testified to the acknowledgment by the  
couple and the guardian, the Saib, of all that (is contained) herein.»

أنظر A. Grohmann, o. c., p. 105. ، السطر ٢٠ من ترجمة العقد .

(٣) أنظر السطر ٤ من اللوحة : « وتزوجها به » وأنظر A. Grohmann, o. c., p. 103. ،

السطر ٤ من ترجمة العقد .

(٤) أنظر السطر ١٧ من اللوحة : « فزوجها من الزوج المسمى معها فيه » . وأنظر

A. Grohmann, o. c., p. 104. ، السطر ١٧ من ترجمة العقد .

بأن يكشف عن حال الزوجة أولا ويزوجها ثانيا ، فيقبل المتولى الشيخ ذلك فيكشف عن حالها ، فيجدها مستحقة النكاح ، فيزوجها من الزوج المسمى معها في العقد .

وهكذا فإن مضمون العقد ، فضلا عن رسم الكلمات ، يحتم علينا أن نصصح القراءة في الموضعين المذكورين على ما بينا .

### قراءة عقد الزواج (١)

- ١ [بسم الله] [الرحمن] [الرحيم]
- ٢ هذا (١) ما أصدق حسن بن المكنا بأبو القدر (٢) الساكن يومئذ مدينة [الأشمونين] .
- ٣ ضيا ابنة عثمان (٣) الطراف (٤) الساكنة يومئذ بهذه المدينة المذ [كورة]

(١) نورد هنا قراءة ا. جرومان المقد (A. Grohmann, o. c., p. 102-103) . وثبتت في الهوامش ما نراه من تصحيحات لها .

(٢) نقترح « البدر » لأن الحرف الثالث من الكلمة أقرب إلى الباء منه إلى القاف كما يتبين من مقارنة رسم هذين الحرفين عند وقوعهما متوسطين في مواضع مختلفة من المقد : أنظر الكلمات : « طلقها » و « طلقه » (س ٥) ، « انقضى » (س ٩) ، « تبنى » (س ١٠) ، « القاضي » و « القاسم » (س ١٤) ، « القاضي » (س ١٥) ، « القضا » (س ١٦) ، فيما يتعلق بالقاف المتوسطة . وأنظر الكلمات : « الباقي » (س ٩) ، « صبيها » (س ١٠) ، « سبعا » و « نبيه » (س ١١) ، « حيد » (س ١٤) ، « محطبة » (س ١٩) ، فيما يتعلق بالباء المتوسطة .

(٣) نقترح « غنيم » لوجود حرف رابع ، نعتقد أنه الياء ، أسقطه الناشر . قارن في اللوحة الكلمات : « تزويجا » (س ٤) ، « يحسن » (س ١٠) ، « تزويجها » (س ١٢) ، « بمدينة » (س ١٥) .

(٤) نقترح « الطواف » ، لأن الحرف الرابع من الكلمة أقرب في رسمه إلى الواو منه إلى الراء . أنظر طريقة رسم الواو المركبة المتأخرة ، في اللوحة ، في الكلمات : « بأبو » و « يومئذ » (س ٢) ، « يومئذ » (س ٣) ، « العيون » (س ٦) ، « متواليات » (س ٩) ، « أبو » (س ١٣) ، « المتول » (س ١٦) ، « الأشمونين » (س ١٥) ، « المذكور » (س ١٧) ، « المذكورين » (س ١٨) ، « المتول » (س ١٩) . وقارن بذلك رسم الراء المركبة المتأخرة ، في اللوحة ، في الكلمات : « استرجعها » (س ٥) ، « دنائير » و « مستصرية » (س ٦) ، « وأبرأته » و « برأة » و « أغرت » و « الدنانير » (س ٨) ، « مهرها » (س ٩) ، « بالمعروف » (س ١٠) ، « أمر » (س ١١) ، « بأمر » (س ١٣) ، « مسرة » (س ١٤) ، « بالمهر » (س ١٧) ، « بالرضا » (س ١٨) ، « جرت » (س ١٩) ، « أقراد » و « قري » و « فأقرا » (س ٢٠) ، « العشر » و « الأخير » و « الآخر » (س ٢١) .

- ٤ وتزوجها به تزويجا مستأنفاً إذ كانت زوجته به .... هذا ... [ ]
- ٥ ودخل بها وأصابها وطلقها طلقة واحدة واسترجعها بهذا
- ٦ الصداق أصدقها أربعة دنانير مستنصرية جياذ العيون قدحا
- ٧ م[ن] ذلك ديناراً واحداً قبضته منه لنفسها نقداً في يدها تاماً وأفاً
- ٨ وأبرأته منه ومن اليمين عليه براءة<sup>(١)</sup> قبض واستبقى وأخرت الثلاثة دنانير
- ٩ الباقي مهرها عليه إلى أن انقضى خمسة ليلى<sup>(٢)</sup> متواليات أولهن تاريخ
- ١٠ هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويمسح بصحتها بالمعروف
- ١١ كما أمر الله سبحانه في كتابه وستة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله
- ١٢ وسلم تسليماً وله عليها مثل ذلك ودرجة زائدة وولى تزويجها إياه بذلك
- ١٣ الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو القاسم
- ١٤ عبد الله<sup>(٣)</sup> بن علي بن الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله
- ١٥ على الحكم والصلاة والخطابة والقضا والمظالم بمدينة الأشمونين وأعمالها إليه
- ١٦ بكشف حالها وتزوجها وكيل<sup>(٤)</sup> المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجها<sup>(٥)</sup>

مستحقة

(١) جاء في العقد « براءة » وليس « براءة » .

(٢) أقرأ « ستين » . وقد بينا ذلك في هذه الدراسة .

(٣) الحرف الأخير في هذه الكلمة هو الميم وليس الهاء . أنظر طريقة الكاتب في رسم الميم المركبة المختصة في كلمة « وسلم » ( سطر ١٢ من القوصة ) وطريقته في رسم الهاء المركبة المختصة في كلمة « الله » ( سطر ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ من القوصة ) وفي كثير غيرها من كلمات العقد . ويلاحظ أيضاً أن الانفراج ما بين اللامين أكبر في هذه الكلمة منه في كلمة « الله » في مواضع العقد الأخرى ما يحتمل معه أن يكون سهواً . لعل الكاتب أراد أن يكتب كلمة « الله » فأخطأ وكتب هذه الكلمة الأخرى .

ومع ذلك فقد تكون الكلمة هي « الله » على اعتبار أن الحرف الأخير فيها هو الهاء ، وليس الميم ، وسبها الكاتب في صورة أخرى ، واتصلت بالعلامة (ـ) فوق كلمة « والصلاة » (س ١٥ من القوصة) .

أنظر هذه العلامة فوق حرفي السين والشين في :

A. Grohmann, o. c., Pl. X.

(٤) أقرأ « فقبل » واجمل من الفعل السابق « تزويجها » اسماً مطوفاً على « كشف » ومن الكلمة التالية « المتولى » فاعلا ، ومن « ذلك » اسم إشارة لغير الماقل ، على ما بينا في هذه الدراسة .

(٥) أقرأ « فوجيها » . فالهاء هنا مركبة مبتدأة وليست مركبة متوسطة . أنظر طريقة كاتب العقد في تركيب الهاء المركبة المتوسطة على الحرف السابق عليها في الكلمات :- « بهذه » ( سطر ٢ ) ، =

- ١٧ الناكحة فزوجها من الزوج المسما معها فيه بإذنها ورضا<sup>(١)</sup> وبالمر  
المذكور عاجله
- ١٨ وأجله المذكورين في هذا الكتاب وشاهدي عدل شهدا له عليها بالرضا وقبل
- ١٩ الزوج من المتولى هذا النكاح ورضى به وألزمه نفسه بمخاطبة جرت  
بينهما على جميعه
- ٢٠ شهد على إقرار الزوجين والمتولى الشيخ بجميع ما فيه بعد أن قرئ<sup>(٢)</sup>  
عليهم<sup>(٣)</sup> فأقروا<sup>(٤)</sup> بفهمه
- ٢١ بمعرفة<sup>(٥)</sup> جميعه وكتب في العشر الأخير من جمادى الآخر سنة إحدى  
وستين وأربعماية
- ٢٢ شهد على بن نجيد بن على المغربي على إقرار الزوجين والمتولى وكتب<sup>(٦)</sup>  
في تاريخه شهد على بن حفص بن على بن حفص على إقرار الزوجين
- ٢٣ والمتولى بما فيه وكتب<sup>(٧)</sup> في تاريخه

== « وتزوجها » (س ٤) ، « بها » و « وأصابها » و « طلقها » و « واسترجعها » ، « هذا » (س ٥) ،  
« وأصدقها » (س ٦) ، « لنفسها » (سطر ٧) ، « مهرها » و « أولادها » (س ٩) ، « فيها »  
و « مصبتها » (س ١٠) ، « عليها » و « تزوجها » (س ١٢) ، « وأصلها » (س ١٥) ، « حالها »  
و « تزوجها » (س ١٦) ، « فزوجها » و « معها » و « بإذنها » و « بالمهر » (سطر ١٧) ، « شهد »  
و « عليها » (سطر ١٨) . ثم أنظر طريقة الكاتب في رسم الهاء المركبة المبتدأة في الكلمات : « نقدها »  
(س ٦) ، « يدها » (س ٧) ، « مهرها » (سطر ٩) .

(١) لعل الكاتب سماها فكاتب « ورضا » حيث يريد أن يكتب « ورضاها » .

(٢) جاء في المقد « قرئ » دون المفعلة .

(٣) أقرأ « عليهما » .

(٤) أقرأ « فأقرا » .

(٥) أقرأ « ومعرفة » .

(٦) أقرأ « بما فيه » .

(٧) أقرأ « بما فيه » .

« لوحة عقد الزواج (١) »



(١) يوجد الأصل في دار الكتب تحت الرقم ١٤٥ . وهو مكتوب بالحرر الأسود على ورق أصفر رمادي طوله ٢٣ سم وعرضه ٢٠,٨ سم . والظاهر خال من الكتابة وقد طوى الورق من الوسط ثم طوى من الوسط طياً ثانياً موازياً للسطور من أسفل إلى أعلى . وعرض الطيات المتواليات كالآتي : ٣,٦ و ٣,٧ و ١,٥ و ٥,٥ و ٤ سم . والمقد في حالة جيدة . ولعله كشف بالأشعوتين : (A. Grohmann, o. c., p. 101).



## الطرق الصوفية في مصر

للدكتور أبو الوفا الفينمي التفتازاني

### (١) تمهيد:

ميدان التصوف الإسلامي من ميادين الدراسة التي لا تزال في حاجة ملحة إلى مزيد من جهود الباحثين للكشف عما يكتنف كثير من موضوعاته من غموض . وأحد هذه الموضوعات موضوع «الطرق الصوفية» ، من حيث نشأتها وتطورها ، والدور الذي لعبته في تاريخ المجتمعات الإسلامية منذ ظهورها إلى العصر الحاضر .

وأهمية الطرق الصوفية في الإسلام راجعة إلى أنها تمثل لنا الجانب العملي من التصوف ، وهو جانب يرتبط بحياة المجتمعات الإسلامية وجاهز الناس فيها عبر عصور التاريخ ارتباطاً مباشراً ، ودراسة هذا الجانب دراسة علمية تبين لنا مدى فعالية « القيم الصوفية » قوة وضعفاً في واقع هذه المجتمعات .

والتصوف ، في حقيقته ، ليس نظريات نفسية أو أخلاقية أو ميتافيزيقية بقدر ما هو « طريقة » في الحياة ، ورياضة عملية تمارس من أجل هدف معين هو تحقيق الكمال الأخلاقي الذي دعا إليه الإسلام . وقد نبه الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ<sup>(١)</sup> إلى أنه لا يكفي أن تقرأ كتب الصوفية لتصبح صوفياً ، إذ أن « طريقته لا تتم إلا بعلم وعمل » ، وهم بقينا « أرباب أحوال لا أصحاب أقوال » .

من هنا كان على دارس التصوف أن يتتبع نظرياته المختلفة في تطبيقاتها العملية ، فهذا مما يعينه على فهمها أولاً ، ومما يتيح له أن يحكم على مدى فعاليتها وحيويتها ثانياً ، ولعلك تدهش إذا علمت أن آراء كبار شيوخ التصوف لم يكتب لها البقاء

---

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ، بهامش الإنسان الكامل للجيل ، القاهرة ١٣١٦ هـ ، ج ٢ ،

في العالم الإسلامي قروناً إلا من خلال الطرق العملية التي أسسوها ، والتي انتشرت فيه انتشاراً واسعاً ، وهذا من دلائل عظمة شخصياتهم ، وقدرتهم على القيادة الروحية للجماهير ، وهو أمر لم يتيسر لغيرهم من كبار مفكرى الإسلام وفلاسفته الذين آثروا منهج العقل وحده في تقرير مباحثهم النظرية ، فبقيت آراؤهم لهذا في نطاق محدود لا تتجاوزه إلى قلوب الجماهير وعقولهم إلا في النادر .

وبحثنا هذا محاولة لإلقاء الضوء على حركة الطرق الصوفية في مصر خاصة ، وقد رأينا من المناسب أن نقدم له بمقدمة تاريخية نبين فيها معنى مصطلح « الطريقة » لغة ، وفي القرآن الكريم ، والمعاني التي اتخذها عبر العصور المختلفة للتصوف ، وكيف نشأت الطرق الصوفية في مصر وتطورت ، وما هي الخصائص العامة التي يمكن أن يوصف بها تصوف أصحابها ، وما هي التنظيمات المختلفة التي تعاقبت على الحركة الصوفية في مصر ، مع العناية ببيان الأوضاع الراهنة للطرق المعاصرة المتعلقة بلوائحها وعاداتها وتقاليدها ، وقد وضعنا في ختام البحث ثبناً يتضمن أسماء الطرق الصوفية في مصر إلى سنة ١٩٦٨ م .

وقد رأينا من المفيد أن نلحق بالبحث أيضاً رسالة قصيرة ، تتعلق بموضوعه ، مؤلف مجهول كتبها بإشارة من السيد محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية سابقاً ، المتوفى سنة ١٩٣٢ م ، عنوانها « كتاب الطرق الصوفية بالديار المصرية » ، وقد حققنا نصها بالرجوع إلى نسختها الخطية الوحيدة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٧٣٧ تاريخ .

#### (ب) مقدمة تاريخية :

١ - الطرق جمع « طريق » ، والطريق السيل الذي يطرق بالأرجل ، أى يضرب ، وعنه استعمل كل مسلك يسلكه الإنسان في فعل نحو ذلك أو مذهباً<sup>(١)</sup> ويقال أيضاً : الطريق والطريقة على سبيل الترادف<sup>(٢)</sup> ، ويقال : « الطريقة » بمعنى الصيرة والحالة ، وطريقة الرجل : مذهبه<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) الأصغهانى : مفردات غريب القرآن ، مادة « طرق » .

( ٢ ) الفيروزابادى : القاموس المحيط ، مادة « طرق » .

( ٣ ) الشرتونى : أقرب الموارد ، مادة « الطريقة » .



وقد ورد اللفظان « طريق » و « طريقة » في القرآن الكريم ، قال تعالى :  
 « مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم <sup>(١)</sup> » ، وقال تعالى :  
 « إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا <sup>(٢)</sup> » ،  
 وقال تعالى : إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبئس إلا يوما <sup>(٣)</sup> » ، وقال تعالى :  
 « وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا <sup>(٤)</sup> » ، وقال تعالى « ويذمها  
 بطريقتكم المثلى » <sup>(٥)</sup> .

وجمع الطريق طرق ، على حين أن جمع الطريقة طرائق ، قال تعالى : « وأنا منا  
 الصالحون ، ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً <sup>(٦)</sup> » ، إشارة إلى اختلافهم  
 في درجاتهم <sup>(٧)</sup> كقوله : « هم درجات عند الله <sup>(٨)</sup> » .

٢ — وحينما نشأ التصوف الإسلامي في أواخر القرن الثاني الهجري وما بعده  
 استمرراً لحركة الزهد الإسلامية الأولى ، نجد هذا الاصطلاح ، أعني « الطريقة » ،  
 يتخذ مدلولاً خاصاً ، فهو يعني عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين  
 المذكورين في « الرسالة القشيرية » مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التي يمسك  
 بها طائفة الصوفية <sup>(٩)</sup> . ويجعل القشيري طريقة الصوفية مقابلة لطريقة أرباب العقل  
 والفكر <sup>(١٠)</sup> ، إذ معرفة الصوفية ذوق وكشف ، أما معرفة أرباب العقل والفكر فهي  
 استدلال . ويذكر القشيري أيضاً كلمة طريقة بمعنى منهج الإرشاد النفسي والخلقي  
 الذي يربى به الشيخ مريده ، فيروى عن أبي علي الدقاق قوله :

(١) سورة الأحقاف ، آية ٣٠ .

(٢) سورة النساء ، آية ١٦٨ .

(٣) سورة طه ، آية ١٠٤ .

(٤) سورة الجن ، آية ١٦ .

(٥) سورة طه ، آية ٦٣ .

(٦) سورة الجن ، آية ١١ .

(٧) الأصفهاني : مفردات غريب القرآن ، مادة « طرق » .

(٨) سورة آل عمران ، آية ١٦٣ .

(٩) الرسالة القشيرية ، القاهرة ١٣٣٠ هـ ، ص ٢ - ٣ ، ص ٧ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٨٠ .

« الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فانها تورق لكن لا تثمر ، كذلك المرید إذا لم یکن له أستاذ يأخذ منه طریقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه لا یجد نقاذاً »<sup>(١)</sup>. وفى « الرسالة القشيرية » ما یوضح لنا أن أوائل الصوفية كانوا یستخدمون إلى جانب اصطلاحی الطریق والطریقة اصطلاح السلوک<sup>(٢)</sup> ، أى السیر فی الطریق ، وهذه الاصطلاحات كلها تعبر عندهم عن الجانب السیکولوجی الأخلاقی من التصوف الذى یتمثل فی تصور الطریق إلى الله مکنونا من مراحل هی المقامات والأحوال ، فالمقامات كالنوبة والصبر والرضا والیقین والمحبة والتوکل وما إليها ، والأحوال كالقبض والبسط والفتاء والبقاء والهیبة والأنس وما إليها ، وهذه كلها فضائل وأحوال أخلاقية ونفسية تأتی عمرة مجاهدة النفس ، یرقى فیها السالك للطریق حتى یصل إلى مقام التوحید أو المعرفة بالله ، وهو آخر مقامات الطریق<sup>(٣)</sup> . ولعل مما له دلالة فی هذا الصدد أن صاحب کتاب « قوت القلوب » ، وهو أبو طالب المکی المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، وأحد كبار الصوفية الأوائل الذین تأثر بهم الغزالی ، قد جعل عنوان کتابه هذا فی الأصل : « طریق المرید للوصول إلى مقام التوحید »<sup>(٤)</sup>. هذا ، ویجعل المکی اسم الطریق دالاً علی معانی الشریعة الإسلامیة والسنة ، ویجعل مرادفاً للطریقة والسنة والصراط المستقیم والمحنة والمنهاج والسبیل<sup>(٥)</sup>.

٣ — ولما كان الصوفية الأوائل قد فرقوا بین علم الشریعة أو علم الظاهر الذى هو علی الجوارح الظاهرة ، وعلم الحقیقة أو علم الباطن الذى هو علی الجارحة الباطنة وهی القلب<sup>(٦)</sup> ، وجعلوا علمهم أكثر یقیناً من العلوم الأخرى ، وجعلوه ثمرة الشریعة

(١) الرسالة القشيرية ، ص ١٨١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(٣) إلى هذا المعنى یشير الجرجانی فی التعريفات بقوله : « الطریقة هی السیرة المختصة بالسالكین إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقى فی المقامات » التعريفات ، مادة « الطریقة » ، وأنظر أيضاً مقسمة ابن خلدون (بنون تاریخ) ، الفصل الخاص بعلم التصوف ، ص ٣٢٨ .

(٤) أبو طالب المکی : قوت القلوب ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٢ م ، ج ٤ ، ص ٣ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٣ ، ٥ .

(٦) أنظر فی ذلك مثلاً : الصح لطوسی ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٣ - ٤٤ ، والرسالة القشيرية ،

وروحها ، فقد وضعوا لأنفسهم مصطلحاً خاصاً ورموزاً معينة لا يفهما أحد حق الفهم إلا بالتقلي عنهم ، وأوجدت حركتهم نشاطاً روحياً ذات طابع خاص في المجتمعات الإسلامية ، وأقبل عليهم كثير من الناس لينتمى إليهم ويأخذ عنهم ، وجمع كبار مشايخ التصوف المريدين حولهم وكرسوا أنفسهم لهدايتهم والأخذ بأيديهم في طريق التكامل الخلقى ، وكانت تلك التجمعات الصوفية صورة أولى للطرق الصوفية في الإسلام . ومن هذه الطرق الأولى التي اجدت في الظهور منذ القرن الثالث الهجرى السقراطية نسبة إلى السرى السقطى ، والخرافية نسبة إلى أبى سعيد الخراز ، والنورية نسبة إلى أبى الحسين النورى ، والملائية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار ، والخلجية نسبة إلى الحسين بن منصور الخلاج<sup>(١)</sup> . إلا أن نظام هذه الطرق الأولى لم يكن متكاملًا ومتناسكًا كما هو الشأن في الطرق الصوفية المتأخرة . على أن القشيري يظهرنا في رسالته<sup>(٢)</sup> على شيء مما كان متعارفًا عليه بين شيوخ التصوف من قواعد السلوك آنئذ ، فهو يحصل أول قدم للمريد في الطريقة الصوفية الصديق ليصبح له البناء على أصل صحيح ، ويجعل مراحل التربية الصوفية مبتدأة بتصحيح اعتقادات المريد ، ثم التوبة ، وفراغ القلب ، والخروج عن العلائق ، وطاعة الشيخ في كل ما يشر به ، واصطناع الخلوة والعزلة ، واستدامة الذكر ، وما إلى ذلك ، مع ضرورة حفظ العهد . ويفهم من كلام القشيري أيضاً وجود رتب آنئذ في الطريق بالنسبة للسالكين ولكنه لم يتعرض لتحديد هذه الرتب تحديداً واضحاً كما هو الشأن عند متأخرى صوفية الطرق .

٤ — فإذا كنا مع الإمام أبى حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ نجد أنه يفهم الطريق الصوفى على نحو لا يختلف كثيراً عن النحو الذى فهمه عليه صوفية الرسالة القشيرية وأبو طاب المكي ، فهو يرى أن طريق الصوفية عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل له بتزويده بأنوار العلم . وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانب السالك وتصفية وجلالة ثم استعداد

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام ، القاهرة ١٩٤٥ م ، ص ١٠٩ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١٨٠ وما بعدها في « باب الوصية للمريدين » .

وانتظار<sup>(١)</sup>. ويعنى الغزالي كمن تقدمه من الصوفية ببيان قواعد السلوك<sup>(٢)</sup> على نحو مفصل مثل علاقة المريد بالشيخ وقواعد العزلة والخلوة والذكر وما إليها ، وهو يصف مقامات السلوك وأحواله على اختلافها في كتبه التى ألّفها فى التصوف ، وعلى الأخص فى كتابه « إحياء علوم الدين » .

٥ — وكان مجيئ الإمام الغزالي فى رأينا من العوامل الهامة التى غيرت من مجرى التصوف الإسلامى ، فقد أرسى الغزالي قواعد التصوف السنى الذى يعنى بالجانب الخلقى التربوى فى العالم الإسلامى ، ورفض أنواع التصوف الأخرى المسرفة ، كتصوف الحلّاج القائم على فكرة الحلول ، وتصوف البسطامى الذى يعلن فيه الاتحاد ، وسرطان ما ظهر المعجبون بالإمام الغزالي فى اتجاهه هذا من كبار شيوخ الصوفية ، نذكر منهم الشيخ عبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١هـ<sup>(٣)</sup> ، ومؤسس الطريقة القادرية ، والشيخ أحمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٨هـ<sup>(٤)</sup> ، ومؤسس الطريقة الرفاعية ، وتوالى شيوخ التصوف الكبار فى الظهور فى أقطار إسلامية عدة ، والتفت حولهم الأتباع والمريدون . واستمرت الطرق الصوفية فى الظهور والانتشار منذ القرن السادس الهجرى إلى يومنا هذا ، وتشعبت فى جميع الاتجاهات من السنغال غربا إلى بلاد الصين شرقا ، وقامت فى كثير من البلدان الأفريقية والآسيوية بنشر دعوة الإسلام ، كما قاومت فى كثير من الأحيان الاستعمار الأوروبى المستقروا التبشير<sup>(٥)</sup> . واختلفت أسماء الطرق فى العالم الإسلامى باختلاف أسماء مؤسسيها ، وهى فى حقيقة الأمر تهدف إلى غاية واحدة ، والخلافات التى كانت ولا تزال بين

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، ج ٣ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٥٢ وما بعدها ، ص ٥٦ ، ص ٩٤ وما بعدها .

(٣) كتب فى مناقبه كتب نذكر منها : الشطنوفى : هجرة الأسرار ، القاهرة ١٣٠٤ هـ ، وانظر فى ترجمته المناوى : الكواكب الدرية ، القاهرة بدون تاريخ ، ج ٢ ، ص ٨٨ - ٩١ ، الشمرانى : الطبقات الكبرى ، القاهرة ١٣٤٣ ، ج ١ ، ص ١٠٨ - ١١٤ .

(٤) من الكتب التى جمعت أشعاره ومناقبه بالتفصيل ، كتاب « قلادة الجواهر فى ذكر الفوت الرفاعى وأتباعه الأكابر » ، لأبى الهيثم الصيادى ، بيروت ١٣٠١ هـ .

(٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى تعليقات الأمير شكيب أرسلان على « كتاب حافى العالم الإسلامى » للمستشرق ستودارد ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ، مجلد ٢ ، ص ٣٦٧ وما بعدها ، وص ٣٩٢ وما بعدها ، وفى مواضع أخرى .

الطرق هي في الرسوم العملية فقط كالزى والأوراد والأحزاب التي يرددها اتباع  
وما إلى ذلك ، فهي أشبه شيء بمدارس تصحداً غايتها في التعليم الروحي وتختلف  
وسائلها العملية فيه باختلاف المعلم الذي يجتهد في أن يضع لتلاميذه قواعد ورسوم  
خاصة يرى أنها أفضل في تعليمهم . والحقيقة أن الغاية القصوى من الطريق الصوفي  
هي غاية خلقية تتمثل في إنكار الذات والصدق في القول والعمل والصبر والخشوع  
ومحبة الغير والتوكل وغير ذلك من الفضائل التي دعا الإسلام إليها وكانت محوراً  
دارت حوله أبحاث التصوف النظرى .

٦ — وأصبحت لفظة « طريقة » عند الصوفية المتأخرين<sup>(١)</sup> تطلق على مجموعة  
أفراد من الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين ، ويخضعون لنظام دقيق في السلوك  
الروحي ، ويميئون حياة جماعية في الزوايا والربط والخانقوات ، أو يجتمعون  
اجتماعات دورية منظمة في مناسبات معينة ، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام ،  
وهكذا أصبح التصوف جماعياً بعد أن كان حظ أفراد متفرقين لا رابط بينهم .

#### (ج) الطرق الصوفية في مصر :

٧ — أول من غرس بذور التصوف في مصر<sup>(٢)</sup> هو ذو النون المصري المتوفى  
سنة ٢٤٥هـ ، وكان يعد أول من تكلم من الصوفية عموماً في علوم المقامات والأحوال ،  
وكان من عظم الشخصية حتى قيل إن جميع الشيوخ قد أخذوا عنه واعتمدوا عليه ،  
وشاركه في غرسها في القرن الثالث الهجرى أيضاً صوفيان آخران لها مكانتهما ،  
وهما أبو بكر الزقاق المصري<sup>(٣)</sup> ، وأبو الحسن بن بنان الجمال المتوفى سنة ٣١٦هـ<sup>(٤)</sup> .  
ثم استمرت حركة التصوف بمصر في القرنين الرابع والخامس الهجريين ،  
ومن أبرز رجالها أبو علي الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢هـ<sup>(٥)</sup> ، وأبو الخير الأقطع

(١) تارن : Massignon : Art. «Tarika», Encyclopedie de l' Islam .

(٢) أنظر في تفصيل ذلك كتابنا « ابن سناء الله البكنندى وتصوره » ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٣) الرسالة التشريعية ، ص ٢١

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٤

(٥) نفس المرجع ، ص ٢٦

التينائى المتوفى سنة ٣٤٣ هـ<sup>(١)</sup> ، وأبو على بن الكاتب المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة<sup>(٢)</sup> ، وأبو الحسن الدينورى الصائغ المتوفى سنة ٣٣١ هـ<sup>(٣)</sup> ، وأبو بكر الرملى التابلسى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ<sup>(٤)</sup> ، وابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ هـ<sup>(٥)</sup> ، وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ<sup>(٦)</sup> .

وفى القرن السادس للهجرة ظهرت مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر ، وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ<sup>(٧)</sup> ، والذي كان ، على ما يذكر الحافظ المنذرى ، أحد الزهاد المشهورين والعباد المذكورين ، ثم قام عليها من بعده صوفى مصرى له مكاتنه فى عصره ، وهو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ<sup>(٨)</sup> ، والذي أخذ عنه كثيرون جداً من صوفية الصعيد فى ذلك العصر .

وكان القرن السابع الهجرى فى مصر عصر ازدهار لتصوف أصحاب الطرق ، فقد وفد إلى مصر من العراق الشيخ أبو الفتح الواسطى ، وأقام بالإسكندرية ، وبشر بها بالطريقة الرظائية ، ووفد إليها كذلك من المغرب السيد أحمد البدوى سنة ٦٣٤ هـ ، وأقام بطندتا (طنطا حالياً) ، وهو مؤسس الطريقة الأحمدية ، وتوفى سنة ٦٧٥ هـ<sup>(٩)</sup> ، وظهر كذلك الشيخ إبراهيم الدسوقي القرشى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ بدسوق<sup>(١٠)</sup> ، وهو مؤسس الطريقة البرهامية . وكان قد وفد إلى مصر أيضاً من المغرب الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، حوالى سنة ٦٤٢ هـ ، ومعه جملة

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٢٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٤) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٥) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٦) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

(٧) أنظر فى ترجمته بالتفصيل : كمال الدين الأدهنى : الطالع السعيد لأسباب الفضلاء والرواة

بأهل الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م ، ص ١٥٦ وما بعدها .

(٨) نفس المرجع ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٩) الشمرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ص ١٥٨ وما بعدها .

(١٠) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٤٣ وما بعدها .

من تلاميذه ومريديه ، واستوطنوا مدينة الإسكندرية ، وكونوا بها طريقة صوفية مشهورة هي الطريقة الشاذلية ، وكان من أبرز من قام على هذه الطريقة بعده تلميذه أبو العباس المرسى المتوفى ٦٨٦ هـ ، ثم خلف هذا الأخير تلميذه ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة ٧٠٩ هـ .

وقد لاحظنا بعد استقراء طويل<sup>(١)</sup> لأقوال ومذاهب صوفية مصر الذين ذكرنا منذ القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري ، سواء منهم من كان مصرياً أو وافداً إلى مصر أن أولئك الصوفية كانوا معتدلين في تصوفهم ، فلم يكن واحد منهم قائلًا بوحدة الوجود أو الجلول أو الاتحاد ، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر الأجنبية البعيدة عن روح الاسلام ، وهذا راجع إلى أن مصر كانت بعيدة عن تيارات الأفكار والمعتقدات الأجنبية الفارسية والهندية ، وهذا على عكس تصوف أوائل الصوفية من القرس الظاهرين بمراكز عدة كخراسان ومرو وبلخ ونيسابور ونهاوند والرى والجال وأصفهان وشيراز وغيرها ، والذين يرجح تأثرهم بما كان سائداً في بيئاتهم تلك من معتقدات وأديان قديمة ، فلا يغلو تصوفهم بذلك من عناصر أجنبية . هذا إلى أن صوفية الطرق من المصريين يجمعهم جميعاً طابع خاص هو العناية بالجانب العملي الخلقى من التصوف أكثر من العناية بالغوض في المسائل النظرية الصوفية ، وهذا يفسر عدم ظهور صوفية خائضين في المباحث النظرية الفلسفية بمصر كالحسين بن منصور الحلاج ، والسهورردى المقتول ، ومحيي الدين بن عربي ، وصدر الدين القونوى ، وغيف الدين التلمساني ، وابن سبعين ، ومن إليهم من الصوفية الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة .

والدليل على اتجاه صوفية مصر إلى الجانب العملي الخلقى من التصوف ، وعدم رضاهم عن تصوف أصحاب النظريات المسرفة الموهمة أن محيي الدين بن عربي وصدر الدين القونوى حينما جاءا إلى مصر لم يجدوا لسعوة طريقتهم المعروفة بالأكبرية أى صدى أو قبول ، وكذلك الشأن بالنسبة لابن سبعين الذى أقام في مصر فترة من حياته ، ولكن طريقته السبعينية لم تحظ بانتشار ما ، وعلى العكس من هذا لى المبشرون بالطرق الصوفية الأخرى الذين كانت دعوتهم عملية خلقية كالواسطى

( ١ ) أنظر كتابنا : ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، ص ٥٣ — ٥٤

والبدوى والشاذلى والدسوقي لنصوتهم صدى وقبولا ، ثم شيوعا وانتشارا بين أفراد الشعب المصرى منذ القرن السابع الهجرى إلى يومنا هذا .

٨ — وأول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية فى مصر يرجع تاريخه إلى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ، يدلنا على ذلك أنه أنشأ للصوفية خانقاه<sup>(١)</sup> هى الخانقاه المعروفة بسعيد السعداء<sup>(٢)</sup> ، وكانت تعرف أيضا بدورة الصوفية ، بالقاهرة ، وجعلها لإقامة الصوفية الوافدين إلى مصر ، ووقف عليها أوقافا فى سنة ٥٦٩ هـ ، فكانت أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر . ولقب شيخ هذه الخانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان له شبه تقدم على غيره من شيوخ الصوفية ، وكان سكانها من الصوفية يعرفون — كما يقول المقرئى — بالعلم والصلاح وترجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكبر والأعيان كأولاد شيخ الشيوخ بن حمويه مسح ما كان لهم من الوزارة والإمارة وتدير الدولة وقيادة الجيوش وتقديم العساكر ، وولياها ذوو الرياستين للوزير صاحب قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وجماعة من الأعيان<sup>(٣)</sup> ، ونزل بها الأكبر من الصوفية .

٩ — وكان العصر المملوكى فى الحقيقة مبدأ لا تساع تنظيم الصوفية فى جماعات فى الخانقاوات ، وفى المدارس المنتشرة فى ذلك العصر ، فقد أنشأ سلاطين المماليك الكثير من الخانقاوات أبرزها خانقاه سريا قوس ( الخانكة حاليا ) ، التى أسسها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٥ هـ<sup>(٤)</sup> ، وصار شيخ هذه الخانقاه معتبرا فى درجة

---

(١) الخانقاه كلمة فارسية معناها بيت ، ويرى المقرئى أن الخانقاوات حدثت فى الاسلام فى حدود الأربعمئة من سن الهجرة . وجمعت لتخل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى . المخطوط ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ج ٤ ، ص ٢٧١

(٢) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) ولى مشيخة هذه الخانقااه علماء كثيرون نذكر منهم : شمس الدين الأيكل فى القرن السابع الهجرى ، والشيخ برهان الدين بن أيوب الأبناسى الشافعى المتوفى سنة ٨٠٢ هـ ، وسراج الدين عمر بن حسن المبادئ الشافعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ ، والشيخ جمال الدين الكورائى المتوفى سنة ٨٩٤ هـ ، والشيخ زين الدين بن عبد الرحمن القناوى الشافعى الذى ولها بعد الكورائى والشيخ عبد القادر النقيب الذى ولها سنة ٩٠٣ هـ ، أنظر مخطوط المقرئى ، ج ٤ ، ص ٣٠٤ ، وابن رياس : بدائع الزهور ، القاهرة ١٣١٢ هـ ، ج ١ ، ص ٨١ ، ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ ، ص ٢٦٠ ، ص ٣٣٢

(٤) مخطوط المقرئى ، ج ٢٤ ، ص ٢٨٥ .



شيخ خاتناه سعيد السعداء . ومن مظاهر تنظيم الصوفية في العصر المملوكى كيفية تقدم المريـد  
للجماعة ، واندماجه بينهم ، ثم حسبانـه منهم ، ثم تدرجه فى رتب الطريق ، ثم وصوله إلى  
درجة النقابة فالخلافة ، ثم تحدته على أتباعه ومريديه واتصاله بهم ، ثم اتصال الشيخ  
بالجميع حتى يسهل عليه بث ما يريد من تعاليم وتلقين ما يراه من أوامر ، وأحيط  
ذلك كله بسياس طاعة الشيخ . ووجدت فى هذا العصر وما قبله اصطلاحات خاصة  
كالقطب ( الذى هو رأس العارفين ) ، والأوتاد والأبدال ، وهى أسماء ومراتب  
صوفية ، وما بعد ذلك من المراتب ، فنظامه كنظام الجند ، واصطلاحه يطابق  
اصطلاح العسكرية تماما .

وكان شيوخ الصوفية فى العصر المملوكى يعاونون السلاطين فى جهادهم للأعداء  
كما هو معروف عن الشاذلى<sup>(١)</sup> ، وذكر ابن إياس فى تاريخه أيضا ما يفيد أن سلاطين  
المماليك كانوا يستدعون شيوخ الصوفية للخروج معهم فى غزواتهم<sup>(٢)</sup> ، مما يدلنا  
على أن الحركة الصوفية لم تكن بمعزل عن مجريات الأمور فى المجتمعات الإسلامية .

٩ — وفى العصر العثمانى انتشرت الطرق الصوفية انتشارا واسعا بين جماهير  
الشعب المصرى<sup>(٣)</sup> ، ولكن مصر كانت تعاني فى ذلك العصر اضمحلالا فكريا  
وحضاريا ، وأصبحت عناية أصحاب الطرق فيه منصرفة إلى الشكليات والرسوم  
أكثر من العناية بمجهر التصوف ذاته ، وسيطرت على جماهيرهم الأوهام والمبالغة فى  
التحدث بالمناقب والكرامات التى لم يكن يأبه لها المحققون من أوائل شيوخ التصوف ،  
ولم يكونوا يعتبرونها دالة على كمال التصوف ، على أن هذا لم يمنع من ظهور بعض  
الشخصيات الصوفية البارزة المعروفة بالعلم والتقوى ، مثل مصطفى كمال الدين البكرى  
مؤسس الخلوتية بمصر ، والخفيف والدردير والشرقاوى<sup>(٤)</sup> ، وكانت الروح الصوفية  
مسيطره على الأزهر بوجه عام ، وكان معظم شيوخه الذين ترجم لهم الجيزنى فى

( ١ ) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٤٢ .

( ٢ ) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

( ٣ ) للاستاذ الدكتور توفيق الطويل بحث قيم من التصوف فى ذلك العصر عنوانه : التصوف فى

مصر إبان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٤٦ هـ .

( ٤ ) صغائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٦٥ هـ ، ٢٨٩ هـ ، ج ٢ ، ص ١٤٧ هـ ، ج ٤ ، ص ١٥٩ هـ .

تاريخه متممين إلى الطرق الصوفية ، وكان العالم الأزهرى يحاز أولاً في العلوم الشرعية ثم يحاز ثانياً بأجازه الطريق الصوفى . وكان يطلق على شيوخ الطرق الصوفية في هذا العصر ، « مشايخ السجاجيد » أحياناً ، وهى تسمية نصادفها كثيراً في تاريخ الجبرتى . ومعنى « شيخ سجادة » من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة ، وهو معرب « سه جادة » والمراد بها الطرق الثلاث السابق ذكرها (١) .

١٠ — ولما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م كان الذى يتولى شئون الصوفية في مصر هو السيد خليل البكرى (٢) الذى عين عضواً في الديوان الذى أنهاه نابليون بونابرت ، والمتوفى سنة ١٢٢٣ هـ . ونحن لانعرف على وجه التحديد متى انتقلت رئاسة الصوفية في مصر إلى الطريقة البكرية التى يرجع نسب شيوخها إلى أبى بكر الصديق ، وقد ذكر جرجى زيدان في « تاريخ التمدن الإسلامى » أن رئاسة الصوفية قد توحدت بمصر في القرن التاسع للهجرة فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى الذى كان من أعظم رجال عصره علماً وديناً ، والذى وصفه القهرانى بأنه أعلم أهل زمانه ، ومنه انتقلت رئاسة الصوفية إلى ابنه السيد أبى السرور البكرى (٣) ، واستمرت كذلك إلى العصر الحاضر ، ولا نعرف المصادر التى استند إليها جرجى زيدان في كلامه هذا .

أما من الناحية التنظيمية ، فقد أصبح للطرق الصوفية منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، أو ما قبله بقليل ، مشيخة عامة لمباحها التحكم على جميع الطرق ، وأصبح لكل طريقة شيخ ، ولكل شيخ خلفاء في القرى ، ونواب في المراكز والمدريات . ولكل خليفة مریدون ، والشيخ يدير أمر الخلفاء ، والخليفة أمر المریدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . وعرف رئيس الصوفية ( من بيت البكرية ) بشيخ مشايخ الطرق الصوفية والسجادة البكرية ، وكانت تضاف إليه ، في بعض الأحيان ، نقابة الأشراف .

(١) التهانوى : كشف اصطلاحات الفنون ، مادة « السجادة » .

(٢) أنظر ترجمته في صجائب الأكار الجبرقى ، ج ٤ ، ص ٨٦ - ٨٨ .

(٣) أورده السيد محمد توفيق البكرى في كتابه « بيت الصديق » ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ؛ وأنظر أيضاً تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

ولما ولي السيد محمد توفيق البكرى عام ١٨٩٢ م مشيخة الطرق الصوفية استصدر لائحة رسمية للطرق الصوفية ، وذلك في ٢ يونيو ١٩٠٣ م ، وهي اللائحة التي لا يزال معمولاً بها إلى الآن ، والتي جعلت شيخ مشايخ الطرق الصوفية يدير شئون الصوفية بواسطة مجلس صوفي يختص بشئون الصوفية .

واستمرت مشيخة الطرق الصوفية في بيت السادة البكرية ، وآخر من تولاها من هذا البيت السيد أحمد مراد البكرى الذي رفع من وظيفته في سنة ١٩٤٦ م ، مع احتفاظه بوظيفة مشيخة السادة البكرية إلى الآن ( ١٩٦٨ م ) ، وتولاها من بعده ، المرحوم الشيخ أحمد الصاوي ( ١٨٨١ م — ١٩٥٨ م ) ، من كبار علماء الأزهر ، وذلك في ٢٧ يناير ١٩٤٧ م ، ولزمه وكبر سنه رفع من وظيفته عام ١٩٥٨ م ، وعين مكانه السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الحالي الذي اختير من بين أعضاء المجلس الصوفي لتولى هذا المنصب ، وعين فيه بقرار جمهوري ، كما تقضى بذلك اللائحة ، وهو يتولى إلى جانب هذا المنصب مشيخة الطريقة العلوانية .

١١ — وتشتمل لائحة الطرق الصوفية الصادرة في سنة ١٩٠٣ م على ستة عشر

مادة .

وقد نصت اللائحة لأول مرة في تاريخ الصوفية على تشكيل مجلس صوفي ، وقد أبانت عن تشكيل هذا المجلس في المادة الثالثة ، وهو مؤلف من شيخ مشايخ الطرق رئيساً وأربعة أعضاء من مشايخ الطرق ينتخبهم الرئيس من بين ثمانية أشخاص من مشايخ الطرق ، وهؤلاء الثمانية تنتخبهم جمعية عمومية من مشايخ الطرق يحضرها خمسة وعشرون شخصاً على الأقل بأغلبية الآراء ، ويكون انتخاب الأعضاء الثمانية في جلسة تعقد بمحافظة القاهرة برئاسة السيد المحافظ ( حل محله مدير الأمن حالياً ) ، ويتجدد الانتخاب كل ثلاث سنوات ، وإذا توفي عضو أو استعفى عضو آخر يجري انتخاب غيره محل محله .

وفي المادة الخامسة اشترط المشرع أو تكون إجراءات المجلس وأحكامه في نطاق الشرع ، وكل قراراته نافذة على من يعنون بعنوان الصوفية .

وبينت المادة التاسعة أن سماع القضايا في المجلس يكون كسماعها في مجلس

القضاء ، وبحسب ترتيب ورودها ، ولا تقدم دعوى على أخرى إلا إذا تعذر إتمامها .  
وفي المادة العاشرة ورد أنه بعد سماع القضايا واستيفائها تحصل المداولة بين  
أرباب المجلس ، وتصدر الأحكام بأغلبية الآراء بقرار مصدق عليه ، ويتولى الرئيس  
تنفيذه ، وعند الاقتضاء يصير توسط جهة الحكومة ( وزارة الداخلية ) في أمر  
التنفيذ .

أما اختصاصات المجلس ، فقد نصت عليها اللائحة في المواد الأولى والثانية  
والثالثة عشر ، فجعلت هذا المجلس مختصاً بتعيين مشايخ الطرق ، ورفعهم من  
من وظائفهم ، أو توقيفهم لمدة معينة ، والفصل في منازعاتهم أو رفعهم ، ويختص  
المجلس بالنظر في المخالفات المتعلقة بالصوفية والتي تكون بين رجال طرق مختلفة ، أما  
المخالفات المتعلقة برجال الطريقة الواحدة فيفصل فيها شيخ الطريقة ، وللمختصين  
حق استئنافها أمام ذلك المجلس .

وتوجد إلى جانب هذه اللائحة الرسمية لائحة أخرى داخلية صادرة عن المجلس  
الصوفي بتاريخ ١٧ صفر ١٣٧٣ هـ = ٢٣ أبريل ١٩٥٥ م ، وهي منظمة لأعمال  
المجلس ، ويبدو ظاهراً أنها تهدف إلى إصلاح الطرق . فمن ذلك أنها تشترط ألا يعين  
أحد شيخاً لطريقة إلا إذا كان من أهل العرفان والكمال ، كما تجيز هذه اللائحة زيادة  
طرق جديدة متى كانت الطريقة الجديدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة  
في اسمها أو اضطلاعها ، كما تجعل هذه اللائحة نظام الطرق الصوفية وراثياً في أبناء  
الشيخ ، فإذا لم يوجد في أبنائه من يستحق التعيين يبحث في ذوى قرباه ، فإذا  
لم يوجد عين المجلس للطريقة من له أهلية .

وقد نصت اللائحة الداخلية أيضاً على ألا يعين الشيخ خلفاء له في البلدان ،  
إلا إذا كانوا من أهل العرفان بارشاد الناس . وللشيخ أن يعين له نواباً في البلدان  
الكبيرة كالمراكز ، كما يجب أن يتفقد الشيخ أحوال أتباعه سنوياً بالتفتيش  
على أعمالهم .

وتضمنت اللائحة الداخلية في الباب الثالث أن يعين شيخ مشايخ الطرق وكلاء  
للمشيخة العامة لكل مركز من مراكز القطر ، وجعلت هؤلاء الوكلاء اختصاصات  
معينة .

وجاء الباب الخامس من هذه اللائحة مؤكداً لضرورة إصلاح الطرق والنهوض بها ، فيبعد عن الطرق كل من اتصف بقائد مخالفة للشرع الإسلامى ، كالقول بالحلول والاتحاد وسقوط التكليف عن بعض أفراد الناس ونحو ذلك ، ويعد كذلك عن الطرق الصوفية من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية من افتعال الخوارق ، والزار ، وبينت اللائحة في هذا الباب الكيفية الشرعية للذكر في المادة الثالثة حيث جاء ما نصه : « يكون الذكر الصوفى عبارة عن ذكر الله وتمجيده ، صريحاً ، قياماً وقعوداً ، أو قعوداً مع الخشوع والوقار بحضور أحد الخلفاء المحازين من شيوخهم » ، كما نصت المادة الرابعة من هذا الباب على أنه « يجب على كل شيخ طريقة ، وكل خليفة أن يجمع مريديه ليلة أو أكثر في الأسبوع في زاوية من الزوايا ، أو في محل مخصوص ، وذلك لذكر الله وتمجيده ، ثم للتعليم والإرشاد بعد ذلك ، ويجوز لاشيخ أو الخليفة أن يجعل مقرأاً للحلقة يتلو لهم شيئاً من القصائد والآداب للتفقه فيها » .

١٢ — وتقوم الطرق الصوفية حالياً في الجمهورية العربية المتحدة بالدعوة إلى التصوف والتزينة الدينية الروحية بطريقتها التقليدية الخاصة ، ولا تزال في الجملة خاضعة لبعض النظم الموروثة من العصر العثمانى وما قبله ، فإذا قلنا مثلاً بين ما يذكره المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرى عن صوفية عصره ، وبين ما نشاهده بأعيننا عن صوفية العصر الحاضر لوجدنا أوجه شبه قوية للغاية بينهما . والمنهج المتبع الآن في كل الطرق الصوفية هو أخذ اليهود على المريدين بعد استئذانهم عن المعاصى ، وبعد أخذ العهد على المريد يمضى فترة في الطريقة حتى يكمل ، فيجيزه شيخه المباشر الذى هو خليفة الطريقة ، فيطلب عندئذ من شيخ الطريقة إعطاء هذا المريد إجازة الطريق ، وهى شهادة مطبوعة تحتوى تاريخ الطريقة وأسانيدها ، وتشهد بأن هذا المريد أصبح قادراً على إرشاد غيره من المريدين وإعطائهم اليهود . ومراتب الطريقة هى — فى العادة — كما يلى : المريد ( يسمى أحياناً درويشاً ) — الخليفة — خليفة الخلفاء ( وهو يرأس جماعة من الخلفاء ) — نائب البندر ( ويرأس خلفاء البندر ) — نائب المركز ( ويرأس خلفاء قرى المركز ) — نائب المحافظة ( ويرأس جميع خلفاء المحافظة ) — شيخ عموم الطريقة . ويسمى المنتظمون الذين ينظمون المواكب ، ويرتبون مجالس الأذكار ، بالنقباء ، وهناك أيضاً نقباء النقباء . ويحافظ أصحاب

الطرق على نظام الوراثة في الوظائف الصوفية طالما كان ابن المتوفى أهلاً لوظيفة أبيه ،  
وحكمة ذلك عندهم ضمان استمرار الدعوة في البيوت الصوفية على مر العصور .  
ولشيخ مشايخ الطرق وكلاء عنه في جميع مراكز ومحافظات الجمهورية يتولون تنفيذ  
قرارات المجلس الصوفي الأعلى .

ومن أمثلة تمسك رجال الصوفية في العصر الحاضر بالكثير من موروثة  
العصور المتأخرة استعمال الزى الخاص والشارات المعينة ولباس الرأس الملون (مثال  
ذلك العمامة الحمراء للأحمديّة والسوداء للطراعية والخضراء للبرهانية وغيرهم من  
المنتسبين إلى بعض طرق أخرى) ، وتستخدم كل طريقة ييارق أو أعلام خاصة  
تمثل في المواكب في المناسبات الخاصة كالولادة وغيرها ، وهناك نظام دقيق يسمى  
نظام « العقب » في المواكب الصوفية ، ويأتي فيه ترتيب الطريقة الأقدم في الجهة  
التي يحتفل بها في نهاية الموكب . وتعد الطرق مجالس الأذكار بصورتها التقليدية  
المعروفة التي يصاحبها الإنشاد ، وذلك مرة كل أسبوع على الأقل ، ويطلق على  
مجلس الذكر اسم « الحضرة » ، ولا يزال هناك بين عوام المنتسبين إلى الطرق  
في العصر الحاضر اعتقاد مفرط في الأولياء وكراماتهم يخرج أحياناً عن حد  
المعقول ، وعلى وجه العموم يسير الصوفية المعاصرون وفق مبدأ معروف عندهم  
يتلخص في قولهم : « القديم على قدمه » ، وهذا يفسر لنا تلك النزعة التقليدية  
المحافظة التي لا زالت تسيطر عليهم .

وعلى الرغم مما يشوب الطرق الصوفية الآن من بعض الشوائب ، منها ضعف  
المستوى العلمي والثقافي لبعض مشايخها ، وكثير من أتباعها ، إلا أنها لازالت  
تؤدي دوراً هاماً في مجال الحفاظ على التراث الديني والقيم الروحية على المستوى  
الشعبي خصوصاً في قرى الريف . ولا ينبغي أن ينكر أنها حفظت في القرون  
الماضية مع الأزهر الشريف الإسلام من الهجمات الاستعمارية الضاربة ، كما كانت  
في بعض البلدان الإفريقية والآسيوية - كما سالت إليه الإشارة - الحائل الوحيد  
دون نفاذ الدعوات الاستعمارية المتسترة وراء التبشير إليها ، يضاف إلى ذلك أن  
الإسلام لم ينتشر في كثير من البلدان الإفريقية إلا عن طريق المنتسبين إلى الطرق  
كالقادرية والشاذلية والتيجانية وغيرها .

وليس أدل على جدوى رسالة الطرق الصوفية في العصر الحديث من أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان يؤمن إيماناً راسخاً بفاعلية المنهج الصوفي في التربية والإصلاح الديني والاجتماعي ، فقد قال يوماً للسيد رشيد رضا : إذا يئست من إصلاح الأزهر فافتي أنتى عشرة من طلبة العلم ، وأجعل لهم مكاناً عندي في عين شمس ، أربهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم ، وكان اقترح على السيد جمال الدين الأفغاني هذا الاقتراح أيام كانا ينشئان « العروة الوثقى » في باريس ، ويعقب السيد رشيد رضا على ذلك قائلاً : « ولو تم للأستاذ الإمام هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة » (١) .

١٣ — ومنذ قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، يشعر القائمون على شئون الطرق الصوفية بضرورة إصلاح وتطوير هذه الطرق بما يمتشى مع مطاير النهضة المعاصرة في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية ، فشكلت لذلك اللجان ، وتمحقت كثير من ضروب الإصلاح أبرزها تطوير الاحتفال بالموالد ، وهي المناسبات الرئيسية التي يظهر فيها نشاط الطرق كالمولد النبوي ، والمولد الأحدي ، والمولد الدسوقي ، حيث أصبحت هذه الموالد الآن مجالاً واسعاً للتوجيه القوي والإعلام ، كما أصبحت ميادين للثقافة والإرشاد الديني على المستوى الجماهيري ، واختلفت في صورتها بذلك عما كانت عليه من قبل ، ويوجد بوزارة الأوقاف حالياً إدارة للموالد تتعاون مع مشيخة الطرق في هذا الصدد .

وقد أحس شيخ مشايخ الطرق الصوفية حالياً وأعضاء المجلس الصوفي العالي ومشايخ الطرق بضرورة تطوير الطرق بحيث تضيق إلى جانب نشاطها الديني نشاطاً اجتماعياً وآخر ثقافياً ، واتخذ المجلس الصوفي لذلك عدة قرارات بإنشاء لجان عليية وثقافية ، ولجان أخرى مهمتها استقبال كبار الزعماء الصوفيين الوافدين إلى مصر من أفريقيا وآسيا ، وتوثيق الصلات بينهم وبين إخوانهم في الجمهورية العربية المتحدة . وتعقد مشيخة الطرق كثيراً من الندوات الثقافية والمحاضرات ،

(١) السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، القاهرة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣١ م ، ج ١ ، ص ١٣٠

كما تصدر كتباً في التصوف وتراثه القديم ، وقد أصدرت مشيخة الطرق في عام ١٩٥٨م مجلة ناطقة باسم الصوفية هي مجلة « الإسلام والتصوف » .

وقد شكلت منذ بضع سنوات لجنة لتعديل اللائحة المعمول بها حالياً ، وكان فيها ممثلون للأزهر الشريف ، ووزارة الأوقاف ، ودار الإفتاء ، ومجلس الدولة ، وانتهت إلى وضع مشروع لتطوير اللائحة هو موضع نظر الآن .

١٤ — ويبلغ عدد الطرق الصوفية في الجمهورية العربية المتحدة حالياً ، خمس وستون طريقة . وهي إما طرق مستقلة ، أو فروع لطرق قديمة . ومن الملاحظ أن عددها قد زاد كثيراً عما كان عليه عددها في مستهل هذا القرن . ففي كتاب « بيت الصديق » للسيد محمد توفيق البكري ، يوجد ثبت يشمل الطرق الصوفية الموجودة إلى سنة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٥م ، وعدد الطرق فيه اثنتان وثلاثون طريقة . ثم زاد عددها قبيل وفاة السيد محمد توفيق البكري إلى أربعين طريقة (١) وفي عهد الشيخ الصاوي (١٩٤٧م — ١٩٥٨م) كان عدد الطرق أربعاً وأربعين طريقة (٢) . والسبب في زيادة الطرق على هذا النحو أن اللائحة الداخلية للطرق الصوفية تجيز استحداث طرق جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لا تشابه طريقة من الطرق الموجودة في اسمها أو اصطلاحها ، ولكن الحقيقة أن أكثر الطرق المستجدة كانت فروعاً لأصول أقدم (٣) .

وفيما يلي ثبت وضعناه للطرق الصوفية الموجودة حالياً ( إلى سنة ١٩٦٨ ) (٤) . ومنهجنا الذي اتبعناه فيه هو أن نذكر الطريقة التي هي أصل ، ثم الطرق المنفرعة عنها ، أما الطرق التي يبدو أنها ليست فروعاً لأصول فقد أثبتناها فيما بعد :

#### ( ١ ) الطريقة القادرية :

أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١ هـ ، ويوجد لها بمصر فرعان  
ها : القادرية القاسمية ، والقادرية القارضية .

( ١ ) انظر الملحق الوارد بأخير هذا البحث ، ص ٧٤ - ٨٤ .

( ٢ ) فحسب محمود شبلي : الماروف بالله . الخ ، ص ١٠٧ - ١١١

( ٣ ) انظر ص ٦٨ من هذا البحث

( ٤ ) اعتمدنا فيه على الكتاب الصادر عن مشيخة الطرق الصوفية بعنوان : « التصوف الاسلامي ورسالته ومبادئه » ، القاهرة ١٩٥٨م ، ثم على معلومات مستقاة من مشيخة الطرق ذاتها .



### (ب) الطريقة الرفاعية :

أسسها الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وليس لها فروع .

### (ج) الطريقة الشاذلية :

أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ، وتوجد لها الفروع الآتية :  
القاسمية ، والمدنية ، والسلامية ، والحدوشية ، والقواقبية ، والصفية الهاشمية ،  
والإدرسية ، والجوهريّة ، والوفائية ، والعزمية ، والحامدية ، والمحمدية ،  
والفيضية ، والهاشمية المدنية .

### (د) الطريقة الأحمدية :

أسسها السيد أحمد البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، وتفرعت عنها طرق كثيرة ،  
بعضها يكون ما يسمى بالبيت الكبير ، وهي : المرازقة ، والكناسية ، والإمبائية ،  
والمنايفة ، والسلامية ، وبعضها يكون ما يسمى بالبيت الصغير ، وهي : الخلية  
والشعبية والتسقيانية والحمودية والزاهدية . وهناك طرق أحمدية أخرى وهي :  
الفرغلية والشناوية والسطوحية والبيومية .

### (هـ) الطريقة البرهامية :

أسسها الشيخ إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، ويوجد لها إلى جانب  
الأصل ثلاثة فروع هي : الشهاوية ، والشرنوبية ، والسعيدية الشرنوبية .

### (و) الطريقة الخلوتية :

تنسب إلى الشيخ محمد الخلوتي ، وترجع بالسند إلى الجنيد ، وهي طريقة تركية  
ازدهرت بمصر إبان القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، وتنسب في مصر  
إلى الشيخ مصطفى كمال الدين البكري المتوفى سنة ١١٦٢ هـ ، ولها الفروع  
التالية : الدمرداشية ، والمغازية ، والضيافية ، والبهوتية ، والمصيلحية ، والسمانية ،  
والمسامية ، والعلاوية ، والشرابية ، والهرابية ، والبكرية ، والمروانية ،  
والغنيمية ، والحبيبية ، والجنيدية ، والجودية ، والقباية .

### (ز) طرق أخرى :

التقشبندية ، والسعيدية ، والعنانية ، والهيانية التغلبية ، والمريغية ، والخضرية ،  
والصاوية ، والعزازية ، والرحيمية القنانية ، والخليلية ، والكنانية .

## ملحق

### كتاب الطرق الصوفية

بالديار المصرية<sup>(١)</sup>

أشار بوضعه وصنعه . - بإحباب السباحة والسيادة  
السيد محمد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ مشايخ  
الصوفية بالديار المصرية سابقا  
وألفه : بعض الأفاضل

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، وصلى الله وسلم على سيدنا  
ومولانا أبي القاسم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، سيد الأنبياء  
 والمرسلين ، وصفوة الخلائق أجمعين ، وعلى آله وصحباؤه ، وخاصته وطامته ،  
هداة الأنام ، ودعائم الإسلام ، ومصاييح الظلام .

أما بعد ، فهذه رسالة وضعتها في بيان الطرق الصوفية بالديار المصرية ، وذكر  
مناقب أصحابها ، وتراجم أربابها ، الأئمة الأكرمين ، والأولياء الصالحين ، كنوز  
الأمرار ، ومعادن الأنوار ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

---

(١) حققنا نصه بالاعتماد على النسخة الخطية الوحيدة له ، والمحفظة بدار الكتب المصرية ،  
ورقمها ٣٧٣٧ تاريخ ، وهي مخطوطة حديثا بقلم ممتاز ، ومكتوبة من وجه واحد لكل ورقة ، ولم  
يذكر في آخرها شيء عن تاريخ نسخها ولا اسم ناسنها .

## ٢ / الطرق الصوفية بالديار المصرية

### ١ - الطريقة القادرية :

نسبة إلى الإمام الكبير ، والعارف الجليل ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى  
أبى صالح عبد القادر بن موسى بن عبد الله الحسنى الجبلى رضى الله عنه ، توفى سنة  
٦٥١ من الهجرة ، وضرع به ببغداد مشهور .

وسند هذه الطريقة — كما هو المشهور عند أصحابها — هو :

أخذ سيدى عبد القادر الجبلى ، عن أبى سعيد المبارك الخرمى ، عن أبى الحسن  
محمد بن يوسف الهكارى ، عن أبى الفرج محمد الطرسوسى ، عن أبى الفضل  
عبد الواحد التميمى ، عن عبد العزيز التميمى ، عن أبى بكر دلف بن جعفر الشبلى ،  
عن شيخ الطريقة ، وإمام الحقيقة ، أبى القاسم الجنيد بن عبد البغدادى ، لمتوفى سنة  
٢٩٧ من الهجرة ، وإليه تنتهى معظم أسانيد الطرق الصوفية .

٣ / وأخذ أبو القاسم الجنيد عن خاله أبى الحسن السرى بن المغلس السقطى ،  
عن أبى محفوظ معروف بن فيروز البكرخى ، عن أبى سليمان داود بن نصير الطائى ،  
عن حبيب بن محمود العجمى ، عن أبى سعيد الحسن البصرى ، رضى الله عنه .

### ٢ - الطريقة الرافعية :

تنسب إلى القطب الكبير ، والإمام الشهير ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى  
أبى العباس أحمد محيى الدين بن أبى الحسن على الرافعى ، رضى الله عنه .  
ولد سنة ٥١٢ من الهجرة ، وتوفى ٥٧٨ هـ ، وضرع به ببلدة أم عبيدة بالعراق ،  
وزى هذه الطريقة الأسمى والأبيض .

وسلسلة رجال هذه الطريقة هى :

أخذ سيدى أحمد بن على الرافعى عن الشيخ نور الدين على القارى الواسطى ،  
عن أبى الفضل بن كامخ / عن سيدى على بن ركان ، عن سيدى أبى على  
الروذبارى ، عن الشيخ على العجمى ، عن أبى بكر الشبلى ، عن سيد الطائفة  
أبى القاسم الجنيد .

### ٣ - الطريقة البرهامية :

نسبة إلى الإمام العارف الجليل ، الولي الكبير ، صاحب الكرامات الفاخرة ، أحد الأقطاب الأربعة ، سيدى ابراهيم بن أبى المجد الدسوقى القرشى ، رضى الله عنه ، توفى سنة ٦٧٦ من الهجرة ، وضرىحه بمدينة دسوق بالغربية<sup>(١)</sup> من أعمال مصر ، وزى هذه الطريقة الأخضر .

### ٤ - الطريقة السعدية :

تنسب إلى الولي العارف ، سيدى سعد الدين بن يونس الشيبانى الجباوى الدمشقى ، أحد الأولياء المشهورين بالديار الشامية ، توفى سنة ٦٣٦ هجرية ، وضرىحه ببلدة جبا من ضواحي دمشق ، ه/ و زى هذه الطريقة الأخضر .

### ٥ - الطريقة المرغنية :

نسبة إلى الإمام الشهير سيدى محمد عثمان المرغنى الكبير ، ولد سنة ١٢١٨ هـ ، وتوفى سنة ١٢٦٨ من الهجرة ، ودفن بمكة المكرمة .

### ٦ - الطريقة الموثوية :

نسبة إلى الإمام الولي العارف الشهير مولانا جلال الدين الرومى البكرى الصديق ، توفى سنة ٦٧٢ من الهجرة ، وضرىحه بمدينة قونية من بلاد الترك .

### ٧ - الطريقة النلقشبندية :

تنسب إلى الولي الجليل الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد الحسينى البخارى المعروف بنقشبند ، توفى سنة ٧٩١ من الهجرة ، وقد أخذ الطريق عن الشيخ كلال .

### ٨ - الطريقة الكلشنية :

نسبة إلى العارف الكبير ، ه/ سيدى برهان الدين ابراهيم المعروف بالكلشنى ، ولد بأذربيجان من أعمال فارس ، وتوفى سنة ٩٢٦ من الهجرة ، وضرىحه مشهور بالقاهرة بالقرب من باب زويلة .

---

(١) تتبع مدينة دسوق فى التقسيم الادارى الجالى محافظة كفر الشيخ .

### فروع الطريقة الأحمدية

هذه الطرق تنسب إلى القطب العارف ، الفرد الجامع ، أحد الأقطاب الأربعة  
سيدى أحمد بن على بن ابراهيم الحسينى الشهير بالبدوى رضى الله عنه ، توفى سنة  
٦٧٥ من الهجرة ، وضرع به بمدينة طندتا<sup>(١)</sup> بالغريرة من أقاليم مصر ، وزى هذه  
الطرق الأحمر . وقد أقام الطريق بعده خلائف .

وسند هذه الطرق هو :

كان السيد حسن بدر الدين أخو السيد أحمد البدوي في مدينة فاس بالمغرب  
 في أقصى سنة ١٣٥٥ هـ ، ٧ / ١ كان بها الولي الكبير شيخ شيوخ المغرب الشيخ  
 عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن ، فأخذ عنه سيدي حسن بدر الدين الطريق ،  
 وعنه أخذ سيدي القطب أبي العباس أحمد البدوي رضي الله عنه . فيسيدي  
 أحمد البدوي رضي الله عنه أخذ عن الشيخ عبد الجليل بواسطة أخيه السيد  
 حسن بدر الدين .

وأخذ الشيخ عبد الجليل عن الشيخ عبد الحميد ، عن الشيخ عبد الحميد أحد مشايخ الغرب ، عن الشيخ أبي الحسن طي ، عن الشيخ أبي طاهر عبد الرزاق الأندلسي ، عن الشيخ عبد القدوس ، عن الشيخ شمس الدين محمد بن يوسف المغربي القاضي ، عن الشيخ شهاب الدين أحمد التورنزي ، عن الشيخ حبيب العجمي ، عن سيدي أبي سعيد حسن البصري ، عن سيدنا عمران بن حطين ، عن سيدنا أنس / ٨ بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفروع الطريقة الأحمدية المذكورة في هذه الرسالة عدتها عشرة ، وهي :

٩ - طريقة المرافقة الاحمدية :

نسبة إلى الولي الخليل سيدى مرزوق الكبير ، وضريحه ومسجده بالجالية  
بالقاهرة .

(١) هي مدينة طنطا حاليا .

١٠ - الطريقة الإنباوية الاحمدية :

تنسب إلى العارف الجليل سيدى اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل الإنباي ،  
وضريحه ببلدة إنباة من أعمال الجيزة بمصر .

١١ - الطريقة الكناسية :

نسبة إلى الشيخ الولي سيدى محمد الكناس .

١٢/٩ - طريقة المنايفة الاحمدية :

تنسب إلى الولي الكبير سيدى عبد الله المنوفى المالكى ، مات سنة ٧٤٨ هـ ،  
ودفن بالقاهرة تجاه السلطان قايتباى .

١٣ - الطريقة الخطبية الاحمدية :

تنسب إلى الولي القدوة الشيخ أبى العباس أحمد الحلبي .

١٤ - الطريقة الشعبية الاحمدية :

نسبة إلى سيدى شمس الدين بن شعيب .

١٥ - الطريقة الزاهدية الاحمدية :

تنسب إلى الولي الجليل الشيخ أحمد الزاهد ، مات سنة ٨١٩ من الهجرة ،  
ودفن بجامعه المعروف بجامع الزاهد بالقاهرة في شارع سوق الزلط .

١٦ - الطريقة الشناوية الاحمدية :

نسبة إلى العارف الجليل ١٠ / الشيخ محمد بن عبد الله الهناوى ، دفن محلة روح  
بالغرية من أعمال مصر ، توفي سنة ٩٣٣ هجرية .

١٧ - الطريقة السلطوحية الاحمدية :

نسبة إلى سيدى محمد بن محمد السلطوحى ، ضريحه بمديرية المنوفية من  
أعمال مصر .

١٨ - الطريقة البيومية الاحمدية :

تنسب إلى العارف الولي الكبير سيدى على البيوى . ولد بيوم ، وهي قرية  
من مركز منية غمر من مديرية الدقهلية بمصر ١١٠٨ هجرية ، وتوفي بالقاهرة ،  
وضريحه بالحسينية .

### فروع الطريقة البرهامية

هذه الطرق تنسب إلى القطب الكبير سيدى ابراهيم الدسوقي وعددها ٢  
اثنان ، وهما :

#### ١٩/١١ - الطريقة الشهاوية :

وهى شعبة من البرهامية وتنسب إلى سيدى محمد الشهاوى ، وضريحه قرب  
الحلة الكبرى من الغربية بمصر .

#### ٢٠ - الطريقة الشرنوبية :

هى شعبة من البرهامية ، وتنسب إلى سيدى أحمد بن عثمان الشرنوبى ، دفن  
شرنوب من مديرية الغربية بمصر .

### فروع الطريقة الشاذلية

هذه الطرق تنسب إلى الإمام العارف الشهير سيدى أبى الحسن طى بن عبد الله  
الشاذلى ، توفى سنة ٦٥٦ هـ ، فأصدا الحج ، ودفن ببحراء عيذاب بطريق القصير  
من أعمال صعيد مصر .

وستد هذه الطريقة هو :

١٢ / أخذ سيدى أبو الحسن الشاذلى عن الشريف سيدى عبد السلام بن  
مشيش ، عن أبى محمد بن عبد الرحمن المدنى ، عن الشيخ تقي الدين الفقير الصوفى ،  
عن الشيخ نضر الدين ، عن الشيخ نور الدين أبى الحسن طى ، عن سيدى تاج الدين ،  
عن سيدى شمس الدين محمد ، عن سيدى الشيخ زين الدين محمد القزوينى <sup>(١)</sup> ، عن الشيخ  
أبى اسحق ابراهيم البصرى ، عن أبى القاسم محمد المروانى [ عن أبى محمد سعيد <sup>(٢)</sup> ] ،  
عن الشيخ أبى محمد فتح الصعود ، عن الشيخ سعيد ، عن سيدنا جابر ، عن سيدنا

( ١ ) فى الأصل : القزوى .

( ٢ ) أضفنا هذا الاسم بعد مقارنة هذه السلسلة بالسلسلة الواردة ذكرها فى كتاب « منهل الأنوار  
المحمدية » بذي « درة الأسرار » ، الاسكندرية ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٥ م ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ ، ولله  
سقط سهوا من الناسخ .

الحسن بن علي رضي الله عنه ، عن والده سيدنا الإمام علي بن أبي طالب  
كرم الله وجهه .

وأخذ أيضا سيدي أبو الحسن الشاذلي عن الشيخ أبي محمد صالح بن نصار  
للالكي ، عن الإمام سيدي ١٣ / أبي مدين التلمساني ، عن القاضي ، عن أبي سعيد  
التغري ، عن أبي يعقوب النرجوري ، عن سيد الطائفة أبي القاسم الجنيد البغدادي ،  
عن المري السقطي ، عن أبي محفوظ معروف الكرخي ، عن السيد علي الرضا ،  
عن أبيه السيد موسى الكاظم ، عن أبيه جعفر الصادق ، عن أبيه محمد الباقر ، عن  
أبيه علي زين العابدين ، عن أبيه سيدنا ومولانا الحسين بن علي رضي الله عنه ،  
عن والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

والطريقة الشاذلية أسانيد وطرق أخرى لا حاجة لذكرها .

وأخذ عن سيدي أبي الحسن الشاذلي جمهور كبير من ١٤ / أئمة الطريق وكبار  
القوم . ومن أجل من صحبه وأخذ منه سيدي أبو العباس المرسى دفين  
الإسكندرية بمصر ، وعنه أخذ سيدي ياقوت العرشي ، وعنه أخذ سيدي  
ابن عطاء الله السكندري صاحب كتاب «الحكم» ، وعنه أخذ سيدي داود بن باخلا .  
وكذلك أخذ عن سيدي أبي الحسن الشاذلي جمع كبير من مشايخ الإسلام وأعيان  
الأنام غير هؤلاء .

وفروع الطريقة الشاذلية المذكورة في هذه الرسالة عدتها ١٠ عشرة ، وهي :

#### ٢١ - الطريقة العفيقية :

تنسب إلى الولي الجليل سيدي عبد الوهاب محمد بن أحمد العفيقي ١٥ / دفين  
للقاهرة بالمجاورين .

#### ٢٢ - الطريقة الأدرسية الشاذلية :

تنسب إلى العارف الجليل ، المرشد الشهير ، أحمد بن إدريس المغربي ، دفين  
صيا باليمن . ومن فروع هذه الطريقة الطريقة السنوسية المشهورة ببلاد المغرب ،  
وقد أسسها سيدي محمد بن علي السنوسي الكبير سنة ١٢٥٠ من الهجرة .



### ٢٣ - الطريقة المدنية الشاذلية :

نسبة إلى الولي العارف الجليل سيدى محمد بن ظافر بن حمزة المدني الكبير ، دفن في المدينة المنورة ، وقد تأسست هذه الطريقة في نحو سنة ١٢٤٠ هجرية .

### ٢٤ - الطريقة الجوهريّة الشاذلية :

نسبة إلى الأستاذ الكبير الشيخ الجوهري ، وضريحه بالقاهرة مشهور .

### ٢٥ - الطريقة الحامدية الشاذلية :

تنسب إلى السيد سلامة بن حسن أبي حامد الراضى ، وينتهى سندها إلى الولي الإمام الجليل سيدى شمس الدين الحنفى البكرى الصديقى ، ومنه إلى القطب سيدى أبي الحسن الشاذلى .

### ٢٦ - الطريقة العيسوية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى محمد بن عيسى ولد بمكناس في القرن التاسع ، ودفن بإقليم مراكش وقد أخذ<sup>(١)</sup> الطريقة الجزولية الشاذلية للشيخ الإمام الجزولى ، ثم أنشأ طريقته المنسوبة إليه .

### ٢٧/١٧ - الطريقة التهامية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى التهاى دفن المغرب الأقصى .

### ٢٨ - الطريقة الحندوشية الشاذلية :

تنسب إلى سيدى ابن حندوش دفن المغرب الأقصى .

### ٢٩ - الطريقة العروسية الشاذلية :

نسبة إلى سيدى أبي العباس أحمد بن محمد بن عروس الشريف القرشى ، توفى بحونس سنة ٨٩٤ من الهجرة .

### ٣٠ - الطريقة السلامية الشاذلية :

نسبة إلى الولي العارف سيدى عبد السلام بن سليم الأسمر ، وهو من رجال القرن التاسع للهجرة ، وضريحه بطرابلس الغرب .

---

( ١ ) بكلمة « أخذ » بياض بالأصل .

## فروع الطريقة الخلوتية

هذه الطرق تنسب إلى الإمام ١٨ / العارف الكبير سيدى مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديق . ولد بدمشق ، وتوفى سنة ١١٦٢ هجرية ، ودفن بالمجاورين بالقاهرة . وضريحه مشهور .

وسند هذه الطريقة هو :

أخذ سيدى مصطفى بن كمال الدين البكرى عن الشيخ عبد اللطيف الخلوتى ، عن سيدى مصطفى الأدرنوى ، عن سيدى على قرابانز أفندى ، عن الشيخ اسماعيل ، عن الشيخ عمر<sup>(١)</sup> ، عن الشيخ محي الدين شعبان القسطنطونى ، عن الشيخ خير التوقادى ، عن الشيخ جلبي ، عن الشيخ محمد بهاء الدين الأرزنجاني ، عن الشيخ يحيى الباكوبى صاحب « ورد الستار » ، عن الشيخ صدر الدين الخليلى ، عن الشيخ عز الدين الخلوتى ، ١٩ / عن الشيخ محمد يبرام الخلوتى ، عن سيدى عمر الخلوتى ، عن سيدى الولي الكبير محمد الخلوتى ، وهو مؤسس الطريقة الخلوتية ، عن سيدى إبراهيم الزاهد ، عن الشيخ جمال الدين التبريزى ، عن الشيخ شهاب الدين الشيرازى ، عن الشيخ زكى الدين محمد [التجاشى] ، عن الشيخ قطب الدين الأبهري ، عن الشيخ عمر البكرى<sup>(٢)</sup> ، عن عمه الشيخ الإمام أبى النجيب السهروردى البكرى الصديق ، عن القاضي وجيه الدين ، عن الشيخ محمد البكرى<sup>(٣)</sup> ، عن الشيخ ممشاد الدينورى ، عن أبى القاسم الجنيد ، عن السرى السقطى ، عن أبى محفوظ معروف الكرخى ، عن داود الطائى ، عن حبيب العجمى ، عن الحسن البصرى ، عن سيدنا الإمام على بن أبى طالب ، رضى الله عنه .

٢٠ / وقد أخذ هذه الطريقة الخلوتية عن سيدى مصطفى البكرى جمع عظيم من

---

(١) بمقارنة هذا السند بالسند الذى أورده الجبرقى فى « عجائب الآثار » ، نلاحظ أن الشيخ اسماعيل أخذ مباشرة عن الشيخ شعبان القسطنطونى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٦٧

(٢) بجمل الجبرقى أخذ قطب الدين الأبهري عن السهروردى مباشرة ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٩٧

(٣) فى عجائب الآثار : الدينورى .

مهاينخ الإسلام ، والعلماء الأعلام ، والأئمة الأعيان ، وأكابر الزمان ، ذكر بعضهم العلامة الشيخ الجبرتي في تاريخه . ونذكر نحن في هذا الباب طرفاً من هذا ، فنقول : أخذ عنه الإمام العلامة الشيخ الحفني شيخ الجامع الأزهر ، وهو ملقب بمعلم أسانيد الطرق الخلوتية بالديار المصرية .

وأخذ عن الشيخ الحفني الشيخ الشرفاوي شيخ الجامع الأزهر ، وله شرح على ( ورد سحر ) لسيدى مصطفى البكري .

وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ الدردير شيخ المالكية بالجامع الأزهر .  
وأخذ عن الشيخ الدردير الشيخ السباعي .  
وأخذ عن الشيخ السباعي الشيخ الحداد ، وهو مؤسس الطريقة الحدادية ٢١ / وأخذ عن الشيخ الدردير أيضاً الشيخ السكري من سكان طهطا بالصعيد .  
وأخذ عن الشيخ السكري الشيخ الخضرى من سكان طهطا أيضاً .  
وأخذ عن الشيخ الخضرى الشيخ أحمد شرفاوي .  
وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ أحمد الصاوي من أجل علماء الأزهر .  
وأخذ عن الشيخ الحفني أيضاً الشيخ الشنتناوي .  
وأخذ عن الشيخ الشنتناوي الشيخ المصيلحي .  
وأخذ عن الشيخ المصيلحي الشيخ الميراوي .  
وفروع الطريقة الخلوتية المذكورة في هذه الرسالة عدتها ١٠ عشرة ، وهي :

#### ٣١ - الطريقة السيمانية الخلوتية :

نسبة إلى الولي ٢٢ / الجليل سيدى محمد السمان ، دفن في المدينة المنورة .

#### ٣٢ - الطريقة الصيفية الخلوتية :

تنسب إلى سيدى إسماعيل ضيف ، دفن في القاهرة .

#### ٣٣ - الطريقة الفنية الخلوتية :

تنسب إلى العلامة الأستاذ الشيخ إسماعيل الغنيمي المالكي .

#### ٣٤ - الطريقة السباعية الخلوتية :

نسبة إلى سيدى محمد السباعي ، وقد أخذ عن الشيخ الدردير ، وضم إليه بمجوار الشيخ الدردير بالقاهرة .

٣٥ - الطريقة الحدادية الخلوتية :

تنسب إلى العلامة الكبير الشيخ محمد الحداد المالكي المدون الخلوتي . توفي سنة ١٢٨١ هـ ، ودفن بالقاهرة بالقرافة الكبرى .

٣٦ - الطريقة الحبيبية الخلوتية :

نسبة إلى سيدى محمد أحمد الحبيبي ، وضريحه بزاويته بالقاهرة .

٣٧/٣٣ - الطريقة المروانية الخلوتية :

هذه الطريقة تنسب إلى الشيخ القدوة الجليل السيد عبد المتعال المرواني المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ ، وضريحه بكفر سيدى عامر بمركز بنها بمديرية القليوبية .

٣٨ - الطريقة المسلمية الخلوتية :

تنسب إلى الولي سيدى سليم أبى مسلم ، دفن ناحية الصوة من مركز بلبس من مديرية الشرقية بمصر .

٣٩ - الطريقة الهراوية الخلوتية :

نسبة إلى الشيخ إبراهيم الهراوى وضريحه ببلدة هرية رزنة من مديرية الشرقية بمصر .

٤٠ - الطريقة المصليحية الخلوتية :

تنسب إلى الأستاذ الشيخ المصليحي ، دفن المصليحة بالمنوفية من أعمال الديار المصرية .

## فلسفة الشك واللا أدرية لدى المعري والخيام

للدكتور عبد القادر محمود

مدرس الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة بالخرطوم

أسعدني كثيراً وأنا أبحث وأتقرب في أفكار عصر المعري والخيام أن أقرأ للدكتور طه حسين<sup>(١)</sup> قوله في ذكرى أبي العلاء (وقد كان من الحق على أن أضع فصلاً موجزاً أو مطولاً للمقارنة بين أبي العلاء وعمر الخيام).

ولا حظت أن الذين كتبوا عن المعري لم يتعرضوا لهذه المقارنة حتى الآن وبخاصة في مخطط الشك واللا أدرية والفلسفة العقلية واللاعقلية لدى المعري والخيام. كما لاحظت أن المؤرخين والنقاد قد تحدثوا عن العصر المضطرب الذي عاش فيه دون أن يصلوا أفكار هذا العصر بمخطط فلسفتها، ودون أن يدرسوا دراسة ما عن مدى استقاء فكرهما من هذا العصر، وإنما كان الحديث فقط عن المعري بالذات من نواحي إيمانه وزنلقته، وشكّه، وحيرته بين الشك واليقين، وعن الخيام من نواحي صوفيته، وثورته الفكرية والفلسفية على المذاهب والمعتقدات؛ لكن دون أية دراسة منهجية مقارنة لفكرهما بالنسبة لهذا العصر الذي عاش فيه المعري (٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ)، وعاش فيه الخيام (٤٢٧هـ أو ٤٣٧هـ - ٥١٧هـ) كما عاش فيه الامام الغزالي (٤٨٠هـ - ٥٠٥هـ).

وقد قرأت المعري في كل فكرة ثم قرأت الخيام في أهم تراثه وهو الرباعيات فوجدت في بداية الأمر تشابهاً في أصول المخطط الفكري القائم على الشك العقلي، أو التراجع بين اليقين والشك إلى الحيرة، إلى لا أدرية يغطيها أحياناً بسحب استغفارات، وسبحات ندم لا تستطيع أن تمحو هذه اللا أدرية العارمة.

(١) الدكتور طه حسين: ذكرى أبي العلاء: المقدمة (يد) ٢٠ - ١٩٢٢

ثم وجدت في دراستي للعصر الذى عاش فيه فكر المعرى وانخيام أن هذا العصر العجيب وهو الممتد ما بين القرون الثالثة والرابعة والخامسة من الهجرة هو الذى مد المعرى بهذا الزاد الضخم من فلسفة الشك واللاأدرية كما أنه هو العصر الذى ثار فيه الامام الغزالي على كل هذه التيارات الخبيثة بعد أن عبر مرحلة الشك في تجربته الخالدة التى حدثنا عنها في كتابه المتخذ من الضلال ، وبعد أن واجه كل هذه التيارات الخبيثة من الرافضة واللادينين في كل الجبهات المانوية والمجوسية والشيعية ، وذلك في كتبه فضائح الباطنية ، وتهاافت الفلاسفة ومقاصد الفلاسفة وغيرها من أمهات كتبه الخالدة .

وسأعرض كقلمة لهذا البحث أولا الأساس الذى اعتمد عليه فكر المعرى وانخيام ، وهو تراث عصره ، ثم أعرض ثانيا فكر المعرى وفلسفته ، ثم أعرض ثالثا فكر انخيام وفلسفته ، ثم أعرض أخيراً دراسة مقارنة لفكر المعرى وانخيام لتعرف في النهاية مدى استقاء انخيام من المعرى ومدى تشابههما ، أو مدى استقائهما معا أصول فلسفتهما من عصرهما المحتشد بأعنف النظريات الفكرية والفلسفية خطراً في ذاتها وفي موضوعها ومنهجها من روح الاسلام والأديان السماوية عامة .

(أولاً) عصر المعرى وانخيام : أهم ما يتميز به هذا العصر هو الصراع المذهبي والفكري بين أنصار العقل المطلق ، وأنصار الجبرية ، وبين أهل السلف المتوقفين عند النصوص ، والأشاعرة الموقفين بين أنصار العقل ، وأنصار النص أو النقل ، وبين الشيعة الباطنية ومختلف المذاهب العقلية والسلفية والسنية ، ثم ما بين هؤلاء جميعاً وبين أهل الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية من الأديان السماوية ، والمجوسية والمانوية والزرادشتية والمزدكية ، والبوذية وغيرها من الديانات الوثنية .

المهم أن الحركات الشعبية كانت الرائد الأول وكانت ينبوع الخطير لكل التيارات الباطنية التى انبثقت عنها كل النظريات المنفصلة عن الروح الاسلامي ، ويمكن القول بأن أقوى الآراء المتطرفة والمنحرفة تلك التى أثمرت ثمارها في فكر المعرى وانخيام ، قد باضت وأفرخت مع فكر ابن المقفع (ت ١٤٢ هـ) ، وابن الراوندى (ت ٢٥٠ هـ أو ٢٩٨ هـ) ومحمد بن زكريا الرازي (ت ٣١١ هـ) ، أو

٣١٣ د ) ، ذلك الفكر الذى بدأ نموه منذ بداية القرن الثانى الهجرى مع حركات مدرسة السبئية من الشيعة الغلاة ، والدعاة القرامطة وتلاميذهم من الباطنية بمختلف صورهم ونحلهم .

ويمكن أن نجد مدخل آراء المعرى والخيام فى خططها الأساسى لدى أفكار ابن المقفع فى الدعوة إلى ابطال الديانات على أساس زعمه تناقضها ونسختها لبعضها البعض ، ولدى أفكار ابن الراوندى فى نبوة العقل الصادقة بالنسبة لأودام النبوات والديانات والشرائع ، تلك التى جاءت بنظم ينفر منها العقل ، ولا تدل على عقل ، ولدى الرازى فى دعواه بأن الأديان تتناقض مع العقل ، وكذلك معنى الاجماع ، وفى دعواه القرمطية بأن الوحى لم يفلح على محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بل هو باب مفتوح لمن كان له عقل .

أما ابن المقفع <sup>(١)</sup> فقد تعرض للأديان عامة وشكك فى قيمتها ، نجد هذا الحكم سافراً فى حديثه على لسان « بروزيه » فى كتابه « كلیلة ودمنة » حيث يقول ( كنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ) . . ولكن مهنة الطب لم ترضه ، وشك فى قدرته على تخفيف آلام المرضى ، مع ما ناله من ددايا ومكافآت من السلاطين والملوك ، ولهذا عاد يقول بعد أن غير نهجه ( فعدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها فلم أجد عند أحد ممن كلمته جواباً فيما سألته عنها ، ولم أر فيما كلموني به شيئاً يحق لى فى عقلى أن أصدق به ولا أن أتبعه ) .

وقد اتخذ ابن المقفع اختلاف الأديان والمذاهب ( كما سيتخلده المعرى والخيام ) دليلاً على فسادها وبطلانها ومن هنا كانت الدعوة إلى إبطالها واتخاذ العقل وحده نبياً ، وقد جهل أو تجاهل هؤلاء الدعاة جميعاً أن اختلاف الأديان ( كما زعموا ) دليل على مبدأ التطور الدينى بالنسبة لكل عصر ، كما أن اختلاف المذاهب والفرق وبخاصة فى الاسلام ، أكبر دليل على حيوية هذا الدين وأقوى دليل على شموله لكل عصر وكل زمان وأعظم حجة على أنه دين الاكتمال ، لأن به كان تمام النعمة

( ١ ) ابن المقفع : كلیلة ودمنة ص ٧٥ القاهرة ١٩٣٦ وأنظر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده

هامش ص ٢٣ - ٢٧ من ترجمة لكتاب دى بور تاريخ الفلسفة فى الاسلام ١٩٥٤

كما قال الله ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً . آية ٣ من المائدة ) ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم ، والشهيد القائم على كل الأنبياء ، ورسالته هي الرسالة الجامعة بدليل قول الله سبحانه ( جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . آية ٤١ من النساء ) وليس فقط في الدنيا بل في الآخرة أيضاً بدليل القرآن ( ويوم نبئ في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء . آية ٨٩ من النحل ) .

أما ابن الراوندي<sup>(١)</sup> فقد ناقش في رسائله متعددة فكرة النبوة ، وحكم بطلانها وأكد أن العقل هو أعظم نعم الله ، وهو الذي يعرف به الله ، وإذا كان الرسول ( أى رسول ) يأتي بوحيه أو رسالته أو نبوته مؤكداً بها أحكام التحسين والتقصيح والایجاب والخطر ( فساقت عنا النظر في حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غشنا بما في العقل عنه ، وإن كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقصيح والاطلاق والخطر فحينئذ يسقط عنا الاقرار بنبوته<sup>(٢)</sup> ) .

وقد خصص ابن الراوندي في هجومه على محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) أتى بما كان منافراً للعقول مثل الصلاة وغسل الجنابة ، ورى الحجارة ( في الحج ) والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر ، والعدو بين حجرين ( الركن والمقام ) لا يتبعان ولا يضران . وهذا كله لا يقتضيه عقل وما الطواف على البيت إلا كالطواف على غيره من البيوت<sup>(٣)</sup> .

ولا شك أن هذا قد أمد العلاج ( ت ٣٠٩ هـ ) بفلسفته في هدم أبدان الشعائر

(١) هول كراوس : مجلة الدراسات الشرقية R.S.O. مجلد ١٤-١٩٣٤ وقد ترجمه الدكتور عبد الرحمن بوى في كتابه من تاريخ الاتحاد ص ٧٥ وأنظر أساساً المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داهي الدعاة المجالس المؤيدية وخاصة مناظراته ومساجلاته مع المرى التي نقلها ورواها أصلاً ياقوت الحموي في معجم الأدباء ص ١-١٦٢-٢١٦ وأنظر أيضاً تعريف القمصا بأبي العلاء بتحقيق الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري ١٩٦٥-١١٩-١٣٧ ، وأنظر ابن الجوزي مرآة الزمان - ٢٠

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصدر السابق .



والتكاليف الشرعية<sup>(١)</sup> كما أمد عبد الحق بن سبعين (ت ٦٦٧ هـ) (٢) بنفس  
الرأى حين وصف الطائفتين بالبيت الحرام بأنهم (حرم المدار) .

وسنرى أن هذا الرأى هو ما رده المعرى في قوله بصدد المعجم على الأديان :

عجت لكبرى وأتباعه      وغسل الوجوه بيول البقر  
وقبصر لما سوى ساجدا      لما صنعتته أكف البشر  
وعُجِبَ اليهود برَب يسر      بسفك الدماء وشم القفر  
وقوم أتوا من أقاصى البلاد      لخلق الرموس ولثم الحجر

ومما تركه ابن الراوندى للمعرى والخيام قوله عن القرآن إذا كان القرآن حقا  
معجزة في مواجهة القبائل العربية الفصحى فاحكمه على المعجم الذين لا يعرفون  
اللسان العربى . وما حجته عليهم ؟ ولا شك أن في هذا طعنًا صريحًا في اصحاج  
القرآن . ثم أن ابن الراوندى قد ترك للمعرى والخيام فكرة أن هناك تناقضًا واختلافًا  
ونسخًا من الكتب المقدسة بعضها البعض ، وهذا في رأيه دليل بإطلها الذى يوجب  
الدعوة إلى إبطالها وعدم الايمان بها . وهذه الفكرة «التي زعمها ابن الراوندى» أن  
القرآن تنص في دعواه بعدم صحة صلب المسيح عليه السلام ما أقره اليهود والنصارى .  
كما ذهب ابن الراوندى إلى أن حكاية الوحى : أو الاهام ليست متوقفة على النبى  
ولا أى نبى كائنًا من كان مما أيد دعوى عدم اخلاق باب الوحى من الباطنية والرافضة  
وغيرهم . وأما الرازى<sup>(٤)</sup> فقد توسع فيما قدمه ابن المقفع وابن الراوندى وسائر  
هؤلاء الزنادقة حين أكد لعصر المعرى والخيام امتداداً لعصره وفكره أن الشر في

(١) الدكتور عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الاسلام ١٩٦٦ الباب الرابع ٣٠١-٤٠٠

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ص ١ / ١٤٣

(٤) كراوس رسائل فلسفية ١٩٣٩ وأهم كتب الرازى العلم الايمى بخاريق الأنبياء الطب الروحاني  
وأنظر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدى تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١١٩-١٢٠ - وقد أكد  
الباقلاني وابن حزم والبنفادى والطوسى والذهبي (أنظر الفصل في الملل والنحل لا حزم ص ١ - ٦٩  
وما بعدها) أن إنكار النبوات جاء من البراهمة الذين يقولون بالتوحيد مع إنكار النبوات وأن حججهم  
هى أنه لما صح أن الله أرسل الرسل إلى قوم لا يصفقون فلماذا أرسلهم ولماذا لم يرغم العقل على الايمان ؟  
وقد ذكر الغزالي أيضا (الخواهر ٥٢) أن البرهمى كافر لأنه أنكر مع رسولنا سائر المرسلين (وأنظر  
الشهرستاني الملل والنحل ٤٤٥

الوجود أكثر من الخير أو أساس الكون ، وأن وجود الانسان لهذا نقمة وشر عظيم كما أكد في فلسفته قدم المادة في الوقت الذي اعترف بالخالق على تأرجح بين دلتا وذاك وعلى تناقض. لكنه لما كان قد هاجم فكرة التوحيد الاسلامي الذي ينكر أن يكون إلى جانب الله سبحانه شيء قديم فإنه أقرب إلى الدهريين أو أقرب إلى القول بقدم المادة عن الله . ولما أكد الرأزي امتداداً لمن سبقه أن النبوات لا داعي لها ويكفي العقل المشترك ، ثم إن النبوات ( كما يزعم ) - كما سيقول المعري والخيام من بعده (١) - أسباب العداوات ، وحجته في هذا بأن وجود التناقض من الأنبياء مع ادعائهم جميعاً بأنهم يأتون من وحى الله الواحد إنما يدل على أنهم غير صادقين وأن النبوة لهذا باطلة .

وسنرى بعد هذه المقدمة أن هذا المخطط العجيب هو الذي أثرى فكر المعري والخيام ، كما كان السبب المباشر في ثورة الامام الغزالي ، الذي وقف في وجه كل هذه التيارات الخبيثة مفكراً وفيلسوفاً ومتصوفاً ورجل دين ، على علم ويقين .

(ثانياً) فكر المعري وفلسفته :

ملاحظة تراث المعري نجد أنه كتب ثلاثة ديوانين : سقط الزند ، وقد نظم معظمه في شبابه إلا قليلاً ، الدرعيات وهو ديوان صغير ملحوظ لسقط الزند . اللزوميات وهو أخطر ديوانيه ، وممثل أدق ناحية في فلسفته العقلية وقد وضعه ليكون كتاباً فلسفياً وهو يمثل المرحلة الأخيرة من فكره (٢) .

والمعري واضح ممام الوضوح في توكيد النظريات الفلسفية في الطبيعة والرياضة

(١) سنرى في تفاصيلنا بعد قليل آراء المعري والخيام التي هي اصداء امتدت لهذه الآراء ومنها قول

المعري

أيقوا أيقوا يا غواة قائما  
أرادوا بها جمع الخطم فادركوا  
دياناتكم مكر من القدماء  
وبادوا ودامت سنة القوماء  
اثنتان أهل الأرض ذو عقل بلا دين  
وأعمر دين لا عقل له

وقول الخيام :

ليس في الدبر ولا في المسجد يا صاح مكاني  
قد علمت الدين والدنيا وآمال الخنان  
لست بالكافر أخلاقاً ولا المسلم صدقاً (حقاً)

(٢) دكتور طه حسين : ذكرى ٢٣٤ .

والألوهية والأخلاق فهو يقول في الرد على أصحاب الديانات فيها يثبتون من تنزيه الله عند الزمان والمكان في سخرية جارحة :

قلتم لنا خالق قديم قلنا صدقتم . . . كذا نقول  
زعمتموه بلا زمان ولا مكان . . . ألا تقولوا  
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول (١)  
لحا الله قوما إذا جنتهم بصدق الأحاديث قالوا كافر (٢)  
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له (٣)

ويقول في إثبات أن الأبعاد لا تتناهى وهى مسألة من مسائل العلم الطبيعي :  
ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر  
ويقول مؤكداً قول أرسطو ، مستدلاً على نقي البعث ، في حديثه عن قدم العالم :  
إن صح ما قال رسطا ليس من قدم وهب من مات . . لم يجمعهمو الفلك (٤)  
ويقول في توكيده للجبرية :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر  
فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أنت على تغير لونك قادر (٥)  
ما باختيارى ميلادى ولا هوى ولا حياى فهل لى بعد تخيير (٦)  
هذا بالنسبة لثرائه الشعري. أما تراث فكره النثرى فهو رسالة الغفران (٧) ورسالة  
الملائكة ولا شك أنه كتبها في المرحلة الناضجة الأخيرة من عمره الفكرى مع  
الزروميات . وإذا كان قد صور مأساته بالنسبة لمأساة الحياة الالهية في غير الغفران  
فانه قد صورها محتجا ساخرا إلى أقصى حدود السخرية في الغفران .

وقد اتفق له كما اتفق لغيره أمثال الخيام والغزالي أن يقرأ الفلسفة اليونانية العملية  
والفلسفة الهندية المتراجعة السلبية ، والفلسفة الفارسية بأساطيرها وتياراتها الشيعية

(١-٣) الزروميات المعرى ج ٢ - ١٧٩ ، ١ - ٤٢٦ ج ٢ - ٢٠١ وما بعدها .

(٤) الدكتور طه حسين ذكرى أبى الغلاء ٢٣٤

(٥) ، (٦) المعرى الزروميات ج ٢ - ١٧٩ ، ١ - ٤٢٦ ج ٢ - ٢٠١ وما بعدها .

(٧) الدكتور عائشة عبد الرحمن الغفران تحقيق ١٥٥ - ١٨٨

المغالية ، والفلسفة المشائية القديمة والحديثة ، والفلسفة الصوفية في مدارس الحلاج وما قبله من مدارس الفلسفة العقلية الخالصة مع الفارابي . لكنه لم ينبج من آثار كل هذه الفلسفات كما نجا الغزالي بل كان الممثل الخلاق لأراء عصره وفلسفته تلك التي عاشها وتنفسها ثم صاغها كما صاغها صاحبه الخيام صياغات جديدة .

وقد اختلف المؤرخون والمفكرون من العلماء في أمر عقيدته (١) فعظم المسلمون من رجال الدين والعقيدة يحكون بكفره أو زندقته أو إلحاده أو جموده على أقل تقدير . أما الفرنج من العلماء والمستشرقين وبعض علماء الاسلام والاسلاميين يقولون على خلاف في الأحكام بأنه سني ، أو بأنه سوفسطائي ، أو بأنه معتزلي ، أو بأنه لا أدري ، ولعله كل ذلك في تكوينه الفكري ، لكنه ليس واحدا من هؤلاء باخلاص وصدق فهو غير سني لأنه لا يؤمن إلا بالعقل الجرد وحده ، وهو غير سوفسطائي صريح لأنه لا يقول دائما بنسبية الحقائق مثلهم بل يعتقد كثيرا في أحكام العقل الثابتة كآرائه في الديانات والمذاهب الآلمية والأخلاقية والطبيعية ، وهو غير معتزلي تماما لأن المعتزلة حين يقدمون العقل على كل شيء يتخذون الشرع أصلا لنظرهم ودليلا يعتزون به .

وقد حكى (٢) البغدادى أنه رى بالاحاد ، وأكد ابن الجوزى (٣) أن إصابته بالعمى أذخلته في زمرة المترددين كما روى القفطى (٤) كثيرا من شعره الذي وسعه بالاحاد وأكد أنه المشهور عنه .

وأشهر ما روى عنه مما ذكره ابن الجوزى (٥) قوله مخاطبا الله سبحانه وتعالى ومعتبرا له عن ضرورة زندقته اعتادا على سوء تقسيم الخطوط :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحمقا  
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك ما لا يشهى فترزقا

(١) المصدر السابق المذكورة مائثة عبد الرحمن .

(٢) البغدادى تاريخ بغداد ٤ - ٢٤٠

(٣) ابن الجوزى المنتظم ٧ - ١٥٦ - ١٦٠

(٤) القفطى أبناء الرواء ١ - ٤١

(٥) المصدر السابق لابن الجوزى .

وبما رواه عنه ياقوت (١) في حكمه على تأصل فكره الشر والنقيصة في الخلقة البشرية .

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويج بنتيه لابنيه في الدنيا  
علمنا أن الخلق من أصل ريبة وأن جميع الناس من عنصر الزنا (٢)  
فاذا تتبعنا المعرى وجدنا خطوطاً رئيسية ثلاثة تجمع كل فلسفته بصورة مجردة  
عريضة ، خرجت عنها كل التفاصيل والتفاسير لهذه الخطوط الثلاثة .

أما الخط الأول وهو خط الفطرة الذي يقول عنه :  
العقل يسعى لنفسه في مصالحها فالطبع إلى الآفات جذاب  
وأما الخط الثاني فهو خط العقل الذي لا نبي بعده ولا قبله :  
كذب الظن لا إمام سوى العقل ، شيراً في صبحه والمساء  
وأما الخط الثالث فهو خط اللاأدرية الذي في ساحته يقول :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلما في حنود تنصادم  
أما المدرسة الثابتة التي كان المعرى يستقي منها زاداً لفكره المتوقد فهي التي  
يحدثنا عنها هو في قوله موكلدا مجمعها السرى :

كم بلدة فارقتها ومعاشر ينرون من أسف على دموعا  
وإذا أضاعني الخطوب فلن أرى لوداد (إخوان الصفاء) مضبعا  
خالت توديع الأصادق للنوى فنتى أودع نخل التوديع (٣)

وقد تنقل المعرى في فلسفته بين إيمانه بالفطرة ، وبين إيمانه بالعقل ، ثم ثورته  
على العقل ، به ، في لأدرية ، وذلك كله في تفاصيل مضطربة حائرة . لكن أساس  
فكرة إيمانه بالعقل مهما ثار عليه ، أما الفطرة فكان يلجأ إليها خوفاً وفرعاً من المصير

---

(١) ياقوت معجم الأدباء ١ - ١٦٢ - ٢١٦

(٢) هذه الأبيات لم ترو في الزرويات، ومن الذين دافعوا عن المعرى ابن المديم : الانصاف والتحرى  
في دفع الظلم عن أبي العلاء المعرى . مخطوط بالجميع العلمي بدمشق ٤١ رواية عن الدكتور طه حسين تعريف  
القسماء ٤٨٣

(٣) طه حسين ذكرى ١٧٧

المجهول أمامه وأمام العقل الخائر ، وكان يلجأ إليها أيضا تقية يستر من ورائها آراء. أحيانا ، لكن هذه الآراء كانت واضحة الاتجاهات والمعالج منها ادرعت بستر التقية فقد كان يؤكدها ويشد عليها سفوره الواضح في دعوته إلى إبطال الديانات واعتقاده الراسخ في إنكار البعث و يقينه العقلي في قدم المادة ، ثم جبريته العنيفة التي أبطل من وراء ايمانه بها التبعية والمسئولية والجزاء . وكان ايمانه بقاء الروح مع الجسد عاملا هاما ، وحجة كبرى في تأكيد تلك الآراء . والمعري في أساس فلسفته مقدس للعقل ثائر على أى إمام غير العقل نبيا كان أو إماما :

يرنجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتبية الخرساء  
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء (١)

وقد أرشده عقله إلى صدق فكرة قدم المادة ، فالعالم من مادة قديمة خالدة ، ومن صور تختلف عليها ، وكل حي له نسب يتصل بالعناصر الأربعة : الهواء والنار والماء والتراب .

نرد إلى الأصول وكل حي له في الأربع التقدم انتساب  
آليت لا ينفك جسمي في أذى حتى يعود إلى قديم العنصر (٢)

وهو حين يثبت قدم العناصر يؤكد لنا أن الانسان غريب حتى بعد موته وصبروته في حيوات مادية أخرى :

فلا يمس فخسارا من الفخراائد إلى عنصر الفخار للنفع يضرب  
لعل لإناء منه يصنع منرة فيأكل فيه من أراد ويشرب  
ويحمل من أرض لأخرى وما درى فواها له بعد البلى يتغرب (٣)

كذلك الزمان قديم كالمادة ، ولا شك أنه هنا وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية في مبدأ قدم العناصر وقدم الزمان والمكان وكونهما غير متاهين :

نزول كما زال آبائونا ويبقى الزمان على ما ترى  
قالوا لنا خالق قديم قلنا صدقتم كذا نقول  
زعمتموه بلا زمان ولا مكان .. ألا فقولوا

(١) القزوينيات ١ / ٢٥٢ / ٣٧٦ / ٢ : ١٤٣ / ١٧٩٠ / ٢٠١ / ٢٥٢  
(٢-٣) المصدر السابق .

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول (١)  
والله الخالق العظيم صاحب السلطان وإن لم يمكن إدراكه فهو لا مثيل له :  
انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء (٢)  
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عند ذى رشاد خفاء  
وهو ليس من معشر النفاة ، رغم عجزه عن إدراك ذاته :

أثبت لي خالقاً حكماً ولست من معشر نفاة  
أما الإله فإني لست مدركة فاحذر لحيك فوق الأرض سخاها (٣)  
لكن المعري يعود في فكرته ، ويدور فيها على أساس يوناني في صورة إسلامية ؛  
فالشبه متنقلة في أفلاكها بقدرة إله غير متنقل ولا متحرك حسب منطق أرسطو ،  
لكن المعري يؤكد لنا أن هذا الإله غير متحرك بحركة مادية بدليل أنه أثبتنا للكواكب  
ونفاها عن الله الذي لا مثيل له :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من ملك غير متصل (٤)  
انفرد الله بسلطانه فإله في كل حال كفاء  
والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صار (٥)

هذا بالرغم من أنه يفتي بكلام يؤذى فكره التنزيه لله سبحانه ، فالله عنده  
ضمن الزمان والمكان. ولو فرضنا أن العالم أزل كان الزمان هو امتداد الحركة ،  
والمكان وهو امتداد الأقطار أزليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر (٦)  
وإذن فالله ضمن الزمان والمكان :

زعمتموه بلا زمان ولا مكان .. ألا تقولوا ...

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول ... (٧)

(٤ - ٧) المصادر السابقة وأنظر أيضاً التزوييات ١/ ٢٨٦ - ٢٢٦ ، ص ١٧٩/١٧٧/٢٢/٢

وعلى هذا الأساس فالجنس البشرى فى هذا العالم الأزلئ الزمان والمكان والمادة .  
وليس هناك أى ضرورة عقلية تلزمنا بأنه بدأ بآدم المعروف أقدم كل شئ ( أو آدم  
(آدم) كل شئ ) بل قد يرقى فى القدم إلى الأزل :

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم  
جائر أن يكون آدم هذا قبله آدم على لائر آدم (١)

ولهذا لم يؤمن بأن آدم الذى نعرفه شخص حقيقى :

قال قوم ولا أدين بما قالوه ان ابن آدم كابن عرس  
جهل الناس ما أبوه على الدهر ولكنه مسمى بحرس  
فى حديث رواه قوم لقوم رهن طرس مستنسخ بعد طرس (٢)

وآراؤه فى الجبر واضحة سافرة ، بل إنه قد نص فى لزومياته أنه لم يخالفها  
إلا مجبرا بقضاء لا يعرف كنهه ، وقد ذكر الجبر أكثر من مائتى مرة بثبته ويدافع  
عنه ، ويسيطر سلطانه على حياة وأنفاس الأفراد والجماعات :

المرء يقدم دنياه على خطر بالكره منه وينادى على سحق  
يخيط إثمنا إلى إثم فيلبسه كأن مفرقه بالشيب لم يخط (٣)  
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياى فهل بعد تحيير (٤)

وعلى هذا فلا مسئولية ولا تبعية ولا جزاء على الإطلاق :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سيئته المقادر  
فقل للغراب الجون إن كنت سامعا أأنت على تغيير لونك قادر (٥)  
إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقابه ظلم على ما يفعل  
والله إذا خلق المادان عالم أن الحداد البيض منها يجعل (٦)

وهو يؤكد هذا كثيرا رغم نهي الورع له :

قالت معاشر . . كل عاجز ضرع ما للخلاق لا بطاء ولا سرع  
مدبرون فلا عتب اذا خطئوا على المسمى ولا حمدا اذا برئوا

(١) المصدر السابق .

(٢-٦) المصادر السابقة لزوميات



وقد وجدت لهذا القول في زمني . شواهداً ونهاى دونه الورع (١)

لا تمدجن ولا تمدن امرأ فينا فقير مقصر كقصر (٢)

أما مذهبه في الروح فقد سلك فيه مذهبين : مذهب أفلاطون الذي يرى أن الروح جوهر قد أهبط إلى البدن كسجن ابتلاء ، لكنه عائد بعد الموت إلى العالم العقلي فعذب أو منعم بما بقي فيه من تذكّار ما كان له في الحياة من أساءة وإحسان :

يا روح كم تحملين الجسم لاهية أبليت فاطر حيه طالما لبسا (٣)  
كانائك الجسم الذي هو صورة لك في الحياة فحاذرى أن تمدعي  
لا فضل للقدح الذي استودعته ضرباً ولكن فضله للمودع (٤)

أما المذهب الثاني فهو مذهب الماديين القدماء ، القائل بأن الروح نار تمدد مع الجسد :

دولاتكم شمعات يستضاء بها فيادروها إلى أن تطفأ الشمع  
والنفس تفتى بأنفاس مكررة وساطع النور أخبى نوره اللمع (٥)

ومن المؤكد (٦) أن المعري يرتبط مذهبه بالاتجاه الثاني وهو الاتجاه المادى القديم لأنه لو كان يدين بالمذهب الأفلاطوني لما شك في بعث الأرواح ولسهل عليه أن يؤلف بين هذا البعث الفلسفي وبين البعث الذي يراه الدين . كما خالف اتجاه أفلاطون والفلسفة المسيحية والإسلامية أيضاً في توكيده أن الشر أصله الروح وأن الخير هو الجسم :

أعائبة جسدى روحه ؟ وما زال يخدم حتى وني  
وقد كلفته أعاجيبها فطورا فرادى وطورا ثنا  
ينافى ابن آدم طبع الغصون فهاتيك أجنت وهذا جنى

ومن الواضح أن أسند الجناية إلى الروح والأثمار إلى الأغصان التي لا روح فيها وهذه الجناية لها جلورها الأولى . ولقد كانت أكبر الجنایات هي جنابة الوجود

(١) — (٥) المصادر السابقة .

(٦) طه حسين : ذكرى ٣٥٦

ذاته — تلك الجنابة التي عاشتها وارثكتها ومارسنها البشرية على رغبها والتي كان منها وجود المعرى الذي جنى عليه أبوه وهو لهذا لن ينجى على أحد :

هذا ما جناه أبى على وما جنيت على أحد

لكن رغم هذه الجبرية التي يؤمن بها المعرى كل الإيمان فهل كانت ممارسته للموت أمراً لا صلة له بإرادته ؟ وهل كان ما أراده لنفسه من حرمان اختياراً أم جبراً قضى عليه به ؟ الواقع أنه كانت للمعرى ارادة صارمة رغم أنه يرى أن ذلك كان قضاء أيضاً ولا حيلة له فيه . ٥

ماذا نريد أن نقول ؟ نريد أن نقول إن المعرى لم يهجر الحياة لأنه كان أعمى ، ولم يتزوج لأنه كان عاجزاً عن الزواج ، ولوشاء لما حرم على نفسه طيبات ما أحل الله ، بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلوهم لفعل فما حال العمى والصمم أو الكساح بين أحد وما يشقى وفقاً لأقوى ما في طبيعته ، من أهواء أو من عقل وضمير . لكنها ارادة المعرى<sup>(١)</sup> وهي مفتاح شخصيته بمزاجها السوداء ، واعتداده بنفسه وعقله ، وبتخليقه وتحليله لما في أفكار عصره من آراء :

ولا شك أنه قد اجتمعت أسباب كثيرة كانت بانحادها هي شخصية المعرى بكل ما فيها من ارادة صارمة وشك قاتل وحيرة عنيفة ولا أدريه متأرجحة . ولو كان للمعرى سبب واحد أو سببان لما كان كذلك . . فليس كل من تربي في بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادف من اللذات والشهوات ، أو بما كف على الصوامع والمجالس<sup>(٢)</sup> .

وليس كل عربي تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب الخون فان امرأ القيس وطرفة بن العبد ، والأعشى . . كل أولئك عرب في الصميم من العروبة ، ومجونهم كمجون غيرهم من الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهود الوثنيات وعهود الأديان السماوية وليس كل أعمى عازفاً عن مواطن ومواقع الشبهات فان يشارا قد ولد ضريراً وكان أسبق وأسرع وأشره إلى الشبهات والشهوات من المبصرين . وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حفظ الأقوياء والأشداء إذ ربما كان ضعف البنية سبباً إلى الإفراط في التماس تلك الحظوظ .

(١) المازني : الشاعر / ١٥٧ . المقاد : رجمة ٣٠ / ٣٨

وليس كل متكبر مترفعا عن الطرب أو السرور أو الخروج عن مواضع الوقار التي عاشها المعري . لكن إذا اجتمعت كل هذه الأسباب في شخص واحد كالمرى فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أنقائها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعا كما وفق أبو العلاء بالتزام العزلة والقناعة والهروب من الدنيا وممارسة الموت بها شيئا فشيئا بكل هذه السلبيات المتراجعة القاتلة . . وكان من الممكن أن يكون المعري كاتخيام يحاول أن يحل آثار سورة لا أرديته وقلقه العقلي في معاورة ومنادمة بنت الحان أوفى معايشها فكرا وشعرا كما عايشها كاتخيام . نقول كان من الممكن أن يكون المعري في هذا كاتخيام وبخاصة وعنده أساس غخط الشك في الأديان السماوية ، كل الأديان ، والشك في صلاحية الناس لأى خير كان حتى المتدينين ومدعى الزهادة فهم جميعا منافقون :

ما فيهمو بربولا ناسك      إلا إلى نفع له يجذب  
توهمت يا مغرور أنك دين      على يمين الله مالك دين  
والسبب أنه :

يحرم فيكم الصباء صبيحا      ويشربها على عمد مساء  
ثم انهم :

وما يحجون من دين ولا نساك      وإنما ذاك إفراط من الأشهر  
ثم إن المعري عنده الاستعداد والوظيفة لأنه لم يعرض عن اللذات عن صجر  
وإنما لأن خيار هذه اللذات قد بعد عنه :

ولم أعرض عن اللذات إلا      لأن خيارها عني خست  
ثم إن عنده الشك في عقي النفس ، وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة  
والمساواة بين المحامد والمثالب أو كما يقول :

قد زعموا الأفلاك يدركها البلى      فان كان حقا فالنجاسة كالطهر  
ويرى العقاد<sup>(١)</sup> أن المعري لا يستبعد أن يكون قد تلوق الخمر في أيام عزله

جرءا لسورة عقله ولعله شربها في بعض الأديرة التي كان يغشاها للدرس ومراجعة  
المذاهب بدليل قوله :

فلا تشربنها ما حيت وإن تحمل إلى النقي فاشربها بغير نديم  
ثم هو يتمنى فتوى جديدة بالغاء النبي عن شربها. وهنا نلمس صراعا في نفس  
ووجدان أبي العلاء حول هذه الأمانة العزيزة :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال  
أبائي نبي يجعل الخمر طلقة نتحمل شيئا من هوى وأحزاني  
لا أشرب الراح أشري طيب نشوتها بالعقل أفضل أنصاري وأعواني

ولإذا لم يكن في هذا الدليل الكافي على أن أبا العلاء قد ذاق وشرب الخمر  
أو عاد إليها بعد أن لزم المحبسين فإن فيه الدلالة القوية على اشتهاؤها ومغالبة نفسه  
عليها مغالبة ليست بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهو اجس ضميره .

وتقول إذا كان قد شرب وامتنع أو إذا كان لم يشرب مطلقا فلأنه كان لا يرضى  
لنفسه الهرب من عقله أو القرار منه لأنه كان مؤمنا به أكثر من إيمانه بأى رائد  
أو مرشد أو امام أو نبي على الإطلاق بل كاد إيمانه بعقله يفقده إيمانه بربه أو كاد  
إيمانه بعقله يعادل إيمانه بربه ، ولا نقول يفوقه حتى لا نظلمه أو نخرجه بغير عقل .

فاذا ذكرنا أنه كان يعيش في عصر فتن واضطرابات وجزع على الأنفس  
والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد ، وتندر فيها العصمة ويكثر فيها  
التهافت على اللذات ، ولا سيما على ملتقى الطريق من حضارة الروم ، وحضارة  
الحرب وحضارة الفرس ، وكلها في هذا العصر حضارات أخذت تنحدر في طريق  
الزوال - إذا ذكرنا هذا ، وذكرنا أن هذا العصر قد عاش فيه عمر الخيام في موقف  
عقل يشبه تماما موقف المعري كان لنا أن نلاحظ أن الخيام قد استغرق في شرب  
الخمر حين فشل في علاج مشكلة معرفته بأسرار الوجود ، وقنع باللحظة السكرى  
التي هو فيها ، وعمد إلى الكأس يفرق فيها شكوكه وأسفه على بطلان الحياة وعاقبة  
الحياة .

لكن إذا كان من الممكن أن يكون المعري كالحيام فهل يجوز أن يكون المعري كأبي نواس؟ لا. . . وبالخط العريض. لأن أبا نواس لم تكن عنده شكوك ومشاكل وعقد المعري أو الحيام ولأنه كان شارب خمر يشتهيها لجرد الاشتباه ، ويتصدى لعقاب الآخرة في سبيلها. وقد أكد أنها حتى ولو كانت محرمة على دين محمد (صلى الله عليه وسلم) فسيشرعها على دين المسيح بن مريم (عليه السلام) ثم إن الآخرة عنده حقيقة ثابتة مفروغ منها ، وليست قضية معقدة كما هي عند المعري والحيام محتاج إلى حل وجلاء .

لكن لم لم يسلك المعري طريق الحيام ، وقد عاش مشاكله ومشاكل عصره الفكرية على الإطلاق ؟ هل لو كان المعري مبصرا لسلك سلوكه ؟ ربما لو كان المعري مبصرا لدرس فيما درس شئون الدنيا فشغلته رسالات أخرى لمناصب القضاة والقضاء ، وبخاصة وقد عاش في بيئة علمية دينية . لكن يظهر لنا أنه اضطر إلى الزهد عمجرا ، على كراهية وجبر كما يقول :

وقال الفارسون حليف زهد      وأخطأت الظنون بما فرسته  
ورضت صعبا آمالي فكانت      خيولا في مراتعها شمسنة  
ولم أعرض عن اللذات إلا      لأن خيارها عنى خنسنه  
ولم أر في جلاس الناس خيرا      فن لي بالنوافر إن كنسنه

وعلى هذا فليس أبو العلاء زاهدا، ولكنه عاجز عن تحقيق آماله. فلقد راض هذه الآمال فامتنعت عليه ، ولم تدع له ، وأدركه اليأس من انقيادها فخلى بينها وبين إعراضها ، وهاجر بعيدا عن لذاته لا رغبة عنها بل قصورا وعمجرا . هي هي التي أفلتت منه فلم يستطع اللحاق بركها فآثر على رغمه القعود على سعي لا غناء فيه ولا جدوى . .

وهو حين آثر السجود والقعود لم يطق أن يرى أحدا من البشر ، لأنه كان يرى الشر في مجالسهم وربما كان يحس السخرية منهم به ، بما لا يرضى له عقله وإبائه ، ثم يطمعنون إلى ما لا يطمح اليه ، وينالون ما لا يستطيع ، وما لم يستطع هو نوال ويسعون إلى غير مسعاه ، ثم هم يختصمون فيما لا يرى فيه موصعا لحرب أو خصام ،

فليعرض إذن عنهم ، وليصلر حكما لا مرد له على نفسه بالسجن مدى الحياة وممارسة الموت مدى الحياة أيضا . أبو العلاء إذن ساخط ثائر على نفسه وعلى الدنيا لأنهما أعجزتا، لأنه زهد في مطالبهما وحاجتهما، ومن هنا كان مفتاح ثورته العارمة وينبوع غضبه على حظه ، حتى إنه أكد أنه ليس في الامكان أسوأ مما كان ، ووصف فوضى تقسيم الحظوظ بفوضى المصادفات وعشوائية الأقدار ، وربط هذا بأصل الشر في الكون من أيام قاييل وهابيل وزواج ابني آدم وحواء بآبنتيهما . ومن هنا أعلن حكمه الثاني بأنه لن يكرر جناية آدم أو جناية آباءه في إيجاده ، ثم ألحق بهما رأيه بأنه لا حل للدرء الشقاء وإيقاف ركبته العارم إلا بقطع النسل بعدم الزواج .

وهو حين طبق ما طبق على نفسه أراد أن يكون هذا مبدءا لكل الناس انتقاما من الناس في نفسه ، وانتقاما عادلا من نفسه في الناس، وقد حسب أنه بهذا حل مشكلة الوجود والحياة والأحياء . . ومن هنا لم يرد له عقله أو وقار عقله أن يدوب أو يخفى في جرعة خمر من كأس :

ومن يفقد لبه ساعة      فقد بات فيها بخطب فدح  
قبيح بمن عد بعض البحار      تغريقه نفسه في قلدح  
وهيات لو حلت لما كنت شاربا      مخففة في الحلم كفة ميزاني

انه هنا رغم سلبيته يؤكد عرامة لإرادته في أنه أقوى مريد رغم ضعفه وإيمانه الصارم بالبحرية المطلقة :

مهجتي ضد بحاريني      أنا مني كيف أحترس؟

وهو لهذا أصر على أن يواجه حقائقه الفلسفية فيمعن في تشريحها وتحليلها والغوص فيما وراءها، حتى إذا رأى عنفا جارحا لعقيدة الجاهل سترها بستر التقية أحيانا أو سترها بستر الاستغفار وطلب العفو أحيانا أخرى، في تناقض بينه وبين غلط فلسفته العقلية الأساسية .

هو مؤمن بالله ، لكنه غير مؤمن بنظام كونه وغير مؤمن بأن هناك صلة تامة بين الله وكائناته، وإذن فهو في حاجة إلى أن يفهم ويتعقل حكمة الله لأنه عاجز ، ولأن

عقله عاجز عن فهم هذه الحكمة . . إذن فهو غير مطمئن إلى الشرائع والنبوات لاختلافها فيما زعم وتناقضها فيما يتوهم واضطرابها فيما يظن . . وهو منكر للعلل الغائية ، مثبت أن العالم كما هو ، لم يخلق لأية غاية من الغايات التي نعرفها نحن ، ونرى أن الأشياء قد خلقت لتحقيقها . لكنه وهو ينكر العلل الغائية يعود فيقول إن هناك سرا مجهولا أو حكمة لا يفهمها العقل أو لم يحط بها علما ، ليصل من هذا إلى تأكيد غرور الانسان في ظنه أن كل شيء إنما خلق لأجله فكل كائن حي له في رأى المعرى حق الحياة ، وليس للانسان كائنا من كان أى حق في العدوان عليه فهو لم يخلق من أجله . وإنما خلق كل موجود وله الحق الذاتي في الوجود ، لكن لا أهمية لأحد عند الله أو لا أهمية لبنى حواء كما يسخر أبو العلاء :

﴿ تَوَرَّعُوا يَا بَنِي حَوَاءَ عَنْ كَذِبٍ      فَا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّ صَاغِمٌ خَطَرٌ ﴾<sup>(١)</sup>

وقد حير المعرى نفسه كما حير الناس جميعا ، وكما حيره عقله . لكنه في الواقع وإن تناقض في بعض الأحيان، فإن آراءه الجارحة الثائرة واضحة، فيها من صدق نفسه أكثر من آرائه المستغفرة المستسلمة ، تلك التي تهافت افتعالا أو تضعف أداما من آرائه العاصفة .

وبالرغم من ثورته على العقل - كما سنرى - فإنه لم يكفر به ولم يفقد ذرة من إيمانه به ، ولهذا أصر على الصحو والصحو القاتل ولم يفرقه في جرعة كأس أو استغراقه صوفي ، قد كان حين يتأزم به الموقف يعلن لا أدريته لا كملدب ثابت بل كوقفة مؤقتة، ريثما يعود إلى قوته العقلية المشتتة ليضرب ضربة جديدة يسترها أحيانا بالاستسلام لحكمة الله، استسلام المتنرد، لا استسلام الموقن المطمئن. وقد حدث لهذا له أحيانا وبخاصة عند ما أحس بقرب نهايته وعندئذ أحس بالردية من قلذومه على ساحة الجبار<sup>(٢)</sup> .

(١) الزرويات ١ / ٣١٩ ، انظر الدكتوراة عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبي العلاء ،

٧٨ / ١٩٤٤ المعارف القاهرة .

(٢) المصدر السابق ، مقابلة التفرون (ج)

ولعل المعرى في لحظة أو لحظات من ثورته الطاغية فكر في الانتحار على طريقته المأدبة وذلك بالأضراب التام عن الشرب والطعام، كما تدلنا على ذلك الفصول والغايات في قوله ( لو أمنت التبعة لحاز أن أمسك عن الطعام والشراب لكننا أُرهب غوائل السيل ) ، وفي نص آخر لدى الغفران ( قد كدت ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ، ولكننا أُرهب قدومى على الجبار )<sup>(١)</sup> .

ولا شك أن المعرى في رسالة الغفران قد صور ما حرم منه في حياته في سخرية بالغة ، فقد صور فيها اللذائذ والمتع : اللحم والخمر والنساء والشهوات المصورة المشخصة ، والأحلام التي صنعتها العزلة والحزن ، كما صور جنة السجين المكبوت في حركات الصيد والغناء والرقص والدعابة والصياح والعريضة وحركات الانفعال من تعجب وحنين واشفاق وحلر وإغراء وقسوة وذعر وغيظ وخصام وتنازع وتعريض وشماتة واعتراض<sup>(٢)</sup> . ولا شك أن الرحمة التي دعا إليها هي السبب في تصويره الحميم بصورة بسيطة ويظهر ذلك في إدخاله الجنة كثيرا من أهل الفترة كالتابعة الديباني ، وزهير ابن أبي سلمى ، وإدخاله النار بشار ابن برد . المهم أن سخريته لاذعة في رسالة الغفران كسخريته في الزوميات بالنسبة للمعتقدات الدينية ، تلك السخرية التي تتضمنها إيماءات واعتراضات على الخالق سبحانه وتعالى . وقد أكد نيكلسون<sup>(٣)</sup> أن السبب المباشر في السمعة السيئة لرسالة الغفران أنه ليس من المستطاع إنكار أن المعرى صور جنة المؤمنين ( صالونا فحما عامرا بيوهيمين خالدين ، ولكن غير أجملايين ) .

It Cannot be denied that Abu-l'Alà depicted The paradise of the faithful, as a glorified sfalon, haunted by immortal, but immoral Bohemians

وقد بدأ المعرى ثورته في صورة إيجابية فلما لم يستطع ضرب المؤامرات والخيانات عزل نفسه بنفسه في عصر كان الحكم فيه في مصر غيره في بغداد غيره في الشام غيره في الحجاز غيره في المغرب حتى قال المعرى في تاريخ دمه لحقة الضالة :

(١) الدكتور عائشة عبد الرحمن الغفران تحقيق : ١٠٧ / ١٠٨ / ١٦٣

(٢) نيكلسون : A Literary Hist. of The Arabs p. 327 London 1932



إن العراق وإن الشام من زمن صفران ما بهما للملك سلطان  
ساس الأنام شياطين مسطرة في كل مصر من الوالين شيطان

إلى أين إذن ؟ إلى الحجاز ، ؟ إلى الشام ؟ إلى اليمن ؟

أما الحجاز فما يرجي المقام به لأنه بالحرار الخمس محتجز  
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشابه القوم شدت منهم الحجز  
إن الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة إلا معدن التهم  
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويثرب الآن ثريب على الفهم

ثم ماذا ؟ لا خير على الإطلاق. فالأمراء يسوسون الأمور بغير عقل وقد ظلموا  
الرعايا واستجازوا كيدهم وعدلوا مصالحهم ، وهم في واقع الأمر أجراؤهم .

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها  
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدلوا مصالحها وهم أجراؤها  
يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه  
فأف من الحياء ، وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة

ماذا يفعل المعري إذن ؟ لا شيء غير أن يعتزل ليعكس في عزلته صورة عصره  
وليقول كلمته عن أصحاب المذاهب من الرؤساء والأئمة والفقهاء الأعلام :

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء .

ومن هؤلاء الرؤساء من :

طلب الخسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها  
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل في النفوس ذهولها

ثم ماذا ؟ ثم يحكم المعري على عصره وغير عصره وعلى البشرية جمعا بأنه  
لا يوجد أظلم من بني الدنيا اللثام ، أبناء أمنا اللثيمة :

قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها  
وكل حي فرقها ظالم وما بها أظلم من ناسها

لقد أضلر عقل المعري حكمه على كل شيء بالفساد الممتد جذوره إلى الماضي  
السحيق في الطينة البشرية الأولى ورأى بعقله أو رأى له عقله أن الحقائق الدينية

باطلة لتناقضها وتضاربها، وأن جميع الديانات لهذا لا معنى لها، إلا الاساءة إلى الناس،  
 وبلى بنور الأحقاد والعداوات بينهم ، وشكك عقله له أمور ما بعد الموت من بعث  
 وجزاء ، حتى قضى عقله بأن الإرادة الكلية عمياء أو غير موجودة ، وأن العناية  
 الآلية مجرد وهم، وهي لو كانت موجودة كما يقول المعري، لعينت بالعدل والنظام  
 في هذا العالم، فلم يسيطر فيه الشر والبغى والظلم . فما هو هذا العقل الذى لا ذنبه المعري ؟  
 لا شك أنه هو وعقله وحده بذاته وبتجربته المحددة ولو قد لاذ المعري بالعقل  
 الكلى لما قال ما قال ولما سلك ما سلك ، ولعبر منطقة الشك القاتل إلى جسر اليقين  
 بالانتماء إلى جوهر الكون ، كما تقول الرواقية أو إلى الله كما تقول الديانات السماوية .  
 لكن المعري في الواقع لجأ إلى عقل مقيد بما هو ماضى محسوس . . لجأ إلى العقل  
 التجريبي الذى يمكن أن يصلح مقياسا للحكم على المحسوسات والماديات ، هذا العقل  
 الذى لم يميز بين ما هو ماضى وبين ما هو فكرى أو الهى ، ومن هنا ظن أو اعتقد  
 أن مالا نحسه يجوز إنكاره ، أو يجوز اليقين في علمه :

قد عشت عمرا طويلا ما علمت به حسا يحس لحنى ولا ملك (١)

ولما ظن أن عيسى جاء ليبطل دين موسى ، وأن محمدا نسخ شرعة عيسى ،  
 أكد أن الاختلاف دليل الاضطراب والتناقض ، وحكم لهذا بطلان الديانات  
 ما كان منها أو ما يقال إنه مسيجىء ، طبقا للنظرية الراضية بعدم انقطاع الوحي :

أتى عيسى فأبطل دين موسى	وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يمجىء دين بعد هذا	فضاع الناس بين غد وأمس
وقالوا لا نبى بعد هذا	فضاع الناس بين غد وأمس
إذا قلت المحال رفعت صوقى	وإن قلت اليقين أطلت همسى (٢)
ولا تحسب مقال الرسل حقا	ولكن قول زور سطره (٣)
وكان الناس في عيش رغيد	فجاءوا بالمحال فكدره
تلوا باطلا وجلوا صارما	وقالوا صدقنا فقلنا نعم (٤)
لحى الله قوما إذا جثتهم	بصدق الأحاديث قالوا كفر (٥)

دين كافر وأنبياء فقال      وفرقان ينص وتورا وانجيل .  
 في كل جيل أبا طيل يدان بها      فهل تفرد يوما بالهدى جيل ؟ (١)  
 عقبول تستخف بها سطور      ولا يدري القتي لمن الثبور  
 كتاب محمد ، وكتاب موسى      وانجيل ابن مريم والزبور (٢)  
 هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت      ويهود حارت والمجوس مضلة  
 اثنان أهل الأرض ذو عقل      بلا دين وآخر دين لا عقل له (٣)  
 ولما كان عقل المعري هو نبيه ، فقد نصح الناس جميعا ، بنيل كل شيء ، ماعدا  
 العقل ، القسمة العادلة المشتركة بين الناس أجمعين لو أنصف الناس عقولهم :  
 أيها الفر إن خصصت بعقل      فأسألته فكل عقل نبي  
 لما كان العقل هو النبي الوحيد فلا داعي لاتباع أية شريعة ولا الاقتداء بأي نبي  
 سوى العقل الذي أبطل ما أوجبه تلك الشرائع :

وجاءتنا شرائع كل قوم      على آثار شيء ربوه  
 وغير بعضهم أقوال بعض      وأبطلت التهي ما أوجبه  
 وعلى هذا الأساس :

إذا رجع الحصيف إلى حباه      تهاون بالمذاهب وازدراها  
 أفيقوا أفيقوا ياغواة فائما      دياناتكم مكر من القلماء  
 أرادوا بها جمع الخطام فأدركوا      وبادوا وماتت سنة اللؤماء  
 إن الشرائع ألفت بيننا إحنا      وأورثتنا أفاين العداوات  
 وهل أبيضت نساء الروم عن عرض      للعرب إلا بأحكام النبوات ؟  
 ثم ماذا ؟ كل الأديان في الباطل سواء . . . ولهذا :

عجبت لكسرى وأتباعه      وغسل الوجوه بيول البقر  
 وقول النصارى إله يضام      ويظلم حيا ولا ينتصر ؟  
 وقول اليهود إله يحب      رشاش اللماء وريح القتر

وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرى الجمار ولثم الحجر  
فوا عجباً من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر ؟ (١)  
ومن الملاحظ أنه يطعن في صور العبادات وأركان الدين، وقد طعن في النظام  
الاسلامى ركن الحج في الطواف ورى الجمار ولثم الحجر الأسود وتساءل كيف  
يجيء قوم من أقاصي الدنيا كل عام لهذه الخرافات ؟ :

وما جئى إلى أحجار بيت كتوس الخمر تشرب في ذراها  
وليس هذا فقط بالنسبة للإسلام بل أنه يعيب على الاسلام في نظام الميراث  
هذه القسمة الجائرة فيما يظن :

والأم بالسدس عادت وهى أرأف من بنت لها النصف أو عرس لها الربع (٢)  
وليس هذا فقط بل يقول عن نظام الدية :

يد بخمس مئين عسجدا وديت ما بالها قطعت في ربع دينار  
تتناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار (٣)  
وقد رد عليه فيمن رد ياقوت الحموى (٤) في هذه النقطة الأخيرة حين قال  
مكفراً له (كان المعرى حمار لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا واضح لو كانت اليد  
لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثرة سرقة ما دونها طمعاً في النجاة ، ولو  
كانت اليد تؤدي بربع دينار لكثرة من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . . . نعوذ  
بالله من الضلال ) وإذا كان المعرى لم يتناقض ولم تنتكس أحكامه في الجوانب  
الاجتماعية حين قال . . . . مثلاً عن الوعاظ المتنافين الذين يأتون ما ينكرون  
ويقولون ما لا يفعلون :

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء  
يحرم فيكم الصبياء صبحاً ويشربها على عمد مساء  
وحين قال عن القضاة الظالمين والفقهاء الموهين :

وأى امرئ في الناس أثنى قاضياً فلم يمض أحكاماً كحكم سلوم

( ١ - ٣ ) المصادر السابقة .

( ٤ ) المصدر السابق وأنظر ياقوت معجم الأدب .

وقالوا فقيهه ، والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم

وحين قال عن المنجمين الكاذبين في كل حال :

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهدكم هو عائش من دهره

فأجابها مائة ليأخذ درهما وأنى الحمام وليدها في شهره

نقول إذا كان المعرى قد نجح في هذا المجال فانه لم ينجح في نقده العقلي  
لأصول الدين ، لأن أصول الدين ليس مجالها مجال الأمور الاجتماعية والأخلاقية  
التي يمكن أن يدخل نقدها في اختصاص العقل والعقل وحده .

ومن هنا انزلنى المعرى فحكم على الأديان بأنها ظواهر اجتماعية كما ستقول  
بعده بقرون مدرسة أوجست كونت ( ١٧٩٨ - ١٨٥٧ م ) الوضعية وروادها الكبار  
أمثال دور كايم ( ١٨٥٨ - ١٩١٧ م . ولو قال المعرى كما قال شمعان السامري  
( توفي بعد وفاة المسيح بقليل ) : ان الأديان واحدة والأنبياء شخص واحد يمر عبر  
الزمن بأسماء مختلفات لأراح نفسه في فلسفة موحدة ، ولو قال كما قال ابن عربى  
( ٦٣٨ هـ ) بعده بوحدة الأديان عن طريق وحدة الوجود لأراح قلقه ، لكن  
المعرى لم يتجاوز نظام المادة ولم يتفقد من الأغراض المتباينة إلى الجوهر الواحد ،  
لأنه خلط بين النظام المادى والنظام العقلى ولأنه اعتقد أساساً أن الروح مادة أو أنها  
نار تتحد مع الجسد . وما دامت الأرواح تفتى مع الجسد فلا بعث لأنه لا دليل  
إلا على الفناء فقط :

خذ المرأة واستخبر نجوما	تمر بمطم الأرى المشور
تدل على الحمام بلا ارباب	ولكن لا تدل على التشور <sup>(٤)</sup>
قلمت أظفارى تارات وماجسدى	إلا كذاك متى ما فارق الروحا <sup>(٥)</sup>
لا حس للجسم بعد الروح نعلمه	فهل تحس إذا بانث عن الجسد <sup>(٦)</sup>

( ١ ) الدكتور أحمد أمين مهرجان أبى العلاء ٥٢ - ٥٣

( ٢ ) الدكتور محمود قاسم : مقالة كتاب علم الاجتماع الدينى لبلستيد ١ - ٨

( ٣ ) دكتور . عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية - ٥

( ٤ - ٦ ) المصادر السابقة .

ثم ماذا ؟ ثم يقول حاججا الله سبحانه مؤكدا أنه ليس في الامكان أسوأ مما كان :

رب الزمان مفروق الألفين فاحكم إلهي بين ذاك وبينى  
أنهيت عن قتل النفوس تعمدًا وبعثت أنت لقتلها ملكين  
وزعمت أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالين (١)  
وما دام الجبر كلمة القضاء والقدر المنبثه في كل أمر ومع كل نفس ونفس ،  
وبكل نبضة وخفقة ، فلا مسئولية ولا تبعية ولاجزاء حتى ولو كان هناك بعث :  
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك (٢)  
وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر (٣)  
ما باختياري ميلادي ولا هري ولا حياتي فهل لي بعد تخيير ؟ (٤)  
ثم ماذا يأيها العلاء ؟ وإذا كان الأمر كذلك وإذا صح البعث بأية صورة فإن  
محاسبة مرتكب الكبيرة أو معاقبته ظلم وأى ظلم ؟

إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقابه ظلم على ما يفعل  
والله إذ خلق المعادن عالم أن الحداد البيض منها يجعل (٥)  
وإذن فلا لوم على الانسان ، وإنما اللوم . . . كما يزعم على الخالق سبحانه :  
جبله بالفساد واشجة إن لامها المرء لام جابلها (٦)  
ويرى المعري أنه قد جلد تجديفا ربما كان في نظر عقله أمرا عاديا ، لكنه  
في نظر الدين أمرا بالغا جد الخطورة - يرى المعري هذا ، فيعلن لا أدريته من  
جديد .

أنا أعمى فكيف أهدي إلى المنهج والناس كلهم عيان (٧)  
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن ظن وأحسنا (٨)  
وبصير الأقوام مثل أعمى فهلوسا في حنط تصادم (٩)

(١ - ٤) المصادر السابقة

(٥ - ٩) المصادر السابقة وأيضاً ص ١ / ٣٩٢ / ٤٠٠

لكنه يدرك أنه سيرحل بلا دين ولا دنيا :

رحلت فلا دنيا ولا دين نلتها وما أوتيت إلا السفاهة والحمق<sup>(١)</sup>

ولهذا فانه حين يحس أن رجليه قد جنحت به إلى درجات القبر يقول مستغفرا :

خلقني يا أخى أستغفر الله فلم يبق إلا الدماء<sup>(٢)</sup>

إذا كنت من فرط السفاهة معطلا فيا جاحدا اشهد أنني غير جاحد

أخاف من الله العقوبة آجلا وأزعم أن الأمر في يد واحد

فاني رأيت الجاحدين تقصودهم ندامتهم عند الأكف الواحد<sup>(٣)</sup>

وحق لو كانت هناك عقوبة فإن ظنون المعرى بالله حسنة وهو راض بحكمه

حتى لو أدخله النار ألف سنة . . فهل يسخر المعرى ؟ أم يفعل ؟ أم ينتهل ويستسلم

على عجز أيضا ؟

ليفعل الدهر ما بهم به إن ظنوني بخالقي حسنة

لا تياس النفس من فضله ولو أقامت في النار ألف سنة<sup>(٤)</sup>

وقد جمع المعرى بين فكرتين متناقضتين في مذهبه العقلي المتأرجح بين اليقين

الحائر واللاأدرية الحائرة ، فعلى الرغم من أنه يبدو جبريا ممعنا في الجبرية ،

وعلى الرغم من أنه يؤمن بأن أقوى ما في الانسان بما هو لإنسان أهواؤه الطبيعية ،

لا ضميره القطري بدليل نزوعه إلى الشر في جبلته الأود :

وجبلته الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته إلى تهذيبها

من وسخ صاغ الفتي ربه فلا يقولن قوسخت . . .

— رغم هذا فانه يؤمن بقوة الضمير القطرية التي يمكنها أحيانا أن تتغلب على

طبيعة الأهواء البشرية فيصبح الضمير أقوى ما في الانسان لا أهواؤه ، ومن هنا

يكون السلوك الحسن نتيجة الصراع بين الأسمى والأدنى ، بين الأسمى بقيادة الضمير

( ١ - ٤ ) ( المصادر السابقة وأنظر أيضا ص ١ / ٣٩٢ / ٤٠٠ )

والأدنى بقيادة الأهواء ، فإذا تغلب الضمير كان الفعل الخير مجردا لذات الخير أما إذا تغلبت الأهواء كان فعل الخير للمنفعة الشخصية أو للمصلحة الذاتية .

وقد خرج المعرى من هذه النقطة برأى نجده في فلسفة أرسطو قديما وكانط حديثا. هذا الرأي هو أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ولا هي مبدأ من مبادئه لأنها تتقلب إلى ألم ، وقد تولد لذة لحظة شقاء عمر يملؤه المرض والندم والعار . والذين يدينون بالمذهب الطبيعي في جانب الغريزي الذي يرى أن أقوى ما في الانسان غرائزه لا عقله أو فطرته — هؤلاء لا يعرفون لأنفسهم هناء لأن اللذة كما يقول المعرى متغيرة وهي لن تخلد صعلوكا ولا ملكا :

إن ترسل النفس في اللذات صاحبها فما تخلصن صعلوكا ولا ملكا

وكما أن اللذة ليست غاية الفعل فكذلك المنفعة لأنها مشروطة وهنا مدخل فلسفة كانط، الذي نجده عند المعرى في فكرته، التي جمعت بين رأى أرسطو وكانط في فعل الخير والواجب . وصحيح أننا كما يقول المعرى قد نفعل الخير لأنه يجبر علينا نفعا فنفعله لأن له ثمرة لذت في المطعم وتضوعت لمن نسقم ، وحسنت في المنظر والمتوسم وجاوزت في العظم . ونفعله لحسنه في السامع ، ونفعله لتكسب ثوابا عند الله <sup>(١)</sup> لكن الخير والمنفعة أمران مختلفان ، وإننا لنجد المنفعة في لذة الدنيا قد وفرت للأشرار أكثر مما وفرت لأولى الفضل الغرباء ، وكثيرا ما تولدت المنفعة من شر :

ولا لون للنساء فيما يقال ولكن تلونه بالألوان

وفي كل شر دعة المخطوب شواسع منفعة أو دوان

وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير إلا نفعا ولما ولد الشر إلا مضرة ، فالخير إذن ليس في اللذة ، والخير إذن ليس في المنفعة بل هو مستقل عنهما .

وإذن يجب أن يطلب الخير لذاته لا لنفعه ، والأخلاق في نظره لا تفعل رغبة أو رهبة بل هي ذاتية مثالية ، والمقل في العاقل إنما يفعل الخير لأنه خير ،



ولأنه جميل ، ويعتمد عن الشر لأنه شر ولأنه قبيح ، والعاقل إذن هو الذى يفعل  
الواجب للواجب كما سيفلسف ذلك على عمق كانط . يقول المعرى :

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها  
ويقول لنفسه ولنفس كل إنسان عاقل :

توخى جيلا واحداً فعليه لحسنه ولا تمنكى أن المليك به يمزى  
ثم ماذا ؟

فزه جيلا جثته من جزاية تؤمل أو ربح كأنك تاجبر  
ويخرج المعرى من هذا ليؤكد أن الخير ليس خيراً حقيقياً إلا إذا كان خاضعاً  
لحكم العقل وهو جالب الرحمة عند المسير والارساء :

فإذا ما أطلعت جلب الرحمة عند المسير والارساء

وعلى هذا الأساس لو اتبع الانسان عقله لما لقي في دنياه إلا الخير . وهنا  
تسائل المعرى الذى اتبع عقله فجلب له الضر والفناء وأكد له أن الحل الوحيد  
لمشكلة الوجود هو ممارسة الموت . . تسائل المعرى كيف يحل لنا هذا التناقض  
الواضح فتجد أن المعرى لا يعدم الجواب حين يؤكد لنا أن العقل يولد الحزن  
والأم وأن الجهل يولد الرضا والقناعة ، كما يؤكد أن الله وله علو المكان قد جعل  
الشر غريزة في الحيوان ، فأبعدهم من الشرور أقل حظاً من المعقول هذا يدل على  
أن ازدياد القوة المدركة عند الحيوان بقرينه من الشر ويزيد شعوره بالألم . ولا شك  
أن المعرى سابق لهوبنهاور (Schopenhauer)<sup>(١)</sup> ( ١٧٨٨ - ١٨٦٠ ) في اعتقاده

(١) يرى شوبنهاور كما رأى المعرى أن الحياة شركلها بشهادة التجربة وأنه كلما عقل زكا  
الانسان اشتدت آلامه . والسبب أن شوبنهاور حل أشكال الشعور بالألم بالتحرر من الإرادة وذلك حين  
نستغرق في التأمل القى فيزول الشعور بالفردية ويزول الألم أو حين يتملكنا الاعتقاد بزيغ الفردية  
فتؤثر عليها الفيرية . والفن والأخلاق اذن هما الوسيطان للتحرر من الشعور بالوجود وبالألم . والسبب  
أن شوبنهاور وصل في نهاية مذهبه إلى تأكيد أن الإرادة الكلية المهيمنة على الكون كلها عمياء دون أن  
يفسر لنا كيف تخرج الأشياء المنظمة من الإرادة العمياء وكيف يخرج العقل من اللاعقل ، وكيف يمكن  
أن تنحصر من الإرادة الكلية وهو أمر يحتاج إلى اداة توكدها ومن أين تأتى إذن ارادة انكار ارادة  
الحياة ؟؟؟ ( انظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ( ٢٨٠ - ٢٨١ ) وانظر لشوبنهاور العالم ارادة  
وتصور ١٨١٩ الارادة في الطبيعة ١٨٣٦ المشكلتان الرئيسيتان في فلسفة الأخلاق ١٨٤١

أن للشعور بالألم درجات فالجناد لا يمسس بالألم والنبات يكاد يكون عديم الحس .  
أما الحيوان فان درجات شعوره متفاوتة فكلما كان أرقى ، كان شعوره بالألم  
أشد ، وكلما كان أدنى شعوره بالألم أخف .

ومن هنا نجد أن المعرفة عند المعرى مدخل الشقاء ومن الجهل إذن أن يطلب  
الانسان العلم مادام العلم كذلك وإذن فالخسران المبين للعلماء أمثال أبي العلاء :

إذا علمى الأشياء جر مضرة إلى فان الجهل أن أطلب العلم  
فهم الناس كالجول وما يظفر إلا بالحسرة الفهمساء  
إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

لكن ماذا فعل المعرى في هذا الاشكال العقلي ؟ لقد حل شوبنهاور نفس  
الاشكال بالتضحية حتى بالعقيدة<sup>(١)</sup> حين دعا إلى تحطيم الارادة الانسانية والتحرر  
من الارادة الكلية العمياء لماذا فعل المعرى ؟ الواقع أنه عاش يمارس الموت في سجنه  
الذى أرادته وحرمانه الذى ارتضاه وعاش يدعو إلى قطع النسل بادئا بنفسه مباركا  
دعوته للبشرية لتفعل فعله كحل<sup>٢</sup> نهائى حاسم لمشكلة الشر والألم والحياة . ويبدو  
واضحاً أن المعرى قد قتل في نفسه طبيعته الغريزية أقوى ما في الانسان كما يقول  
أحيانا أو قتل بمعنى أدق إرادة الحياة فيه فشارك إلى حد كبير « شوبنهاور » على  
طريقته هو ، وإن لم يشاركه في الدعوة إلى التحرر من الإرادة الكلية العمياء على  
وجه العموم .

لقد سار المعرى في ركب أفلاطون أكثر مما سار في ركب « شوبنهاور » فأكد أنه  
لا خلاص للنفس من سجنها الجسدى المحتشد بالشروع إلا بممارسة الموت حتى تحين ساعة  
الخلاص الأكبر من قيد الجسد وفيه يكون التحرر الأكبر والسعادة الكبرى . لكن  
المعرى عاد يتساءل لماذا فعل الله هكذا بالنفس ؟ لماذا أهبطها إلى الجسم ، لماذا سجنها  
في قفصه ، ولماذا كتب عليها الشقاء والألم والعذاب ؟

ويعود المعرى من رحله الأخيرة أشد ما يكون جراحاً وآلاماً لأنه لم يجد من  
عقله ما يطمئنه وإذن فليستسلم وليستمن بنور الله ؟ لكن ما الطريق إليه ؟ هل  
العقل مرة ثانية ، وثالثة وأخيرة وإلى الأبد : العقل العقل العقل ؟ ؟ ؟

لا حل إلا بممارسة المثل العليا من وراء ممارسة الموت . وقد وجد المعري أن أقوى مبادئ المثل العليا مبدأ الرحمة ، وليس بالناس فقط بل بالنسبة لكل الكائنات ، وهنا يدخل المعري في المنهج الذي سلكه شوبنهاور وغيره في دعوتهم إلى الغيرية كحل لإشكال الفردية .

والمعري قد أعلن من قديم رفض هذه الفردية حتى إنه لو سمح له وحده بدخول الجنة من دون الناس لرفضها :

ولو أنى حبيت الخلد فرداً لما أحبت في الخلد انفراداً

لكنه قد اعتزل الناس في الدنيا فكيف يكره الوحدة حتى في الجنان ويرفض الجنان من أجل الوحدة ، لو أتيح له أن يكون فيها وحده ، ثم يتنقض دعوته في الدنيا بالزل والسجن بعيداً عن الناس ؟ وعن الحياة ؟

الواقع أنه اعتزل الدنيا والناس لأنه وجد أن مذهبه لن يحقق في الدنيا وفي الناس ، وهو في الوقت نفسه قد انتقم من نفسه في الناس ومن الناس في نفسه كصورة عاقلة متعلقة للحقيقة الغريبة ، ثم رسم خطته ومارسها على أساس مخطط الرحمة ، ذلك المخطط الذي يؤكد أن تحرير برغوث حقير ثافه أفضل من درهم تعطيه لمحتاج بائس :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبرد . . . من درهم تعطيه محتاجا  
وقد بدأ مخططة الكبير بقوله الذي أكد فيه مذهبه :

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالمك فاني بنفسى لا محالة أبدأ

ومن الواضح أن شعوره بالرحمة أقوى مظاهر تشاؤميته القاتلة لأنه حكم على الناس بأن جبلتهم فاسدة لكنّها غير ملومة . ثم عاد فذمهم وذم نفسه فيهم ، ثم وجد أنه لا حل للإشكال إلا بالانتقام من نفسه بوأد طبيعتها ودعا الناس إلى ذلك ولما لم يجد صدى على الإطلاق لدعوته حكم على نفسه بسجن آخر غير سجنها الجسدي ، وأعلن رسالته من السجن بأنها الرحمة والرحمة لكل الكائنات ولو أنها جاءت عن طريق قتل هذه النفس بوأد طبيعتها وإرادتها .

هذا هو ما فعله المعري فإذا فعل صاحبه الخيام من بعده ، وقد خاض غمار اللجج العارمة وطاش فكره مثله يهاجم المذاهب والأديان ويؤكد الجبرية ملغياً

من وراثتها المسئولية والتبعية الاخلاقية ، منكرا من وراء ذلك مثله فكرة الجزاء والحساب مطلعا مثله إلى دين جديد من وراء العقل دين يسمو على المذاهب والأديان ويرتفع إلى مستوى المثل العليا الذى حلم به وتمناه . . ماذا فعل الخيام ؟

ثالثاً : فكر الخيام وفلسفته : -

ولد الخيام فى شيخوخة المعرى الذى كان صيته قد طبق الآفاق . فقد ولد عام ٤٢٧ هـ أو ٤٣٧ هـ وتوفى عام ٥١٧ هـ وإذن فـالخيام قد ولد والمعرى فى سن الرابعة والسبعين وكان الخيام فى سن الثانية عشرة من عمره أو الثانية والعشرين عند ما توفى المعرى عام ٤٤٩ هـ . وأهم تراث الخيام رباعياته التى ترجمها الكثيرون من العلماء والشعراء فى الشرق والغرب<sup>(١)</sup> وقد كان الخيام عالماً رياضياً فلكياً على أساس علمى<sup>(٢)</sup> وهو الذى وضع التقييم النيروزى الذى جاء على أساسه مبدأ رأس السنة ٢١ مارس الذى يتساوى فيه الليل والنهار ، وذلك فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى . ولا يزال النيروز رأس السنة فى إيران وعيد الطبيعة .

وقد عاش عمر الخيام فى عصر المعرى عصر الاضطراب الفكرى والصراع المذهبى بين فرق الاحاد والزندقة واللايدنية مع تيارات القرامطة والباطنية وغلاء الاسماعيليه ، والمجوسية ، والبوذية ، والمناوية ، وتيارات أخوان الصفا من جهة ومع ثورة الامام الغزالى ( ٤٨٠ هـ - ٥٠٥ هـ ) ضد كل هذه الاتجاهات من جهة أخرى . ولم يكن الخيام كشيخه الكبير أبى العلاء صوفياً ، ولا كان له من الصوفية غير القناعة والعزوف عن زخارف الحياة .

وقد عاش الخيام آراء عصره كما عاشها المعرى ثم صاغها بأسلوبه الرائع وخلق فيها بروحه النائر العاصف ثورة فكرية عارمه إزاء الخلق والخالق ، ونظام الوجود الافضل ، وإزاء مسائل الجزاء والبعث والجنة والنار والعبادات . لكنه لما لم يجد فى ثورته العقلية الطاغية بصيصاً من نور الحقيقة يهديه الى بر الأمان أغرق حدة

( ١ ) من الذين ترجموها فى الشرق : محمد السباعى ، وأحمد راسم ، وأحمد الصائى النجفى وعبد الحق فاضل وفى الغرب فيتز جباله ، وروزن . وقد قدم لها بمقدمة مع نصها الفارسى كما صور حياة هارولد لام

( ٢ ) للخيام كتاب فى الرياضنة يسمى الجبر والمقابلة .

سورته ، ووعيه القلق وغير المطمئن في جرعات الخمر حتى أوصى بعد معايشته لها بأن يدفن في تراب كرمها ليحصل النسب والمدد ، وليكون الميلاد المجدد .

ولاشك أن دور المرأة في حياته مجهول والظاهر أنه لم يتزوج لأنه كان قد اشتهى فتاة كان يحبها ولما أراد الزواج منها رفض أبوها وكان هو صاحب المكتبة التي أمضى فيها عمر الخيام صباه وفجر شبابه مطالعا دارسا وقد رفضه أبوها لتفقره وزوجها لأحد التجار الأغنياء فلما حدث للخيام هذا طلق فكرة الزواج . وإذا لم يصبح هذا فان هناك رأيا يقول بأنه قد تزوج وفشل ولم يتزوج بعد ذلك على الإطلاق . الذي يهمننا هو قوله في النفور من الزواج والدعوة إلى البعد عنه سعيا للراحة والسعادة :-

انما الراحة في الدنيا ولذات الصفاء  
خلقت للمطلق الضارب في كل فضاء  
فاذا أصبح فرد مستريح البال زوجا  
فلفقد بدل من راحته كل الشقاء

والظاهر أن فقر الخيام من المال كان عاملا أساسيا في عجزه عن اللجوء إلى نظام الرق والتسرى الذي كان سائدا في زمانه ، وهذا هو السبب في خلو حياته من الجوارى ثم أنه لما كانت الحياة الشرقية في عصره محبة غير سافرة ، فأغلب الظن أنه عاش محروما من المرأة .

وقد حدث للخيام حادث خطير غير مجرى حياته وفكره وهوانه لما حدثت فتنة حسن الصباح الشيعية المتطرفة ، وأطاحت بالوزير نظام الملك صديق الخيام وزميل طفولته وصباه - بقول لما حدثت هذه الفتنة الفادرة أطاحت فيما أطاحت بمرصده الخيام الذي كان قد نصبه له نظام الملك ، فاحترق المرصد بأجزائه ومستنداته وأوراقه كما ضاع معه كل مانججه أو معظم ماسجله الخيام من حقائق علمية توصل إليها . وفي غمار هذه الفترة ودخانها هاجر الخيام في زحلته الأخيرة التي توفي فيها في بلد غريب عام ٥١٧ هـ وذلك بعد وفاة الامام الغزالي باثني عشرة سنة ( الغزالي ت ٥٠٥ هـ ) وبعد وفاة المعري بثمانية وستين عاما .

و خلاصة فكر الخيام الفلسفي ، هو خلاصة فكر المعري وفلسفته على أساس أنه ليس في الامكان أسوأ مما كان في تشاؤمية صارخة خلطها الخيام بشعاعات باسمه على ضوء حبيب الخمر ، ذلك الذي حرم منه المعري أو ذلك الذي حرّمه المعري على نفسه كرها كما يقول . وميزة الخيام عن المعري أن عقله رياضي أكثر من المعري ، وبهذه العقلية الرياضية ناقش مسائل الدين في الوقت الذي ناقش فيه المعري هذه بمقياس العقل التجريبي .

يقول الخيام في صورة رياضية وفي صيغة المجهول التي تؤكد الشك الساخر :

قيل في الجنة حور قاصرات الطرف عين  
ومحور جاريات في نهور وعيون  
أى خير إن طلبنا المحور والخمر هنا  
ان هذا هو عقبي الأمر فيما يذكرون<sup>(١)</sup>

فهو يأتيك بالفرضية أولاً ، ثم يصل بك إلى البرهان الرياضي المنطقي . وما هو يعطينا معادلة ومعادلة ليصل بنا إلى الحكم :

أنت ياربني كرم أنت ذو لطف ومن  
فلماذا تطرد العاصي عن جنة عدن  
ليس جوداً منك أن تعطيني عن حسناتي  
انما جودك أن تؤتيني عن سيئاتي

ثم هو يحاول أن يصل ما بين علم الله و ارادته في شربه الخمر قديماً ، ومجدداً رأيه في الجبرية الشاملة كالمعري :

يعلم الله بشري هذه الصبياء قدما  
فاذا لم أحسها لم يك علم الله علما

ولا شك أن هذا التبدل هو الذي اعتمد عليه الخلاج على لسان إبليس في قوله بأن عصيانه لله في رفضه السجود لآدم هو الطاعة كل الطاعة ، ولو لم يكن الله يعلم هذا العصيان لما حدث ، ولما كان إبليس في رفضه بقدس الهه فهو غير ماض لنفس السبب وهو علم الله ومشيئته<sup>(٢)</sup>

(١) عبد الحق فاضل رباعيات الخيام ترجمة - ٦٢

(٢) دكتور عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ٣٢٦ - ٣٥٠ القاهرة ١٩٦٦

وحين قرأ الخيام أن الانسان يموت على آخر صورة من أعماله أكد أنه قد  
قرر مصيره بنفسه مع الكأس والخمر والحسان :

قال من صارت لهم في العلم والتقوى إمامة  
يحشر المرء على ما كان إذ لاقى حاميها  
فلنلازم ويحك الحسنة دوماً والمدامه  
فصاننا هكذا نحشر في يوم القيامة

وقد ماض الخيام شكوكه العقلية - كما سنرى - وخرج بها أحياناً كثيرة كالمرى  
الى لا أدريه متأرجحة من وراء حياة المتناقضات :

كلما أباعدت نفسي زدت من نفسي دنواً  
وأراني أتدلى كلما رحت علواً  
يالها حان وجود أحسبها يبد أنى  
كلما ازدددت بها سكرأً أراني ازدددت صحواً

ويعود من صحوه فيرى أن الكل باطل إبداءً واتهاءاً ، طيباً وخيباً ، صلاحاً وفساداً  
وما دام محصول الحياة وحصادها هو المنية فسيان الساعي والقاعد والصالح والطالح

ان من فكر في الدنيا إبداءً واتهاءاً  
وجد الأفراس والأتراس في الدنيا سواء  
ومصير الطيب والخبث إذا كان الفناء  
فلتكن إن شئت داء كلها أو فدواها

وهو لهذا يعلن ثورته واحتجاجه على مصائر البشر . . فلماذا أصيب بعض الناس  
( كالمرى ) مثلاً بالعمى وم فضلاء ؟ ولماذا يوارى هذا الجمال في التراب ؟

أبداع الصانع تركيب طباع البشر  
فلماذا شانها بالنقص أو بالوضر  
ان تكن جاءت ملاحاً فلماذا خربها  
أو تكن جاءت قباحاً فعلى من عيبها ؟

ثم يعود الى اللاأدريه كالمرى

حار قوم بين شك و يقين يا صديق  
 وأطال الفكر في المذهب والدين فريق  
 أنا أخشى أن يتأدى ذات يوم أن أفيقوا  
 أيها الجهال لا هذا ولا ذاك الطريق  
 ويرجع الخيام من لا أدريته المؤقتة إلى شك جديد ينكر فيما ينكر البعث على أساس  
 حجة المعري القديمة بأنه لم يعد أحد يخبرنا عما وراء الموت :

يا فؤادى لم ير الجنة والنار بشر  
 أم أتى من ذلك العالم آت يخبر  
 أن ما نخشى وما نرجو متوطن بشى  
 ليس يبدو منه إلا اسم ووصف للنظر

ويصل بنا الخيام إلى فكرة هامة نادى بها بعض العلماء والمفكرين ، تلك التي  
 ترى أن الجنة والنار موجودتان مع الانسان منذ ولادته وإذن فلا حجة على أى  
 حساب أو جزاء

كرى الفكر إلى أول يوم في الخليقة  
 ناشدا في اللوح والجنة والنار الحقيقة  
 وإذا العقل يتأدى قائلا ما أضيعك  
 ويك .. إن اللوح والجنة والنار معك

قلم المقدار أجروه بأمرى دون أمرى  
 فلماذا سأألونى منه عن خير وشر  
 ذهب الأملس بدونى وأتى اليوم بدونى  
 فخذأ بالله ما حاجتهم إن حاسبونى

لكن ما الموقف إذا كان هناك بعث وجزاء ؟  
 لقد طلب المعري كما عرفنا العفو والمغفرة وأكد حسن ظنه بالله حتى ولو أقام  
 في النار ألف سنة

فليعمل الدهر ما بهم به إن ظنوني بخالي حسنه  
 لا تياس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنة



لكن الخيام ناقش الموضوع الشائك بطريقة الرياضية ، فانه ليس عنده إلا الخير والرحمة ، وما دام الأمر كذلك فلا تأس أيها العاصي المذنب ثم ما الداعي إلى اتخاذ مبادئ البيع والشراء والتجارة وهذه صفات لا تليق بساحة العز والكرام ، وإذا كان الله قد أعطى الجنة بالطاعة وقدم النار للمعصية فأين العطاء إذن ؟ إنه لو صح هذا لكانت المسألة مسألة تجارة ومساومة في البيع والشراء دون عفو أو رحمة أو عطاء . وعلى هذا فسيرتكب الخيام المعاصي متحديا ليرى أن الله أوسع رحمة وعطاء مما زعمته الرسالات والديانات

قيل لي ثم حساب وعقاب يوم حشر  
يوم يشتد الحبيب المرتجى في كل أمر  
ليس عند الخير المحض سوى الخير المعمر  
فاغتبط ويك فعقي الأمر ليست غير خير  
إنني يارب عبد مذنب .. أين رضاؤك ؟  
وفؤادى كالدجاجى مظلم أين ضياؤك  
وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا  
كان هذا منك يعبأ .. أين يارب عطاؤك  
يا إلهي أنا من قد برأتني قدرتك  
وتوعرت عززاً دللتني نعمتك ..  
سوف أمضي في المعاصي جاهد أسبعين عاماً  
لأرى معصيتي أوسع أم مغفرتك ؟

فاذا حددنا المخطط الذي عاش فيه فكر المعري والخيام نجدهما قائما على المبادئ الآتية :

( ١ ) الشر أصل الوجود ولا سبيل على الإطلاق إلى إخلاص منه ، ومن العبث إصلاح شيء فاسد بطبعه فليس في الامكان أفسد أو أسوأ مما كان ؛

يقول المعري :

ونحن في عالم صيغت أو الله على الفساد ففنى قولنا فسدوا  
فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذلك هو الذي لا يستطيع

ويقول الخيام في نفس الاتجاه :

ويلتى منذ جبوا في قالب الخلقة طينى  
كم أثاروا الشر في هذا التراب المستكين  
ليس في مقدرتى أن أعتدى أفضل منى  
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغوني

(٢) الجبرية المطلقة فكل شيء مسير ولا مجال لأى اختيار أو إرادة  
يقول المعري :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى      ولا حياتى فهل لى بعد تغيير  
ويقول الخيام :

واضطراباً قد جئت هذى الديارا      وسأضطرب للرحيل اضطراباً

(٣) سيطرة الزمان أو الدهر على كل المصائر وإذن فلا يجب أن ننظر لغير  
الحاضر . ومن الواضح أن المعري أصر على ألا ينتفع بحاضره كما انتفع الخيام  
لأن المعري عاش حاضره وزمانه كله في وعى مر ، بينما استغرق الخيام مع حاضره  
في سكرة الكأس الحلوة المرة أيضاً على اختلاف في طريق التدوق .  
يقول المعري :

خذ الآن فيما نحن فيه وخلياً      غدا فهو لم يقدم وأمس قد مرأ  
ويقول الخيام :

غد يظهر الغيب واليوم لى      وكم يغيب الغن في المقبل  
ولست بالنافل حتى أرى      جمال دنياى ولا أجتلى

(٤) الثورة على الأديان والمذاهب :  
يقول المعري :

وقد قتشت عن أصحاب دين      لهم نصك وليس لهم رياء  
تستزوا بأمور فى دياتهم      وإنما دين الزناديق  
ولا تحسب مقال الرسل حقاً      ولكن قول زور سطره

ويقول الخيام :

أيها الزاهد ما مثلي من يجهل مثلك  
فالتمس غيري غريبا جاهلا يذكر فضلك  
قلت لي إن تبجن ذنبا تك في النار فمهدك  
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل أمرك

قيل إن الشارب الخمر إلى النار يصير  
قالة لا يركن العقل إليها فهي زور  
إن يكن متقلب الشارب والعاشق نارا  
فقد سوف ترى الجنة كالراح<sup>(١)</sup> قفارا

هذا هو المخطط الرئيسي . أما تفاصيله المشتركة ، فيمكن أن نلاحظها في هذا  
التحليلي المقارن .

ويبدو أن هناك سرّاً مشتركاً بينهما يستترانه ، ويدعوان إلى عدم البوح به  
إلا من هو أهل لمعرفة ، إن كان :

يقول الممرى :

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وبعد ذلك فاقعد كاذبا وتم  
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت مسمى

ويقول الخيام :

فصلت أسرار دنياكم لدينا في الدفاتر  
قد طويناها في النشر وبال وخطاير  
لم نحمد في الناس من يعقل من أهل البصائر  
فقدما يصجزنا لإظهار ما تخفى الضمائر

وقد أفصح الممرى عما يريد الخيام حين قال ( الممرى ) :

أهوى الحياة وحسبي من معايبها أنى أعيش بجمويه وتدليس  
اكنم حديثك لا يشعر به أحد من رهط جبريل أو من رهط إبليس

( ١ ) راحة اليد .

ولعل الخيام يبدو لنا أوضح حين يتحدث عن سره وعمن هو جدير بعرفة هذا  
السر حين يقول :

رب سر لست أستطيع له في الخلق فضحا  
فاستمع موجز قولي لا تسألني عنه شرحا  
آه من حال أرائي عاجزا عن وصفها  
آه من سر طواه القلب لا يقبل بوحا

فاكتب الأسرار عن سفلا ، واجتذلا  
وتأمل في مكان الناس ماذا تعمل ؟ وتوقع مثل هذا منهمو أن يفعلوا  
وإذا كان المعرى قد تار على تقسيم الخطوط وقال في ثورة عارمة مبرا الزندقة  
لدى من ساء حظه بالنسبة لغيره من الدهماء والغوغاء .

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحقبا  
فلا ذنب يارب السماء على امرئ . رأى منك مالا يشتهي فترندقا  
فان الخيام . . بعد أن تعجب لمسخ الجمال بالنقص أو إهائته بالفناء والذبول  
تساءل : ولم كان النقص بعد الاكتمال ، ولم كان التخریب والتشويه بعد الجمال والاكتمال ؟  
ثم على من يقع عيب القبيح ؟ ولماذا كان تشويه المليح ؟

أبداع الصانع تركيب طباع البشر  
فلماذا شابهها بالنقص أو بالوضر  
إن تكن جاءت ملاحا فلماذا خسرهما  
أو تكن جاءت قباحا فعلى من عيبها ؟

ثم يثور معترضا على هذا الوضع متمنيا لو كان الأمر بيده لغير كل شيء  
في الكون ، وعدله حتى يدرك الأحرار فيه ما يشتهون دون عتاء .

آه لو كنت على الأفلاك ربا في سمائي  
لمحوت الآن هذا القلعة الضخم البناء  
ولأنشأت بنفسى من جديد قلعا  
يدرك الأحرار فيه ما اشتبهوا دون عتاء

وقد اتفق المعرى والخيام على أن التراب الذى نمشى عليه إنما هو نحن على  
من السنين ، من تراب الأجداد إلى الآباء إلى الأحفاد الأبناء الأجداد ، فى دورة  
لا تلتهى . وإذن فيجب أن نمشى الهوى فأننا نمشى على رفات العباد . كما يقول المعرى  
أو على أعين ساحرة الاحورار كما يقول الخيام :

يقول المعرى :

سر ان اسطعت فى الهواه رويدا      لا اختيلا على رفات العباد  
خفت الوطء ما أظن أديم الأرض      إلا من هذه الأجساد  
ويقول الخيام :

فا مش الهوى إن هذا الثرى      من أعين ساحرة الاحورار  
والمسألة ليست قاصرة على التراب فقط فربما صرنا إناء فخار كما يقول المعرى  
أو ربما تحولنا إلى كأس بحر :

يقول المعرى :

فلا يمس فخارا من التخر مائد      إلى عنصر التخر للنفع يضرب  
لعل إناء فيه يصنع مرة      فيأكل منه من أراد ويشرب  
ويحمل من أرض لأخرى ومادرى      فواها له بعد البلى يتفرب  
وهى هى نفس صورة المعرى لكن الخيام صاغها فى صورة شعرية حين سمع  
أوانى الخزاف فى معمل الخزف تلى عبر الطين المجهول المحترق :

أمس أبصرت جارنا الخزافا  
يجبل الطين كيف شاء اعتسافا  
ويكيل المقدار منه جزافا  
وكأنى سمعت بين يديه  
صوت مظلومة تشكى لديه  
آه رفقا فأنت طين ومسناء  
أيها المرء لا تسمى العذابا

لكن المعري لم ينقص تصويره عن صاحبه الخيام الذي جاء بعده فالمعري تحدث من النفع المادي من تراب الأجساد حين أكد في حسرة أن أجسادا كانت جديرة بالصون قد صارت طلاء للجدران ، ولعلها كانت فيما مضى مفصل بناء يحولها بناء جديدا إلى طلاء للسقيفة والجدار :

وكم من رجال جسامهم غفر : تنبى بهم أو عليهم الجسد  
ثم ماذا ؟ ؟

لصل مفصل البناء تضجى طلاء للسقيفة والجدار  
أما الخيام فلما كان يعايش الكأس والخمر فقد مضى في حانه داعيا الأحياء إلى التبرك بالتراب لأن الخيام قد بارك التراب بما أنبت من كرم وخمر فرد إليه الجليل بأن أوجب على الساق أن يريق جزءاً من شرايه قبل أن يشرب لبسقى النبع الخالد :

ما جزافاً ما قد أراق السقاء  
لا - للمعري بل تلكو صدقات  
انما القرب يانديمي رفات  
فليريقوا فلكو القطرات  
لكبود تذيبها الحسرات  
وليريقوا : لعلها مطفئات  
لوعة في الثرى تؤجج التهابا

وقد دخل المعري والخيام الحياة على زهادة من البداية حتى النهاية فمن البداية الساذجة حتى النهاية المفلسفة : . . فما هذه الدنيا التي جئنا وتركها مضطربن إلا ميتة نحن فيها الكلاب النواج كما يقول المعري أو كالعصافير في حبال الزمان كما يقول أبو العلاء والخيام :

يقول المعري .

أصاح هي الدنيا تشابه ميتة ونحن حوالها الكلاب النواج  
فن ظل منها أكلا فهو خاسر ومن طاد منها ساعياً فهو راج

ويقول :

حياة كالحبالة ذات مكر ونفس المرء صيداً أعلقته

ويقول الخيام في نفس الطريق :

كالعصافير وقتنا في أحابيل الزمان  
مجهدي القلب حيارى بين أيدي الحداث  
حولنا دائرة لا باب أو سطح لها  
لم نجى فيها ولم نذهب وثاقاً للأمان

وإذن لما الداعي إلى الطمع في دار الشتات ؟ وماذا نريد من دار لا نملك منها  
شيئاً نقيم فيها على ظعن .. قليلاً ثم ننصرف :  
يقول المعري :

وما تريد بدار لست مالكها      تقيم فيها قليلاً ثم تنصرف  
ويقول الخيام :

ان يكن حقاً مماي فأجيني ما حياتي  
ولم الاطماع في دار الرزايا والشتات  
منزل لا يترك النازل فيه وادعاً ...  
لم يرضى فيه أن يسقى ويهم لآت ؟

وعلى هذا فالسعيد الحق هو الخامل البعيد عن كل صور الطوائف والمذاهب ، والصعيد  
الحق هو من كان مجهول الزمان والمكان والسلطان ..

يقول المعري :

إذا شئتمو دعة وخفضا      فعبثوا في البرية خاملينا

ويقول الخيام :

السعيد الحق من لم يك معروف المكان  
لم يصر في فوطة أو جبة أو طيلسان  
فهر كالعنقاء قد طار عن الدارين طرا  
لم يكن مثلي يوماً بين أطلال الزمان

وإذن فلنرفض الزواج ولنقطع النسل حلاً لمشكلة معايشة الألم والشقاء :  
يقول المعري في عشرات الأبيات داعياً إلى التحرر من قيد الحياة أو قيد الشر :

سعى آدم جدد البرية في أذى لذرية في ظهره تشبه الذرا  
تلا الناس في النكراه نوح أبهمو وغر بنوه في الحماة كما غرا  
ولقد كان الخير كل الخير — كما يقول المعري — ألا يكون ، وبالتالي كان  
خيراً لنا ألا نكون وألا يكون الوجود والحياة .

خير لآدم والمخلوق الذي خرجوا من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا  
ولهذا ينصح — عبثاً — الناس جميعاً بأن يسلكوا سلوكه :

بدأ فرح من معرس أفادري بما اختار من سوء الفعال وما جرا  
أيا سارحا في الجو دنياك معدن يفور بشر فافع في غيرها وكرا  
فان أنت لم تملك وشيك فراقها فقف ولا تنكح عوانا ولا بكرا  
وألقاك فيها والدك فلا تضع بها ولدأ يلقي الشدائد والنكرا

ثم ماذا يا أبا العلا ؟

ثم يأتي إلى بيته الخطير فيؤكد جنابة أبيه عليه حين يؤكد أنه لن يكررها  
إلى الأبد ، وحين يوصي أن يكون شاهد قبره :

هذا جناه أبي علي وما جنيت علي أحد

لكن ماذا قال الخيام ؟ إن الخيام دعا إلى رفض الزواج على أساس التحرر  
من نار القلق إلى راحة راحة البال وتجنباً لآلام الحياة .

إنما الراحة في الدنيا ولذات الصفاء  
خلقت للمطلق الضارب في كل فضاء  
فاذا ما أصبح فرد مستريح البال زوجا  
فلقد بدل من راحته كل الشقاء

ورأى المعري والخيام أن الديانات والمذاهب على خلاف واختلاف ينقض  
بعضها بعضاً فحكم الإثنان بطلانها عامة :



يقول المعري :

ولا تحسب مقال الرسل حقا      ولكن قول زور سطره  
هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت      ويهود زلت والنجوس مضلة  
إثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له .

أفيقوا أفيقوا يا غواة فانما      ديانا تم مكر من القدماء  
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا      وبأدروا ودامت سنة اللؤماء  
إن الديانات ألفت بيننا إحنا      وعلمتنا أغانين المدوات

ويقول الخيام :

قيل إن الشارب انظر إلى النار يصير  
قالة لا يركن العقل إليها فهي زور  
أيها الخيام من قال لنا ثم جسيم  
من تولى في جسيم أو تولى في نعيم  
كربى الفكر إلى أول يوم في الخليقة  
ناشدا في اللوح والجنة والنار الحقيقة  
وإذا العقل ينادى قائلا ما أضحك  
ويك إن اللوح والجنة والنار معك

وإن فلا دين إلا دين العقل ولا نبوة إلا للعقل :

يقول المعري :

إذا رجع الحصيف إلى حجاب      تتاورن بالماذاهب وازدراها  
وهت أدينتهم من كل وجه      فهل عقل تشد به عراها ؟  
أيها الفران خصصت بعقل      فأسأله فكل عقل نبي  
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

ويقول الخيام :

وإذا العقل ينادى قائلا ما أضحك  
ويك إن اللوح والجنة والنار معك

أكرع الراح فان صرت تراباً في التراب  
صار مثواك تراباً لكئوس وخوابي  
دع حديث النار والجنة وافرغ متبعاً  
لم يغير بشيء مثل هذا ذو صواب ؟  
اسمع العقل الذي يبحث في سبل السعادة  
إنه يلبيك ألفاً لكل يوم وزيادة . .

لكن ماذا رأى المعري والخيام في رجال الدين والزهاد وأصحاب الفتاوى  
والأحكام ؟

يقول المعري عن المذاهب وأصحابها وطرائقها وغاياتها :  
إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء  
وقد قتشت عن أصحاب دين لهم نسك وليس لهم رياء  
تستروا بأموال في دياتهم وإنما دينهم دين الزناديق  
وليس عندهم دين ولا نسك فلا تفرك أيد تصمل السبحة  
وكم شيوخ غدوا أيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخنا سبحة  
لو تعقل الأرض وددت أنها صفرت . . منهم فلم ير فيها ناظر شبيها  
ويقول الخيام :

وعجيب أنهم تحت ستار الزهد باعوا  
دينهم يبعاً فهم أنكر من كل كفور

وإذا قال المعري عن أصحاب الفتاوى والأحكام من الميوهين والمنافقين :

وأى امرئ في الناس ألقى قاضيا	فلم يحض أحكاما كحكم سدوم
وقالوا فقيه والفقير مموه	وحلف جدال والكلام كلوم
طلب الخسائس وارتقى في منبر	يصف الحساب لأمة في هولها
ويكون غير مصدق بقيامة	أسمى يمثل في النفوس ذهولها
رويدك قد غررت وأنت حر	بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكوا الصهباء صبيحا	ويشربها على عمد مساء

تقول إذا حلل لنا المعرى هذه الأتماط فإن الخيام يقدمها لنا في صورة  
حجاج ساخر :

سيدي أنت فقيه لست تدري ما الخمر ؟  
ما الذي تنسکر بالله على أهل النظر ؟  
هم أطالوا الفكر في الصانع أو صنعتهم  
وتفقهت بحيض ونجاسات أخر

سيدي هل تكرمت علينا بمرام  
أعفنا ناشدتك الديان من هذا الخصام  
مستقيم سمرنا .. لكن في عينيك زينا  
فالتس طبا لعينيك ودعنا في سلام

إننا أكثر شغلا منك يا مفتي القضاء  
وبهذا المسكر أصحى منك عند العقلاء  
كم شررت دم قوم وشررتنا دم كرم  
فأجبنى أينما أنسك شرابا للدماء ؟

ثم ماذا ؟ ؟

أيها الزاهد ما مثلي من يجهل مثلك  
فالتس غيري غريبا جاهلا يذكر فضلك  
قلت لي .. إن تبين ذنباً ترك في النار فهلك  
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل فضلك  
أننى أغفر بالخان فأهل الخان أهل  
ولدى الانصاف حتى سؤرها حلو وسهل  
إن دور العلم لم تنجب حكماً ذا أصالة  
فأهدموا هذى الزوايا إنها دور الجهالة

وما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد من تقييم المذاهب والعبادات والفتاوى  
والأحكام عند أصحابها من الفقهاء والقضاة والزهاد ، فليس المهم على الإطلاق

لننى المعرى والغيام بالنسبة لأشكال العبادات والمعاملات سوى حسن معاملة الناس،  
وعدم إيذائهم ، أما الصلاة وأما الحج وأما السنة وأما القرض وما إلى ذلك  
فلا داعى له أو لقيمة له .

يقول المعرى :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد  
وما حجى إلى أحجار بيت كفوس الخمر تشرب في ذراها  
ويقول الغيام :

أهل السنة والقرض ونص الشارع  
وابذل اللقمة لا تبخل بها عن جامع  
ثم لا تؤذى عباد الله أو تغترب جليسا  
وأنا الضامن بالأخرى — فهاهنا الخندريسا

ولما كان المعرى والغيام يؤمنان بأن كل شئ مسير مجبر مع كل نبضة  
وكل خفقة وكل نفس بنفس ، فاذن لا مسئولية ولا جزاء لأنه لا اختيار  
ولا حرية .

يقول المعرى :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادير  
فقل للقراب الجون إن كنت سامعا أأنت على تغيير لونك قادر ؟

ما باختيارى ميلادى ولا همرى  
ولا حياتى فهل لى بعد تخيير

ويقول الغيام :

ويلقى منذ جبلا فى قالب الخلقة طينى  
كم أثاروا الشر فى هذا التراب المستكين  
ليس فى مقدرتى أن أغتدى أفضل منى  
هكذا من مصهر التكوين كانوا أفرغونى

وعلى هذا الأساس فما معنى الجزاء والحساب وإذا كان هناك جزاء فما رأى المعرى

والخيام ؟ انهما يريان أن كل من فعل الكبائر مجبر وعلى هذا فعقابه ظلم ثم إن الله  
كان على علم بما ستفعل فلماذا إذن الحساب ؟  
يقول المعري :

إن كان من فعل الكبائر مجبرا      فعقابه ظلم على ما يفعل  
ويقول الخيام :

قلم المقدار أجروه بأمرى دون أمرى  
فلماذا سألوني منه عن خير وشر  
ذهب أمس بدوني وآتى اليوم بدوني  
فغدا بالله ما حجتهم إن حاسبوني

\*\*\*

عندما صورنا الباري، من هذا التراب  
كان يدري ما ستأتى من أثام وصواب  
إننا لم نجن ذنبتنا ليس من تقديره  
قلم التعذيب فى النار إذن يوم الحساب ؟

وبينا يتلمس المعري طريق النور طلبا للعفو ، يؤكد لنا أنه على ثقة عظيمة برحمة  
الله حتى ولو أدخله النار ألف سنة :

ان ظنوني بخالى حسنه	فليعمل الدهر ما يهيم به
ولو أظمت فى النار ألف سنة	لا تيسر النفس من تفضله
يحمل عني مثقلات العذاب	إن أدخل النار فى خالى
فيها ترمى المياه العذاب	يقدر أن يدخلنى جنة

فلماذا يقول الخيام ؟ ان الخيام يتدل على الخالق بشكل عجيب حقا فهو يسأله  
فى حجاجه إذن ما الفرق بينك وبينى إذا كنت أنا أصنع السوء فتجازينى بمثله ؟  
وما ذنبى وأنت قد قدرت على ما صنعت وفعلت ، ثم أين عطاؤك أين بالنسبة للاشقياء ؟

رب قل لي من هو المصوم من اثم وعيب  
 رب كيف استطاع أن يحيا أمرؤ من غير ذنب  
 أنا عبد أصنع السوء فتجزيني بسوء  
 فأذن ما الفرق ما بيني وما بينك ربني ؟  
 أنت يارب كريم أنت ذو لطف ومن  
 فلماذا تطرد العاصي عن جنات عدن  
 ليس جودا منك أن تعطيني عن حسنتي  
 إنما جودك أن تعطيني عن سيئاتي

\*\*\*

انني يارب عبد مذهب أين رضاؤك  
 وفؤادي كالدياجي مظلم أين ضياؤك  
 وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا  
 كان هذا منك يما أين يارب عطاؤك ؟

لكن هل كان المعري والخييام في مجال هذا الحجاج مؤمنين بالجزاء ؟ أنهما  
 أساسا ينكران الجزاء على أساس المنطق الجبري لكنهما فرضا أن هناك حسابا على  
 أساس منطق الأديان ، ومن هنا طلبا العقوب . أما المعري فقد ركن إلى حسن ظنه  
 بالله ولو أدخله النار ألف سنة . وأما الخيام فقد ناقش الله في حجاجه بأن رحمته  
 وسعت كل شيء ولو ارتكب ملء الأرض ذنوبا فإنه يصحدي رحمة الله التي هي  
 أوسع من معصيته .

ويمكننا أن نلاحظ انكار البحث واضعنا في قول المعري وهو من أعنف  
 أقواله :

رب الزمان مفرق الالقين	فاحكم الهى بين ذلك وبينى
أنهيت عن قتل القوس تعنذا	وبعت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معادا ثانيا	ما كان أغناها عن الحاليين

ويقول الخيام :

اسمع العقل الذى يبحث فى كل سعادته  
أنه ينيك القبا كل يوم وزيادة  
إن إبانك هذا العمر لا عمر سواء  
لست بالكراث ينمو بعد إذ أنها حصادة

\*\*\*

أيها الغافل الجاهل ما أنت نضار  
فيواروه الثرى كي ينشروه بعد طلى

\*\*\*

هاكه سرا مصبونا لا تدعه أبدا  
أبدا لا تزهى الوردة من بعد الذبول  
اشرب الخمر فقد قلنا وقلنا لك القبا  
إن توليت فليست لك رجعة

لكن أليس لكل شيء أو لكل أمر نهاية ؟ إذن إلى أى حد انتهى المعنى  
والخيام من فلسفتها العقلية . . ؟

لقد أحسن كل منهما بعد رحلته الشاقة بين الشك واليقين أنه متمم بالزندقة  
والمروق رغم صدق الأحاديث . . فقال المعنى :

لما الله قوما إذا جثتهم يصدق الأحاديث قالوا كفر  
وقال الخيام :

كم تجنبوا من حاريتهم واتهموا  
كل من ليس حاراً مثلهم بالزندقة

لكنه حدد مكانه حين قال :

لست بالكافر إطلاقاً ولا المسلم صديقاً .

ثم ماذا ؟ ؟ ثم استغرق كل منهما فى محيط اللا أدوية حقاً أو تقيّة ، حيث

قال المعري :

سألتهموني فأعيتني أجابكم  
جميعنا يخيט في حنّس  
وما جدال القوم الا تعلّة  
وبصير الا قوام مثلى أعمى  
من ادعى أنه دار فقد كذبا  
قد استوى الناس والكهل  
مصورة من باطل متوهم  
فهلّسوا في حنّس تصادم  
ويقول الخيام :

لا أنا الدارى ولا أنت بأسرار الأزل  
كلهم هز بكف العجز غصن الأمل  
فأفرض اليوم كأمس وغدا كالأزل

\* \* \*

إنه بحر وجود جاء من طى الخفاء  
درة للبحث لم تنقب بعلم أو ذكاء  
كلهم جاءوا بقول من تظن وهراء  
غير أن الحق لم يظهر عليه ابن فناء

\* \* \*

أنت من صاروا يحيط العلم بين العالمين  
وغدوا في الفضل مصباح الهدى للمهتدين  
لم يشقوا من دجى الشك طريقا لليقين  
إنما قصصوا أساطير وناموا بعد حين

\* \* \*

إن قلبي أبدا لم يحرم العلم لعمري  
وقليل ما اخفى عني من مكتون سر  
يبد أنى اليوم فى المبعين إذ راجعت فكرى  
صرت أدري كيف أنى أبدا ما كنت أدري



وصدق الخيام كما صدق المعري فقد اشترك الاثنان في أنهما يدریان ويدريان  
أخيراً أنهما لا يدریان<sup>(١)</sup> ، ولكنهما كانا يدریان أيضاً أنهما على مقربة من درجات  
القيبر فليكتب كل منهما وصيته ..

أما المعري فقد طالب من قومه وعشيرته أن يتيمموا بترابه لعل فعلهم هذا  
يوافيه بأغراضه الطيبة وإذا تحول تراب جسده إلى آنية خزفية فلتكن أداة ظهور  
أيضاً مثوبة وعفوا ومغفرة . هذه هي وصية المعري ، أما الخيام فقد مضى في منهجه  
واتجاهه فأوصى بأن يشرب أحبابه من كأس ترابه حتى تتصل به الحياة السكري  
دون فتاة ..

يقول المعري :

تيمموا بترابي عل فعلكموا بعد الهمود يوافيني بأغراضى  
وإن جعلت بحكم الله فى خزف يقضى الظهور فأنى شاكر راضى  
ويقول الخيام :

عندما أهوى برأسى تحت رجل الأجل  
يوم يستأصل عمرى من جذور الأمل  
فاصنعوا بالله جأماً من ترابى ففسانى  
فيه أحيا كلما أتزع من بلى الدنان

ونعود فنقول : إن جوهر الموقف الفلسفى العقلى لدى المعري والخيام واضح  
في توكيدهما المبدأ القائل بأنه ليس فى الامكان أسوأ مما كان ، على أساس فساد  
طبيعة الكون والانسان ، ويمتدّ من روح تشاؤمية مبعثة فى التشاؤمية الموهلة فى  
الايان بالجبرية المطلقة ، الجبرية المنسكرة للحربة والمسؤولية ، المنسكرة بالتبعية لكل  
جزء أو حساب .

(١) ظهر لفظ اللاأدوية Agnosticism كمصطلح فلسفى عام ١٨٦٩ م من وضع هكسل Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عندما قال نحن لا نعرف شيئاً وسوف لا نعرف شيئاً . ومعناه انكار قيمة العقل  
وقدرته على المعرفة الحقة واعتبار الميتافيزيقا لونا من البعث (أنظر يوسف كرم : المصمم الفلسفى ١٩٦٦)  
وقد وصل هكسل فى فلسفته اللاأدوية إلى أن المادية والروحية على السواء فى غلط لأنهما تقرّنان أننا  
نعلم بحقائق الأشياء ونحن لا نعلمها ولن نعلمها . ولا شك أن نواة اللاأدوية موجودة فى القرن الخامس  
والرابع قبل الميلاد مع الفيلسوف اتنستين ( ٤٤٤ - ٣٦٨ ق . م ) أستاذ السوفسطائى الشهير جورجياس .

وقد عرفنا أن كليهما قد مضى في غخطه. يهاجم اضطراب الأديان وأشكال العبادات ويسخر من الفرق والمذاهب الدينية المتصارعة الداله في الواقع على حيوية الفكر والفكر الاسلامي بالذات .

وقد لاحظنا أن الخيام لم يختلف عن المعري إلا في نقطة واحدة وهي طريقة لحل إشكال سورة الشك العارمة ، وإشكال تأرجحه على أرجوحة اللاأدرية بين الشك واليقين .

أما المعري فقد اصر على وعيه القاتل ، ولهذا تمنى الانتحار البطيء بالصوم المطلق عن الشراب والطعام ، ولكنه عاد فراجع وسلك انحصاراً آخر بممارسة الموت في حياة من الحرمان وعدم الزواج، ووأد طبيعته الفريضة ودعوته البشرية إلى رفض الزواج والتناسل. ولعله أراد أن ينتقم من الحياة بممارسة الموت فأكد ذاته على رغبة ولكن في طريق متراجع موغل في السلبية القاتلة . أما الخيام فكان طريق خلاصه أن يفرق وعيه العارم في حبس الكأس ليعيش مع اللحظة غير الواعية إلا بالحاضر ، ولا شك أنه هرب كالمعري . ولم يكن خلاصه خلاصاً في الواقع . . بل كان هرباً من سورة الشك القاتل واللاأدرية القاتلة .

ولا شك أن كليهما قد أدى رسالته الفكرية والفلسفية أكل الأداء وأن كليهما قد عاش فكر عصره وخلق فيه تخليقاً كبيراً بعد أن أنست نفسه وآمن عقله بهذا الفكر . ولا شك أيضاً أن عصرهما وهو عصر البلبلة الفكرية ، والتيارات الشعبية والمذاهب السرية الباطنية المنحرفة - لا شك أن هذا العصر غير ملوم في ذاته وموضوعه من المعري والخيام - كما ذكرنا - فقد عاش فيه الغزالي وتفلسف بعد أن نجما من غوائل تياراته الخبيثة . أما المعري وأما الخيام فلم يتجوا وإن كانا قد تغلفا ولكن في دوائر منفصلة عن الروح الاسلامي والمنهج الاسلامي .

## أهم المصادر والمراجع

- ١ - ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ٥ - أجزاء القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- ٢ - أبو ريده : الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ابراهيم النظام ١٩٤٦
- ٣ - البندادي : (عبد القاهر) الفرق بين الفرق ١٣٢٨ هـ القاهرة
- ٤ - البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة الهند ١٩٥٨ طبعة حديثة
- ٥ - البندادي : (الخطيب) تاريخ بغداد ١٤ جزءا - القاهرة ١٣٤٩ هـ
- ٦ - الخطيب : الانتصار لتحقيق نيجرج ١٩٢٥ القاهرة
- ٧ - دى بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده ١٩٥٤ القاهرة
- ٨ - رامي : أحمد رامي ترجمة رباعيات الخيام ١٩٦٣ القاهرة .
- ٩ - السباعي : محمد السباعي ترجمة رباعيات الخيام ١٩٣٥ القاهرة .
- ١٠ - الدكتور طه حسين : تعريف القدماء بأي الملاء تحقيق مع الأستاذ ابراهيم الايباري ١٩٦٥
- ١١ - الدكتور طه حسين : ذكرى أبي الملاء ط ٢ - ١٩٢٢ القاهرة .
- ١٢ - الدكتور طه حسين : مع أبي الملاء في سجنه - ١٩٥٦ للقاهرة
- ١٣ - الدكتور الطويل : (الدكتور توفيق الطويل) الفلسفة الأخلاقية ١٩٥٩ القاهرة .
- ١٤ - الدكتور عائشة عبد الرحمن : النفران تحقيق ط ٢ - ١٩٦٠ القاهرة .
- ١٥ - الدكتور عائشة عبد الرحمن : الحياة الانسانية عند أبي الملاء ١٩٤٢ القاهرة .
- ١٦ - عباس محمود العقاد : رجعة أبي الملاء .
- ١٧ - عباس محمود العقاد : أبو نواس ١٩٣٣ القاهرة .
- ١٨ - الدكتور عبد الرحمن بنوى : شوبهور ١٩٤٨ القاهرة .
- ١٩ - الدكتور عبد القادر محمود الفلسفة الصوفية في الاسلام ١٩٦٦ القاهرة .
- ٢٠ - الفزالي (الامام) : المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١٩٦٢ القاهرة .
- ٢١ - فضائح الباطنية : تحقيق الدكتور عبد الرحمن بنوى ١٩٦٤ القاهرة .
- ٢٢ - فاضل : (عبد الحق) ترجمة رباعيات الخيام (ثورة الخيام) ١٩٤٨ القاهرة .
- ٢٣ - كراوس (بول) : رسائل فلسفية لرازي (محمد بن زكريا الرازي) ١٩٣٩ القاهرة .
- ٢٤ - كيلاني (كامل) : رسالة النفران تحقيق ١٩٤٥ القاهرة .
- ٢٥ - الدكتور محمود قاسم : مقسة كتاب علم الاجتماع الديني لباستيد ١٩٤٨ القاهرة .
- ٢٦ - الدكتور محمود قاسم : في النفس والنقل ١٩٤٥ القاهرة .
- ٢٧ - المعري : القزوينيات .
- ٢٨ - المعري : الفصول والغايات .
- ٢٩ - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ١٩٥٧ القاهرة .
- ٣٠ - يوسف كرم : المسجع الفلسفي ١٩٦٥ القاهرة .



## مدخل إلى دراسة المناخ التفصيلي Microclimatology

دكتور يوسف عبد المجيد فايد

مدرس الجغرافيا - كلية الآداب - جامعة القاهرة

### مقدمة :

من المعروف أن معظم الدراسات التي تطالعنا في كتب المناخ تعتمد على إحصاءات مناخية مأخوذة من سجلات المراسد التي توضع أجهزتها في أكشاك تعلو عن سطح الأرض بمسافة مترين . وهذا الارتفاع موحداً عالمياً ، لذلك فإن هذه الأرصاد تتم بعيداً عن المستوى الذي يتأثر بالعوامل المحلية التفصيلية ، ولما كانت الأحوال الجوية والمناخية في النطاق المحدود الذي يوجد من سطح التربة حتى ارتفاع المترين لها أهمية كبيرة من الناحيتين النظرية والعملية ، فإن دراسة المناخ التفصيلي microclimatology تعتبر من أهم فروع علم المناخ . فسطح التربة هو الذي يمثل المصدر الذي يعطى الهواء حرارته ورطوبته حيث أن أشعة الشمس تخترق الهواء دون أن يمتص منها شيئاً يذكر والغالبية تصل إلى سطح الأرض فتسخنه ويقوم هو بتمسخن طبقات الهواء التي تعلوه مبتدئاً بطبقة الهواء التي تلامس التربة مباشرة ، وهذه الطبقة من الهواء هي موضوع دراسة المناخ التفصيلي . كذلك يؤثر شكل سطح الأرض على حركة الهواء من حيث اتجاهه وسرعته .

أما من الناحية العملية فإن طبقة الهواء القريبة من سطح الأرض هي التي تؤثر في النباتات ، ذلك لأن معظم النباتات تنمو قريبة من سطح الأرض وتمتد ارتفاع المترين ولذلك يهتم الزراع بأحوال المناخ على النطاق التفصيلي micro وليس على النطاق الإقليمي الواسع macro . كذلك يهتم هذا الفرع من علم المناخ إلى جانب هذا بدراسة مناخ المدن أو أجزاء منها والمزارع والغابات<sup>(١)</sup> .

Sutton O. Y., « Understanding Weather, » 1960 pp. 179—206.

(١)

وللأسف نجد أن معظم الدراسات التي تتعلق بهذا الفرع قد عملت في العروض المعتدلة خاصة في ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية بعيداً عن العروض المدارية والقارية التي ما زالت تنتظر الدراسة التفصيلية :

الحرارة : تعتبر الحرارة من أهم العوامل التي تؤثر في نمو النباتات ، لذلك فإنها تأتي في مقدمة عناصر المناخ التي يهتم بها في الدراسة التفصيلية . وإذا نظرنا إلى هذا العنصر نجد أولاً أنه في طبقات الهواء القريبة من سطح الأرض تنتقل الحرارة من أسفل إلى أعلى ببطء شديد إذا ما قورنت بانتقالها بين طبقات الهواء في الارتفاعات التي فوق ذلك .

والسبب في هذا هو أن المظاهر الطبوغرافية لا تتيح الحركة الحرة للهواء إلى أعلى . وعندما لا يتحرك الهواء نفسه من أسفل إلى أعلى . فإن انتقال الحرارة يتم عن طريق التوصيل Conduction فقط . ومن المعروف أن انتقال الحرارة من طبقة من الهواء إلى طبقة أخرى بواسطة حركة الهواء إلى أعلى تعادل  $10^9$  من قوة انتقال الحرارة بين طبقات الهواء عن طريق التوصيل .

إذا نظرنا إلى تناقص الحرارة بالارتفاع في القدم أو القدمين من الهواء اللذان يطوان سطح الأرض مباشرة نجد أنها نتيجة لذلك تنخفض بسرعة كبيرة في هذا الحيز .

وقد أجريت تجربة في مدينة رفرسايد Riverside بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية على طريق أسفلت بعد ظهر أحد الأيام فوجد أن حرارة الأسفلت نفسه مرتفعة بمقدار  $18^{\circ}\text{F}$  عن درجة حرارة الهواء على ارتفاع قدم واحد من سطح الأسفلت ( أنظر شكل ١ ) . ومن الممكن أن توجد مثل هذه الحالة في أي مكان آخر ولكن بمعدل تناقص للحرارة Lapse rate أقل من هذا ، وذلك عندما يكون سطح الأرض مكوناً من تربة بها بعض الرطوبة ذلك لأن جزءاً من أشعة الشمس التي تصل إلى سطح التربة يستنفذ في تبخير الماء الموجود في التربة .

كذلك تعتمد حرارة الجزء الأسفل من الغلاف الغازي القريب من سطح الأرض على مدى قدرة التربة على توصيل الحرارة إلى الهواء وهو ما يعبر عنه باصطلاح Heat conductivity<sup>(١)</sup> ، فإذا كانت هذه القدرة قليلة فإن سطح التربة يصبح شديد

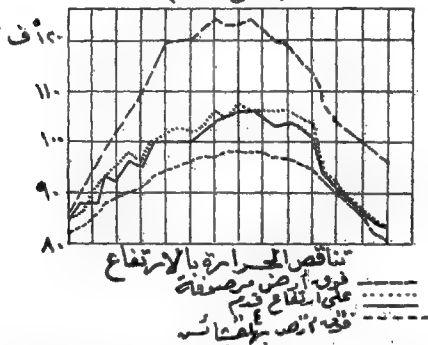
Blair A. Thomas, « Weather Elements, » N. J. 1959, p. 96.

Willet, Hurd C., « Descriptive meteorology, » New York, 1959, p. 38.

(١)

الحرارة لانه يحتفظ بأشعة الشمس المرسلة إليه أو بمعظمها والعكس صحيح . وفي حالة انخفاض قدرة التربة على توصيل الحرارة إلى طبقة الهواء التي تغطيها ، فان جزءاً كبيراً من حرارة التربة يصحبه إلى أسفل متغفلاً إلى باطن التربة فيقوم بتسخين التربة السفلى Subsoil . أما في حالة سطح الماء فان حرارة السطح لا ترتفع كثيراً لأن نفاذ الحرارة إلى الطبقات السفلى يتم بدرجة أسرع ولأن جزءاً من الحرارة يستنفذ في عملية تبخير الماء .

( شكل ١ )



وقد أجرى الأستاذ جيجر دراسة لمكان قريب من مدينة ميونيخ بألمانيا لخصر عدد الأيام التي تزيد حرارتها عن ٧٧° ف ( ٢٥° م ) على ارتفاعات مختلفة من سطح الأرض وتوصل إلى النتائج التالية في الجدول :

عدد الأيام التي تزيد حرارتها عن ٧٧° ف						الارتفاع عن سطح الأرض
المجموع	سبتمبر	أغسطس	يولية	يونية	مايو	
٥٥	٩	١٤	١٩	٨	٥	١٥٠ سنتيمتر
٥٩	١٠	١٥	١٩	٩	٦	١٠٠
٦٤	١٠	١٧	٢٠	١٠	٧	٥٠
١٩	١٤	٢٢	٢٥	١٨	١٢	٥

أما أثناء الليل فإن أقل درجات حرارة تحدث أيضا عند سطح الأرض مباشرة حيث أن فقدان الحرارة بالإشعاع يبلغ أقصاه من سطح الأرض ومن المعروف أن سطح الأرض يفقد حرارته بالإشعاع أسرع من فقدان الهواء لها ، لذلك نجد هناك انقلابا في التوزيع العمودي للحرارة Temperature inversion في طبقات الهواء القريبة من سطح الأرض خاصة في الليالي التي لا توجد بها سحب والتي تتميز بعدم حركة الهواء لأن ذلك يساعد على سرعة فقدان الحرارة من سطح الأرض<sup>(١)</sup>. وحيث أن قدرة الهواء على توصيل الحرارة أقل من قدرة التربة فإن التربة المسامية أقل قدرة على توصيل الحرارة من التربة الصماء أو ضيقة المسام ، كما أن الأرض المهيومة أقل قدرة على توصيل الحرارة من الأرض غير المهيومة ، كذلك الأرض المغطاة بالقش أو الحشائش الجافة أقل قدرة على توصيل الحرارة من الأرض العارية وذلك بسبب وجود الهواء بين عيدان القش وبعضها أو بينها وبين التربة . لذلك يحدث الصقيع في أغلب الأحيان في المناطق المغطاة بالقش ولذلك يجب التخلص من الحشائش الجافة التي تغطي التربة في المناطق المعرضة لحدوث الصقيع .

الرطوبة : كما هو الحال بالنسبة لدرجة الحرارة فإننا نجد رطوبة الهواء تبدى تغيرا سريعا في الاتجاه العمودي من سطح الأرض وخلال الطبقة المحدودة من الهواء القريبة من السطح . ولكي نتفهم توزيع الرطوبة في الجزء الأسفل من الغلاف الغازي لابد أن نناقش أولا الرطوبة المطلقة absolute humidity ذلك لأن دراسة هذا العنصر تتيح التعرف على الضوابط الطبيعية التي تؤثر على توزيع الرطوبة في الهواء . ولما كان مصدر رطوبة الهواء هو سطح الأرض فإن أعلى نسبة للرطوبة تكون عند سطح الأرض مباشرة والاستثناء لهذا يوجد في حالتين ، الأولى عندما تكون هناك عملية تصعيد قوية للهواء المحمل ببخار الماء إلى الطبقات العليا والثانية عندما يحدث تكاثف في طبقة من الهواء تعلو بعض الشيء عن سطح الأرض .

أما التغير اليومي للرطوبة المطلقة فإنه يحكم بواسطة الضوابط الطبيعية السابق ذكرها فخلال الأذن للرطوبة المطلقة عند سطح الأرض يحدث في الساعات المبكرة من النهار

(١) Trewartha, Glenn T., «An Introduction to Climate, New York, 1964, p. 30.



عندما تكون الحرارة منخفضة، وكلما ارتفعت درجات الحرارة ترتفع كمية الرطوبة في الهواء بسرعة حتى تصل إلى نهايتها العظمى قبل الظهر ثم تبدأ الرطوبة المطلقة في القلة مرة أخرى لسببين أولهما أن سطح الأرض يصير جافاً نسبياً بعد أن استمر التبخر منه لساعات طويلة من شروق الشمس حتى الظهر وفانها أن انتقال بخار الماء من طبقة الهواء القريبة من سطح الأرض إلى الطبقات العليا تتم بسرعة كبيرة في ساعة الظهيرة ولذلك تقل كمية بخار الماء في الهواء القريب من سطح الأرض في الوقت الذي ترتفع فيه الحرارة إلى حدها الأقصى، ويبدو هذا الحد الأدنى للرطوبة المطلقة أكثر وضوحاً في المناطق الصحراوية الجافة. أما في ساعات المساء فتبدأ الرطوبة المطلقة في الارتفاع مرة أخرى.

أما عن الرطوبة النسبية Relative humidity فلها تقل كلما ارتفعنا عن سطح الأرض رغم أن درجة الرطوبة النسبية لا تتوقف على كمية بخار الماء في الهواء فقط، وإنما تتوقف في المقام الأول على درجات الحرارة. وقد لوحظ اختلاف يصل إلى ٤٠٪ في درجة الرطوبة النسبية بين الهواء على ارتفاع ٥ سم من سطح الأرض والهواء على ارتفاع ٢٠٠ سم من سطح الأرض. ويمكن القول بصفة عامة أن معدل تناقص الرطوبة النسبية بالارتفاع أكثر وضوحاً أثناء الليل عنه أثناء النهار، ففي أثناء الليل تنخفض حرارة الهواء الملامس لسطح الأرض عن حرارة الهواء الذي يعلوه بدرجة واضحة كذلك تقل كمية بخار الماء في الهواء كلما ارتفعنا لذلك تنخفض الرطوبة النسبية بالارتفاع. أما خلال النهار فإن الحرارة تكون مرتفعة بالقرب من سطح الأرض وتقل بسرعة بالارتفاع — كما ذكرنا من قبل — لذلك فإن الرطوبة النسبية بالقرب من سطح الأرض لا تكون كثيراً عنها في طبقات الهواء الأكثر ارتفاعاً. ومهما كانت كمية بخار الماء كبيرة في الهواء القريب من سطح الأرض فإن ارتفاع الحرارة ارتفاعاً شديداً يجعل الرطوبة النسبية منخفضة<sup>(١)</sup>.

الرياح: تتغير الرياح أيضاً في اتجاهاتها وسرعتها بالقرب من سطح الأرض

فمختلف بذلك عن الرياح في طبقات الهواء الأعلى . فبالقرب من سطح الأرض تكون الرياح بطيئة للغاية وذلك بسبب تأثير عوائق السطح Surface friction ، ثم تزداد سرعة الرياح كلما ارتفعنا لأن عوائق السطح تقل أو ينعدم تأثيرها على الرياح (١) .

ومن الجدول التالي يتضح أن عدد المرات التي سجلت فيها حالات ركود في الهواء تزيد في النطاق القريب من سطح إذا قورن بالنطاقات التي تعلوه :

ساعات النهار								الارتفاع بالسنتيمتر
٢٤—٢١	٢١—١٨	١٨—١٥	١٥—١٢	١٢—٩	٩—٦	٦—٣	٣—٠	
٤٣	٤٦	١٦	٥	٦	٢٥	٣٦	٤١	٥
٢٤	٣٣	٧	٠	١	١٠	٢٦	٣١	٢٥
٢٥	٢٢	٢	٠	١	٤	١٨	٢٢	٥١
١٩	١٦	٢	٠	١	٢	١٣	١٨	١٠٠
١٥	١٢	١	٠	٠	٠	١٢	١٣	١٠٠

ونلاحظ أن حالات ركود الهواء تزداد بصفة خاصة في الساعات المتأخرة من المساء ، ويقل عدد حالات الركود كلما ارتفعنا إلا في حالات نادرة . ومن الملاحظ أيضاً أن سرعة الرياح تزداد أثناء النهار عنها أثناء الليل .

وبعد مناقشة أهم عناصر المناخ في الحيز الصغير من الغلاف الغازي القريب من سطح الأرض نورد جزءاً لتوضيح أهم عناصر البيئة الطبيعية التي تؤثر على الأحوال المناخية التفصيلية .

تأثير مظاهر السطح على المناخ التفصيلي : من المعروف أن مظاهر السطح تؤثر في الأحوال المناخية العامة على المقياس الكبير ، كذلك نلاحظ أن مظاهر السطح

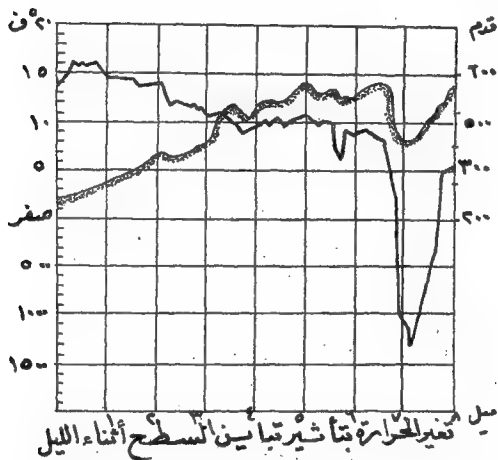
Taylor, F. George, «Elementary Meteorology», 1959, pp. 133—134. (1)

تؤثر على الأحوال الجوية والمناخية في الحيز الصغير من الغلاف الغازي الذي نحن بصددده .

ومن أم مظاهر تأثير التضاريس على المناخ التفصيلي ظاهرة انحدار الهواء البارد إلى الأجزاء المنخفضة من سطح الأرض أثناء الليل ، ويحدث هذا حتى بالنسبة للصخر الصغيرة . وقد قام الأستاذان مدلتون وميلار<sup>(١)</sup> بقياس درجات الحرارة في أحد الشوارع الرئيسية في مدينة تورنتو Toronto في كندا وهو شارع يونج Yonge الذي يشق المدينة من بحيرة أونتاريو Ontario حتى الطرف الشمالي للمدينة وذلك في يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٦ ، وقد أجريت التجربة بواسطة ترمومتر ثبت في سيارة على ارتفاع ٢٧ بوصة من سطح الأرض . وقد بدى في قياس درجات الحرارة على طول الطريق بعد منتصف الليل بست دقائق واستغرق القياس أربعين دقيقة في الاتجاهين من وإلى البحيرة ، وكان الطريق مموجاً أي به ارتفاعات وانخفاضات . وقد تميز ذلك المساء الذي أجريت فيه التجربة بخلو السماء من السحب . وقد انضح من القياس ( شكل ٢ ) أن درجات الحرارة تنخفض انخفاضاً واضحاً في الأجزاء المنخفضة من الطريق وبدرجة أقل من الأجزاء المنخفضة القريبة من البحيرة بسبب تأثير نسيم البحيرة على رفع درجات الحرارة بعض الشيء . وأهم ما يلاحظ هو الانخفاض الكبير لدرجات الحرارة عند الميل السابع من الطريق . وهذا التباين الواضح في درجات الحرارة بين قيعان الأودية والأجزاء المرتفعة يحدث بوجه خاص في الليالي المصحوة الهادئة الهواء ، ففي مثل تلك الليالي يبرد سطح الأرض بسرعة بفعل الإشعاع وتنخفض درجة حرارة الهواء القريب من سطح الأرض فيبدأ هذا الهواء البارد الثقيل في الانزلاق إلى بطون الأودية والأجزاء المنخفضة من سطح الأرض حيث يجمع فيها . ويشبه انحدار الهواء إلى أسفل انحدار الماء من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي ولكن مع الفارق . وقد يقال أن انحدار الهواء من أعلى إلى أسفل يؤدي إلى تدفئته عن طريق الضغط بالهبوط adiabatic heating فإن هذا وإن صح في حالة المناخ الإقليمي على المقياس الكبير إلا أنه غير صحيح في حالة المناخ التفصيلي ذلك لأن الارتفاعات صغيرة والمسافة التي يتحركها الهواء لا تسبح

Haurwitz, Bernhard, and James M. Austin, «Climatology», N. (1)  
Y. 1944, p. 164.

تبدفته أثناء هبوطه . والذي يحدث عادة أن الهواء البارد عندما ينزل إلى الأجزاء المتخفضة فإنه يطرد الهواء الدافئ الموجود في بطن الوادئ إلى أعلى فيصعد هذا الهواء الدافئ ، نسياً ويحتل جوانب الانحدار التي تصبح نتيجة لذلك أكثر دفئاً من بطن الوادئ ، ويتخذ الهواء الدافئ المتصاعد شكل دوامات على جانبي الوادئ . وهذا الهواء الدافئ نفسه يبرد بعد ذلك ثم يتحدر مرة أخرى إلى بطن الوادئ وهكذا (١٦) .



(شکل ۲)

وقد قام الأستاذ جيجر Geiger بدراسة ماثلة إذ أنه سجل النهايات الصغرى للحرارة خلال سنة كاملة في بقعة قطعت غالبها ومنسوب الانحدار فيها ١ : ٢٠٠ بالقرب من مدينة ميونيخ في جنوب ألمانيا . وقد وجد جيجر أنه حتى في الأجزاء

Blair A. Thomas, «Climatology, General and Regional, N. Y. 1942, (1)  
pp. 78—82.

ذات السطح المستوي فإن انزلاق الهواء قد يعوقه حاجز بسيط مثل جذوع الأشجار الملقاة على سطح الأرض .

وفي الجدول التالي نجد النهايات الصغرى للحرارة خلال شهرى مايو ويونيه عندما يكون فصل الصقيع قد قارب الانتهاء وخلال شهر أكتوبر أى فى بداية فصل الصقيع . وقد أخذت القياسات فى ثلاث نقط على طول المنحدر كل منها على ارتفاع ٥ سنتيمترات عن سطح الأرض ، وكانت النقطة الأولى عند حضيض المنحدر والثانية على بعد ٤٨ متراً من النقطة الأولى وعلى ارتفاع يزيد عن النقطة الأولى بـ ٢٤ سنتيمتراً والثالثة على بعد ٨٠ متراً من النقطة الأولى وتزيد فى ارتفاعها ٤٠ سنتيمتراً عن النقطة الأولى . وقد وجد جيجر أن المتوسط الشهرى للنهايات الصغرى أقل بكثير عند حضيض المنحدر عنها عند أعلى المنحدر ، وبالتالي فإن التعرض للصقيع أكثر خطورة فى الأجزاء المنخفضة عنه فى الأجزاء المرتفعة :

الارتفاع عن سطح الأرض ( نسبياً )			الشهور
٤٠ سنتيمتر	٢٤ سنتيمتر	صفر	
			<u>متوسط النهاية الصغرى</u>
٣١ر٥	٣٠ر٩	٢٩ر٣	مايو
٣٢ر٧	٣٢ر٧	٣١ر٦	يونيه
٣١ر٨	٢٩ر٣	٢٩ر٣	أكتوبر
			<u>عدد مرات الصقيع</u>
١٧	٢٠	٢٢	مايو
١٢	١٣	١٥	

ورغم أن الفروق فى درجات النهايات الصغرى للحرارة قليلة إلا أن هذه الفروق ذات أهمية كبيرة خصوصاً إذا لاحظنا أن هذه الارتفاعات محدودة أولاً وأن الفرق

بينها قليل جداً . كذلك نلاحظ أن مستوى هذه الارتعاضات جميعاً أقل من المستوى الذى توضع فيه أجهزة المراسد وهو مترين .

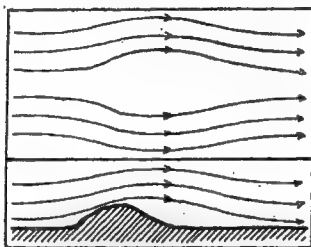
أما عن سرعة الهواء الذى ينحدر من أعلى إلى أسفل فهى سرعة محدودة لا تزيد فى العادة عن متر واحد فى الثانية ، ومن أهم العوامل التى تؤثر فى حركة انحدار الهواء شكل الانحدار واتجاهه<sup>(١)</sup> . ولكى نتعرف على تأثير شكل الانحدار واتجاهه نضرب مثلاً بتل قبائى سيمتري الشكل غير شديد الانحدار ، وبذلك تكون كمية الإشعاع الشمسى التى يستقبلها أى جزء من التل متوقفة على عوامل أخرى خلاف انحدار التل واتجاهه . والمفروض فى هذه الحالة أن الجانب الشرقى يستقبل كمية من الأشعة مساوية للجانب الغربى من التل وأن أشعة الشمس توزع على الجانبين بالتساوى فهى تسخن الجانب الشرقى من شروق الشمس حتى الظهر وتسخن الجانب الغربى من الظهر حتى الغروب (على شرط أن تتساوى جميع الأشياء الأخرى مثل كمية السحب وحركة الهواء) .

غير أن التجارب الواقعية دلت على أن درجات الحرارة على الجانب الغربى من التل تكون أعلى من درجات الحرارة على الجانب الشرقى والسبب فى ذلك أنه خلال النصف الأول من النهار وعندما تكون أشعة الشمس مسلطة على الجانب الشرقى من التل فإن الهواء يسخن أيضاً ويقوم هذا الهواء بتسخين الجانب الغربى من التل بعض الشيء وعندما تصل أشعة الشمس إلى الجانب الغربى فى النصف الثانى من النهار فإنها لا تبدأ لتسخين من الصفر ، فى حين أن تسخين الجانب الشرقى فى الصباح يبدأ من الصفر بعد ساعات الليل الباردة . لذلك فإن السفوح الغربية للمرتفعات تكون أكثر حرارة من السفوح الشرقية إذا تساوت جميع الظروف الأخرى . ولا كانت أشعة الشمس نصيب السفوح الجنوبية فى نصف الكرة الشمالى أكثر من غيرها فإنه يمكننا أن نضيف أن السفوح الجنوبية هى أكثر السفوح حظوة بأشعة الشمس . وهذه القاعدة صحيحة إذا كانت المرتفعات ذات شكل منتظم وهو مالا يتوفر فى الطبيعة دائماً ، فقد يحدث أن يكون اتجاه التل بحيث تسلط أشعة الشمس على

---

Sverre Pettersen, «Introduction to Meteorology» 1958, N. Y. (١)  
pp. 164—169.

سفحه الشرق معظم ساعات النهار وحينذاك تكون درجات الحرارة على السطح الشرق أعلى منها على أى جانب آخر . وهناك عامل آخر يتدخل لتفسير هذا الوضع المثالى وهو كمية السحب ، فلو حدث أن زادت كمية السحب بعد الظهر فان هذا يقلل من كمية أشعة الشمس التي تصل إلى الجانب الغربى . وهذه الحالة شائعة في العروض المدارية القريبة من خط الإستواء حيث تتجمع سحبها في ساعات ما بعد الظهر .



توزيع الرياح في منطقة بها تسلسل (شكل ٣)

أما عن التبخر فانه يتدخل لصالح رفع درجات الحرارة على الجانب الغربى من التلال ، ذلك لأن جزءا كبيرا من المياه التي توجد في التربة على الجانب الغربى يتبخر في النصف الأول من النهار ، لذلك فان ما يضيغ من الحرارة في التبخر عندما تصل أشعة الشمس إلى الجانب الغربى يكون محدودا ، في حين أن جانبا كبيرا من أشعة الشمس المرسلة إلى الجانب الشرقى يضيغ في تبخير المياه الموجودة في التربة على ذلك الجانب .

وإلى جانب الحرارة التي تنال الاهتمام الأكبر في دراسة العلاقة بين مظاهر السطح والمناخ فان الرياح والمطر يظهران تآثرا ملحوظا بالسطح أيضا . فعلى المقياس الإقليمى الكبير نجد أن السفوح المواجهة للرياح تنال كمية أكبر من الأمطار إذا قورنت بالسفوح التي توجد في منصرف الرياح . أما على المقياس التفصيلي فان الارتفاعات محدودة لدرجة أنها لا تؤثر على تبريد الهواء وحدوث التكاثف ، ولذلك فان العامل الأساسى الذى يؤثر في كمية المطر هو سرعة الرياح . وفي استعراض

توزيع الرياح وأثر مظاهر السطح تعود مرة أخرى إلى المثال السابق الخاص بالتل القبابي السيمتري الشكل . وقد أجرى الأستاذ جيجر عدة تجارب أثبت بها أن سرعة الرياح تزداد على الجانب المواجه للرياح وخاصة عند قمة التل ، كذلك تشتد السرعة على جانبي التل لذلك لأن الرياح تعبر فوق التل وتدور حوله أيضاً لأن ارتفاعه ليس كبيراً وامتداده ليس واسعاً . أما على الجانب الآخر للتل Lee side فان سرعة الرياح تقل . ويتفق توزيع المطر مع توزيع الرياح فحيثما تشتد سرعة الرياح يقل المطر لذلك فان كمية المطر تزداد على الجانب غير المواجه للرياح وهذا عكس ما يحدث على النطاق الإقليمي ، والأدلة على ذلك كثيرة فالتلج الساقط يزداد على جوانب الكتل الصخرية والأشجار والمباني غير المواجهة للرياح ، وبناء حواجز الثلج يراعى فيها أن تكون على الجوانب غير المواجهة للرياح .

أثر النباتات على أحوال المناخ التفصيلي : يختص هذا الجزء بمناقشة تأثير النباتات على الأحوال المناخية التفصيلية ، وتأثير النباتات هنا له أهمية واضحة ذلك لأن معظم النباتات تنمو قريباً من سطح الأرض ، ووجود غطاء نباتي يعطى خصائص معينة لسطح الأرض كما أنه يغير من شكل سطح الأرض<sup>(١)</sup> .

أما فيما يتعلق بإعطاء التربة خصائص معينة فاننا نجد أن الأرض التي بها نباتات تمتص قدراً أكبر من الحرارة إذا قورنت بالتربة العارية من النباتات ، أما كمية الإشعاع الأرضي الذي يتم على هيئة موجات طويلة فهي أقل في حالة التربة ذات الغطاء النباتي عن التربة العارية ، ومعنى هذا أن هناك توازن حراري للسطوح التي تغطيها النباتات عن تلك التي لا تغطيها نباتات . كذلك نجد أن النباتات توجد بها عدة سطوح لاستقبال الأشعة أو فقدانها ممثلة في الفروع والأوراق ، لذلك فان الفروع والأوراق العليا تحمي الفروع والأوراق السفلى من اكتساب قدر زائد أو فقدان قدر زائد من الحرارة وهكذا لا توجد تطرفات حرارية .

وهناك عامل آخر يؤثر على حرارة السطوح المغطاة بالنباتات وهو تكون الندى الذي يعوق خروج الإشعاع الأرضي بنسبة تصل أحياناً إلى ٣٠٪ . والعامل الوحيد

(١) Hawrutz, Bernhard, and Austin, James M. «Climatology», p. 165.



الذى يقلل من حرارة المناطق المغطاة بالنباتات هو عامل التبخر الذى يزداد حينما توجد نباتات ولكن تأثيره لا يعادل العوامل الأخرى التى تساعد على زيادة الحرارة المكتسبة فى المناطق التى بها غطاءات نباتية .

وجود غطاء نباتى يؤثر أيضاً على سرعة الرياح إذ هو يحد منها ، ويزداد سمك طبقة الهواء التى تتأثر بهذا العامل كلما زاد ارتفاع النبات عن سطح الأرض كما هو الحال بالنسبة للأشجار العالية ، كما يتضح من الجدول التالى :

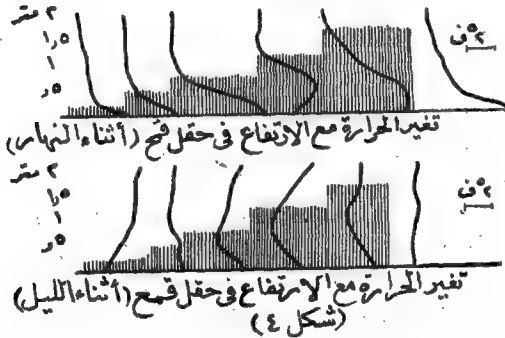
الغطاء النباتى	الارتفاع بالسنتيمتر	سرعة الرياح (متر فى الثانية)
بين جذوع الأشجار	١٠	١
عند تيجان الأشجار	٥٠	٣.٧
فوق الأشجار	١٨٠	٩.٣

ويتضح من هذا الجدول أن سرعة الرياح قليلة بين جذوع الأشجار ثم تزداد السرعة قليلا عند قمم الأشجار ولكنها تقفز مرة واحدة إذا ارتفعنا إلى ما فوق الأشجار .

أما عن تأثير النباتات على الحرارة والرطوبة فيمكن الرجوع إلى شكل ٤ حيث يظهر الجزء العلوى منه توزيع الحرارة فى حقل قمح خلال فترات نموه المختلفة، ويبدو ارتفاع عيدان القمح بالخطوط الرأسية المظلمة . وفى جميع الحالات يبدو تأثير امتصاص النبات لأشعة الشمس ، فنلاحظ أن درجات الحرارة تتغير بسرعة كلما ارتفعنا خلال عيدان القمح بينما التغير قليل مع الارتفاع بعد أن نصعد فوق قمة النبات ، ويرجع ذلك إلى أن حركة الحرارة إلى أعلى بطيئة بسبب تأثير النبات ، وكلما كبر النبات وارتفع كلما قلت كمية أشعة الشمس التى تصل إلى سطح التربة ، لذلك فإن أعلى درجة حرارة لا تكون عند التربة مباشرة وإنما على ارتفاع منها<sup>(١)</sup> .

(١) Sutton, O. G., «The Challenge of the Atmosphere», New York, 1961, pp. 159—179.

ويظهر من الرسم أن القمح قد حصد في ٢٦ يولية لذلك فإن الخط البياني الأخير وهو خاص بالفترة من ٢٦ يولية إلى ١٢ أغسطس يوضح تناقص الحرارة بالارتفاع Lapse Rate على تربة عارية . أما تناقص الحرارة بالارتفاع أثناء الليل فهو موضح في الجزء الثاني من شكل ٤ ، ومنه يتضح أن الأحوال عكس ما يوجد أثناء النهار ، فعندما يكون النبات قصيرا أو معدوما فإن أقل درجات حرارة أثناء الليل تسجل عند سطح التربة مباشرة . وعندما يكبر النبات فإن أقل درجات حرارة تسجل على ارتفاع يقع بين سطح التربة وقمة النبات وذلك لسببين الأول أن الحرارة المفقودة لا تأتي من قمة النبات فقط ولكن من الأجزاء السفلى منه أيضا لأن قمم النبات لا تمثل سطحا مستويا متصلا ، والسبب الثاني هو أن الهواء الذي يوجد عند قمم النبات عندما يبرد فإنه يهبط من مكانه قليلا ولكنه لا يصل إلى سطح التربة كما أن سطح التربة نفسه لا يمثل السطح الأساسي للاشعاع الأرضي لأنه مغطى بالنبات . لكل هذا فإن أقل درجات حرارة أثناء الليل في حقل القمح توجد في منتصف المسافة تقريبا بين سطح التربة وقمة عيدان القمح (١) .



ويختلف توزيع الحرارة في المزارع المختلفة إذا كانت النباتات من نوع آخر غير القمح ، فقد سجلت أعلى درجات حرارة في حديقة زهور عند قمم النباتات تماما

(١) United States Department of Agriculture, «Climate and Man», 1941, «S. C. Salmon : Climate and Small Grains», pp. 321-342,

إذ أن أوراق الزهور تكون مسطحة متصلاً يقوم مقام سطح التربة ويختلف عن سطح عيدان القمح ، لذلك فإن سطح الزهور هو الذى يستقبل معظم أشعة الشمس الواردة وهو الذى يشع هذه الأشعة بدوره على هيئة موجات طويلة إلى الفضاء .

كذلك الحال بالنسبة للغابات حيث أن تيجان الأشجار تقوم بدور سطح الأرض فى استقبال أشعة الشمس وإشعاعها . وأعلى درجات حرارة خلال النهار فى مناطق الأشجار توجد عند قمم الأشجار ثم تقل الحرارة نحو سطح الأرض الذى يوجد فى الظل ، أما فوق قمم الأشجار فإن الحرارة تقل بالمعدل العادى ، وفى أثناء الليل يكون الهواء فى الغابة أدفاً من الهواء فى العراء ذلك لأن الهواء داخل الغابة يكون محبباً بواسطة جذوع الأشجار ، وأثناء النهار يكون الهواء داخل الغابة أبرد من الهواء فى العراء وذلك بسبب الظل الذى توفره الأشجار وبسبب ضياع جزء من الحرارة فى عملية التبخر . لذلك فإن الغابات تنشئ فى المناطق التى توجد بها نظاماً شبيهاً بنسيم البحر والبر حيث تقوم الغابة فى هذه الحالة بدور البحر . أما من ناحية الرطوبة فإنها تكون أعلى فى مناطق النباتات عنها فى المناطق العالية وذلك بسبب ارتفاع كمية التبخر فى مناطق النباتات .

خاتمة : وهكذا نجد كيف أن الأحوال الجوية والمناخية فى النطاق المحدود القريب من سطح الأرض بما فيه من تفاصيل طبوغرافية ونباتات ذات أهمية كبيرة كما أن بها الكثير من الدقائق التى تخفىها الدراسة المناخية الإقليمية . ولا شك أن دراسة المناخ التفصيلية تحتاج إلى التجارب الخاصة التى تجرى فى منطقة البحث لأن القياسات التى تحتاجها لا تأتي عن طريق المراصد الجوية العادية . ولا بد لى يتقدم علم المناخ والدراسات المناخية من الاهتمام بالمناخ التفصيلي ، إذ علاوة على أهميته من الناحية الأكاديمية فإن له أهمية لا تنكر من الناحية التطبيقية .

تم طبع هذه المجلة بالهيئة العامة  
للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة  
جامعة القاهرة - في يوم الخميس  
الوافق ٣٠ من مايو سنة ١٩٦٨ .  
مدير المطبعة  
أحمد سلامة

18. II, 33.
19. Auf diese syntaktischen Eigentümlichkeiten weist Baumann hin : 1, S. 312, 2, S. 427.
20. III, 809.
21. s. «Skizze der Erkenntnis des Dichters», III, 781-785 ; dieselbe Scheidung in zwei Bereiche erfolgt auch im Abschnitt V des Essays «Ansätze zu neuer Ästhetik» (III, 672-674).
22. U. Karthaus hat einige Schritte dieser Entwicklung nachgezeichnet (a.a.O. S. 73-117).
23. II, 18 und II, 137.
24. II, 723.
25. Baumann 2, S. 423, Karthaus S. 82.
26. II, 81.
27. E. Wilkins und E. Kaiser schreiben, dass Musil das Symbol der Brücke häufig verwendet (R. Musil, Leben, Werk, Wirkung, Hamburg 1960, S. 168.)
28. II, 69-73.
29. H. Brothaus : Musils «wahre Antithese» in : Wirkendes Wort 14, 1964, S. 127.
30. Baumann 1, S. 303, Baumann 2, S. 433.
31. II, 71.
32. Ebda.
33. z. B. II, 17 und II, 20 f.
34. z. B. II, 33, II, 86, II, 118 f.
35. II, 143 f.
36. Was P. Nusser in seiner Dissertation «Musils Romantheorie», Göttingen 1963, unterlassen hat.

ausserdem von diesem Bretling auf das spätere Hauptwerk (36), so erweist sich erst recht die grossartige Geschlossenheit von Musills Oeuvre, moegen auch entscheidende Modifikationen (wie das Prinzip des Essayismus, die satirischen und ironischen Momente) noch fehlen. Der «Toerless» schildert ein Loch im Denken als Darstellung eines individuellen Sonderfalles, waehrend Ulrich, der Mann ohne Eigenschaften, sein Leben auf Grund der Einsicht in die universale Doppelheit einzurichten versucht. Im «Mann ohne Eigenschaften» wird—um ein letztes Mal das Bild zu beanspruchen—die Konstruktion einer Bruecke ins Imaginaer—Utopische unternommen.

### Anmerkungen

Die Werke Musills werden nach der Ausgabe von A. Frisé zitiert als : Prosa, Dramen, Spätere Briefe, Hamburg 1957—II, Tagebuecher, Aphorismen, Essays und Reden, Hamburg 1955 — III.

1. R. Minder : Kadettenhaus, Gruppendynamik und Stilwandel von Wildenbruch bis Rilke und Musil, in : R. M. Kultur und Literatur in Deutschland und Frankreich, Frankfurt 1962.
2. III, 285, vgl. auch III, 776.
3. III, 803.
4. So insbesondere die Rezensionen nach dem Erscheinen ; vgl. III, 807 und II, 723.
5. W. Berghahn : R. Musil in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten, Hamburg 1963, S. 27-34.
6. R. Minder und W. Berghahn a.a.o.
7. Einzig G. Baumann hat in seinen beiden Aufsätzen : R. Musil, eine Vorstudie, GRM, N. F. III, 1953, S. 292-316 (im folgenden als Baumann 1 zitiert) und : R. Musil, Die Struktur des Geistes und der Geist der Struktur, GRM, NF, X, 1960, S. 420-442 (=Baumann 2) wichtige Anregungen zu einer werkimmanenten Interpretation des «Toerless» gegeben.
8. Rahmen wird hier nicht im streng literaturwissenschaftlichen, sondern im alltaeglichen Sinne verwendet. Der «Toerless» ist keine Rahmenerzaehlung, da beide Teile auf derselben erzaehterischen Ebene sich abspielen.
9. III, 809.
10. Baumann 1, S. 294.
11. III, 783.
12. Baumann 1, S. 302 sowie B. Pike : R. Musil, Ithaka 1961, S. 47.
13. II, 786.
14. U. Karthaus : Der andere Zustand, Berlin 1965 (Philolog. Studien und Quellen, Heft 25).
15. a.a.O. S. 79-87.
16. a.a.O. S. 79
17. II, 26 ff., 32 ff., 40 ff.

Aehnliches » ... Situationen, wo der Zusammenhang versagt, der sonst unser Leben lueckenlos in unserem Verstand sich abspielen laesst, als liefen sie parallel und mit grosser Geschwindigkeit nebeneinander her » (32). In einer Zwischenbemerkung deutet Musil analysierend dieses Phaenomen, wie er ueberhaupt nie die Tatsache, dass ein Erzaehter am Werke ist, zu verschleiern sucht : oefftens treffen wir Reflexionen des Autors (33) sowie Vorgriffe (34) auf spaeteres Geschehen, welche die Position des allwissenden Autors markieren. Schliesslich rueckt das Erlebnis des Doppelsinnes der Wirklichkeit die Toerless umgebenden Gegenstaende in eine unheimliche Entfernung, in der sie ein bedrohliches, weit jeder Kommunikation entzogenes Dasein fuehren. Einzig der Schlag des eigenen Herzens verbuergt Kontinuitaet und Verlaesslichkeit. In dieser Entfremdung ist die Rueckkehr zum alltaeglichen Umgang mit der Wirklichkeit vorbereitet, mag diese nun auch geheimnisvoller und respektgebietender geworden sein. Toerless hat durch diese seine schmerzliche Erfahrung einen weiteren Schritt zu der Erkenntnis gemacht, die er am Schluss zu formulieren vermag : «Ich weiss, die Dinge sind die Dinge, und werden es wohl immer bleiben ; und ich werde sie wohl immer bald so, bald so ansehen. Bald mit den Augen des Verstandes, bald mit den anderen ... Und ich werde nicht mehr versuchen, dies miteinander zu vergleichen ...» (35) So setzt denn die folgende Szene wieder mit einer alltaeglichen Erfahrung ein, die einen neuen «mutierten» Augenblick vorbereitet und dadurch den Erkenntnisprozess weitertreibt.

So uebt das Gesetz des Romans seine Kraft auch in der einzelnen Szene aus, indem es ihn immer wieder vom Bereich des bloss Faktischen befreit und ihn in jenes Reich des Moeglichen weist, das den einzig der Poesie angemessenen Spielraum darstellt. Beispiele zu liefern aus dem nichtratioiden Gebiet, wo die Ausnahme ueber die Regel herrscht, wo alles unendlich variabel ist und neue Konstellationen sich bilden : diesen Anspruch, den Musil an die Dichtung stellt, vermag er mit seiner neuen Form des Romans zu bewaeltigen. Zwar dringt traditionelle Erzaelweise immer wieder durch, im Rahmen staerker als im Hauptteil, was zur Rubrizierung unter die Erziehungsromane ebenso verleiten moechte wie die oberflaechliche Betrachtung der Darstellung von inneren Zustaaenden unter die des psychologischen Romans. Die Einheitlichkeit des Werkes, seinen Kunstcharakter, negieren beide Betrachtungsweisen, weil sie sich der asketischen Erfuellung eines Kunstgesetzes verschliessen. Blickt man

Dass dies auch auf die einzelne Episode zutrifft, sei an einem—allerdings zentralen—Beispiel (28) erläutert. Die Schilderung fuehrt als Ausgangspunkt in bewachter Weise Umwelt (Park im Spaetherbst) und Stimmung des Helden (Unruhe) vor. Toerless hat sich von seinen Kameraden abgesondert (H. Brosthaus hat darauf aufmerksam gemacht, dass schon in «Monsieur le vivisecteur» die Einsamkeit das «Abenteuer der Introspektion» (29) foerdert) und legt sich ins Gras, um sich seinen Meditationen zu ueberlassen. Damit ist der Absprung vorbereitet und die Motivation fuer den Umschlag in den «anderen Zustand» geliefert. Dieser setzt mit einem ploetzlichen Erschrecken ueber einen bisher unproblematischen, selbstverstaendlichen Tatbestand ein : die Unendlichkeit des Himmels ueber ihm reisst ihn aus seinen Gedanken heraus und entzieht ihm den festen Grund. Hier tauchen die erwachten syntaktischen Mittel der drei Punkte sowie des gehaeuften Und-Einsatzes auf, welche die gleitenden Uebergaenge im simultanen Kontinuum markieren sollen. Toerless fuehlt sich ausgeliefert, weil er der Sphaere rationaler Deutbarkeit entrueckt ist. Zwar versucht er sich dem Sog des Unheimlichen durch rationale Konstruktion zu entziehen, die er sich einzureden versucht, um das Loch im Denken, das sich ihm so jaeh aufgetan hat, zu ueberdecken. Aber Denken wie Sprache versagen angesichts seiner Erfahrung (Baumann hat mit Recht auf die Naechte zum Chandosbrief des jungen Hofmannsthal aufmerksam gemacht) (30). Ein ueber alle Erfahrung und Vernunft Hinausreichendes beherrscht ihn so sehr, dass er jeden Zusammenhang mit der Umgebung zu verlieren droht. Dem drohenden Verlust der Persoenlichkeit stellt Toerless Erinnerungen entgegen, die ihm seine Identitaet zu garantieren vermoegen. Allerdings korrespondieren diese Erinnerungen darin miteinander, als sie die Wirklichkeit als bruechige ueberliefern. Sie bestaerken dadurch in gewisser Weise noch die Verwirrungen. Die Erkenntnis der Doppelheit von Wirklichkeit, so klaren sie den Verwirrten auf, war seit seiner Kindheit in ihm angelegt und bricht sich nun unter diesen bestimmten Umstaenden Bahn. Die Leere des unendlichen Himmels, der Diebstahl Basinis und die imaginaeren Zahlen erweisen sich als Phaenomene derselben verwirrenden Ordnung, die ihn sogar in die Gefahr bringt, die beiden Erscheinungsweise nicht mehr miteinander in Beziehung setzen zu koennen : «Es kam wie eine Tollheit ueber Toerless, Dinge, Vorgaenge und Menschen als etwas Doppelsinniges zu empfinden. Als etwas, das durch die Kraft irgendwelcher Erfinder an ein harmloses, erklaerendes Wort gefesselt ward, und als etwas ganz Fremdes, das jeden Augenblick sich davon loszureissen drohte.» (31). Dass ihm aber die Welt doch nicht schizophren auseinanderbricht (wie im «Mann ohne Eigenschaften» oder Clarisse), deutet der folgende Abschnitt an, wo Toerless seiner Vernunft wieder maechtig ist, obgleich er deren Inkonsequenz, ja Unzulaenglichkeit aufs schmerzlichste empfindet. Er spinnt sich ganz in Erinnerungen ein, zurueckgezogen in seine Einsamkeit, und findet dort abermals



die Selbstverstaendlichkeit der verlaesslichen Wirklichkeit und macht einer ungesicherten, fremden, drohenden und dennoch merkwuerdig verlockenden Welt Platz. Die beiden Erscheinungsweisen der Welt miteinander in Beziehung zu bringen, den Zusammenhang zwischen Aussen- und Innenwelt anzuerkennen, ist die Aufgabe, an der Toerless zu scheitern droht. Die Spaltung umfasst die Totalitaet der ihm entgegentretenden Erscheinungen. Am ausfuehrlichsten werden die an den Diebstahl Basinis sich anschliessenden sexuellen Verwirrungen dargestellt, wobei aber die homoerotische Komponente eine akzidentielle, und nicht die primaere Absicht des Verfassers darstellt: Musil betont mit Recht, dass an Stelle Basinis ebenso eine Frau, an Stelle der Knabenliebe eine andere geschlechtliche Verirrung haette stehen koennen (24). Das Entscheidende liegt in der Verwandlung: die harmlos-normale Alltagswelt der Schule erweist sich als Reservoir perverser Triebe, anstaendige Kameraden entpuppen sich als Diebe und Sadisten, und Toerless selbst muss zu seiner Verwunderung feststellen, dass auch seine moralischen Grundlagen nicht so gefestigt sind, dass er sich aus allem herauszuhalten vermoechte. Selbst vor mathematischen und philosophischen Wahrheiten macht diese Gespaltenheit nicht Halt, auch sie enthuelen ein Doppelgesicht. Besonders klar vermag Toerless das Problem angesichts seiner Spekulationen ueber die imaginaeren Zahlen zu formulieren, ein Passus, der von vielen Autoren (25) mit Recht als eine Kernstelle Musilscher Dichtung zitiert wird: diese an sich nicht existierenden Faktoren vermoegen eine Rechnung, in der die wirklichen Zahlen nicht mehr weiterfuehren, zu loesen. Aus dieser Paradoxie vermag den verwirrten Toerless der um Rat angegangene Lehrer nicht zu befreien, der sich mitangelesenen Kant-Floeskeln aus der Affaere zu ziehen versucht. Toerless bannt den Sachverhalt in ein praegnantes Bild: «In solch einer Rechnung sind am Anfang ganz solide Zahlen, die Meter, oder Gewichte oder irgend etwas anderes Greifbares darstellen koennen und wenigstens wirkliche Zahlen sind. Am Ende der Rechnung stehen ebensolche. Aber diese beiden haengen miteinander durch etwas zusammen, das es gar nicht gibt. Ist das nicht wie eine Bruecke, von der nur der Anfangs- und Endpfeiler vorhanden sind und die man dennoch so sicher ueberschreitet, als ob sie ganz dastuende?» (26) Dieses Bild benennt zugleich die Struktur des Romans und verdeutlicht unsere Scheidung in Rahmen und Hauptteil: wie die Bruecke sich vom festen Ufer aus ueber den leeren Raum schwingt, so bewegt sich der Roman ueber den Abgrund des Moeglichen, der alles Wirkliche erst konstituiert. Doch nicht nur die Grosseform, auch die Kleinstruktur wird durch dieses Ueberspringen der Wirklichkeit gekennzeichnet. Die einzelnen Episoden fuehren immer wieder in jenen «anderen Zustand», wo die Verlaesslichkeit des Wirklichen sich aufluest und erst nach seiner Infragestellung rehabilitiert wird. In solcher Analogie laesst sich das Bild der Bruecke (27) auf die Struktur des Romans uebertragen: sein Gesetz liegt in der Verbindung von Festem und Ungesichertem, in der Bewegung von Ausbruch und Rueckkehr.

untersucht und sich die ersten Mittel zu dessen Verwirklichung verschafft (22). Die Universalisierung des Moeglichkeitsprinzipes (mit seinen notwendigen Korrelaten des Essayismus und der Ironie) vollzieht er erst im Hauptwerk. Dennoch darf nicht uebersehen werden, dass in der Abkehr des Psyc hologischen als eines bloss differenzierteren Mittels der Realitaetsabbildung sowie in dem Versuch einer mehr auf das Flaechenhaft-Simultane von Zustaenden zugeschnittenen Erzaelweise uns das Musilsche Kunstprinzip in statu nascendi entgegentritt. Musil gestaltet im «Toerless» einzelne Augenblicke, welche als verwirrende Erfahrungs einen Pubertierenden heimsuchen, die dieser aber ueberwinden wird (zweimal, am Anfang und am Ende, wird dafuer das Bild des Baumes (23) gebraucht, womit ein Zusammenhang des Rahmens im Sinn von Aufgabe und Erfuellung gestiftet wird). Die Beschraenkung auf einen individuellen Fall wird Musil in seinem Hauptwerk sprengen, wo die Verwirrungen zur Signatur einer Epoche ausgeweitet werden.

So ergibt eine Inhalts- wie eine Zeitanalyse denselben Sachverhalt einer Scheidung in zwei Bereiche, wie sie Rahmen und Hauptteil konstituieren. Dort wird in traditioneller Weise Faktisches am Faden der fortlaufenden Realzeit erzahlt, hier werden die Bedingungen des Tatsaechlichen in der mehrschichtig-simultanen Erzaelweise von einzelnen aus der Realzeit ausbrechenden Augenblicken analysiert. So wird nicht bloss der Aufbau, sondern ebenso das Erzahlen durch das Gesetz der Scheidung in Rahmen und offenes Experimentierfeld bestimmt. Die Bewegung des Romans vollzieht sich nach demselben Gesetz : ausgehend von einer faktischen, raum-zeitlichen Realitaet erfolgt der Abstoss in den Bereich des Vorfaktischen, des Vielfaeltig-Moeglichen, dem notwendig ein Rueckfall in die Wirklichkeit folgt. Dabei wird den Uebergaengen grosse Bedeutung zugemessen. Die Bewegung vom Wirklichen zum Moeglichen und von diesem zurueck in eine nun reichere Wirklichkeit gilt aber nicht nur fuer die Grosseform, sondern ebenso fuer die Feinstruktur. Bevor wir das an einer Stelle ausfuehrlicher nachweisen, muss noch auf eine weitere Besonderheit von Musils «Toerless» aufmerksam gemacht werden.

Die Scheidung in zwei Bereiche, das Zusammen und Gegeneinander von Wirklichkeit und Moeglichkeit wird im Roman selbst thematisiert. Der «Toerless» erfuehlt sich als genaue Entsprechung zu seinem eigenen Problem. In staendig neuen Ueberlegungen, Diskussionen und Formulierungsversuchen (Toerless beginnt sogar eine eigene Abhandlung zu schreiben) wird um diese Scheidung gerungen. Was im Roman selbst vorgetragen wird, bestimmt dessen Struktur bis in den Aufbau der einzelnen Szenen und die syntaktische Struktur. Die Verwirrungen des Internatszueglings bestehen darin, dass die Realitaet ihre Konstanz verliert. In den von ihm erlebten Augenblicken verschwindet

dem Internat in der zeitlichen Reihenfolge der Ereignisse erzählt (wobei besonders am Anfang einige Rueckgriffe den Expositionscharakter verstaerken). Der Anfangsteil stellt einen halben Tag, der Schlussteil ca. zehn Tage dar. Im Hauptteil aber laesst sich die Zeitdauer nicht mehr bestimmen : er mag Tage, Wochen oder gar Monate dauern : das Entscheidende geschieht ausserhalb der kalendarischen Zeit. Bewusst verschleiert Musil die Spuren einer zeitlichen Fixierung, indem er die meisten neuen Binsaeetze mit einer indifferenten oder bloss relativen Bestimmung einleitet wie «am naechsten Tag », «so kam es, dass...», «es kamen zwei Feiertage . . .», «spaeter» etc. Diese vagen Anhaltspunkte bereiten nur jenes Abstossen von der aeusseren Wirklichkeit vor und werden sogleich bedeutungslos im Vergleich zu den ausserhalb der Realzeit sich abspielenden Vorgaengen. Der Faden, an dem eine Erzaehlung sich abzuwickeln pflegt, wird so aufgedroeselt, die praegnanten Augenblicke, auf deren Darstellung sich der Hauptteil beschraenkt, sind gerade durch das Ausbrechen aus der ueblichen Zeiterfahrung gekennzeichnet. Ihrer Verschraenkung von Vergangenheit, Gegenwart und Zukunft, von Erinnerung, Stimmung und Ahnung sucht Musil durch ein Erzaehlen gerecht zu werden, das sich nicht mehr eindimensional, sondern simultan-flaechenhaft ausbreitet : die mutierten Augenblicke werden in ihre Verfaserungen, in die feinsten Veraestelungen hinein verfolgt. Freilich muss, was Sprache nicht anders leisten kann, Simultanes neben- und nacheinander entfaltet werden, sodass solche (in der Realzeit vielleicht nur Sekunden dauernde) Zustaeude nun mit groesserer Intensitaet und Praezision geschildert werden als Handlungsablaeufo, die sich ueber Stunden hinziehen. Musils Vorliebe fuer die langgezogenen «Gedankenstriche» und jenes Ausstroemen der Saetze in drei Punkte, die fuer den «Toerless» eben so charakteristisch sind wie die haeufigen Und-Einsaeetze werden von deher varstaendlich. Nur im Nacheinander vermag Sprache einen Zustand zu artikulieren, der in all seinen Manifestationen sich gleichzeitig ereignet. Hier waere vielleicht an den Ausspruch Musils zu erinnern, der daruuf, wie streng dieser sich an das Kunstgesetz zu halten wusste : «...selbst die Interpunktion gliederte den Inhalt nicht fuer den Leser, sondern fuer das gewachte Gesetz» (20). Dieser erste Versuch einer flaechenhaften Erzaehlweise wird freilich noch nicht zu einem grossen Gewebe ausgebreitet wie im «Mann ohne Eigenschaften», sondern bleibt in den Rahmen der fixierten Raum- und Zeiterhaeltnisse als stets neues Ausbrechen daraus eingespannt. Doch vermag allein solches Ausbrechen jene Zusammenhaenge von psychischen und geistigen Mechanismen sichtbar zu machen, welche die eigentliche Aufgabe des Romanciers darstellen. Vom festen, durch seine Unveraenderlichkeit uninteressanten Bereich des Faktisch-Wirklichen springt der Kuenstler in das Gebiet des Moeglichen, wo jene Kraefte walten, die das Handeln erst motivieren (21). Dieses Kunstprinzip hat Musil im «Toerless» erstmals auf seine Tragfaehigkeit hin

Mit vollem Recht, denn seine Intention geht auf Darstellung von geistigen Faktoren innerhalb des «nichtratioiden» (11) Gebietes aus, das allein er der Dichtung zumisst. Parallel zu der Zurueckdraengung des Faktischen laeuft ein Verzicht auf Anschaulichkeit, sodass etwa die aeussere Gestalt von Toerless (12) ausserhalb der Absicht von Musil liegt; die Physiognomie ist gegenueber der seelischen Strukturierung bedeutungslos. So wird Beschreibung ueberall dort als ueberfluessig ausgespart, wo sie nicht geistig Relevantes zu foerdern vermag. Auch darin erweist sich Toerless als juengerer Bruder des Mannes ohne Eigenschaften.

In solchen Versuchen, hinter die Wirklichkeit von Figur und Handlung vorzustossen, manifestiert sich ein Abruecken vom traditionellen Roman, im Bestreben, innere Zustaeude darzustellen und geistige Gesetzmlichkeiten aufzuweisen, wird der Ansatz Musils zu einer neuen Form des Romans fassbar, der eine hoehere Aufgabe zu erfuellen hat: der Roman soll nicht mehr unterhalten, sondern Beitrage liefern zur geistigen Bewaeltigung der Welt (13). In dem Ungenuegen an der ueberlieferten Romanform treffen sich Musils Bemuehungen mit jenen Ausbruchversuchen Rilkes, R. Walsers, Benns und Kafkas aus denselben Jahren. Freilich hat Musil erst in seinem Hauptwerk, dem «Mann ohne Eigenschaften», die Konsequenzen aus seiner Kunsttheorie gezogen, doch zeugt insbesondere der Mittelteil des Toerlessromans von seinem Willen zur Erneuerung.

Die analytische Aufloesung des Handlungszusammenhanges, die Sprengung des Erzahelgefueges, die Teilung in Rahmen und Hauptteil lassen sich praezisieren durch eine Analyse der Zeitverhaeltnisse. U. Karthaus hat in seiner Arbeit «Der andere Zustand» (14) Zeitstrukturen im Werk Musils untersucht und ist dabei auch kurz auf den «Toerless» eingegangen (15). Er hat festgestellt, dass das lineare Zeitkontinuum aufgehoben wird zugunsten einer «mutierten» (16) Zeit. Die den herkoemmlichen Roman strukturierende Zeitfolge wird in einzelnen praegnanten Augenblicken dissoziiert, welche Vergangenheit und Zukunft vereinen. Die Analyse solcher ausserhalb des normalen Bewusstseins liegender Augenblicke, deren Entstehung an bestimmte Dispositionen, Stimmungen, Erinnerungen, Umwelteinfluesse etc. gebunden ist, stellt Musil im Hauptteil dar. Die Aufloesung des Zeitkontinuums entspricht damit genau dem Zurueckdraengen des Faktischen und ist im Hauptteil besonders weit vorangetrieben. Eine Zeitanalyse laesst sich hier kaum mehr durchfuehren, wohl aber im Rahmen, wenngleich auch da schon Dissoziiierungen auftauchen. So erlebt Toerless etwa in der Konditorei und bei Bozena Augenblicke, die ueber die gewohnte Zeiterfahrung hinaus den Zusammenhang der Realitaet in Frage stellen (17). Zu einer eigentlichen Aufloesung des Zusammenhanges kommt es indessen noch nicht, sondern diese Erfahrungen bleiben «vorlaeufig» und «erste Andeutungen» (18). So werden der Abschied von den Eltern wie der Austritt aus

Funktion ungefähr dem Gedankenstrich. Mit diesem sozusagen typographischen Befund stimmt nun der innere Aufbau des Romans keineswegs überein. Dieser gliedert sich deutlich in drei Teile : der erste (II, 15-44) schildert als Exposition den Nachmittag und Abend der Abfahrt von Toerless' Eltern, die ihren Sohn besucht hatten und berichtet vom Aufenthalt der beiden Freunde Toerless und Beineberg in der Konditorei sowie deren Besuch bei der Dirne Bozena. Der mittlere Teil (II, 44-129) stellt die eigentlichen Verwirrungen des jungen Toerless anhand der Geschichte vom Diebstahl und der Bestrafung Basinis dar, während der Schlussteil (II 129-146) das Fazit zieht und den Austritt Toerless' aus der Anstalt bringt. Doch versammelt Musil alles Interesse auf den Hauptteil (85 Seiten gegenüber 29 bzw. 17 Seiten), in welchem die Handlung weit stärker zurücktritt als im Rahmen (8). Hier bemüht er sich, das Geschehen auf seine geistigen Komponenten hin zu untersuchen, seinen Bedingungen nachzuspüren, während im Rahmen der chronikale Erzählton des traditionellen Romans vorherrscht. Schon aus diesem Befund ergibt sich ein Übergewicht der geistigen Analyse über das Äusserlich-Handlungsmaessige, hier bereits wird Musils Weg sichtbar, der vom Realismus des Romans wegstrebt («vom Realismus zur Wahrheit» (9) fordert er selbst einmal), um diesem neue, geistigere Bereiche zu erschliessen. Er nimmt im Mittelteil innere Zustände, Gedanken und Gefühle in ihren merkwürdigen Verbindungen unter die Lupe im Hinblick auf ihre Gesetzmässigkeiten. Der Aufbau des «Toerless» erfolgt also bereits nach der von Baumann getroffenen Bestimmung : «Handlungen sind ja bloss die eindeutig erkennbaren Gipfelungen, während das flächenhaft Zuständliche noch das vieldeutig Mögliche birgt» (10).

Welche Konsequenzen ergeben sich nun aus dieser Auffassung von Dichtung? Das auf Darstellung von Handlung ausgerichtete traditionelle Erzählen musste erweitert, die Romanform modifiziert werden. Musil droesselt den Faden der kontinuierlichen Zeitfolge auf, die Zug um Zug der Handlung berichtet, indem er die geistig-seelischen Konstellationen, die das Handeln erst bedingen, aufzuzeigen versucht. Es werden, insbesondere im Mittelteil, nur noch einzelne, prägnante Momente ausgewählt, welche die Analyse des inneren Zustandes ermöglichen und begründen, so dass die Episoden zu blossen Stützen des Autors herabgewürdigt werden, zu einem Vorwand, der sie ihrer Eigenständigkeit beraubt. Die ganze Diebstahlgeschichte wird nur in jenen Momenten vorgetragen, in denen sie relevant ist für den Zustand von Toerless. Das Nachzeichnen von inneren Zuständen, mit denen verglichen die ausgelassenen Handlungen bedeutungslos erscheinen, geschieht freilich in anderer Weise als im psychologischen Roman, wo die Erläuterungen des Autors die Wahrscheinlichkeit der Handlungsweise des Helden einsichtiger machen. Doch hat sich Musil immer entschieden dagegen verwahrt, dem Psychologismus zugerechnet zu werden.

## LOECHER IM DENKEN

### Zur Struktur von E. Musils Roman «Toerless»

CHRISTOPH SIEGRIST

Der erste Blick truet : was man bequem als psychologische Pubertaetsstudie in die Umgebung von Wildenbruch, Wedekind, Th. Mann und Rilke einweisen zu koennen glaubte (1), wird vom Autor ausdruecklich verworfen : «Die reale Erklaerung des realen Geschehens interessiert mich nicht. Mein Gedaechnis ist schlecht. Die Tatsachen sind ueberdies immer vertauschbar. Mich interessiert das geistig Typische, ich moechte geradezu sagen : das Gespenstische des Geschehens. (2)». Wie weit ist diese spaetere Bemerkung Musils schon fuer seinen Erstling relevant, inwiefern hat er diese These im Roman verwirklicht ? Wie verhaelt es sich mit der von ihm postulierten Bedeutungslosigkeit des Stoffes : «Kurz ehe ich die Verwirrungen des Zoeglings Toerless zu schreiben begann ..., habe ich diesen «Stoff verschenkt», d. h. alles, was in der Geschichte an «Milieu», an «Realitaet» und «Realismus» vorkam ... Als ich ein Jahr spaeter selbst nach dem Stoff griff, geschah es buchstaeblich aus Langeweile ... bis zum heutigen Tag kommt das, was ich erzaehle, fuer mich erst in zweiter Linie ... Die Wahrheit war, dass ich auf den vorgelegten «Stoff» selbst gar keinen Wert legte»(3). Haben sich aber—wenn Dekor und Handlung tatsaechlich jene Zufaeligkeit aufweisen—die bisherigen Wuerdigungen (es sind nur wenige), die auf psychologische Deutung (4), auf Erhellung aus der Biographie (5) und auf motivgeschichtliche bzw. soziologische Zusammenhaenge (6) aus sind, nicht auf einen der Intention des Verfassers gerade entgegengesetzt laufenden Pfad begeben, der an der Absicht des Autors vorbeifuehrt ? (7) Es sei im folgenden versucht, die von Musil angelegte Faehnte zu verfolgen und dem Roman staerker als bisher von seinem Aufbaugesetz her beizukommen. Ohne vorgepraegte Muster vorschnell als Maestaeb anzulegen, moechten wir dem Gesetz des Romans aus dessen eigenen Voraussetzungen her nachspueren.

Der «Toerless» weist keine Hinteilung in Kapitel auf, sondern gleitet in einem Zuge fort, unterbrochen durch Absaetze, die einen etwas groesseren Abstand aufweisen als gewoehnlich. Die haeufig auftretenden Striche ueber die ganze Seite hin trennen nicht einzelne Kapitel, sondern entsprechen in ihrer



97. PAUQUEVILLE : op. cit., p. 549 — — — DEPPING : op. cit., I, p. 19 — —  
HEYD : op. cit., II, p. 485.
98. DARRAG (A) : Djem-Sultan et la diplomatie internationale (en arabe), dans Bull. Soc. Egypte des Etudes Historiques, VIII, 1959, pp. 234-335.
99. Philippe de Peretz, Barcelonais d'origine, fut nommé cette même année (1498) consul de Catalans à Alexandrie. Il occupa ce poste jusqu'à sa mort en 1525. Voir :  
— CAPMANY : *Memorias historicas sobre la marine commercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, Madrid 1779—1792, T. II, pp. 307—308, Charte No. CCXII.  
— SALLES : Le origines des premiers consulats de la nation française, dans RHD, T. X, p. 16.  
— HEYD : op. cit., II, p. 539.
100. HEYD : op. cit., II, p. 496 (D'après le consul vénitien à Alexandrie en 1498).  
— — — Arnold von Harff, celui-ci de passage à Alexandrie (1496—1499) signale la même observation (Voir : *The pilgrimage of Arnold von Harff (1496—1499)*, ed. Malcolm Letts, p. 95).
101. IBN IYĀS : *Bada'i al-zuhur fi waqa'i al-duhūr*, éd. KAHLE et Mustafa, Iṣtambul, T. IV, p. 146.  
— WIET (G) : *L'Egypte rabe*, p. 622.
102. Le voyage d'Outre-mer de JEAN THENAUD, éd. Ch. Schefer, Paris 1884, p. LV-LVI.
103. IBN IYĀS : *Bada'i al-Zuhur*, T. IV, p. 185, 191-192, 195, 196, 199.  
— Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LVI-LVII.  
— VAN BERCHEM : *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, Syrie du Sud, Jérusalem «ville», I, p. 400.  
— WIET : op. cit., p. 621.
104. Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LVIII-LIX.
105. IBID : pp. LX-LXII — — — HEYD : op. cit., II, pp. 539-540.
106. Le voyage d'Outremer de JEAN THENAUD, pp. LXIV-LXV.
107. IBN IYĀS : *Bada'i al-Zuhur*, IV, p. 255, 257, 268.  
— Le voyage d'Outremer, pp. LXXVII-LXXVIII.  
— VAN BERCHEM : op. cit., I, pp. 400-401.  
— WIET : op. cit., pp. 625-627.  
— HEYD : op. cit., II, p. 540.
108. L'ambassadeur vénitien arriva au Caire le 23 safer 918/15 mai 1512. Sur sa mission Voir :  
— IBN IYĀS : op. cit., IV, p. 259, 268-269.  
— Le Voyage d'Outremer, pp. LXXVII-LXXXIII, 180 et suiv.  
— VAN BERCHEM : op. cit., I, p. 401.  
— WIET : op. cit., pp. 627-628.
109. FAMEN (C.) : *Histoire de la rivalité et du protectorat des églises chrétiennes en Orient*, Paris 1853, p. 189.  
— SALLES : Les origines des premiers consulats, RHD, T. X, p. 121.



77. Un des témoins dépose que J. Cœur possédait 7 galères qui devaient porter à chaque voyage de 16,000 à 20,000 ducats. Un autre dit que dans un voyage qu'il fit en 1445 sur la galère St. Denis on transporta 25,000 à 30,000 ducats. A Rhodés l'argent fut fondu et mis en plaquettes, poinçonnées d'une fleur de lys, mais il fruda sur le poids et les «Sarrazins» d'Alexandrie, auxquels fut délivrée cette mannaie de mauvaise aloi furent «mal contents et disaient qu'ils n'avaient point accoustumé voir telles tromperies». Sur ce point J. Cœur prétend qu'il n'a transporté dans le Levant que des monnaies étrangères et une très petite quantité de la monnaie française. (Voir DE BEAUCOURT : op. cit., p. 24, 26).
78. A propos de la restitution de cet esclave, J. Cœur allegua les empêchements qui sans cela seraient survenus pour la libre circulation de ses galères. Il n'avait agi, disait-il, que sur les plaintes des marchands et sur les observations du Grand Maître de Rhodes, et il ignorait que l'esclave était chrétien. (Voir Ibid : p. 22, 27).
79. Voir DE BEAUCOURT : Le procès de J. Cœur, p. 24, 26. — — — Histoire de Charles VII, vol. III, p. 222, note 8, p. 226.  
— — — CLEMENT : J. Cœur et Charles VII, vol. I, p. 12, note 3.  
— — — GUIRAUD : op. cit., p. 40.
80. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 440. — — — HEYD : Histoire du commerce, II, p. 485.
81. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 355.
82. CLEMENT : op. cit., p. 37.
83. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 355.
84. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 420 — — — HEYD : op. cit., II, p. 485 — — —  
PIGEONNEAU : op. cit., I, p. 366, 379.
85. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 356—357.
86. SPONT (A) : La bourgeoisie financière au début du XVI<sup>e</sup> siècle, Paris 1895, p. 4.  
— — — BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 357.  
— — — HEYD : op. cit., II, p. 484.
87. HEYD : op. cit., II, p. 485.
88. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, pp. 365—367.
89. IBN IYĀS : Histoire des mamelouks circassiens, T. II, (872—906. H.), traduite par G. WIET, Le Caire, 1945, p. 128-129.
90. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 367.
91. IBN IYĀS : op. cit., p. 134.
92. BARATIER et REYNAUD : Ibid.—Voir plus loin.
93. IBID : pp. 367—368.
94. IBID : p. 369, note 2.
95. HEYD : op. cit., II, p. 484, 485, 486.
96. SOTTAS : Les Messageries maritimes de Venise au XIV<sup>e</sup> et XV<sup>e</sup> siècles, Paris 1938, pp. 213-214.—(Felix Faber et Broydenbach trouvèrent la même année le fondouk des Catalans à Alexandrie à peu près vide mais le consul catalan était à son poste—Voir HEYD : op. cit., II, p. 486).

62. GUIRAUD : op. cit., pp. 55-56.  
 THOMAS : op. cit., p. 112 (ce droit lui donne la franchise dans les ports chrétiens du Levant.)
63. GUIRAUD : op. cit., p. 3.
64. Chronique de Mathieu d'Acouchey, éd., DE BEAUCOURT, I., pp. 121-124.  
 — GUIRAUD : op. cit., p. 53.  
 — HEYD : op. cit., II, p. 484. (Le consulat français n'était pas une création absolument nouvelle mais il semble que le poste serait resté longtemps sans titulaire).
65. IRISSOU (L.) : Les épiciers apothicaires et les poivriers de Montpellier dans le cadre communal au Moyen-Age, dans Bull. de Sciences pharmacologiques, 1931, p. 117, 120. (Il y avait à Montpellier trois corporations d'épices: les especieres «épiciers apothicaires», les perbiers sobeyrans «poivriers en gros», et les perbiers de marcs, et candeliers de cera «poivriers détaillant et chandeliers de cire».)
66. SALVADOR : op. cit., p. 101.  
 — THOMAS : op. cit., p. 115.  
 — IRISSOU : op. cit., p. 521.
67. FILOTTI (E) : L'Egypte au commencement du XVe siècle, éd. P. H. Dopp, Le Caire, 1950 pp. 57-75. (Nous ne savons pas exactement à quelle année pilotti quitta l'Egypte, mais il était là pendant la conquête de chypre et jusqu'à la mort de Barsbay (1438), Il partit de l'Egypte plein de haine et presente son ouvrage au Pape Grégoire IV à Florence en 1439).
68. Voir SALVADOR : op. cit., p. 157.
69. Pour le souk des draps au Caire Voir :  
 — Wiet : op. cit., p. 496.
70. L'étain et le cuivre d'Angleterre et d'Irlande arrivaient par la garonne jusqu'à Toulouse et de là on les transportait à dos de bête jusqu'aux ports de la Méditerranée où on les embarquait sur des vaisseaux Français pour Alexandrie. Ce circuit est ancien ; il est signalé pour Narbonne par Abul-Feda (Voir : DEVIC (M) : Les villes de la France méridionale au Moyen-Age, Paris 1882. pp. 10-11).
71. PIGEONNEAU : op. cit. I, p. 373.
72. CLÉMENT : op. cit., I, p. 12.  
 DE BEAUCOURT : op. cit., III, p. 487.  
 PIGEONNEAU : op. cit., I., p. 371.  
 MOLLAT : op. cit., I, p. 170.
73. Voir plus haut et plus loin.
74. LAVISSE : Histoire de France, T. IV., 2<sup>e</sup> partie, p. 163. (sur la traite des esclaves).
75. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, pp. 380. 394
76. Jacques Cœur invoque l'autorisation du roi et deux brefs des papes Eugène IV et Nicolas V portant congé à propos de la vente d'armes. (Voir DE BEAUCOURT : Le procès de J. Cœur, p. 22, 26 et note 8).

44. IBID : pp. 342-343.
45. IBID : p. 344.
46. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 4.
47. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 283, 345-346.
48. DE LA BROCQUIÈRE (B.) : op. cit., p. 32, note 1 — PORT : op. cit., p. 133.  
— HEYD : op. cit., II, p. 461.
49. GUIRAUD : op. cit., pp. 5-6, 38-39.
50. DE LA BROCQUIÈRE (B.) : op. cit., p. 32. — GUIRAUD : op. cit., p. 6.
51. THOMAS : op. cit., p. 7.
52. FIGEONNEAU : op. cit., I, P. 369, note 2
53. Dans les Sources Arabes ne figurent aucun fait relatif à l'activité commerciale des Français en Egypte pendant les règnes de Barsbay et de Gagmaq.
54. DE BEAUCOURT : Histoire de Charles VII, Paris 1881-1889, vol. III, p. 487.
55. GUIRAUD : op. cit., p. 101.
56. UBICINI : op. cit., p. 16 — CLÉMENT : op. cit., I, p. 44 — BIGEONNEAU : op. cit., I, p. 369.
57. THOMAS : op. cit., p. 110 — MOLLAT : Les Affaires de Jacques Cœur, Journal du procureur Dauvet I, Paris 1952, p. 6.
58. C'est la 1<sup>re</sup> date précise que les documents nous fournissent en ce qui concerne son activité commerciale en Egypte. Voir :  
— HEYD : Histoire du commerce, II, p. 491., note 4  
— CLÉMENT : op. cit., I, p. 140.  
— FIGEONNEAU : op. cit., I, p. 373.  
Sur les relations entre Venise et l'Egypte en 1441-1442 Voir :  
— JORGA (N) : Notes et extraits pour servir à l'histoire des croisades au XV<sup>e</sup> siècle, Paris, 1899-1902, T. III, pp. 68-69, 72-85, 89, 94 105.
59. DARRAG (A) : L'Egypte sous le règne de Barsbay, éd. Inst. Fr. de Damas, Damas 1961, p. 278.
60. CLÉMENT : op. cit., I, pp. 142-143.  
— PERIGOT : Histoire du commerce français, Paris 1884, p. 121.  
— FIGEONNEAU : op. cit., I, p. 273.  
— WIRT : op. cit., p. 583.  
— Le 8 février 1446 le Grand Maître enjoignait par une bulle à deux de ses receveurs en Province de payer à J. Cœur les frais qui lui étaient dus pour ce voyage et pour le transport des prisonniers.
61. GUIRAUD : op. cit., p. 108.  
DE BEAUCOURT : Le procès de Jacques Cœur, Paris, 1890, p. 22, 27.

18. THOMAS : op. cit., p. 92.
19. WIET (G.) : *L'Egypte arabe*, p. 488.
20. THOMAS : op. cit., p. 97 — — — IRRISOU : op. cit., p. 512.
21. GUIRAUD : op. cit., p. 17. — — — THOMAS : op. cit., p. 103.
22. GERMAIN : op. cit., T. II, p. 22 et note 1. (Malik Mansûr occupa le trône mamlouk du 20 mars 1361 jusqu'au 20 mai 1363).
23. GERMAIN : op. cit., T. II, p. 19 et note 2, p. 265. — — — GUIRAUD : op. cit., p. 20. — — — CLÉMENT : Jacques Cœur et Charles VII, Paris 1863, T. I, p. 41.
24. BERNE (A.) : *Consuls sur mer et d'outre-mer de Montpellier au Moyen-Age*, Montpellier 1904, p. 109, 169—172.
25. GUIRAUD : op. cit., pp. 39—40.
26. Ibid : p. 48.
27. Ibid : p. 107.
28. NOËL (O) : *Histoire du commerce du monde*, T. I, Paris 1891, p. 280.
29. MAS-LATRIE (R. De) : *Histoire de l'île de Chypre*, Paris 1852, T. II, p. 536, note 2.
30. GUIRAUD : op. cit., pp. 5—6, 38—40.
31. UBICINI (M. A.) : Jacques Cœur en Orient, Extrait de la Revue de l'Orient, Paris 1860 p. 13. — — — JULLIANY : Essai sur le commerce de Marseille, Marseille 1834, T. I, p. 20 — HEYD : *Histoire du commerce*, T. I, p. 92.
32. HEYD : op. cit., I, p. 420, 421 — — — PERNOUD : op. cit. p. 42.
33. JULLIANY : op. cit., I, pp. 34—35 — — — SALVADOR (E) : *Histoire des échelles du Levant*, Paris 1857, p. 62 — — — UBICINI : op. cit., p. 16.
34. PARDESSUS : op. cit., III, p. CXI — — — BARATIER et REYNAUD : *Histoire du commerce de Marseille*, II, (de 1291 à 1480), Paris 1931, pp. 319-322.
35. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 358.
36. DEPPING : op. cit., II, 49 — — — PERNOUD : op. cit. p. 46.
37. PARDESSUS : op. cit., III, p. CXI.
38. HEYD : op. cit., II, p. 461.
39. THENAUD (J) : *Le voyage d'outre-mer de Jean Thenaud*, éd. ch. Schefer, Paris 1884, Intrud. pp. XV—XVII.
40. BARATIER et REYNAUD : op cit, II, p. 339., note 1. (le 20 octobre 1402 Jean Audibert était nommé consul à Alexandrie).
41. DE LANNOY : *Ouvres*, p. 108.
42. PARDESSUS : op. cit. III, p. CXI—DE VIRIVILLE : op cit., p. 8—BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 362.
43. BARATIER et REYNAUD : op. cit., II, p. 340., note 1., (deux voyages en Orient, l'année 1425 et 1428):

## *Anmerkungen*

1. PAUQUEVILLE : Histoire du commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, T. X, p. 543.  
 DEPPING (G. R.) : Histoire du commerce entre le Levant et l'Europe, Paris 1830, T. II, pp. 108—109.  
 — — — : Il faut noter que les sources arabes ne font pas dans les conditions de la paix établies entre St. Louis et le dernier sultan Ayyoubide Touran-Chah, puis le premier sultan Mamlouk Aibak, aucune allusion à ce fait. Voir : NESSIM (G) : Louis IX au Moyen-Orient (en arabe), Le Caire 1959, p. 123, 153, 156-159, 160-161. —  
 — — — ZIADA (M. M.) : La croisade de Louis IX en Egypte et sa défaite à la bataille de Mansourah (en arabe), Le Caire 1961, p. 200 et suiv, 230 et suiv, 246 et suiv, 312.
2. DI PIETRO : Histoire d'Aigues-Mortes, Paris 1849, pp. 152-153.  
 PORT : Essai sur l'histoire du commerce de Montpellier, Paris 1854, p. 340.  
 GUIRAUD (L) : Jacques Cœur, dans Mém. Soc. Arch. de Montpellier, 2e série, T. II, 1900, p. 17.
3. DE VIRIVILLE : Jacques Cœur, Paris 1854, p. 8.
4. DE LA BROUQUÈRE (B) : Voyage d'outre-mer, éd. Ch. Schefer, Paris 1892, p. 32.
5. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 8 — — DI PIETRO : op. cit., pp. 152-153 —  
 THOMAS (L. J.) : Montpellier, ville marchande, Montpellier, 1930, p. 103.
6. PIGEONNEAU (H) : Histoire du commerce de la France, Paris 1885, T. I, p. 366.
7. PERNOD (R.) : Les villes marchandes aux XIVe et XVe siècles, Paris 1948, p. 46.
8. PARDESSUS (J. M) : Collection de lois maritimes, Paris 1828-1845, T. III, Introd. p. CVIII.
9. Sur Frescobaldi en 1384 voir PARDESSUS : op. cit., T. III, Introd., P. CXII ; DEPPING : op. cit., T II, p. 301 — — — A propos du Seigneur d'Anglure voir son voyage : Le saint voyage de Jérusalem, éd. Bonardot et Longnon, Paris 1878, p 56.
10. HEYD (W) : Les consulats établis en Terre-Sainte au Moyen-Age, dans ROL II, p. 363.  
 — — — SALLES (G) : L'institution des consulats, dans RHD, XI, 1897, p. 423
11. DE LANNOY : Œuvres de Ghilebert de Lannoy, voyageur, diplomate et moraliste, éd. Potvin, Louvain 1878, p. 109
12. DE VIRIVILLE : op. cit., p. 8.
13. GERMAIN (A) : Histoire du commerce de Montpellier, Montpellier 1861, T. I, p. 4.
14. HEYD (W) : Histoire du commerce du Levant au Moyen - Age, trad. Fr., 2e éd., Leipzig 1923, T. I p. 368.
15. IRISSOU (L.) : Les épiciers apothicaires et les poivriers de Montpellier dans le cadre commercial au Moyen-Age, dans Bulletin des Sciences Pharmacologiques, 1931, p. 512. — — — GERMAIN : op. cit., T. II, p. 8 et note.
16. GERMAIN : op. cit., T. I, p. 253 — — — SALLES : op. cit., p. 171.
17. PIGEONNEAU : op. cit., T. I p. 327 et note 1.  
 — — — SALLES : op. cit., p. 177  
 — — — GERMAIN : op. cit., T. II, p. 87.

privilège commercial (107). C'est l'ambassadeur de Venise qui obtint du succès dans cette affaire (108).

Toutefois, il faut noter qu'après la chute de l'Etat Mamlouk, le sultan Ottoman Selim 1er accorda pendant son séjour au Caire en 1517 au consul des Catalans et des Français par interim, Philippe de Peretz, la première capitulation confirmant les anciennes concessions faites à la France en Egypte (109).

\* \* \*

Enfin le commerce français avec l'Etat Mamlouk après J. Cœur ne connut pas la profonde détresse qui l'avait caractérisé avant lui, mais la France malgré les efforts de ses rois perdit peu à peu sa place commerciale en Egypte.

Les relations commerciales entre les deux pays n'étaient pas assez florissantes pour permettre le rétablissement à Alexandrie d'un fondouk et d'un comptoir pour les Français, et ceux-ci n'y faisaient la négoce qu'en passant.

Leur consul Philippe de Peretz que nous voyons à Alexandrie depuis 1498 est un Barcelonais d'origine. Il y représentait les intérêts de ses compatriotes d'abord, puis ceux des Français par interim.

Cependant on peut justement dire que le consulat de Philippe de Peretz n'était que l'ombre du consulat établi en 1447 par les efforts de J. Cœur.

Les Vénitiens mirent un grand empressement à faire croire au sultan que les actes, dont il avait si justement à se plaindre, avaient été commis par les Français leurs ennemis et que, pour leur part, ils les déploraient vivement. Ils dirent au sultan que Louis XII, roi de France, avait pour vassal le Grand Maître de Rhodes Aimery d'Amboise, et que le frère de celui-ci, George, avait été son ministre ; le Grand Maître n'oserait donc pas repousser l'invitation qui lui serait faite de rendre les prisonniers Maghrebiens et les vaisseaux égyptiens capturés dans le golfe d'Ayas.

Le sultan prit la résolution de s'adresser d'abord directement à Aimery d'Amboise. L'embargo avait été mis à Alexandrie sur cinq navires ragusais ; l'un d'eux fut désigné pour conduire à Rhodes deux religieux franciscains chargés de faire connaître au Grand Maître les réclamations du sultan. Ceux-ci échouèrent complètement dans leur mission ; le Grand Maître leur déclara qu'il ne consentirait jamais à restituer les navires égyptiens et qu'il ne relâcherait pas sans rançon les prisonniers maghrebiens (104).

C'est alors qu'en 1511 un marchand ragusais fut envoyé en France porteur d'une lettre pour Louis XII et d'un acte confirmant pour les Français la liberté du commerce dans les ports de l'Égypte et de la Syrie et accordant au pèlerin l'autorisation de se rendre en Palestine et d'en visiter les sanctuaires. L'arrivée de cet envoyé produisit en France une impression favorable et le roi décida d'envoyer un de ses secrétaires André le Roy, comme un ambassadeur auprès du sultan Ghoury (105).

À la nouvelle de cette ambassade française Venise choisit Domenico Trevisan et le chargea d'aller négocier au Caire le rétablissement des relations de commerce et d'amitié, la réinstallation des religieux latins dans les couvents et les sanctuaires en Palestine, et la sécurité des pèlerins qui se rendraient aux Lieux-Saints (106).

Arrivé au Caire le 11 muharram 918 / 29 mars 1512 l'ambassadeur français fut bien reçu par le sultan. Puis, il attendait de Rhodes une réponse au sujet des réclamations du sultan et des concessions qu'il espérait devoir être faites par le Grand Maître. Cette démarche n'eut aucun résultat et l'ambassadeur dut se rendre lui-même à Rhodes en laissant au Caire son fils comme otage. Cependant il échoua dans sa mission à Rhodes et n'obtint par suite aucun

détrouit de Bab al-Mandab, puis pénétra en Mer Rouge et menaça les Lieux-Saints musulmans. Et dans le bassin oriental de la Méditerranée les Chevaliers de Rhodes doublèrent leurs raids contre les côtes égyptiennes.

C'est ainsi que leurs corsaires attaquèrent en 1509 le puissant fortin qui avait été construit l'année précédente à Tineh, sur le littoral méditerranéen à l'est de l'isthme de Suez (101).

L'année après cinq barques françaises étaient arrivées à Alexandrie. Après avoir vendu leurs cargaisons, elles avaient pris à bord, comme passagers, des Maghrebiens et leurs familles qui se proposaient de retourner dans leurs pays. Ces barques furent capturées près de Castel-Rouge et conduites à Rhodes par des galères des Chivaliers. Le Grand Maître les relâcha immédiatement, mais il retint prisonniers les Maghrebiens dont il confisqua les marchandises évaluées à 40,000 ducats.

On insinua au sultan, en lui donnant cette nouvelle, que les patrons des barques françaises avaient commis un acte de trahison en prévenant le Grand Maître de leur départ et qu'ils étaient de connivence avec lui pour partager le butin fait sur les Maghrebiens. Le sultan Ghoury, dans un transport de fureur, ordonna d'arrêter Philippe de Peretz consul des Catalans et des Français par interim à Alexandrie, ainsi que tous les Français résidents à cette ville et leurs marchandises furent mises sous séquestre (102).

Quelques mois après (août 1510) eût lieu en rade d'Ayas l'attaque de la flotte égyptienne par les galères des Chevaliers de Rhodes. Dix-huit navires chargés de bois de construction, d'armes et de munitions furent emmenés à Rhodes.

La nouvelle de ce désastre exaspera le sultan ; par ses ordres tous les navires francs furent saisis dans les ports de l'Egypte et de la Syrie ; tous les marchands étrangers établis dans ses Etats furent arrêtés, chargés de chaînes et conduits au Caire et toutes leurs marchandises furent confisquées. Les religieux latins furent expulsés des sanctuaires ; le gardien du mont de Sion fut mis à la question et contraint de livrer 4.000 ducats cachés dans la sacristie ainsi que des ornements sacerdotaux et des pièces d'argenterie d'une valeur de 5.000 ducats (103).



atteste cet état des choses; celui-ci, de passage à Alexandrie en 1483, signale que le fondouk de Marseille existait encore mais qu'il était vide (96).

Cependant les Vénitiens et les Florentins prenaient la première place dans les marchés français. Doriote, l'intendant des finances de Charles VIII, dans son rapport de 1488, faisait remarquer au roi cet état des choses et que la France avait assez de vaisseaux pour faire elle-même son commerce. Charles VIII défendit alors l'entrée en France de toute marchandise du Levant qui ne serait pas transportée par des vaisseaux français. En même temps il envoya au Caire, le général de Langue doc Guillaume Briçonnet en mission auprès du sultan Qaitbay.

Le roi voulait recommander les marchands français à la protection du souverain mamlouk et de lui prier la permission de nommer un nouveau consul de France à Alexandrie. En plus, son émissaire fut chargé de traiter avec le sultan des marchandises saisies par l'autorité d'Alexandrie en 1475 (97).

A ce moment Qaitbay-essayait de toutes ses forces pour disposer de la personne du prince ottoman Djem, prisonnier en France. Sa présence, à la tête des troupes égyptiennes, en guerre contre les troupes ottomanes en Asie-Mineure, serait sans doute d'un effet moral considérable. C'est pourquoi Qaitbay donna bon accueil à Guillaume Briçonnet, mais il demanda, en échange, que Djem lui fût remis. Mais les négociations entamées depuis 1487 entre Charles VIII et le pape Innocent VIII et relatives au transport de Djem en Italie étaient en bonne voie, et le roi se trouvait finalement obligé de refuser la demande de Qaitbay (98).

Plus tard, et précisément en 1498, le consulat français à Alexandrie fut rétabli. Cependant le roi Louis XII dut recourir au consul des Catalans Philippe de Peretz pour défendre les intérêts des Français à Alexandrie (99). En effet les marchands français, jusqu'à cette date, ne faisaient la négoce à Alexandrie qu'en passant et la colonie européenne d'Alexandrie ne se composait plus que de Vénitiens, de Genoïs et de Catalans (100).

Dès le début du XVI<sup>e</sup> siècle les événements désastreux assaillèrent l'Egypte. C'est en 1506 que la flotte portugaise put facilement organiser le blocus du

L'année 1475, une cinquième galée, la Sainte-Marie-la-Blanche, faisait le voyage entre Marseille et Alexandrie. A Alexandrie, un marseillais qui faisait la négoce sur cette galée mourut et ses marchandises furent rassemblées et furent confiées à Marioto Scarsalopi, consul des Florentins et des Français par interim. Ce qui compliqua l'affaire c'est que le capitaine de la galée s'était saisi de quelques négociants alexandrins (88), parmi ceux-ci se trouvaient des agents commerciaux du sultan « Tuggar al-Sultan ». Puis le capitaine quitta la ville sur l'heure et fit voile avec ses prisonniers vers son pays (ramadan 880/décembre 1475-janvier 1476). Des représailles furent exercées par les gens du sultan et les marchandises provenant de la galée française saisies (89).

Il fallut l'intervention du Grand-Maître de Rhodes pour arranger la chose; celui-ci fit rendre les négociants capturés et en échange obtint la restitution des marchandises saisies par l'autorité d'Alexandrie, au du moins de leur valeur(90). En muharram 881/ avril—mai 1476 les négociants prisonniers arrivèrent à Alexandrie après avoir versé une forte rançon pour obtenir leur libératoin (91). Mais l'affaire des marchndises saisies ne fut pas réglé qu'en 1489 (92).

C'est vers la même époque que la compagnie des galées de France dut suspendre ses opérations. Et comme Louis XI ne pouvait admettre que le commerce méditerranéen fut abandonné aux marins étrangers, il chargea Michel Gaillard, général des finances, de sauver l'affaire en son nom. Michel Gaillard racheta en 1476 les trois galées qui restaient encore à flot et s'établir à Marseille pour diriger l'entreprise.

Marseille retrouva donc une importance accrue en voyant son rôle de tête de ligne des galées de France. D'autre part, Louis XI chargea cette même année Michel Gaillard d'une mission auprès du sultan Qaitbay (93).

En effet le temps n'était pas favorable pour faire cette démarche, et par conséquence cette mission ne réalise aucun succes. Les relations commerciales de France avec l'Egypte furent interrompues depuis 1475 et les marchands français n'ont plus envoyés de commande à Alexandrie (94). En plus, le consulat français était resté depuis cette même année sans titulaire, et les marchands français n'avaient plus à Alexandrie de comptoirs, et si on les voyait à Alexandrie c'était uniquement en passant (95). L'observation du dominicain Felix Faber

Les intérêts de la chrétienté, les sentiments de probité et d'humanité semblent compter bien peu pour eux et l'exportation des armes, des monnaies et des esclaves en Egypte était un signe de temps et chose courante. Pourtant, nous ne pouvons, négliger l'oeuvre de J. Cœur qui fut un des agents essentiels de la renaissance commerciale de la France.

\* \* \*

Dès 1452 les services des galères de France au Levant furent presque arrêtés. Et sous la pression des événements Charles VII essaya de continuer à développer le commerce du Levant auquel l'arrestation de J. Cœur avait porté un grave préjudice (80).

D'autre part J. Cœur eut des imitateurs comme Etienne Sollelet et Bernard de Vaux, négociants de Montpellier et propriétaires après lui de quatre de ses galères (81). Jean de Village, le meilleur facteur de J. Cœur et son neveu par alliance fut accordé en février 1456, des lettres de grâce et le roi Charles VII lui rendit ensuite son titre de capitaine des galées de France (82). Cependant J. de Village ne retourna jamais en France et reprit à Marseille, où il fonda vers 1460 un grand comptoir commercial, les efforts de son maître (83).

Le roi devait intervenir officiellement pour protéger les hauts intérêts de la France. C'est ainsi vers 1455 au 1456 qu'il envoya au sultan mameluk Ināl une lettre lui recommandant les marchands français (84). Mais, encore une fois, la guerre entre Charles VII et le roi René d'une part, et Alphonse V d'Aragon d'autre part troubla la régularité des départs des galées de France vers le Levant des 1458 jusqu'à 1463 (85).

A ce moment le trafic franco-provençal du Levant était à peu près inexistant ; tous les échanges avec l'autre extrémité du bassin méditerranéen se faisait par l'intermédiaire des navires vénitiens ou florentins. Louis XI, qui monta sur le trône en 1463, n'admit pas cet état des choses. Le 1<sup>er</sup> novembre de cette année il interdit l'entrée des épices en France autrement que par les ports du Languedoc et du Roussillon et Lyon. L'année après deux galées furent mises en chantier à Beaucaire et leur premier départ vers le Levant fut annoncé pour le 15 mars 1465 d'Aigues-Mortes. En 1466 deux autres galées furent bâties et le commandement de cette flotte marchande fut confié à Jean de Village (86). L'année 1470, on signale le retour d'Alexandrie de 3 galées et en 1472 de 2 galées, et une autre au début de 1474 (87).

qu'eraient à appliquer à lui seul par vertu, ce en quoi les diverses nations du monde labeurent ensemble par divers regards » (68).

De Montpellier et de Marseille sa flotte partait chargée de draps de Beauvais, de Narbonne, de Toulouse, de Carcassonne, de Béziers (69) de toiles blanches de Narbonne, de bois de toute espèce, de métaux : fer, plomb, étain, cuivre (70) d'objets de menu quincaillerie, d'or et d'argent monnayés ou en lingots malgré les prohibitions royales et pontificales. Ce qu'il ne produisait pas lui-même, il allait le demander directement aux producteurs se passant le plus souvent d'intermédiaires, utilisant ses nombreux comptoirs.

Ses navires abordaient dans les terres égyptiennes, mais on les voyait, en outre, faire la navette entre Alexandrie, les ports de Syrie, Chypre et Rhodes en transportant les marchandises de ces différents pays (71). Au retour ils rapportaient les étoffes du Levant, draps d'or et de soie de Damas, velours d'Alexandrie, satins et taffetas du Caire, les tapis de la Perse, le baume et l'encens de l'Arabie, les épices de l'Inde, les porcelaines de Chine (72). A l'occasion ils transportaient aussi les passagers chrétiens et musulmans (73), et faisaient même la traite de esclaves (74). Au retour ils déchargeaient leur cargaisons à Montpellier ou à Marseille. Parfois ils remontaient le Rhone et concurrençant les Catalans et les Italiens et ravitaillaient Barcelone. (75).



Mais, le 31 juillet 1451, Charles VII, paussé par les détracteurs de J. Cœur, jaloux de sa richesse et de son luxe, le fit arrêter. Parmi les accusations qu'on lui porta, trois nous intéressent. On l'accuse d'avoir envoyé aux musulmans des harnais de guerre (76), une grande quantité d'or et d'argent monnayé (77), de leur avoir renvoyé un jeune esclave (78).

Après un long procès, il fut condamné le 29 mai 1453 à la confiscation de ses biens, au bannissement perpétuel et à de fortes amendes (79).

La défense de J. Cœur en ce qui concerne ces trois points, certainement fondés, fut très faible. Certes, ce qui comptait pour lui, comme pour les Vénitiens et les Génois, c'était d'obtenir les bonnes grâces des sultans mamlouks qui monopolisaient le commerce d'Orient.

Également, cette année -la, l'Eglise étendait sa protection à son commerce avec le Levant. Il obtint du Pape Eugène IV, par l'intermédiaire de l'évêque d'Agde, une bulle portant privilège de commerce avec les musulmans pendant 5 ans, et un peu plus tard Nicolas V, lui accorda l'extension de cette concession à sa vie entière avec, en plus, le droit de transporter les pèlerins à Jérusalem (62).

En 1447 il profita des bonnes grâces dont il jouissait auprès de Charles VII pour donner à ses relations commerciales avec l'Egypte un caractère officiel. Il envoya son neveu Jean de Village muni d'une lettre de roi auprès du Pape Nicolas V pour obtenir son autorisation de porter des présents au sultan. Gaqmaq Le Pape permit d'envoyer seulement «deux harnais complets», mais Jacques Cœur dépassa le chiffre fixe et les fabriquait somptueusement (63). Au nom du roi deux de ses fidèles serviteurs se présentèrent au sultan et sollicitèrent sa protection, la franchise du commerce français et l'installation d'un consulat français à Alexandrie. Gaqmaq échangea de cadeaux avec Charles VII et Jacques Cœur, et dans une lettre adressée au roi, il accorda les privilèges sollicités (64).

Pendant toute cette période c'est Montpellier qui était le centre de l'activité de Jacques Cœur. Son crédit officiel lui permettait d'imposer ses volontés à la bourgeoisie du Midi. «Perbier Sobeyran, possédait pour le commerce avec le levant sept grandes galères et un personnel de 300 facteurs, patrons de galères pilotes et commis. Pour consolider son commerce avec le levant, il fonda un comptoir à Marseille en 1449, puis quittant finalement Montpellier il fit de Marseille le centre principal de ses opérations. En 1451, l'année de son arrestation il avait une douzaine de galères, des nombreux comptoirs en France et sur les rives de la Méditerranée (65).

Il est bon de s'arrêter ici pour endiquer les marchandises qui furent l'objet de son commerce avec l'Etat Mamlouk. Il nous paraît intéressant de savoir que Piloti énumérant les marchandises importées en Egypte par les nations européennes ne parle pas de celles de la France (67). Cependant Georges Chastellain, chroniqueur contemporain de J. Cœur nous parle en ces termes, «tout le Levant J. Cœur visita, il n'y avait en la mer d'Orient mât revesu sinon des fleurs de lys. Alexandrie et al-Kaire lui étaient «Colchidies portes» et ne voiaient ses yeux qu'en la circulation du monde pour tout seul l'estraindre,

registres de compte qui furent cachés par Jean de Village durant son procès (52). D'autre part les auteurs égyptiens s'intéressent peu aux relations de leur pays avec les autres puissances européennes (53).

Les historiens contemporains émettent des hypothèses différentes : certains ne signalent ses comptoirs à Montpellier qu'en 1438 ou (54) 1440 (55), d'autres soutiennent plus justement, nous semble-t-il, que ses rapports avec l'Égypte suivirent de près son voyage de 1432 (56). On insiste sur le fait qu'il ne cessa jamais d'être marchand bien qu'il occupât les postes royaux de Maître des Monnaies à Bourges en 1435 et d'Argentier du roi Charles VII en 1439, qui le mirent hors de pair parmi les commerçants français (57). Enfin, disons que la fin du règne de Barsbay vit le développement du commerce français et le début du règne de Gaqmaq son brillant essor.

Avec une habileté mercantile Jacques Cœur sut s'introduire dans les bonnes grâces de Gaqmaq. En 1442 le sultan aurait expulsé les vénitiens de ses possessions et confisqué leurs biens si les facteurs de Jacques Cœur n'étaient intervenus pour faire rapporter cette décision (58). Pour bien mesurer ce fait, signalons que vingt ans auparavant, en 1422, l'ambassade florentine au Caire auprès de Barsbay pour rétablir le commerce entre Florence et l'Égypte, n'avait pas pu obtenir du sultan la libération des consuls de Gênes et de Venise à Jérusalem, des moines franciscains du monastère de Sion et de 13 pèlerins latins qui étaient retenus en captivité (59).

Après l'échec des trois expéditions dirigées par l'Égypte contre Rhodes en 1440., 1442 et 1444, le traité de paix signé en 1445 entre le sultan et le Grand Maître de l'Ordre le fut grâce aux démarches des agents de Jacques Cœur. Sur un de ses navires, cette année là un délégué de l'Ordre fut transporté à Alexandrie et en 1446 ses bateaux ramenaient à Rhodes un grand nombre d'esclaves et de captifs chrétiens qui avaient été arrêtés par les troupes égyptiennes pendant le siège de l'île (60).

Et pour conserver les faveurs de Gaqmaq il accabla de sa colère Michel Teinturier qui avait transporté en 1446 à Montpellier sur une de ses galères un esclave chrétien et ordonna son retour à Alexandrie (61).

C'est Jacques Cœur qui affranchit la France commercialement de l'onéreau intermédiaire de Italiens et des catalans, qui lui rendit son prestige en Orient, et qui reveilla sur les côtes méditerranéennes des France une grande activité économique. Cependant, avant de commencer à étudier son œuvre et sans vouloir diminuer son génie commercial, il est bon de remarquer, d'une part qu'avec la fin de la guerre de Cent Ans se manifeste spontanément une véritable renaissance commerciale, d'autre part que les liens commerciaux avec l'Egypte s'ils étaient très relâchés, n'étaient pas rompus définitivement :

Les ports méridionaux de la France unissaient leurs efforts pour conserver quelque activité malgré les sombres années qu'ils traversaient. Les Français se risquaient à envoyer la seule galère qu'ils possédaient ; celle de Narbonne, dans ses tournées annuelles vers l'Egypte et la Syrie (48). Elle appartenait à Jean Vidal de Narbonne, mais elle navigait pour tous des bourgeois de la ville et pour de nombreux Montpelliérains réduits à trafiquer sur le bateau d'une autre cité. Nous possédons la liste des sociétés de premier degré (parmi eux Jacques Cœur) et de deuxième degré (36 associés : hommes, femmes, veuves et filles de commerçants) qui participèrent aux frais du voyage (49).

Après avoir touché Beyrouth, la nef fit la navette deux fois entre ce port et Alexandrie et elle se chargea de précieuses marchandises<sup>50</sup>. Mais, au retour, sur la côte de Corse où elle demanda du secours après une avarie, elle fut victime des corsaires de l'île. Les marchands rentrèrent « nus jusqu'à la chemise ». Après la répartition des quotités aux associés, Jacques cœur reçut une indemnité de 27 livres tournois (10 ducats) et la même somme d'estimation des vêtements et de l'argent qu'on lui avait dérobés (51).

Ce voyage de 1432 est donc un malheureux échec à une époque où la France est plongée dans une effroyable misère. Mais si Jacques Cœur revient dénué de tout, il est maintenant renseigné sur les conditions difficiles du commerce en Méditerranée et prêt à tirer parti de son expérience.

Sa grande prospérité se situe entre 1442 et 1451. Comment en une dizaine d'années a-t-il pu édifier une aussi grande fortune ? Pour répondre à cette question manquent les documents français de l'époque, en particulier ses

Dès le début du XIV<sup>e</sup> siècle nous trouvons que les Marseillais possédaient un fondouk à Alexandrie (36). En 1332 le voyageur Mandeville s'était embarqué sur une galère de Marseille pour aller visiter l'Egypte (37). L'année 1380 deux galères marseillais furent attaquées et pillées à leur retour de Beyrouth par l'amiral vénitien Carlo Zeno (38). De plus le Seigneur d'Angiure qui passa à Alexandrie en 1395, consacre dans sa relation quelques lignes à cette ville ; et nous dit qu'il y remarqua les fondouks des Vénitiens, des Génois, des Catalans des Chypriotes, des Napolitains, des Anconitains, des Marseillais, des Candiotés et des Narbonnais (39).

Aux premières années du XV<sup>e</sup> siècle, ses relations avec l'Etat Mamlouk étaient encore assez importantes pour justifier l'existence à Alexandrie d'un consul représentant les intérêts des Marseillais (40).

Cependant quelques années plus tard De Lannoy (1421—1423) nous parle de « couchier de Marseille » à Alexandrie, mais à son dire « à présent n'y a nul marchand » (41) En effet la cause de la décadence du commerce de Marseille dans la 1<sup>re</sup> moitié du XV<sup>e</sup> siècle fut essentiellement la guerre qu'elle soutint contre le roi d'Aragon qui, victorieux, s'empara de la ville en 1423 (42).

Marseille renonça à peu près à son trafic traditionnel avec le levant jusqu'en 1431. Il faut noter cependant les efforts désespérés de quelques uns de ses négociants pour lutter contre la décadence malgré la guerre et l'insécurité des mers (43). Mais la trêve qui suspendit les hostilités entre les Princes d'Anjou fut le signal d'un renouveau du commerce (1431—1435). Une ou deux galères, propriétés de marchands ou d'armateurs marseillais, portaient en Syrie et en Egypte les produits régionaux (44). Les bonnes conditions faites au commerce attiraient les étrangers : les Avignonnais vinrent y acheter du poivre et y vendre de l'huile et du drap (45).

A cette époque Marseille se trouvait en pleine décadence et presque ruinée (46) Elle ne trafiquait avec l'Orient que grâce aux navires étrangers qui parfois y faisaient escale et on peut dire que le commerce avec l'Etat Mamlouk de Narbonne, de Montpellier et de Marseille était presque unifié (47).

\* \* \*



Si nous abordons le XVe siècle nous trouvons encore les marchands de Montpellier sur place à Alexandrie. En 1404 les autorités égyptiennes les maltraièrent et finalement les conduisirent en captivité au Caire et confisquaient leurs biens évalués à 60.000 frs (26). L'un de ses riches bourgeois, Usun Teinturier, faisait la négace à son compte avec l'Egypte à la même époque et l'année 1410 se chiffra pour lui en lourdes pertes (27). Notons, aussi que Charles VI, dans une missive adressée aux Montpelliérains le 5 avril 1410 reconnaissait leurs louables efforts et il facilitait leurs transactions commerciales avec Alexandrie, Damas et Beyrouth (28). Par la chronique de la Mairie on constate que Montpellier était en communication normale avec l'Orient, puisque la ville connut rapidement la nouvelle de la victoire remportée par les Mamlouks sur les Chypriotes le 6 Juillet 1426 (29).

Cependant, malgré l'opiniâtreté et les efforts désespérés de ses marchands, Montpellier était en 1430 en pleine décadence. Elle, qui en 1376 possédait six navires, en était réduite en 1432 à trafiquer sur la galère de Narbonne, la fémuse «Notre Dame et St. Paul» (30).

\* \* \*

Les relations commerciales de Marseille avec l'Egypte remontait à l'époque de Charlemagne. Les commerçants de Lyon et Marseille allaient faire la négoce avec l'Alexandrie deux fois par an (31).

C'est au XIII<sup>e</sup> siècle que le commerce de Marseille avec le Levant atteint sa grande prospérité. Rappelons l'incident des corsaires marseillais en 1272 au temps du sultan Baibars I (32).

Cependant certaines circonstances furent fatales au commerce de cette ville : la perte de l'indépendance politique, puisque Marseille tomba aux mains de Charles d'Anjou comte de Provence en 1257, et la chute de St. Jean d'Acre en 1291 (33). En plus, ses relations avec l'Orient furent réduites à bien peu de chose du fait de la guerre qui opposait les princes d'Anjou et d'Aragon (34).

Mais son effacement ne fut jamais complet car elle jouissait d'une rade facilement accessible. De plus, tandis qu'en France, des droits très lourds frappaient les marchandises importées, on n'y levait que des taxes modérées (35). C'est pourquoi ses relations avec l'Etat Mamlouk, si elles étaient fort affaiblies, n'étaient pas complètement rompues.

accordèrent la charte communale (15). Jayme 1<sup>er</sup> d'Aragon decreta le 27 décembre 1264, une remission en faveur de certains marchands, puis autorisa les consuls catalans en Egypte et en Syrie à protéger ses citoyens de Montpellier (16). Le 2 Janvier 1267, le même roi émancipa les Montpelliérains d'Alexandrie de la tutelle du consul catalan et il y envoya deux bourgeois : Bernard des Moulins et Bernard du Pilan, investis de l'autorité royale et chargés de choisir un consul parmi la colonie montpelliéraine à Alexandrie (17).

Et pour faciliter son commerce, Montpellier frappa des monnaies du type en usage dans les pays musulmans jusqu'à ce que le Pape Clement IV adressa un blâme sévère à son évêque. (18) De sa part le gouvernement mamlouk combattait les négociants de Montpellier de sa grâce. L'exemple suivant en donne la preuve : d'après les démarches faites en 1332 par l'un d'eux, Guillaume Bonnemains, auprès du sultan Nâsir Moḥ. b. Qalaoun, une église du Vieux Caire fut rendue aux chrétiens (19).

Mais en 1349 Montpellier sous l'obédience des rois de France, voit commencer sa décadence malgré les avantages commerciaux qui lui furent concédés (20). Les troubles déjà cités, en sont la cause principale. Ajoutons les rigueurs de la fiscalité royale et la concurrence d'autres villes marchandes comme Beaucaire sur la voie commerciale du Rhône et Aigues-Mortes sur la côte méditerranéenne (21).

Pourtant la ville ne cessa jamais de trafiquer avec l'Egypte comme l'attestent certains faits. On a trouvé sur la plage de Maguelonne un dirhem frappé sous le règne de Malik Maṣṣūr Mohammed (22). En 1367 Montpellier obtint du Pape Urbain V, le privilège d'expédier chaque année à Alexandrie deux navires, puis en 1382 six, à condition qu'ils ne porteraient pas en Egypte de marchandises prohibées (23).

C'est ainsi que les négociants de Montpellier regagnèrent leur activité aux marchés d'Egypte. Et cela exigeait la présence de leur consul à Alexandrie. Dans trois pièces justificatives on nous présente les lettres de provisions de deux consuls de Montpellier dans cette ville en 1386, 1392 et 1400 (24). En plus on signale deux autres documents concernant le commerce avec l'Egypte : le 1<sup>er</sup> est un acte de commandite d'un négociant sur le navire Notre Dame et ST. Jean le 7 août. 1387 ; le 2<sup>e</sup> est un engagement d'un commis marchand sur la Sainte-Catherine le 26 Octobre 1389 (25).

à 1349, la 2<sup>e</sup> de 1257 à 1481, c'est Aigues-Mortes qui doublait l'effort de Narbonne au nom de la France. Dans ce but les rois St. Louis d'abord, puis Philippe III le Hardi, Jean le Bon, Charles V, Charles VI, et Charles VII leur avaient octroyés certains privilèges en ce qui concerne le commerce du Levant (5). De ces deux ports partaient pour l'Egypte et la Syrie les deux navires désignés sous le nom de «Galères de France» (6).

Il nous semble que leurs rapports, particulièrement avec l'Egypte, furent relâchés dans la 2<sup>e</sup> moitié du XIV<sup>e</sup> siècle pour les raisons déjà indiquées. A cet égard l'histoire du fondouk de Narbonne à Alexandrie est très significative.

Au début de ce siècle, les Narbonnais possédaient à cette ville un fondouk (7). En 1377 on les voit obtenir du sultan al-Manṣūr 'Alā' al-Dīn 'Alī quelques privilèges commerciaux (8). Cependant, d'après Frescobaldi et le Seigneur d'Anglure qui séjournèrent à Alexandrie en 1384 et 1395 on sait que le gouvernement mamlouk accorda à leur consul dans cette ville de loger les pèlerins latins dans leur fondouk en exigeant d'eux le droit du sultan «Muṣīb al-Sultān» (9). Ce privilège acquis n'avait aucune signification religieuse ou politique et ne donnait à la France aucun droit de protectorat sur les pèlerins de l'Occident. En effet les négociants avaient la priorité sur les pèlerins et les voyageurs pour obtenir des chambres dans les fondouks. Et cela indique que le trafic entre les deux pays était faible, qu'il arrivait très peu de marchands et qu'il y avait en conséquence des places dans le fondouk de Narbonne pour héberger les pèlerins (10). Mais Lannoy, en 1421, omet de signaler ce fondouk (11) et cela prouve l'absence de la colonie narbonnaise à Alexandrie. Cette observation coïncide d'ailleurs avec l'histoire de Narbonne qui'était en pleine décadence et presque ruinée ; en 1430 elle renferme à peine 3000 âmes (12).

\* \* \*

Les Montpelliérains viennent commercer en Egypte depuis l'époque des croisades (13). Benjamin de Tolède les signalent à Alexandrie ainsi que des Egyptiens à Montpellier (14).

Grâce au patronage des rois d'Aragon, le trafic de Montpellier atteignit son point culminant tout au cours du XIII<sup>e</sup> siècle. La ville passa sous leur souveraineté par le mariage diplomatique du roi d'Aragon avec l'unique héritière des Guilhelms le 12 Juin 1204. Deux mois après, les deux époux lui

## LES RÉLATIONS COMMERCIALES ENTRE L'ÉTAT MAMLOUK ET LA FRANCE

*Par*

AHMAD DARRAG

La malheureuse fin de la septième croisade donna une chance à la France d'entretenir des rapports commerciaux avec l'Égypte, car c'est pendant sa captivité en Égypte que St. Louis obtint le droit d'établir un consulat à Alexandrie (1).

Depuis cette époque, les commerçants des ports méridionaux de la France : Narbonne, Aigues-Mortes, Montpellier et Marseille fréquentaient Alexandrie et les ports Syriens. Mais durant le XIV<sup>e</sup> siècle et le commencement du XV<sup>e</sup> siècle, ces trois premiers ports voient la décadence de leur commerce ; décadence causée d'une part par l'ensablement progressif de la côte à cause de la rupture des barrages de l'Aude en 1320, la peste noire en 1348, le pillage du Prince Noir et de ses bandes en 1355 et finalement les ravages des grandes compagnies (2). Marseille entraîné par les princes de la Maison d'Anjou dans une lutte vaine contre les Arogonais connaît le même déclin (3).

Le voyage que fit au Levant en 1432 la galère de Narbonne (Notre Dame et Saint Paul), la seule que possédaient les Français, marque bien l'état lamentable de ce commerce (4). Mais à partir de cette date et avec Jacques Cœur, la France regagne son prestige parmi les autres nations commerçantes avec l'État Mamlouk, prestige qu'elle ne réussit pas à conserver. C'est notre but, dans cet article, d'esquisser le tableau de ces relations commerciales.

Narbonne était, au début du Moyen-Age une grande cité qui, étendait son activité dans toute la Méditerranée et ceci depuis la domination romaine. Montpellier et Marseille ayant échappé à la suzeraineté française, la 1<sup>re</sup> de 1204



**CONTENTS**  
**OF THE EUROPEAN SECTION**

**PAGE**

**AHMAD DARRAG :**

Les Relations Commerciales Entre L'état Mamlouk et la France ... 1

**CHRISTOPH SIEGRIST :**

Loeher im Denken Zur Struktur von R. Musils Roman «Toerless»... 23

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ;  
in May and December. All requests for copies should be  
made to the Cairo University Library Giza. Communi-  
cations regarding contributions should be addressed to the

Dean of the Faculty of Arts,

Giza, U. A. R.

---

Back numbers of this Bulletin are available  
at 80 P. T. for each Part

**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXV—PART II**

**DECEMBER 1963**

**THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS  
AND SCIENTIFIC APPLIANCES  
CAIRO UNIV. PRESS  
1963**





**BULLETIN**  
**OF**  
**THE FACULTY OF ARTS**



**VOL. XXV—PART II**

**DECEMBER 1963**

**THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS  
AND SCIENTIFIC APPLIANCES  
CAIRO UNIV PRESS**







Bibliotheca Alexandrina



0531339